جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY MUSEUM
متحف جامعة بيرزيت

مجموعة توفيق كنعان

الموارد / منشورات توفيق كنعان

المصـــدر: توفيق كنعان، **الأولياء والمزارات الإســـلامية في فلسطين**، ترجمة: نمر سرحان؛ تحرير: حمدان طه (رام الله: وزارة الثقافة الفلسطينية، 1998).

هدات طه ابو كشك
جامعة بيرزيت الرئيسية ص.ب
١٨١٥ ١٩٩٨

الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين

EP
.3
.P3
K3612
1998

تأليف

الدكتور توفيق كنعان

34489

ترجمة

د . نمر سرحان

تحرير

د . حمدان طه

E.P.Z
٩٠١٠٢٠٥٥

الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين
توفيق كنعان

منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية
بالتعاون مع
دار الناشر - فلسطين - تلفون ٢ ٩٩٨٦٣٨٧ .

جميع الحقوق محفوظة

رام الله ١٩٩٨

التصميم والتنفيذ والاشراف الفني: مؤسسة الناشر للخدمات الفنية
التوزيع في الداخل: ع. ك. أ

هذه ترجمة كتاب

Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine , Jerusalem ١٩٢٧, by Dr. Tawfiq Canaan .

المحتويات

مقدمة الناشر	٩
مقدمة المؤلف	١٩
الفصل الأول: مواقع المزارات وأنواعها	٢٣
١ـ المواقع	٢٥
أ ـ علاقتها بالأماكن المأهولة بالناس	٢٥
ب ـ الأماكن العالية	٢٧
ج ـ علاقة المزارات بالمقابر	٣٠
د ـ علاقة المزارات بالخرائب	٣٤
٢ـ عمارة المزارات	٣٥
أ ـ المبنى	٣٥
ب ـ القبر	٤٨
ج ـ الأشجار	٥٦
د ـ قنوات المياه	٦٠
هـ ـ الكهوف	٦٢
٣ ـ أنواع المزارات	٦٦
١ـ مزارات بمقام وضريح	٦٧
٢ـ مقامات بدون ضريح	٦٨
٣ـ ضريح بدون بناء	٧٠
٤ـ كهف بضريح أو بدونه	٧٣
٥ـ حويطة من الحجر	٧٧
٦ـ الينابيع والآبار	٧٩
٧ـ شجرة منعزلة	٨٥
٨ـ أكوام الحجارة ' الرجوم '	٨٨
٩ـ صخرة أو حجر كبير	٩١

الفصل الثانى : الطقوس والممارسات ١١٣
١ـ الممارسات الدينية ١١٦
أـ التلفظ بكلمات التقوى ١١٦
ب ـ الصلوات والادعيه ١١٩
ج ـ الاحترام ١٢٠
د ـ العبادة فى المزار كالمسجد ١٢٤
هـ ـ البركة ١٢٥
٢ـ وضع الممتلكات الخاصة تحت حماية الولى ١٢٧
٣ـ ربط الخرق ١٢٨
٤ـ الشفاء ١٣١
٥ـ القسم ١٤٤
٦ـ النذور ١٤٨
أـ الأشياء التى تقدم لرعاية المقام ١٥٦
١ـ تقدمات لصيانة وتجميل المقام ١٥٦
٢ـ مواد لاصلاح المقام ١٦٢
٣ـ العمل الشخصى ١٦٣
ب ـ نذور الطعام ١٦٤
١ـ الاضحيات الحيوانية ١٦٤
٢ـ القربان أو وليمة الله ١٧٧
٣ـ طعام بدون لحم ١٧٨
ج ـ تقدمات للمحتاجين باسم الولى ١٧٩
د ـ النذور الدينية ١٨٠
هـ ـ نذور ذات صلة بجسم صاحب النذر ١٨٤
و ـ نذور لا علاقة لها بمزار أو قديس ١٨٥
ز ـ نذور للجن والموتى ١٨٥
١ـ تقدمات للجن ١٨٦
٢ـ تقدمات للموتى ١٨٧
٧ـ الأحتفال بالأعياد ١٩١
٨ـ المواكب ٢١٢

الفصل الثالث : طبيعة الأولياء وشخصياتهم ٢٥١
١ـ مميزات الأولياء ٢٥٤
أ ـ المميزات الجسمانية ٢٥٤
١ـ الجنس والعمر ٢٥٤
٢ـ طريقة الحياة ٢٥٧
٣ـ طبعات الأيدي والأقدام . . الخ ٢٥٩
٤ـ الظهور على شكل حيوانات ٢٦١
ب ـ الصفات الدينية والخلقية ٢٦٥
١ـ التهييج ٢٦٥
٢ـ الظواهر الخارقة للعادة ٢٦٦
٣ـ الأولياء المتضادون ٢٦٨
٢ـ المعجزات ٢٧٢
٣ـ علاقة الأولياء بالناس ٢٧٨
أ ـ الاولياء كجيران ٢٧٩
ب ـ الاولياء كقادة ٢٨٠
ج ـ الاولياء كقضاة ٢٨٣
د ـ الاولياء كقوة إنسانية خارقة ٢٨٤
٤ـ علاقة الاولياء بالله وبالدين الشعبى ٢٨٤
أ ـ العلاقة بالله ٢٨٤
ب ـ مكانة الاولياء فى الدين الشعبى ٢٩١
٥ـ أصل الأولياء ٢٩٢
أ ـ القديسون التاريخيون ٣٠٢
١ ـ الشخصيات التوراتية ٣٠٢
٢ ـ الشخصيات القرآنية ٣٠٥
٣ ـ القديسون الذين ينتمون للتاريخ الاسلامى ٣٠٧
ب ـ أولياء وأحفادهم على قيد الحياة ٣١١
ج ـ الدراويش ٣١٧

د. توفيق كنعان وعصره

د. حمدان طه

صدر كتاب د . توفيق كنعان 'الأولياء و المزارات الاسلامية في فلسطين' سنة ١٩٢٧ عن دار نشر لوزاك في لندن . وكان قد نشر قبل ذلك كسلسلة من المقالات على صفحات مجلة جمعية الاستشراق الفلسطينية ، وهي المجلة التي شكلت منبراً للباحثين في الدراسات الفلسطينية في فترة ما بين الحربين العالميتين وتوقفت عن الصدور سنة ١٩٤٨ . وقد أعيد نشر الكتاب سنة ١٩٨٧ من قبل دار نشر أرثيل بطبعة محدودة (٧٥٠ نسخة) . وبعد نفاذ الطبعة الثانية اعيد نشر الكتاب قبل عدة سنوات عن دار النشر ذاتها .

ورغم أن التعريف بالدكتور كنعان وأعماله وعهده يقع خارج نطاق هذه المقدمة ، إلا أنه لمن الملفت للنظر بأن د . كنعان ابن بيت جالا وحي المصرارة الذي حظي بشهرة عالمية يكاد يكون مجهولاً في الثقافة الفلسطينية والعربية المعاصرة ، وهي مفارقة غير مفهومة ، وفقط منذ أوائل عقد السبعينات وبعد عشر سنوات على موته بدأت تظهر بعض ترجمات لأعماله باللغة العربية نشرت معظمها في مجلة ' التراث والمجتمع ' ، فهل كان الشعب الذي هزته الكارثة يسعي للخبز قبل الفلسفة كما يقول الشاعر الألماني بيرتولد بريشت ، أم مرده الى أن كنعان كان مقلًا في الكتابة باللغة العربية ، وأن جل أعماله منشورة باللغات الاجنبية ، خصوصا الانجليزية والألمانية؟ ولكن أيا كانت التفسيرات لحالة الاغتراب هذه فان د . كنعان واحد من كبار مفكري عصره ، وقد مثل حالة فكرية فلسطينية شق طريقها نحو العالمية ، إن هذه المفارقة تستدعي منا تقديم نبذه عن حياة هذا المفكر الكبير وأعماله والفترة التي عاش فيها ، وهي مستلة من البيوغرافيا المختصرة التي أعدتها كريمته يسمى كنعان عن حياة والدها .

ولد توفيق كنعان في بيت جالا في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كإبن لبشارة كنعان وكاترينا كنعان ، ويعتبر والده مؤسس الكنيسة اللوثرية في بيت جالا ، في وقت شهدت فيه فلسطين تنافسا ملموسا بين الكنائس المختلفة . كان توفيق الثاني من ستة أبناء ، أكبرهم ليديا ، وتستذكر ابنته يَسْمى حديث والدها عن حب جدها بشارة للبلد والناس والعادات والمعتقدات وتعلقه بالطبيعة الساحرة في منطقة بيت جالا ، مما أثر في

تكوين الطفل توفيق . التحق توفيق بمدرسة شنيلر ، وكان لموت والده المبكر ، أثره على العائلة ، فقد انتقلت المسؤولية الى اخته الكبيرة ليديا في حين كان اخوته الصغار في المدرسة . وكانوا يعانون من الفاقة ولكنهم تمكنوا من تدبر أمورهم الحياتية بصعوبة ، في هذه الأثناء انتقل توفيق للدراسة في الكلية السورية البروتستنتية ، وقد عمل بأعمال مختلفة ليتمكن من دفع مصاريف الدراسة وتوفير ثمن الكتب والاقساط الجامعية ، وعمل دونما كلل قبل ان يتخرج الشاب الدكتور من الجامعة حاملا لقب دبلوم المدرسة الامريكية والقسطنطينية .

بعد تخرجه عاد الى فلسطين ليعمل مساعداً للدكتور غروسندروف في مستشفى الدياكونية في القدس ، وفي هذه الفترة المبكرة عمل في المستشفى الانجليزي وتولى مسؤولية مستشفى شعارى تسدق لمدة ثمانية شهور ، كما عمل لمدة سنة كرئيس لدائرة الملاريا في مكتب الصحة العالمية . لقد كان لعمل الدكتور توفيق كنعان الفضل في صلته بالفلاحين والطبقات الشعبية في وقت كان الشعب فيه غارقا في الخرافات الشعبية والطب الشعبي ، فقد لاحظ التعاويذ والتمائم التي يحملها مرضاه ، كما لاحظ حالة الفقر التي يعيشونها . كل هذا أيقظ فيه اهتمامه بالفلكلور والمعتقدات الشعبية ، وكان كتابه الاول ' الخرافة والطب الشعبي في الاراضي المقدسة ' يجمع ما بين د . كنعان الطبيب والباحث الإثنوغرافي والذي أصبح عملا معياريا في هذا الحقل ، في فترة شهد البحث الإثنوغرافي في فلسطين فورة كبيرة . ورغم أن الدكتور الشاب بدأ كتاباته الاولى في مجال الطب ، والتي نشر بعضاً منها في دوريات عربية كالمقتطف إلا أنه بدأ يتحول تدريجيا إلى باحث اثنوغرافي ، ما لبث أن حاز على شهرة عالمية .

أثناء الحرب العالمية الأولى عمل كنعان في القسم الطبي في الجيش التركي الألماني ، كما عمل رئيسا للمختبرات في بير السبع وعوجا الحفير وبيت حانون والقدس ونابلس ودمشق وحلب ، وعمل في مجال الطب لمدة شهرين مع الجيش البريطاني . وفي سنة ١٩١٢ تزوج من الألمانية مارغوت ايلندر ، وفي سنة ١٩١٣ انتقلوا للعيش في بيتهم في حي المصرارة .

نشر الدكتور توفيق كنعان في حياته المديدة ما لا يقل عن ١٣٠ مؤلفا ما بين كتاب ودراسة ومقالة ومراجعات للكتب .

يمكن تقسيم اعمال د . كنعان الى الاقسام التالية :

أولاً : المؤلفات وتقسم بدورها الى قسمين

١ـ المؤلفات في حقل الطب

٢ـ المؤلفات الفلكلورية

ثانيا : مراجعات الكتب

ثالثا : مراجعات لاعمال د . كنعان

رابعا : الاعمال المترجمة للغة العربية

تشكل فترة ما بين الحربين العالميتين أكثر فترات حياته عطاءاً ، وفي هذه الفترة نشر كتابه هذا بالاضافة الى مجموعة من الدراسات أهمها ' البيت العربي الفلسطيني : عمارته وفلكلوره' و ' معتقدات الجن في الأراضي المقدسة' . بالاضافة الى سلسلة طويلة من الدراسات نشرت في العديد من الدوريات المتخصصة ، شملت مختلف جوانب حياة الانسان الفلسطيني ، كالطفولة والولادة والمرأه والتعاويذ والزراعة والنباتات والتقويم عند الفلاح الفلسطيني ، كما كتب في هذه الفترة عن فولكلور البترا وعرب العزازمة وبدو الصقر والإحتفالات الشعبية والإيمان بالله واللعنات والتعاويذ ومظاهر المعتقدات الغيبية والطب الشعبي والجن والعادات والمعتقدات المتصلة بالحياة اليومية والموت . وفي هذه الفترة الزاهرة بالانتاج ، عمل د . كنعان عضوا في جمعية الاستشراق الفلسطينية ، وسكرتيراً لها لعدة سنوات ، وكتب فيها بإنتظام ، وقد أسس الجمعية الطبية الفلسطينية ، وقام بتحرير منشوراتها لعدة سنوات ، وكان عضوا في جمعية الشبان المسيحية ورئيسا لها ثلاث مرات ، وكان عضواً في العديد من الجمعيات الأثرية ، ومهتما بالحفريات الاثرية .

وأصبح بيته موئلا لطلاب علم الاثار واللاهوت ، وجمعته علاقة صداقة مع كبار باحثي عصره أمثال د . ستاركي وألبرايت وجليك والسيدة كنيون ، والبروفيسور آلت ونوت وآخرين . وفي الثلاثينات وضع كتابا سياسيا بعنوان : ' الصراع في أرض السلام'

وذلك حين بدأت سماء فلسطين الصافية تتلبد بالغيوم السوداء ، وذلك قبل أن تكتمل حلقات المشروع الصهيوني على أرض فلسطين .

وأثناء حرب عام ١٩٤٨ تلقى بيت د . كنعان إصابة مباشرة ، وتعين على الجميع الانتقال الى البلدة القديمة حيث عاش لمدة سنتين ونصف ، وقد تحول بيته الصغير الى عيادة طبية وشارك في معالجة الجرحى ، وحين تأسس مستشفى الاوغستا فكتوريا 'المطلع' على جبل الزيتون عين د . كنعان المدير الطبي الأول للمستشفى ؛ وبعد التقسيم فقد د . كنعان أملاكه وبيته وممتلكاته ، وتصف ابنته بأن اقسى ما عاناه هو نهب مكتبته ، بما في ذلك مخطوطات ثلاث كتب كان يعكف على اعدادها . وبعد الحرب أستمر د . كنعان في الكتابة وإعطاء المحاضرات ، وحين تقاعد من عمله في مستشفى المطلع عاش بقية حياته في بيت البستاني في ساحة المستشفى ، وفي عام ١٩٥٤ فقد ولده الوحيد خلال حادث مأساوي اثناء أعمال ترميم قوس روماني في جرش ، حيث عمل كمستشار هندسي لعلماء الاثار في الموقع ، ولم يشف هو وزوجته من هذه الخسارة ابدا . وتوفي توفيق كنعان في ١٥ كانون ثاني سنة ١٩٦٤ عن عمر يناهز ٨٢ عاما في مستشفى الاوغستا فكتوريا في القدس .

لقد أرسى د . كنعان مع معاصرية د . جوستاف دالمان في عمله ' العمل والعادات في فلسطين' ود . هيلما جرانكفيست ' في ثلاثيتها' عن الطفولة والزواج والموت في حياة الإنسان الفلسطيني في ارطاس أسس البحث الاثنوغرافي الحديث في فلسطين . وقد شهدت فلسطين منذ أواخر القرن الماضي إهتماما غير مسبوق بالبحث في آثارها وتاريخها وجغرافيتها التاريخية وعادات سكانها وفلكلورها ، وقد كان هذا الاهتمام مدفوعا بدوافع توراتية ، ولأغراض التوضيحات التوراتية ، وفي بداية هذا القرن تداعى العديد من الباحثين لدراسة الحضارة الحية في فلسطين والتي أخذت طريقها للتلاشي بسبب التحولات الإقتصادية الاجتماعية العميقة الجارية ، ولبى د . كنعان ابن فلسطين هذه الدعوة وإنخرط بحماس فائق في جمع التراث الشفوي المهدد بالإنقراض ، وكأنما يتملكه هاجس بالكارثة التي حلت على الشعب الفلسطيني وعصفت بكيانه الاجتماعي ، كان د . كنعان أقرب الى روح شعبه ، وفهم الناس حوله ، وأمتازت أبحاثه بصرامة الباحث المتعمق وتواضع العالم الأصيل ، فلم يتوقف عند حدود الظواهر العابرة ، بل حاول الوصول الى القوى الخفية الدافعة لها ، وهذا ما يميزه عن باقي المستشرقين الذين درسوا الظواهر نفسها ، وتوصلوا أحيانا الى إستنتاجات

سطحية . فقد عرف حدود علمه ولم يتخطاه ، خصوصا في تعامله مع نتائج الأبحاث الاثرية . ويعتبر كتابه 'الأولياء والمقامات الأسلامية في فلسطين' مثالا على ذلك .

يقدم كتاب الأولياء والمقامات الاسلامية في فلسطين مسحا شاملاً للموضوع ، فقد عالج هذه الظواهر من جميع جوانبها ، ويعتبر حتى الآن أكمل دراسة صدرت حول الموضوع ، فإلى جانب بحثه الميداني قام د . كنعان بالبحث الاثري والتاريخي واللغوي والديني . وما زال هذا الكتاب مرجعاً معياريا للدراسة حول هذا الموضوع . وعكس هذا العمل من نواحي عدة مستوى معارف كنعان في عصره ، وتمتاز هذه الدراسة بأنها كتبت في وقت كان فيه المجتمع الفلسطيني سالما متكاملا على أرضه ، وأمتد فضاؤها ليشمل فلسطين كلها .

يتكون الكتاب في طبعته الأولى من ٣٣٠ صفحة ويضم بين دفتيه مقدمة وثلاث فصول رئيسية ، مقسمة الى واحد وثمانين قسما ، وما يزيد عن الف هامش وكشاف بالموضوعات . الفصل الاول بعنوان أماكن المزارات وأنواعها ، يتحدث فيه عن أماكن المزارات وفي القسم الثاني عن بناء المزارات وفي القسم الثالث عن أنواعها . والفصل الثاني حول الطقوس والعادات ، وهو مقسم الى ثمانية أقسام ، أما الفصل الثالث فحول طبيعة وشخصية الأولياء ، يضم خمسة أقسام رئيسية ، وعدد من العناوين الفرعية .

إن كتاب ' الأولياء والمقامات الاسلامية' هو صورة لعالم مفعم بالحياة يختلط فيه الواقع بالاسطورة ، وهو عالم ما قبل التحولات اللاارادية والقسرية التي أصابت المجتمع الفلسطيني وقطعت أوصاله وسلخت الانسان عن المكان في أكثر عمليات التاريخ فظاظة ووحشية . فالعالم المسكون بالخيالات والأساطير ، هو تعبير ذاتي لواقع حياة الفلاح الفلسطيني القاسية على مدار الآف السنين ، والتي كانت تحت رحمة الطبيعة ، فقد أعتمد الفلاح ليس على جهده في الأرض فقط ولكن أيضا على المطر وجودة الموسم والخصوبة . . الخ . وكان الجفاف وشح المطر والسيول والفيضانات والأوبئة والامراض والكوارث الطبيعية ، والفقر والظلم واستبداد الحكام وغياب الامن هاجسه الدائم ، وهي عناصر لم تكن تحت سيطرته المادية تماما ، ومع بداية التحولات الرأسمالية في فلسطين ومكننة الزراعة ، التي وأكبها التعليم والآلة والكهرباء بدأ المجتمع الفلاحي الفلسطيني في التحلل التدريجي ، ومع إضمحلال المجتمع الفلاحي وتفسخه بدأت تتبدد أيضا المعتقدات وأشكال الوعي الاسطوري التي واكبته

على مدار الاف السنين ، ليحل محلها وعي جديد ، ينطلق من الادراك العلمي والموضوعي للظواهر .

وإذا ما وضعنا هذه المعتقدات في سياقها التاريخي فهي تمثل سعي الانسان الفلسطيني الدائب للوصول الى فهم شمولي للكون والمحيط والمجتمع ، وهذا ما يميز العقل الكلي الذي يختلف عن العلم الذي يسعى الى تفسير جزئي للظواهر ، وإذا ما كانت الأسطورة كما ينظر اليها عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية كلود ليفي - شتراوس لا تمنح الإنسان السيطرة المادية على الكون كما يفعل العلم ، فإنها تمنحه قطعا الاحساس بالقدرة على فهم الكون ومن ثم الوهم بالسيطرة عليه . وذلك من خلال إيجاد علاقة توازن مع العالم المحيط ، وبهذا يفسر المتناقضات ويحل الألغاز ويشفي المرضى ، من أي شكل من أشكال السببية الوهمية . ان الصورة التي رسمها كنعان هي صورة لمجتمع نابض بالحركة ، لا مجتمعا راكدا ترك في غفلة من الزمان كما وصفه بعض المستشرقين في اواخر القرن الماضي . انه كيان انساني اسبغ قيمة الانسانية على الطبيعة والاشياء التي تفكر وتتكلم وتنطق ، يحيكها صراع سرمدي بين الخير والشر وبين الحق والباطل . يلعب فيه الرمز دورا حاسما ، كتجريد لا ادراكي لكُنْه الصراعات التي يخوضها الانسان في حياته ومعاشه .

عالج د . كنعان ظاهرة الدين الشعبي من خلال الممارسات والطقوس المرتبطة به ، والتي تمثل شكلا من أشكال استمرارية المعتقدات القديمة التي تعود بجذورها الى عصور غابرة ، وتكيفت مع الزمن مع الدين الرسمي /وكان منهجه التحليلي أنثروبولوجي محض ، ورغم الإشارات المباشرة في مقدمة كتابه ، إلا أن جهده لم يتعدّ جمع المادة الغنية التي وضعها في إطار تحليلي ، وبقيت في الوقت نفسه ، مادة قابلة للتقييم المستقل . وكان د . كنعان قد أوضح في أكثر من موقع جوهر هذه المعالجة ، وتمسك بناصية منهجة هذا حتى النهاية ، وهو لم يدرس ظاهرة الدين الشعبي من الزاوية الدينية الفقهية الصرفة ، إنطلاقا من هذا المنهج فلم يخض في نقاش 'صحة' هذه الممارسات أو 'عدم صحتها' من منظور ايماني ، باعتبار ان هذا الامر علم آخر يقع خارج المنظور البحثي للدراسة . وهذا ما يجعل من هذه الدراسة مساهمة أساسية في دراسة تاريخ الاديان وعلم الاديان المقارن .

قام كنعان في كتابة بتصحيح الكثير من المفاهيم حول المواضيع التي تناولها سلفه ومعاصروه من الباحثين أمثال جوسين وبول كالة وكورتس ، وسنجد العديد من الأمثلة على صفحات هذا الكتاب . ويعود هذا جزئياً الى الطاقة اللغوية الفريدة ، حيث كتب أبحاثه باللغتين الانجليزية والألمانية ، اضافة الى العربية وهي لغته الام . لقد منح هذا أفضلية للدكتور كنعان ، وذلك بسبب أن مصادر معلوماته مستقاة من الفلاحين الذين يتكلمون اللغة العربية الفلسطينية الدارجة .

وربما يستوقف بعض القراء محاولة د . كنعان الدؤوبة الربط بين بعض جوانب العادات الحالية ومصادر العهد القديم ، وهو ربط لا غبار عليه ، فقد انتمى د . كنعان الى الفهم التراكمي للتاريخ الحضاري لفلسطين غير المدنس بالمفاهيم التي حاولت فصم التاريخ الحالي عن عُراه القديمة . إن رد بعض الظواهر الى أصولها القديمة من خلال التماثلات والمقارنات التي اشتقها الدكتور كنعان من العهد القديم في التوراة أو مصادر التاريخ المسيحي والاسلامي بما هو الا أشارة بالغة التعبير عن استمرارية التقاليد الحضارية منذ العهود القديمة وحتى الوقت الحاضر ، بما يجعل من هذه المعتقدات برمتها جزءا من الذاكرة التاريخية للشعب الفلسطيني . إن هذه الرؤية تنسجم مع الرؤية التجديدية للتاريخ الحضاري لفلسطين القائمة على الفهم التراكمي للتاريخ الحضاري دونما تحيز وبعيدا عن الإنتقائية التي ميزت الفهم الصهيوني للتاريخ اليهودي .

أما إستخدام بعض المصطلحات والأسماء التوراتية فتمثل جزءاً من منهجية البحث السائدة في زمنه ، حيث طغى في حينها المنهج التوراتي في البحث الاثري والتاريخي في فلسطين . وقد مثل هذا المنهج الذي عُرف لاحقا بالمدسة التوراتية إتجاها رجعيا نشأ في مناخ عقد الثلاثينات المحافظ في أمريكا ، وقاده عالم الاثار الأميركي وليم البرايت وأرنست رايت وترك آثاره الدامغة على البحث الاثري والتاريخي في فلسطين الى يومنا هذا ، وشكل البحث عن أرض التوراة محور عمل هذا الإتجاه ، ولا يخفي بأن هذا البحث المدفوع بدوافع أيديولوجية قد قدم الذخيرة الايديولوجية للمشاريع الاستيطانية على أرض فلسطين . رغم ان المشكلة لا تكمن في الدلائل الاثرية بحد ذاتها وانما في تفسير هذه الدلائل المعرض للاهواء . وتأتي دراسة د . كنعان الباحث المتجرد من الاهواء الايديولوجية لتبرهن على إستمرارية المعتقدات والتقاليد الحضارية على أرض فلسطين المتجسدة بحضارة الشعب الفلسطيني على أرضه .

إن الصورة الحية للمعتقدات التي تعرض لها كنعان في وصفه للمقامات والطقوس والعادات والمعتقدات المتصلة بها لم تعد قائمة اليوم بعد أكثر من ستة عقود ، فالتغيرات المفصلية التي طرأت على المجتمع الفلسطيني في العقود الأخيرة ، بما في ذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية الجذرية قد خلقت واقعا مغايراً للصورة التي رسمها د . كنعان ، فالكثير من المقامات التي شكلت محور إعتقاد الناس في هذه الفترة أُزيلت عن الوجود وذلك مع تدمير أربعمئة وخمسين قرية فلسطينية في الفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٢ ، وهي القرى التي سويت بالأرض ، ليس فقط ببيوتها وأماكن العبادة فيها ومُكوناتها المادية الاخرى ولكن أيضا بجزء من تاريخها وذكرياتها وسلخ سكانها عنها الذين تعرضوا للطرد والتشريد ، كما إندثرت بعض المقامات أو أصابها الهجر والإهمال بسبب التحولات في المفاهيم ، وتقلص عدد الزوار في الكثير من الأماكن ، واختفت الطقوس والمواسم التي واكبتها ، هذا رغم الانبعاث الارادي في الاونة الاخيرة لبعض مظاهر هذه المعتقدات كما في موسم النبي موسى وموسم النبي صالح . وتعيش بعض المقامات حالة مزرية من الاهمال . وقد تعرض بعضها في الفترة الاخيرة لمظاهر التعدي ، اذ جرى نبش المقامات من قبل لصوص الاثار بحثا عن الذهب ، كما ازيلت بعض المقامات للبناء فوقها وتحول البعض الذي جسد تكريم الأولياء والقديسين الى أماكن للتعصب الديني الأصولي اليهودي كما في حالة مقام يوسف في نابلس والنبي صمويل ومقامات الانبياء في الخليل وقبر راحيل في بيت لحم .

وقد صدرت في الآونة الأخيرة بعض الدراسات حول المقامات أهمها دراسة الدكتور شكري عراف بعنوان ' طبقات الأنبياء والاولياء الصالحين في الأرض المقدسة' الصادرة في جزئين سنة ١٩٩٣ . كما صدر عدد خاص بالأولياء عن دار نشر أرئيل عدد ١١٧-١١٨ سنة ١٩٩٦ ، ورسائل ماجستير عن المقامات في منطقة رام الله لطلاب معهد الاثار الاسلامية ، ورسالة اخرى عن مقام النبي موسى . كما قامت دائرة الاثار الفلسطينية سنة ١٩٩٧ بأعمال توثيق وترميم لعدد من المقامات ، أهمها مقام القطرواني بين عطارة وبيرزيت ، ومقام الشيخ النوباني في مزارع النوباني ، ومقام الشيخ مجاهد في البيره ، ومقام الشيخ يوسف بين البيره وبيرزيت ، ومقام ومسجد الشيخ أحمد البرهامي في قرية برهام .

بادر الدكتور نمر سرحان بوضع الترجمة الأساسية لهذا الكتاب قبل عدة سنوات ، وقد قمت بتحرير الترجمة وتبويب الكتاب وضبط الفهارس ، وقامت الآنسه ريتا يونس بالطباعة الاولية للمخطوط . واليوم اذ نضع الترجمة العربية بين يدي القارئ العربي بعد مرور إحدى وسبعين سنة على صدوره الأول باللغة الانجليزية ، فإنما يأتي ذلك انطلاقا من الادراك لأهمية هذا الجهد العلمي ولتمكين طائفة اوسع من الباحثين من التعرف على والاستفادة من هذا الجهد العظيم الذي حفظ ذاكرة المكان . ولا يسعني في هذا المقام الا ان أتقدم بالشكر الجزيل لوزارة الثقافة على تبنيها هذا العمل ، والتي لولا جهدها لانتظر هذا العمل سنوات اخرى طويلة .

المقدمة

تختفي الملامح البدائية في فلسطين بتسارع كبير إلى الحد الذي لن يمضي فيه وقت طويل حتى يطويها النسيان ، ولهذا أصبح من واجب كل دارس لفلسطين والشرق الأدنى في حقول علم الآثار والدراسات التوراتية أن يشمر عن ذراعيه من أجل جمع شامل ودقيق لكافة المواد المتوفرة حول الفولكلور والعادات والمعتقدات الشعبية الدارجة في الأراضي المقدسة .

ان هذه المواد كما نعلم ذات أهمية عظيمة في دراسة الحضارات الشرقية القديمة والدين البدائي ، وقد شعرت كأبن لهذا البلد ، بواجب خاص للمساعدة في هذا العمل العلمي ، وبما أنني لا اعتبر نفسي عالم آثار متمرس ، فإنني لا أحبو أكثر من تحرير المادة الأولية التي قمت بجمعها ، ملقياً مهمة المقارنة مع معطيات أخرى للباحث المختص في علم الآثار والتوراة .

ان التغيير في شروط الحياة المحلية يعود للتأثيرات العميقة التي مارسها الغرب على الشرق ، وتعزى إلى إدخال أساليب التعليم الأوروبية والهجرة الأوروبية إلى فلسطين ، وهجرة الفلسطينيين إلى أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص ، بالإضافة إلى سلطة الانتداب ، ان جو البساطة والخشونة الأبوي الفلسطيني النقي في طريقه إلى التلاشي لتحل محله أنماط الحياة الأوروبية الأكثر تعقيداً والأقل تلقائية .

يقودنا موضوع البحث إلى أكثر الأماكن الدينية قداسةً وغموضاً . وليس من السهولة بمكان تفحص مبنى المزار والأغراض الموجودة فيه . ولكن ما زال متيسراً كسب ود الفلاح ، ليتحدث على سجيته وبالتفصيل حول معتقداته وممارساته الدينية ، وحول طبيعة الأولياء وصفاتهم وهي معلومات ذات أهمية علمية كبيرة ، ولم يتأتَ لي دائماً الوقوف على جذر كثير من المعتقدات .

إن هذا التغيير في الظروف المحلية يمكن أن يُعزى للتأثيرات الكبرى التي يمارسها الغرب على الشرق ، بإدخال الوسائل الأوروبية في التعليم ، وهجرة الأوروبيين إلى فلسطين .

يعتمد هذا العمل على دراسة ٢٣٥ مزاراً ، قمت بفحصها شخصياً ، و٣٤٨ مزاراً آخر توفرت عنها مادة دقيقة ، مثل : المشاركة في الاحتفالات الإسلامية والأذكار والموالد ، والاحتفالات الأخرى ، وعدد كبير من الحكايات عن الأولياء ، ومجموعات كبيرة من الأشعار التي يغنيها الناس تكريماً للأولياء ، ومجموعة هائلة من التعاويذ . وقد ساعدني أيضاً مخزوني الهائل من الأمثال والمصطلحات الفلسطينية في توضيح بعض العادات والممارسات المتصلة بالقديسين والمزارات .

إن كل خرافة قد تساعد في توضيح أو مقارنة المادة التي تم اقتباسها وتحليلها . وإن الموضوع ضخم ومعقد ؛ إلى حد أنني لا أستطيع الادعاء بأنني جمعت أكثر من حفنة حب من أصل كومة القمح الكبيرة . وأنا آمل أن تلقي المادة غير المستكشفة الاهتمام والتحليل .

ولقد أفدت ، بقدر الإمكان ، من الأدب العربي الذي يمس الموضوع ، وخاصة أن جزءاً ضئيلاً منه قد وظف لأغراض المقارنة . إن التشابه بين الأدب العربي وفولكلور فلسطين يظهر أن هذا القطر ليس غريباً ، بل مألوفاً للعالم العربي . ومن الأدب الأوروبي أفدت من الأعمال ذات الصلة المباشرة بفلسطين .

إن دراسة القديسين والمزارات ، تقود القارئ إلى الاتصال المباشر مع الحياة اليومية والعادات لسكان فلسطين ، مما يساعد على توضيح ما كان غامضاً في المعتقد الشعبي والخرافة . كما أنه يوفر الإطلاع على مساحات غامضة من الاحتفالات المحلية ويلقي الضوء على المناطق المعتمة في الذهن الشعبي . والأهم من ذلك أنها توفر إمكانية للمقارنة مع عادات وطقوس الأزمان البدائية . ومن الملاحظ ، والملفت للانتباه كيف أن الكثير من الأفكار قد ظلت على حالها ، لا تتغير ، منذ الآف السنين ، وأن دراسة الكثير من العادات الدارجة الآن ، من الممكن أن تكشف عن التفسير الممكن لما غمض تفسيره من الممارسات الدينية في العصور الغابرة .

إن الأفكار المختلفة التي أصفها في الصفحات القادمة مألوفة لكل من المسلمين والمسيحيين بين فلاحي فلسطين ، حيث تبدو الاحتفالات ، كما يراها الناس ، سطحية .

وفي هذه المناسبة أتقدم بالشكر للدكتور وليم البرايت مدير المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية على نصائحه الثمينة والتشجيع الدائم و د . هـ . ديبيني في مساعدته على إخراج هذا الكتاب .

القدس ١٥ أيار ١٩٢٧

توفيق كنعان

الفصل الأول

مواقع المزارات وأنواعها

١- المواقع:

إن المسافر عبر فلسطين ، ليشعر بالصدمة إزاء عري المناطق الجبلية ، ويمكن له أن يصادف هنا وهناك بعض الحدائق والبساتين والكروم عموماً ، وهي مصطفة في محيط القرية . وخلال الربيع والجزء الأول من الصيف ، فأن قطعاً من الأراضي تزرع بالحبوب . ونجد ، هنا وهناك ، على الجبال الجرداء ، أو في السهول ، شجرة كبيرة منعزلة أو مجموعة أشجار مبعثرة ، تعطي جمالاً خاصاً للمنطقة ، وتضفي على المنظر مشهداً حيويا رائعاً . إن هذه الأشجار مظلة المسافر المحببة . فهي تحميه من أشعة الشمس الحارقة ، وتعتبر مقدسة عند المسلمين لأنها تدل على وجود نبي ، ولي ، أو شيخ . وكانت قداسة هذه الأشجار التفسير الوحيد للنجاة من التخريب الذي آلت إليه غابات فلسطين . إنه لمن دواعي الأسف بأنه لا توجد لدينا أعداد كبيرة من الأشجار المقدسة تخلد ذكرى أشخاص مقدسين ، ولو وجدت لكانت فلسطين أكثر خضرة ، ومن ثم أكثر خصباً وجمالاً . ولو أن مثل تلك الأشجار ، ومعظمها شاهد على قرون خلت من الحياة ، تستطيع أن تروي ما خبرته ، فأننا سنعرف الكثير عن تاريخ وفولكلور البلاد . وسوف أقوم بتحليل طبيعة المزارات الإسلامية في فلسطين ، والتي تمثل الأشجار مظهراً واحداً منها ، كما أنني آمل في توضيح بعض المشكلات الدينية .

ولا اعني بالمزارات ، فقط ، تلك الأماكن التي دفن فيها ولي أو نبي معروف ، ولكنني اعني كل مكان وضريح ، وشجرة ، وشجيرة ، وكهف ، وينبوع ، وبئر ، و صخرة أو حجر يتمتع باحترام ديني ، حتى لو كان ذلك الإحترام مبنياً على الخرافة وعلاقتها بالأماكن المأهولة بالناس .

أ- علاقتها بالأماكن المأهولة بالناس:

المواقع المقدسة في فلسطين لا تحصى . ففي كل القرى تقريباً ، على الجبال وفي الوديان ، وفي الحقول ، نرى تلك المواقع . وبالكاد تكون هناك قريه ، مهما صغرت ، لا تكرم قديساً واحداً على الأقل . وبصورة عامه فإن كل مكان مأهول يفاخر بأن لديه الكثير ؛ وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، فإن عورتا تمتلك أربعة عشر مزاراً ، أحد عشر منها في القرية نفسها ، وثلاثة في الخارج ، على مسافة قريبة منها . وفي عناتا هناك سبعة مواقع(١) (واحد منها غير مقبول لدى جميع السكان(٢)) ، وفي أريحا ستة ،

وعلى جبل الزيتون ستة(٣) ، وفي كولونيا خمسة . ويكرم هؤلاء القديسون المحليون أو يتم احترامهم ، ليس فقط من قبل سكان القرية التي ينتسبون اليها ، بل نجد أن شهرتهم تنتشر في كثير من الأحوال ، ويجري حج فردي وجماعي تقديراً لهم . إن بعض هذه المواقع تكون داخل القرية أو بالقرب منها . وفي مثل هذه الحالة ، فإن أحد تلك المواقع يُستغل كمسجد يصلي فيه الناس(٤) . ولكن غالبية تلك المواقع تقع خارج القرية ، وبعضها يقع على مسافة معقولة خارج المساحة التي تشغلها المدينة أو القرية . ونجد أحياناً عدداً كبيراً من الأماكن المقدسة ، في الحقول ، بعيداً عن الأماكن المأهولة . وبما أن كل قرية تمتلك أرضاً تمتد أميالاً بعيدة عن أبنية القرية ، فإن كل مكان مقدس في تلك الأرض يعتبر ملكاً للقرية ، ويكرم من جانب سكانها بشكل رئيسي . وهناك استثناءات لهذه القاعدة ، فالشيخ السدري ، في أرض عناتا ، يكرم غالباً من جانب أشباه البدو ، الذين يعيشون إلى الشرق من القرية .

وفيما يلي تحليل لمواقع الأماكن المقدسة في بعض قرى القدس .

اسم القرية	عدد المواقع المقدسة	داخل القرية	خارجها
عناتا	٧	٣	٤
العيسوية	٣	١	٢
كولونيا	٥	١	٤
عورتا	١٤	١١	٣

وفي بعض القرى نجد الأولياء ضمن المناطق المأهولة ، أو في محيطها ، كما هو الحال في بيت حنينا وصور باهر وشعفاط ، ولكل منها أربعة أولياء .

ب- الأماكن العالية:

تقع المواقع المقدسة ، بشكل رئيسي ، في أماكن مرتفعة ، على قمة جبل أو تل أو رابيه في السهل ، وبصورة تجعلها تسيطر على المنطقة المجاورة . وحتى تلك المزارات التي تبنى على منحدر جبل أو بالقرب من مجرى الوادي ، فإنها تبنى بحيث تسيطر وتشرف على المنطقة المحيطة بها ، وبحيث تُرى من مكان بعيد . وبالمقارنة فإننا نجد القليل من ' الأولياء' ممن شيدت مزاراتهم في الوديان . وعندما يوجد مثل ذلك البناء يكون عند ملتقى واديين ، أو في مكان يوسع الوادي فيه مجراه ، ليصبح بالإمكان رؤية المقام من مسافة بعيدة من اتجاهات مختلفة . وهناك العديد من المواقع المقدسة التي لا ترى ، بالرغم من أنها تتمركز على مرتفع من الأرض ، فإنها بسبب طبيعة الولي ، الذي لا يوجد له بناء أو شجرة . ويصدق هذا على المزارات الواقعة قرب الكهوف والحويطات والينابيع والآبار والصخور ، وأكوام الحجارة . ومن بين المزارات في قمم الجبال :

النبي صموئيل والشيخ القطرواني بين بيرزيت وعطاره ، والشيخ أحمد الكركي الطيار في القسطل ، وأبو هريرة في وادي الشريعة ، والعُزير قرب عورتا ، والشيخ العُمري الجبيعي قرب بيت عنان ، والمسْعد في جبل الزيتون .

إن مقام الشيخ العمري الجبيعي مبني على قمة جبل مرتفع . والمشهد من تلك النقطة باتجاه الغرب رائع ، ومن السهل أن نرى من هناك سهول الرملة واللد ويافا ، والبحر أيضاً ، خصوصاً حين يكون الطقس صافياً . وتوجد خرائب حول المقام(٥) والعديد من الكهوف الطبيعية . ولا يوجد قبر في المقام ، ولا يظهر في الغرفة غير المحراب . وقد ذوتْ شجرتا الخروب الكبيرتين بسبب الشتاء القارس عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ . وكل شخص يلجأ إلى هذا الولي يحصل على الحماية المطلقة . ولا اعني بعبارة المنطقة المرتفعة أعلى قمة الجبل فقط ، بل كل بقعة عالية ، وتسيطر إلى حد ما على المنطقة المحيطة بها ، مثل :

الشيخ عبد السلام- عناتا ؛ سلمان الفارسي ـ جبل الزيتون ؛ النبي لقيا ـ بيت لقيا ؛ شيوخ الدواعره ـ صور باهر ؛ النبي موسى ـ قرب أريحا ؛ النبي يوسف ـ بيت اجزا ؛ الشيخ ياسين ـ دير ياسين ؛ الشيخ احمد ـ خربة سعيدة ؛ الشيخ عُمرْ ـ بيت دقو .

إن هذه السمة الخصوصية أمر مميز ، ليس فقط بالنسبة للمزارات الإسلامية في فلسطين ، بل أيضاً للمزارات في أماكن أخرى من العالم الإسلامي . إن مقولة باتون في هذه النقطة ـ على الرغم من أنها ليست صحيحة بالكامل ـ هي أكثر دقة من مقولة ماكاون . يقول الكاتب الأول(٦) : ' إن غالبية ما يزعم بأنه قبور قديسين في فلسطين الحديثة المعاصرة يحتل قمم الجبال العالية' . وان مقولة ماكاون(٧) في هذا الصدد عسيرة على الفهم ، وسأعود لاحقاً لنقاش فكرته القائلة ' أن هناك عدداً معقولاً من المقامات موجودة على قمم التلال ، لأن القرى والمدن التي تتبعها تلك المقامات ، أختارت تلك المواقع وليس لأن التلة مقدسة' . وعند المراجعة المنهجية لقرى القدس التي زرتها لذلك الغرض ، وملاحظة موقع المقام بدقة ، وجدت أنه في ٢٦ قرية احتل ٧٠٪ من المقامات قمة الجبل ، واحتل ٢٤٪ منها منحدر الجبل فيما تحت القمة ، وفي ٥٠٪ فقط كانت في واد أو في سهل . ومن هذه المقامات كان ٤٥٪ من نوع المقام المبني و ١٨٪ قبوراً ، ٣٧٪ ينابيع مقدسة ، أشجاراً ، حويطات ، وكهوفاً . وبكلمات أخرى فإن ٥٢٪ (٤٥٪ منها مقامات مبنية ، و٧٪ أشجار مقدسة) يمكن رؤيتها بسهولة بينما طبيعة البقية (٤٨٪) لا تسمح برؤيتها عن بعد .

كما أنني لا اتفق مع مقولة ماكاون حول القدس . وقد كتب : ' هناك عدد هائل من المزارات ، والعديد منها ينتمي لمدينة ذات حجم معقول ، ولا يمكن رؤيتها بسهولة ، لأنها ليست على قمم الجبال ، كما هو الحال في القدس' . ويبدو انه لم يراع الاعتبارات المهمة التالية ، والتي تجعل معظم مزارات القدس غير مرئية :

١- إن المزارات المبنية لمعظم الأولياء داخل المدينة ذات بناء منخفض ، وعلى أسطحها بنيت البيوت ، مثل : بسيرم شاويش والشيخ ريحان و الشيخ حسن القيرمي .

٢- ان ازدحام البيوت في وسط المدينة يخفي المزارات التي لم يبْن فوقها .

٣- ان معظم المواقع المقدسة في منطقة الحرم ، تقع داخل جدران المسجد الأقصى ومسجد عمر ، ومن الطبيعي الا ترى .

ومن ناحية أخرى فإن القسم الأكبر من المزارات الواقعة خارج أسوار المدينة ، يمكن رؤيتها بسهولة ، مثل : الشيخ أحمد الثوري وسعد وسْعيدْ و الشيخ جراحْ والشيخ عكاشة . . الخ .

ان اختيار مثل تلك المواقع ليس بالعادة الجديدة ، فنحن نقرأ أن سكان الشرق القديم اعتادوا أن يختاروا مثل هذه المواقع لإقامة معابدهم وعبادة آلهتهم . نقرأ في حزقيال ' ٦ / ٢' هكذا قال الإله للجبال والتلال والوديان والنهيرات : انظروني كيف آتي بسيف السلطة عليك وأدمر ارتفاعاتك' . ومن الطريف أن نرى كيف أن هذه الأشعار(٨) تشير للجبال والوديان والنهيرات والأشجار الخضراء . بكلمات أخرى : الأماكن العالية ، متصلة بالماء والأشجار ، وهي مظاهر ما زالت تميز المزارات الحالية .

لقد لعبت الجبال والتلال دائماً دوراً كبيراً في الديانة الإنسانية(٩) ، ومن المهم أن نلاحظ بأن كل الأعمال المقدسة ، كانت تؤدى ، بصورة تقليدية ، على الجبال ، مثل ارارات وسفينة نوح وموريا وتضحية إبراهيم ، وسيناء والشريعة ، وجرزيم وعيبال ، جبلي البركات واللعنات . والشيء نفسه بالنسبة للمسيح ، فعلى الجبل تعرض للإغراء ، وتحولت شخصيته ووعظ ، وصلى ، وصُلب ، ومن الجبل صعد إلى السماء . وفضل الأنبياء والملوك تلك المواقع الشاهقة للقيام بأعمالهم الهامة . لقد تسلم إيليا كلمة الرب على جبل حورب(١٠) .

وكانت مدارس الأنبياء على التلال والجبال(١١) . وعلى جبل الكرمل كسب إيليا النصر ضد كهنة بعْل الذين كانوا يعبدون أوثانهم على الجبل(١٢) . ومات موسى على جبل نبو ، ومن هناك رأى أرض الميعاد . ومات هارون على قمة جبل حور ، وعلى هذا الجبل تم تنصيب اليعازر ، كخلف لوالده . ولا أريد أن أضاعف هذه الحالات ، التي توضح حقيقة أن تلك الجبال ، كانت في الأزمان الغابرة مقدسة لدرجة ما(١٣) . إن هذه الفكرة قد وصلت إلى الإسرائيليين من أسلافهم (الكنعانين ـ المحرر) ، ومن خلالهم انتقلت إلى الأجيال اللاحقة .

إن المسافر عبر فلسطين ليُدهش من كثرة قمم الجبال التي تكللها مزارات الأولياء . والأكثر من ذلك ، هو عدد القمم التي فيها مواقع مقدسة يصعب تمييزها من مسافة ما . ألا يدل ذلك على أن السكان الحاليين ما زالوا يؤمنون بقداسة الجبال ؟ . إن ماكاون يقلل من أهمية هذا الافتراض ، وأما ' كيرتس'(١٤) و' باتون' فيشددان على أهمية

ذلك ، فأي وجهتي النظر أصح؟ إن الكثير من الأفكار البدائية قد أستمرت في البقاء دون نقاش عبر آلاف السنين ، ولا يزال من الممكن تتبعها حتى الوقت الحاضر ، بصورة أو بأخرى بين سكان ' الشرق الذي لا يتحرك' . ويبدو أن الطبيعة المقدسة للجبال ما تزال مفهوماً واسع الإنتشار في الشرق القديم . ويبني الفلسطينيون المعاصرون غالبية أبنية المزارات على الجبال والتلال ، بغض النظر عن حقيقة ما إذا كانت هذه الأماكن قابلة للسكن البشري ، وعلى الرغم من أن معظم ' الأولياء' موجودون في محيط القرية ، فمن المدهش أن تكون هناك مزارات في الجبال غير المأهولة . إن هذه الحقيقة تبرهن على احتمالية أن الفكرة القديمة عن قداسة الجبال ، قد انتقلت إلى سكان فلسطين المعاصرة . إنهم لا يتقبلون الفكرة صراحة ، ومع ذلك فإن الممارسة القديمة ما زالت مستمرة .

ج- علاقة المزارات بالمقابر

من المهم جداً أن نلاحظ حقيقة أن المزارات أو قبور العديد من الرجال المقدسين موجودة في وسط المقابر أو بالقرب منها . و القائمة التالية هي للمقارنة السريعة بين الأماكن المقدسة الموجودة ضمن علاقة مع المقابر (المزارات والقبور . . . الخ) وتلك التي لا تجمعها علاقة مع المقابر :

اسم القرية	عدد المزارات	داخلها	خارجها
الطور	٦	٣	٣
أريحا	٦	٢	٤
شعفاط	٤	٣	١
صور باهر	٤	١	٣
عناتا	٧	١	٦

ولا بد من أن أضيف الحقائق التالية ؛ ففي صور باهر فإن القبور الخمسة للدواعره تحتسب كمزار واحد . والقبور الثلاثة للجراهيد ، التي تمثل في الواقع ثلاثة مواقع

مقدسة ، اعتُبرت واحدة . والشيء نفسه يصدق على قبري الدواعره في شعفاط ، والتي ترى في المقبرة .

إن القائمة العليا تبين أن ٦٣٪ من المزارات موجودة ضمن المقابر . ولكن مزارات بعض القرى لا تكون متصلة بالمقابر بأية طريقة ، وهذا يجعل المعدل العام لهذا التوافق ٣٠٪ فقط . وفي بعض الحالات فإن المقبرة تحيط بالمزار ، وفي حالات أخرى توجد بعض القبور القريبة من المزار . والسؤال الذي يثور هنا : هل تشكلت المقبرة حول المزار ، أم أن قبر رجل متميز قد وضع في مقبرة قائمة؟ وفي معظم الحالات فإن المقبرة هي الأحدث ، وقد أدى وجود المكان المقدس إلى اختيار المكان للدفن إلى جوار قبره . وتكون المسألة هكذا دائماً عندما يكون المزار قديماً . ولكن في حالة الأولياء الحديثي العهد ، فإننا نجد أن أولئك الرجال المباركين قد دفنوا في المقبرة العامة ، ثم أصبحوا ' أولياء' بعد موتهم ، وأصبحت قبورهم تتمتع باحترام خاص ومن ثم عام . إن المزارات التالية هي في اغلب الظن أقدم من المقابر التي توجد فيها : الشيخ نوران(١٥) بين الشلاله وخان يونس ، ؛ الشيخ بدر ـ القدس ؛ النبي موسى- قرب أريحا ؛ رجال العمود ـ نابلس (لوحة ٣ شكل م) . وعلى العكس من ذلك كان وضع المزارين : الشيخ أبو حلاوة ـ القدس ؛ الشيخ الزعبي ـ عورتا . ونلاحظ وجود المزارات والقبور المقدسة في المدافن العامة في كل قرية ومدينة تقريبا ، ومن الأمثلة البارزة على ذلك :

الشيخ عبد الفتاح الدواعْرة في شعفاط ، والشيخ أبو سيف في شعفاط ، والشيخ زيد في عناتا ، والشيخ أبو يمين في بيت عنان ، والشيخ غانم في أريحا ، والشيخ سعد في بيت لقيا (لقيا) ، والشيخ مُبارك في بيت اكْسا ، والعزيرات في عورتا .

إن قمة الجبل الذي تقع عليه عوْرتا متوجة بمقام العزيرات . ويحتوي المقام على غرفتين ، الشرقية ولها قبتان ، والغربية وهي ذات قبة واحدة . وتحيط بالمقام مقبرة . ولا تخص المقام شجرة أو بئر . وعلى مقربة من المقام هناك بركة مقطوعة في الصخر . وتوجد في الغرفة الشرقية ، فتحة محراب للصلاة ـ وفي مقابلها يوجد مدخل يؤدي إلى كهف . ويرى الزائر العديد من علب الكبريت وزجاجات الزيت مبعثرة هنا وهناك . وتجتمع نساء القرية ، في كل يوم عيد ، في هذا المكان لأداء الصلاة . والغرفة الغربية كبيرة ، وهي أعلى ، واقل استعمالاً . وهنا يغسل الموتى قبل دفنهم .

الشكل (١) مخطط البدرية :

A = الساحة الخارجية
B = الساحة الداخلية
C = الساحة الخلفية
D = حديقة صغيرة
E = مقبرة
F = المقام
G = رواق ، تستعمل كجامع

a = باب إلى الساحة الخارجية
b = باب إلى الساحة الداخلية
c = مدخل للمقام
d = صهريج
e = قبر للبدرية
f = قبور لأبنائها
g = قبر زوجها
h = المحراب
i = شجرتا زيتون
j = شجرة بلوط
k = مدخل لمغارة

الشكل (٢) مخطط (إرجال العمود)

a = مدخل إلى الساحة
b = صهريج
c = قبور خاصة (للخدم وأقارب الأولياء)
d = قبة
e = جامع له محراب
f = اسفل النافذة توجد فتحة تؤدي إلى المغارة ، حيث يوجد - كما يقال - ٤٠ شهيداً مدفوناً فيها
g = قبور الشيوخ

على الشاشية للمدخل الرئيسي (a) مبني كسرة من عمود

الشكل (٣) جزء من جدار لحظيرة (ارض يسبح عليها) في المنصوري ، عورتا .

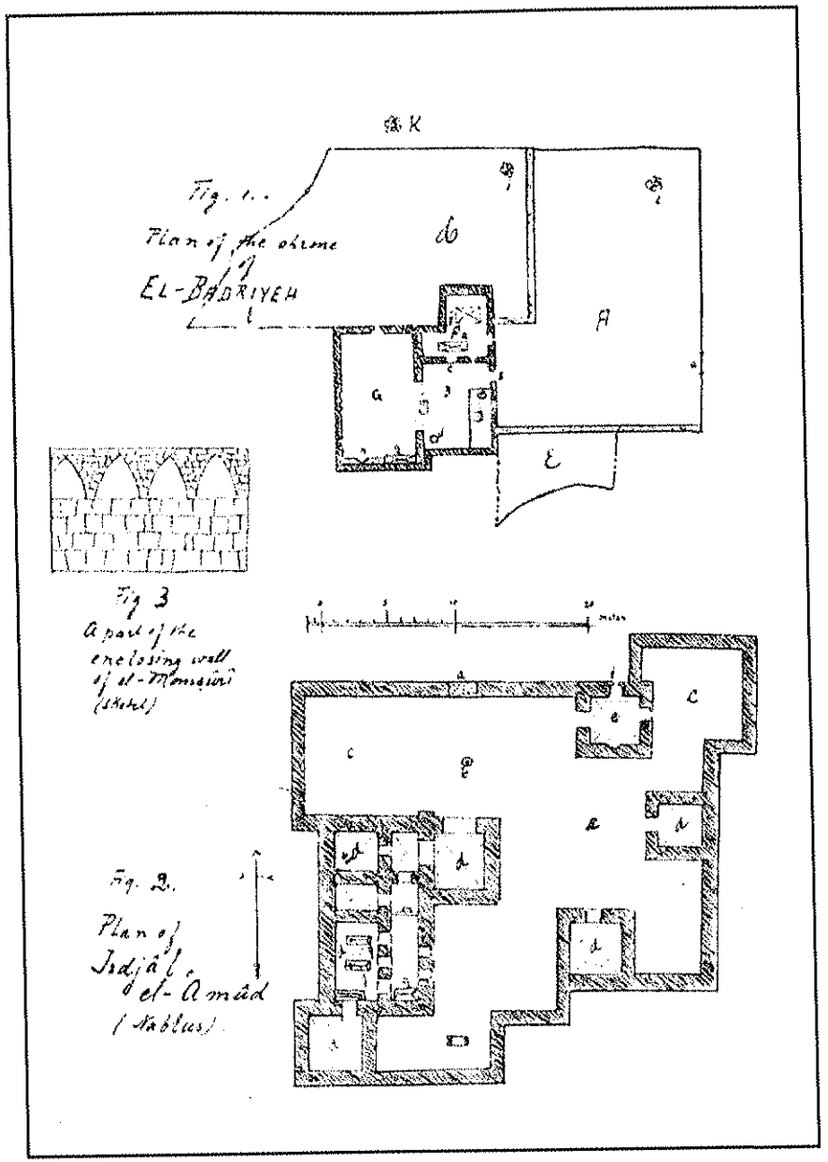

إن المزارات التي توجد بجوارها قبور هي : 'الشيخ أحمد الشوري في القدس ؛ الشيخ بدر في القدس ؛ وستنا الخضرا في نابلس . وهناك سببان تعود إليهما رغبة الناس في تفضيل الدفن في جوار قبر الولي(١٦) :

١- كلما دفن الشخص على مسافة أقرب من ولي أو شيخ أو مقام ، كلما زادت البركات التي يستقبلها من العالم القادم . (الآخره ـ المحرر) . ولهذا السبب يقوم البدو بحمل موتاهم المهمين من مسافة بعيدة ليدفنوا بالقرب من قبر قديس . وهكذا يقوم بدو الرشايدة بنقل موتاهم إلى شيوخ الجراهيد في جبل الزيتون ، وكذلك يفعل العدوان إذ يحملون موتاهم إلى النبي موسى .

٢- الحماية التي يمارسها القديس ، الناتجة عن الإحترام الذي يتمتع به ، وهي سبب آخر لدفن الموتى بالقرب من ضريح الولي . وقد اعتادت العائلات المشهورة التي تمارس السياسة ، والتي تكون دائماً على علاقات خصام مع عائلات أخرى ، على أن تدفن ميتها بالقرب من بقعة مقدسة لتحمي جثته من التدنيس بواسطة أعدائه ، فالرجل المقدس يحمي كل ما يوضع تحت رعايته . ولا يجرؤ إنسان على سلب القداسة من تلك الجثة المدفونة إلى جوار ولي . وهذه الأسباب هي التي جعلت عائلة عبد الهادي (من نابلس) تدفن ثلاثة من أعضائها ـ محمد الحسين ، يوسف السليمان ، وعبد الكريم ـ قرب مقام الخضرا .

د- علاقة المزارات بالخرائب:

وهناك حقيقة أخرى ، وليست دون أهمية ، وهي أن عدداً من المواقع المقدسة تقع داخل أو بالقرب من الخرائب . وليس من المتوقع أن يصادف المرء دائماً خرائب كبيرة ، وقد يكون هناك فقط بعض القبور المنحوتة في الصخر وبقايا بعض البيوت وعدة آبار مهجورة ، أو بعض الأعمدة القديمة . ولا بد وأن مثل هذه الخرائب كانت أمراً محيراً للعقل الفلسطيني . ولا شك أن الخرائب ، تلك ، كانت موجودة قبل المزار الحالي ؛ فالخرائب والكهف الاصطناعي والشجرة المنعزلة ، أو بعض الآبار القديمة في بقعة منعزلة ، لا بد قد أثارت خيال الفلاح ، لإن رؤيا ليلية ، أو تصور ضوء ، أو سماع صلوات دينية ، أو موسيقى دينية ، قد أوحت بفكرة قداسة المكان . إن حوالي ٣٢٪ من المزارات التي زرتها كانت ضمن منطقة خرائب ، وأن حولي ٣٢٪ من

المزارات كانت ضمن منطقة خرائب الأولياء الذين في مثل هذه المواقع ، فمنهم : القطرواني إلى الشمال من بيرزيت ، في خرائب كنيسة ؛ الشيخ العمري الجبيعي- قرب بيت عنان ، في خرائب أبنية متعددة ؛ ذو الكفل- قرب قطنة ، في خربة الكفيرة ، احمد الطيار ـ القسطل ، في خرائب قلعة ؛ عبد العزيز- بين القسطل وبيت سوريك ، في خرائب تضم بركة منحوتة في الصخر ؛ ستنا الشامية ـ كولونيا ، قبر محفور في الصخر ، وهناك ينبوع قديم وقناة قديمة له ؛ الشيخ حسين ـ كولونيا ، قبور محفورة في الصخر ، أبو ليمون ـ قرب بيت اكسا ، خرائب فيها بئران ، المفضل- عورتا ، قبر محفور في الصخر .

٢- عمارة المزارات:

دعنا نقترب من ' ولي' من النوع الشائع ونتفحصه بإمعان . ماذا نجد هنا ؟ وبالطبع فإن الأشياء نفسها غير موجودة في كل حالة . وسنحاول أن نحقق في كل شيء على حدة ، تاركين التصنيف لما بعد . ومن أجل ذلك فإننا سنأخذ بالاعتبار الأمور التالية : (البناء والقبر والشجرة (أو مجموعة الأشجار) ، حوض الماء (بئر ، نبع ، حوض . . . الخ) وكذلك الكهف . وقد يكون من الصعب أن نعطي وصفاً مطلقاً لكل واحد من تلك الأشياء ، لأنها تختلف من مكان لآخر في فلسطين ، وينذر أن نجدها في شكلين متطابقين تماماً .

أ- المبنى:

إن المبنى نفسه ، المزار ، المقام ، القبة ، أو ما كان يسمى في أيام التوراة ' بيت الأماكن العالية'(١٧) هو في معظم الحالات ، وفي كل الحالات البسيطة بناء مربع . وسوف نقوم في البدء ، بدراسة هذا الشكل ؛ فالباب ، دائماً هناك واحد فقط ، خفيض . وعادة هناك شباك واحد صغير ، وأحياناً توجد طاقة أو شراقة أو أكثر ، وأحياناً لا يوجد شيء من هذا . والسقف هو عبارة عن قبة معقودة بسيطة(١٨) ، وهي تضم حجراً عمودياً طويلاً في المركز ، ويرتفع عن العقد نفسه ، ويكون هذا الحجر في بعض الحالات على هيئة نصف هلال(١٩) . وبدلاً من هذا الحجر قد نجد قضيباً حديدياً بثلاث كرات ، أدناها أكبرها ، ويمكن رؤية نصف هلال عند القمة أحيانا . هذه القبة

ملمح مميز في المزارات الإسلامية ، إنها ليست موجودة فقط في الولي البسيط ، بل موجودة أيضاً في المزارات الكبيرة المهمة للأنبياء ، وكذلك في المساجد العامة . والقبة كما يقول ' ماكاون'(٢٠) ' ملمح مميز للطبيعة الفلسطينية' . وكثيراً ما تستعمل كلمة قبة كمرادف للمزار ، على الرغم من أنها تعني أصلاً ' بناءً معقوداً'(٢١) . والداخل مقصور ومطلي بالبياض دائماً ، ولكن بما أن الأبنية قديمة جداً على وجه العموم ، فإن كل شيء بالتالي تالف . إن العدد الأكبر من المقامات هي في حالة مؤسفة من الخراب بسبب الإهمال ، وعواصف الشتاء ، والقدم . وكانت الحرب (العالمية الأولى ، المحرر) سبباً آخر في هذا الخراب ، كما هي الحال في الشيخ أحمد الكركي الطيار (القسطل) والنبي صموئيل ، والشيخ حسن (بيت اكسا) ، والقطراوني (شمال بير زيت) ، وأبو العون ، (بدو) ، الشيخ عبد العزيز (قرب بيت سوريك) ، الخ . وخلال الحرب فإن بعض هذه المزارات سويت بالأرض ، وذلك لمنع العدو من الاستفادة منها كعلامة لمدافعه (الشيخ نوران ــ بين الشلالة وخان يونس) . كما أن الأبواب والقطع الخشبية كانت دائماً تؤخذ لإستعمالها كوقود من قبل الجنود (الشيخ عنبر ، عبد السلام ، العمري الجبيعي . . . الخ) . وفي بعض الحالات قام القرويون بوضع أبواب حديد ، وأصلحوا المزارات ، بطريقة بدائية ، مثل حالة القطراوني ، الشيخ حسن ، والنبي صمويل .

وعند فحص داخل المزار بدقة نجد ' طاقة' ، أو اثنتين ، في الجدار ، وهي في الحقيقة تبدو كخزانة مستطيلة . وأحياناً توجد طاقة واحدة ، ولكن عموماً يمكن أن يكون اكثر من واحد . وفي مزار الشيخ بدر ، البسيط ، والمؤلف من غرفة واحدة ، والقائم على قمة تلة ، في الجزء الشمالي الغربي من القدس ، فقد أحصيت ثماني ' طاقات' . وفي العزير (عورتا) توجد دزينات منها ، فهي مبنية على ارتفاعات مختلفة وموزعة دون نظام على الجدران الأربعة دون اعتبار للتنسيق . ومع بعض الاستثناءات فهي وسخة . وحتى الجدار المحيط بها ، وبشكل خاص ما دونها ، فهو ملطخ بالزيت . والسبب في ذلك هو أن الزيت ، ومصابيح الزيت ، والزجاجات ، وعلب الكبريت والأشياء الصغيرة الأخرى توضع فيها .

وبشكل عام نلاحظ أن داخل المزار كان قد زُخرف بالحنا أو النيلة أو بكليهما . وتوجد إشارات تدل على ذلك . وتتألف الزخرفة من خطوط بسيطة ، تسير على موازاة بعضها بعضاً ، وعلى الجدران بما يشكل نوعاً من الإفريز . وأحياناً يكون الإفريز معقدا . وبعض

هذه الأشكال موضح في لوحة رقم ١ وبالإضافة إلى الإفريز نجد زخرفين آخرين مهمين جداً مثل : طبعة اليد ، وغصن النخيل ، وكلا الزخرفين يمكن توضيحهما بالمعتقدات الخرافية . وأما طبعة اليد فتمثل يد فاطمة (ابنة النبي) في الخرافات الإسلامية ، وتمثل يد العذراء في المسيحية ، وفي اليهودية يد الله(٢٢) . ويقال أن هذا الزخرف الخرافي يجلب البركة . ونستطيع ان نرى ذلك بشكل متميز على ' صْداغات الباب' . وعلى ' الشاشية' ، وعلى الجدران الداخلية للمزار ، وخاصة حول المحراب . وهي بصورة عامة طبعة يد بشرية مغموسة بالدم ، الحنا ، أو النيلة . ويرى الكثير منها في المزارات ، كما يمكن رؤيتها على أبواب البيوت . والهدف منها حماية الساكنين من العين الشريرة . وتصنع أشكال من اليد من الزجاج واللؤلؤ والذهب والفضة أو المعادن الأخرى ، ويحملها الأطفال الصغار للسبب نفسه(٢٣) . ومن النادر أن نجد طبعة اليد بالدم . لقد رأيتها على البيوت المبنية حديثاً عندما كان يضحى بالغنم قبل سكنى البيت ، كما هو الحال في عيد بيْرم (عيد الظحية) . ومرة واحدة لاحظت طبعة اليد بالدم على باب مزار . وكانت تلك العلامة من صنع رجل قدم أضحية من الغنم كان قد نذرها للولي . إن تقليد غصن النخيل (لوحة ١ شكل ٨) غالباً ما يوجد كزخرف داخلي . وهو يتألف من خط عمودي مع خطوط جانبية أقصر ، وعندما يتحد الخطان ، يكونان زاوية حادة تفتح إلى الأعلى . أن مجموع عدد الأفرع الجانبية لا يكون ثابتاً دائماً ، ولكن هناك في معظم الحالات عدد متساو في كل طرف . وقد حاولت أن أفحص فيما إذا كان العدد على كل طرف يتطابق مع الأرقام المقدسة ٣ ، ٥ ، ٧ أو مضاعفاتها(٢٤) ولكن في معظم الحالات لم يكن كذلك . وفي بعض المزارات ، خاصة في البدرية (شرافات) ، والقطراوني (إلى الشمال من بير زيت) فإن عدد الفروع يتطابق مع الأرقام ٣و٥ للمزار الأول ، ومع ٥و٧ للقطراوني . ونحن نعلم أن فروع النخيل تحمل في معظم المواكب الجنائزية للأغنياء والأشخاص المهمين كرمز للحياة . وفي المعتقدات الخرافية الإسلامية أن شجرة النخل قد خلقت من نفس التربة التي خلق الله منها آدم(٢٥) . ومن أجل ذلك يقال أن هذه الشجرة تملك نقاط تشابه مع الإنسان(٢٦) . ويتردد ذكرها في القرآن الكريم كواحدة من الشجرات المختارة(٢٧) . ومع ذلك فإنني أتساءل : أليس من الممكن أن تلك الأشكال كانت ، في السابق ، تقليداً فجاً لليد ، وأن الرقم ٥ قد فقد وفقد معه معناه الأصلي ؟

لوحة ١

الشكل (١) افريز يمثل ثعبانين

الشكل (٢) الرقم (٨١٠١٧٠) محفور فوق مدخل مقام النبي لوط

الشكل (٣) افريز (السلطان ابراهيم الادهمي ، شعفاط)

الشكل (٤) نقاط من الجنة او النيله

الشكل (٥) نقاط الخمس اصابع

الشكل (٦) زخرفات ترى في مزار الشيخ حمد في الجيب
لم يستطع الكاتب تحليل معناها

الشكل (٧) تشخيص لأفعيين

الشكل (٨) تمثيل لأنواع مختلفة من سعفات النخيل ، البعض لها خمس واخرى لها سبع أوراق ، بينما اكثرها لها اكثر من ذلك .

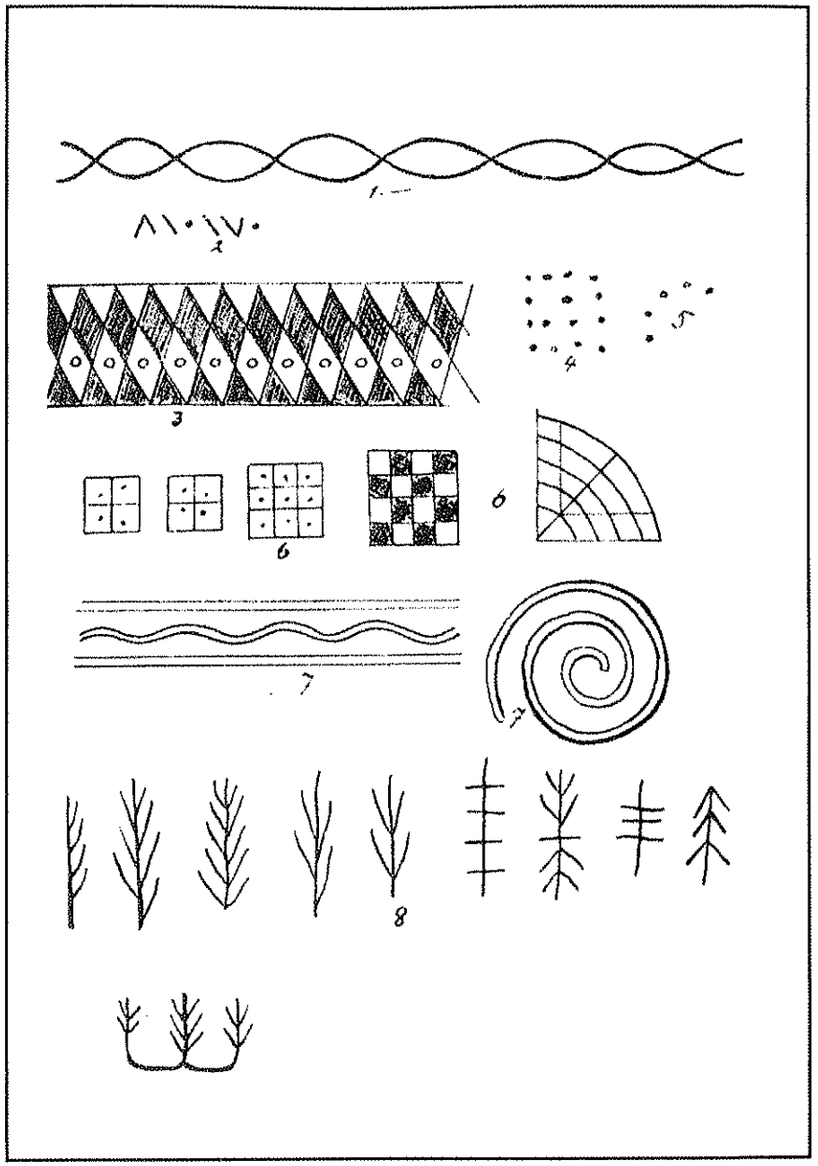

ومن الزخارف الأخرى التي قد يجدها المرء في المزار زخرف الحية الذي يشير لطول الحياة(٢٨) ؛ فالحية والحياة تمتلكان نفس الجذر الصوتي(٢٩) . ولم أستطع أن أوضح معنى المربعات التي بداخلها النقط (لوحة رقم I شكل رقم٤و٥) . إنه من غير المحتمل أن تمثل النقط ' كرتات الزيارة' من جانب الحاج ، كما يظن ' كالة' . وفي بعض المزارات وجدت رسوماً بدائية لمسجد ومنارة وسفينة وأزهار . . الخ . إن الهدف الوحيد لهذه الأشكال هو تجميل المقام . وأحياناً كتبت على الجدران آيات قرآنية وأسماء الله الحسنى ، وأسماء النبي والصحابة . وأفضل مثال على ذلك هو مزار الشيخ ياسين ، حيث نجد إلى جوار كلمات : الله ومحمد ، والمحاطة بأكاليل ونباتات ، نجد عبارة : ' لا إله الا الله ومحمد رسول الله' ، ونجد أيضاً علمين ، العلم التركي ، وعلم النبي ، وهلالا ، ونجوماً خماسية متعددة . وفي المحراب نجد رسماً للمبخرة والسلسال . وقد تم تنفيذ هذه الزخارف بالحنا والنيلة والسراقون . ويعتقد بعض الفلاحين أنه يجب ألا تستعمل النيلة في الأماكن المقدسة ، فالحنا هو المادة المناسبة الوحيدة . وعندما يستعمل الحنا(٣٠) كصبغ أحمر فإنه يعجن أولاً قبل وضعه على الجدار . وكثيراً ما تستعمل السمنة(٣١) كخليط له ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون ذلك دائماً ، كما يظن كيرتس (٣٢) . ومن هذا المعجون تصنع طبعة اليد . وعند إضافة المعجون إلى الجدار يكون مظهرها بنياً أخضر متسخاً ، ولكن عندما تسقط عنه تترك لوناً بنياً محمراً . ويزخرف أولاً المحراب(٣٣) والمنطقة المحيطة به . وتنفذ غالبية الزخارف الأخرى بالنيلة ، والسراقون . وفي الكثير من هذه المزارات البسيطة ، وليس فيها جميعاً ، يوجد محراب يشير إلى الجنوب . وفي بعض المزارات هنالك اكثر من واحد ، فقبر الراعي قرب النبي موسى فيه ثلاثة(٣٤) . وفي بعض الأولياء فإن المحراب في الجدار الجنوبي يكون إما باللون أو بعلامة خاصة . وفي كنيسة الخضر بين بيت جالا وبرك سليمان ، والتي تحترم ايضاً من جانب المسلمين ، فإن إتجاه الصلاة يوضح من خلال صورة كبيرة للقديس جورج . ولقد رأيت بعض المسلمين يدخلون المكان ويصلون متجهين نحو الصورة ، ومن ثم إلى الجنوب . وكل محراب يكون عادة في الجدار الجنوبي من المزار . وأما المحاريب في المواقع الثلاثة التالية فهي تمثل الحالة الشاذة ، محراب في البناية الواقعة تحت الأقصى ، ومحراب في النبي داوود ، ومحراب في مزار المفضل في عورتا(٣٥) . ويقال أن النبي قد صلى في الأول خلال إسرائه للقدس ، وعندما انتهى من الصلاة فقد أمره الملاك جبريل أن يتوجه في

صلاته مستقبلاً إلى مكة ، وهكذا فإن النبي أدار وجهه في ذلك الإتجاه وأدى صلاته الثانية(٣٦) .

إن أرضيات المقامات البسيطة عارية في الغالب ، ولكننا أحياناً نجد حصيراً . وأما المزارات الأكبر والأكثر أهمية ، فنجد فيها الحصر والسجاد الثمين . وفي حين أن الوصف السابق ينطبق على جميع المقامات البسيطة ، فإن علينا أن ندرس تلك المقامات الأكبر والأكثر أهمية ، والأكثر تعقيداً . وسوف أحاول وصفها حسب التعقيدات المعمارية ، ولكن قبل أن أتقدم لهذا الجزء من الدراسة لابد ان أقول شيئاً عن القبة ، فهي من أهم ملامح ' الأولياء ' وتنتمي لأكثرها أهمية . وعندما نفحص القبة(٣٧) فإننا نجد نوعين مختلفين :

١- النوع البسيط ، حيث نجد القبة قد بنيت مباشرة على الجدران الأربعة للمزار ، بحيث تبدو وكأنها نصف كرة فوق الجدران .

٢- الثاني وفيه يتحول الفراغ المربع الذي تشكله الجدران الأربعة إلى مُثمن له نتوءات ، بالقرب من السطح من خلال تعبئة الزوايا . والمثمن مرتفع قليلاً والقبة نصف الدائرية تقع فوقها ويظهر (شكل رقم ٤ لوحة رقم II مقطعا) ، بحيث يرتفع المثمن فوق الجدران ، وتقوم القبة عليه .

إن المقامات التي تمتلك قبتين معقودتين بدلاً من واحدة تحمل نفس الدرجة من البساطة كالتي سبق وصفها ، وفي الواقع فإن مثل هذا البناء يمثل غرفتين ، وعند الاستغناء عن الجدار الفاصل تصبح هناك قاعة مستطيلة كبيرة ، ويحل قوس عال وقوي محل الجدار الفاصل في حمل السقف . وفي الدرجة التالية نجد المزارات ذات الرواق . ويبنى الرواق أمام المزار أو على جانبه . وقد يتألف من قوس أو اثنين غالباً . ويجتمع الناس هنا في الرواق قبل وبعد زيارتهم للمزار . وأحياناً يتناول الناس طعامهم ويقيمون احتفالاتهم . ففي بيت حنينا ، بنى الناس ، حديثاً ، إلى الجهة الجنوبية الشرقية من جامع السلطان إبراهيم الأدهمي ، قاعة بثلاثة عقود ، تفتح شمالاً ، ولها محراب . ويملك الشيخ سلمان الفارسي (على جبل الزيتون) مثل هذا الرواق ، أمام المزار نفسه . وفي العُزير (القرية) والشيخ حمد (كولونيا) فإن الرواق على جانب واحد من المزار .

لوحة ٢

الشكل (١) رسم أولي للشيخ حمد في كولونيا

A = الساحة الخارجية

B = المقام

C = غرفة المدرسة

D = رواق

E = غرفة المعلم

a = صهريج (خزان ماء)

b = شجرة التوت

c = المحراب

d = قبر العبد ، جزء منه داخل المقام وجزء في الساحة الخارجية

e = قبور الشيخ وزوجاته وابنه

الشكل (٢) رسم أولي لمقام العُزير(عورتا)

A = مكان مرتفع

B = القبر الضخم

C = غرفة فيها نقش سامري ، على الحائط الغربي . اسفل النقش يوجد ثلاث حنيات

a,b,c = ثلاث غرف ، في b يوجد نقش سامري ، في c الطعام يطهى من قبل الضيوف

١، ٢ = شجرتا بطم

٣ = عدة أشجار من الخروب

٤ = شجرة نخيل

٥ = فتحة رباعية الزوايا تقود إلى مغارة

الشكل (٣) مقطع عرضي لقبر العُزير . والقبور الاخرى في عورتا لها نفس الشكل

الشكل (٤) مقطع عمودي ، لقبه مكتملة . المقطع يمر بزاويتين متعاكستين

الشكل (٥) زخارف حول محراب مقام الشيخ ياسين (دير ياسين)

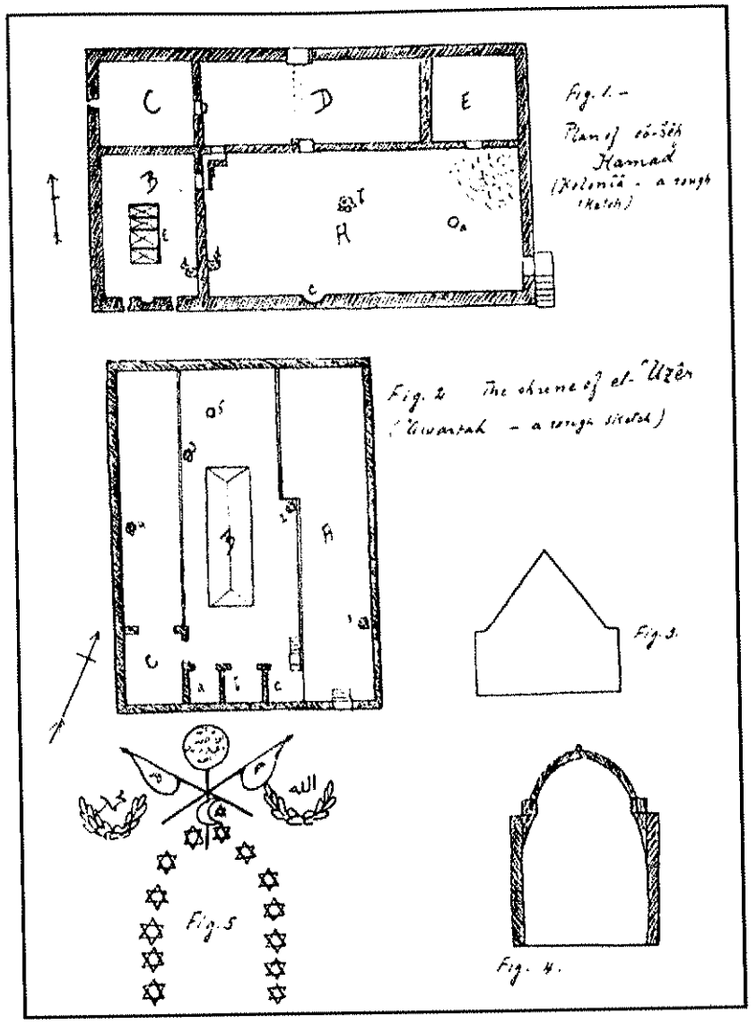

ومن المزارات المعقدة البناء تلك التي تبنى لها غرفة أو أكثر ، بصورة إضافية حول المزار أو حواليه ، وتفتح على الأروقة . مثل هذه الغرف تستعمل كمطبخ أو مكان لإقامة 'الخدام' أو ' القيم' . وأماكن للخزن . وفي بعض الحالات ، وعندما يكون المزار بالقرب من إحدى القرى أو داخلها ، فإن مثل تلك الغرف تستعمل مكاناً للمدرسة ' كُتاب القرية' . وقد يسكن الشيخ أو الخطيب في إحداها أحياناً ، وهو يقوم بمهمة المعلم . وقد صادفت مثل ذلك في ' الشيخ حمد ـ كولونيا ؛ الشيخ اعْمر ـ بيت دْقو ؛ العزير ـ أبو غوش ؛ والأنبيا ـ نابلس' . وفي حالات قليلة قد تستعمل إحدى الغرف لغسل الموتى قبل الدفن كما هو الحال في 'العزيرات ـ عورتا ، وجامع العزير- أبو غوش . وفي بعض الأحيان فإن المضافة تكون ملحقة بالمزار ، كما هو الحال في النبي' شُوح '(٣٨) في قرية' شُوحْ'(٣٩) . وقد بنيت غرفة المضافة هناك فوق المزار .

وفي الشيخ أبو إسماعيل في بيت لقيا ، والشيخ حسين في بيت عنان فإن الغرفة الأمامية تخدم كمضافة . وفي كلا الحالتين ، نجد في وسط الغرفة ' الوجاقْ' وفيه تحضر القهوة للحاضرين . وفي الشيخ ياسين- دير ياسين- فإن المضافة موجودة مقابل المقام ، وتفصلها ساحة مفتوحة(٤٠) . ولا تستعمل مثل هذه المضافات إلا في أشهر الشتاء الباردة . وفي الصيف يفضل الناس الجلوس في الخلاء تحت شجرة ، أو في الرواق(٤١) . ويظهر مخطط تقريبي للشيخ حمد -كولونيا النوع الذي أتينا على وصفه (انظر شكل رقم ١ لوحة رقمII) . وهناك صنف آخر من المزارات نجد فيه عدداً من الغرف المجهزة للزوار الذين يقومون بزيارتهم للنبي أو الولي مرة في السنة . ويتألف البناء في هذه الحالة من طابقين أو ثلاثة . وتستعمل الغرف السفلى كمخازن ومطابخ وإسطبلات . أما الغرف العليا فهي لإستعمال الزوار . ويقيم خادم طوال العام حول المزار لحراسته . إن هذه المزارات الكبرى لا تكرس عادة للأولياء بل الأنبياء . ويعتبر مزار النبي موسى أفضل مثال معروف على تلك المزارات . ان قليلاً من الأنبياء من يملكون مثل تلك المزارات الضخمة : النبي صالح (الرملة) ؛ الأنبياء (نابلس) ، النبي يوسف (بيت اجزا) . وكثير من الأنبياء تكون لهم مزارات بسيطة . وهناك العزير ، المنصوري والمفضل (وجميعهم في عورتا) والذين يعدون أنبياء أيضاً ، وليس لهم أبنية بالمرة .

إن بعض الجوامع والأولياء هي بالتأكيد كنائس قديمة أو بيوت قديمة . وأظن أن جامع عمر بن الخطاب في صور باهر هو كذلك . كما أن جامع العُزير في - القرية- كان كنيسة في يوم من الأيام(٤٢) . إن مزارات الشيخ عبد الله- بيت سوريك ، الشيخ صالح- دير ياسين ، الشيخ سرور- عورتا ، الشيخ النوباني- نابلس ، هي غرف بسيطة كانت في يوم من الأيام تستعمل كمساكن ، فليس فيها محراب أو قبة أو أية آثار لضريح ، وهي في الوقت الحالي (١٩٢٧ ـ المحرر) في حالة رديئة من الإهمال والحاجة إلى الصيانة .

إن العديد من المقامات المبنية هي بمثابة مزار مفتوح حيث يقوم السقف على أعمدة . وأفضل مثال على ذلك هو مزار حسن الراعي ، والذي يفترض أنه كان راعي غنم النبي موسى(٤٣) . ونجد ، داخل حويطة مستطيلة مبنية من الحجر والطين ، سقفاً متطاولاً ومقبباً يقوم على ستة أعمدة : ثلاثة إلى الشمال وثلاثة إلى الجنوب . وبين تلك الأعمدة يقع الضريح الكبير . و المسْعد- جبل الزيتون ، هو مزار مستطيل جوانبه مغلقة . ولمسجد ستنا عيشة قبة تقوم على أعمدة الزوايا الأربع ، حيث الجانب الجنوبي ، مغلق تماماً ، وأما الجانبان الغربي والجنوبي فهما مبنيان بصورة جزئية . إن الجدران الغربية والجنوبية لمزار احمد الساريسي(٤٤) مغلقة ، بينما الجانبان الآخران مفتوحان .

ولا أنوي تقديم وصف معماري مفصل لكل أنماط المزارات . فهدفي هو تقديم أمثلة بسيطة للفئات المختلفة . وليست هناك حاجة لوصف المساجد الجميلة مثل الصخرة والأقصى لأنها موجودة بشكل أفضل في مراجع أخرى(٤٥) . إن الكثير من المزارات الموجودة في القرى تخدم كجوامع حيث يجتمع فيها الناس للصلاة . وتبنى الجوامع أيضاً بجوار الولي ، كما هو الحال في الشيخ جراح والشيخ سعْد وكلاهما في القدس ، سلمان الفارسي- جبل الزيتون . إن بعض الأماكن المقدسة الموجودة في الحقول ، والتي لا تضم ضريحاً تخدم المارة كمكان يؤدون فيه صلواتهم ، ومثال ذلك الإمام علي- على طريق العربات بين القدس ويافا . وكثيراً ما نجد أمام المزار مكاناً مرتفعاً مغطى بأعلام حجرية ناعمة تسمى مْصليات ، وهي في العادة على صلة مباشرة مع المزار وتخدم غرض الصلاة . وليس من الضروري وضع غطاء نظيف عليها ، لأنها دائماً نظيفة . نصادف مثل تلك الأرصفة العالية المعدة للصلاة في الشيخ صالح ـ وكلاهما في مزارع النوباني(٤٦) . وقبل أن نتجاوز ما نحن فيه ، يجب أن نلاحظ وجود نقوش في

بعض المزارات . إنها موجودة فوق أحد أعمدة القبة- الشيخ حسن الراعي . ومن هذه الكتابات :

١ . فوق الباب المركزي لمزار الخضرة(٤٧) :

' عُمر هذا المسجد أيام السُلطان الملك سيف الدين قلاوون الصالح أعزه الله ووالده السلطان الملك الصالح علا الدين عز نصره' .

٢ . داخل مقام الخضر- نابلس(٤٨) :

' يا دسوقي يا بدوي(٤٩) مقام الخضر أحمد البدوي عبد القادر الجيلاني' .

٣ . كتابة أو نقش على مخمل على قبر الأنبيا- نابلس :

' هذا ضريح أنبياؤنا أنبياء الله الكرام أولاد سيدنا يعقوب وهم ريالون(٥٠) ويشجر(٥١) وأشرْ على نبينا وعليهم وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأتم السلام' (النقش منقول بأخطائه ـ المحرر) .

٤ . في الرواق المجاور لمزار الأنبيا :

'كلما دخل زكريا عليها المحراب وجد عندها رزقاً'(٥٢) .

٥ . وعلى(٥٣) الحجر الرخامي فوق مدخل مزار السلطان إبراهيم الأدهمي- بيت حنينا :

'باسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المعبد . . . الحج سويد بن حماید رحمه الله في سنة سبع وثلاثين وستماية(٥٤)' .

٦ . فوق باب مقام اليقين ، بني نعيم ، على حجر رخامي :

'بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد محمد عبد الله علي الصالح . . . هذا من ماله . . . (٥٥) .' .

٧ . بين القُبتين الشماليتين لمزار حسن الراعي ، قرب النبي موسى ، نقرأ :

'إنشاء هذه القبة المباركة على حسن الراعي قدس سره صاحب الخير محمد باشا حين أتى من استقبال حجاج المسلمين فشرع في البناء فلم يلقى ماءً فبعلو همته حفظه الله تعالى نقل الماء على البلد من قرية أريحا(٥٦) وحصل الثواب سنة ربيع عشر وماية وألف' .

٨ . على ضريح الشيخ أبو الحلاوة (القدس) :

'هو الحي الباقي . هذا قبر ولي الله(٥٧) الشيخ حسن أبو حلاوة . لروحه الفاتحة . ١٣٠٥' .

٩ . نقْش مطرز بالذهب على قماش حرير أحمر ملقى على ضريح النبي لوط' بني نعيم' يقول :

'هذا قبر النبي لوط عليه الصلوة والسلام' .

١٠ . وعلى كساء آخر في نفس المزار :

'باسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وما توفيقي إلا بالله لا إله إلا الله سيدنا(٥٨) محمد رسول الله(٥٩) بسم الله ما شاء الله سيدي لوط رسول الله لا حول ولا قوة إلا بالله .

١١ . نقش على علم قدمه للنبي لوط جنود جاؤوا من حلب وهم متوجهون إلى جبهة قناة السويس ، خلال الحرب الأخيرة (١٩١٥ ـ ١٩١٦) . يقول ما يلي :

أ- يا حضرة(٦٠) سيدي أحمد الرفاعي .

ب- يا حضرة القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني .

ج- يا حضرة القطب العلوي سيدي أحمد العدوي(٦١) .

د- يا حضرة القطب الحقيقي سيدي ابراهيم الدسوقي .

هـ- لا إله إلا الله ومحمد رسول الله .

ز- 'العلم التركي' (بين ب و هـ) .

و- سيدنا خليل الله عليه السلام (أ و هـ) .

ب - القبر:

داخل المزار ، وبصورة عامة في مركز الغرفة ، نجد ضريح الرجل المقدس الذي يحمل المزار اسمه . وقبل إعطاء أي وصف للضريح نفسه ، يجب توضيح هذه النقطة : العلاقة بين الضريح والبناء . الضريح غالباً لا يكون في المزار بل خارجه ، على المصطبة ، في الرواق ، أو في الحديقة المجاورة للمقام . وليس بالضرورة أن يكون الضريح مرتبطا بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالمكان ليجعل منه مزاراً . وهناك الكثير من الأضرحة التي لا قبة لها . وهاتان السمتان ستبحثان مطولا في جزء آخر من هذا العمل . ويمكننا أن نصف الأضرحة طبقاً لموقعها كما يلي :

١- الأضرحة المتصلة بالمقام ، يمكن أن تكون :

أ ـ في المزار نفسه : كما هو الحال في البدرية -شرافات ؛ بشر الحافي ـ نابلس . . الخ .

ب ـ في الرواق : السيد أحمد الطيار- شرافات .

ج ـ في الحديقة المجاورة للمزار : النبي عنبر ـ دير عمار ؛ الشيخ يوسف ـ خربثا .

٢- الأضرحة التي لا مزار لها ، ولكنها تقع :

أ ـ في كهف : الشيخ السدري- عناتا ، الست الرابعة ـ جبل الزيتون .

ب ـ خارجاً في الحقول أو في مقبرة : الشيخ محمد البقاني ـ نابلس ، الشيخ رمضان ، الشيخ عُبيد- وكلاهما في قطنة ، العُزير ـ عورتا ، الخ .

ج ـ داخل القرية ، بين البيوت ، ودون أن يكون متصلاً بأي مقام أو مقبرة : الشيخ صُوان ، والشيخ اسْماعيل- كلاهما في صور باهر .

وكثيراً ما يحدث أنه الإضافة للضريح أو الأضرحة ، الواقعة داخل المزار ، يوجد هناك واحد أو أكثر خارجة ولأصحابها علاقة بتاريخ وحياة الولي الرئيسي . وهذه الأضرحة من الممكن أن تكون واقعة على مسافات مختلفة ، وتحافظ على صلتها بالولي ، وهناك بعض التوضيحات والأمثلة :

بجوار الشيخ عبد السلام ، وخارج المقام ، نرى ضريح ابنه سليمان ، وفي مزار البدرية نجد أنه خارج الحرم ، وفي القاعة المجاورة ، يوجد ضريح زوجها السيد أحمد الطيار . كما أن الشيخ أحمد البسطامي وأخاه الشيخ مراد- نابلس ، يتجاوران مع خادمهما الزنجي المدفون خارج المقام . وكذلك فإن راعي القطرواني مدفون قرب مزار سيده . ويختلف عدد الأضرحة في المزار الواحد . وفي غالبية الحالات ، هناك واحد فقط ، ولكن بعضها يكون فيه أكثر ، إن أحد الأضرحة ، وغالباً ما يكون الأكبر ، يحوز على أهمية أكثر من غيره ، فهو يضم الولي المهم . ومن ثم يحمل المزار اسمه . أما القبور الأخرى فتكون لأقاربه ، زوجته ، ابنه ، أحفاده الذكور ، وأحياناً خادمه . ويضم مزارا الشيخ عنْبر والشيخ بدر ضريحين لكل منهما ، هما للولي ولزوجته . وفي حالة الشيخ بدر فهناك ضريحان في غرفة واحدة ، بينما في مزار الشيخ عنبر ، نجد أن ضريح زوجة الولي في غرفة صغيرة مجاورة . وفي مزار البدرية يقال إن أحد الأضرحة ، إضافة إلى الضريح الآخر الواقع إلى الشمال من ضريحها هما لأطفالها ، ويعتقد أن الضريح الواقع خارج مزارها هو لزوجها . والأكثر إثارة تلك الحالات التي نواجه فيها أكثر من ضريحين . في الشيخ حمد- كولونيا ، هناك خمسة أضرحة : ضريح الولي ، ضريحان لزوجتيه ، ضريح لابنه ، والخامس لخادمه (عبد أسود فعلا) . إن ضريح العبد يبدو جزئياً في المزار وجزئياً خارجه . ولكن أياً من النصفين لا علاقة له بالآخر . ونجد أحياناً أضرحة مصطفة إلى جوار بعضها بعضاً ، وتنتمي لواحد من الحالات التالية :

١ . أضرحة لأعضاء من نفس العائلة : مثل الدواعرة في صور باهر ، وعائلة يمين في بيت عنان . ويعتبرون جميعاً ' صُلاح' . وفي شعفاط هناك ضريحان لعائلة الدواعرة . وفي 'رجال العمود' في نابلس نجد عدة أضرحة خارج المقام يفترض أنها قبور خدم الأولياء المدفونين هنا .

٢ . أضرحة المجاهدين والشهداء : وتشير الأولى إلى أولئك الذين سقطوا في حرب دينية . وفي الخليل شاهدنا قبور الشهداء وبعد قطع الرأس يقال أن رأس الشهيد

كان يتدحرج وهو يقول : نشهدُ ، نشهدُ ، نشهدُ . وفي الرملة فإن أضرحة المجاهدين مرتبة في صفوف عدة ، ليس بعيداً عن النبي صالح . إن بعض الأضرحة تضم رفات أكثر من قديس ، كما هو الحال في 'الأنبيا' ـ نابلس . ويقال أن الضريح مبني على بقايا الأنبياء : ريالون ، يشجر وآشر أبناء يعقوب . ونقرأ على نقش على قماش حريري يتدلى فوق الضريح : 'هذا ضريح أنبياء الله الكرام أبناء سيدنا يعقوب وهم ريالون ، يشجر ، وآشر ، على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام'(٦٢) . وفي أبو غوش نجد أن بناء ضريح الشيخ اسماعيل العنباوي ، الذي يقع قرب الجدار الشمالي من المزار ، فإن بناءه متصل بالجدار نفسه . ويقال أنه متصل بضريح ابنه الشيخ ناصر . والقائمة التالية توضح عدد الأضرحة في بعض المقامات وصلتها بالولي الرئيسي نفسه :

اسم الولي	مكانه	قبر الولي	قبور الإخوان	قبور الزوجات	الأبناء الخدم	
الشيخ حمد(٦٣)	كولونيا	١	-	٢	١	١
الشيخ بدر(٦٣)	القدس	١	-	١	-	-
الشيخ عنبر	العيسوية	١	-	١	-	-
الشيخ اسماعيل (٦٣)	القرية	١	-	-	١	-
الشيخ عُمر	بيت دقو	١	-	١		٣ (٦٤)
زاوية الدراوْشية	نابلس (٦٥)	١	١	-	-	١
القطْروانى	قرية بيرزيت	١	-	-	-	١
الأنبيا (٦٣)	نابلس	٣	-	-	-	-
البدرية	شرفات (٦٦)	١	-	١	١	-
الشيخ عبد السلام	عناتا	١	-	-	١	-

وتبنى الأضرحة من الحجر ، وفي معظم الحالات فإن الضريح كله يقصر ويبيض . وحتى لو كانت الأضرحة ، في الهواء الطلق (مقبرة ، حقول . . . الخ) ولا واقي لها من العواصف ، فإنها لن تعامل بشكل أفضل . وهناك أضرحة أخرى بنيت من 'الحجر النظيف' ، ويكون ذلك علامة على أن الضريح من أصل حديث(٦٧) . وتلقى أضرحة العزير ، المفضل ، والمنصوري عناية جيدة . وفي حالة الأول استطعت التعرف على ثلاث طبقات من 'القصارة' . ويتألف البنيان الهام لهذه الأضرحة وأنصبة العديد من الأولياء من جملون مبني فوق قاعدة مستطيلة (ويظهر الشكل ٣ لوحة ٢ مقطعا عرضيا للضريح) .

إن توجيه الضريح يتم عادة من الشرق إلى الغرب ، وذلك هو توجيه أهل السنة . ويوضع الميت متكئاً على جانبه الأيمن ، ورأسه إلى الغرب ، وأقدامه للشرق ، وهكذا يكون متجهاً بوجهه نحو القبلة ، نحو مكة(٦٨) . وهناك حالات قليلة تشذ عن هذه القاعدة . الشيخ غانم- أريحا ، والذي يقع ضريحه في المقبرة الغربية ، هو أفضل مثال على ذلك الإستثناء ، فضريحه مبني من الشمال إلى الجنوب . هذا القديس من عائلة الدواعْرة ، وقد رأينا ان بعض أفراد هذه العائلة مدفون في صور باهر ، وآخرون منهم في شعفاط . وفي حالة الشيخ زيد- عناتا, يصعب أن نقرر كيف يتجه الضريح ، فالجدار يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وفي الوسط هناك شاهد واحد . ولا توجد أدنى إشارة على حويطة من الشرق إلى الغرب لتبين إتجاه الضريح . وبصورة عامة يقال بأن القبور التي تبين ذلك الإتجاه تنتمي إلى أنبياء ما قبل الفترة الإسلامية . ولكن هذا التوضيح ، على الرغم من صحته وانطباقه على البعض ، لا يصدق على الحالتين المشار اليهما ، فقبور كل من النبي صمويل ، العُزير ، المفضل(٦٩) ، والأنبيا(٧٠) تتجه من الشمال إلى الجنوب . وقبر لوط(٧١) في بني نعيم يتجه من الشمال إلى الجنوب أيضاً .

ومن حيث الشكل فإن مبنى الضريح يكون متطاولاً وقمته دائرية أو مسطحة أو مثلثة . في ضريح البدرية (شكل رقم ١ لوحة رقم ٣) يوجد خط من النهاية إلى النهاية ، يسير موازياً للمحور بما يقسم الضريح إلى قسمين . ويبدو وكأن هناك ضريحين ، على الرغم من أن المأثورات الشعبية تتحدث عن ضريح واحد . وفي كلا النهايتين نجد حجارة عمودية : نصْباً(٧٢) أو شاهداً لتشير إلى الرأس في الغرب ، والأقدام في الشرق . وكثيراً ما يكون نصْب الرأس منحوتاً على شكل ' عمة ' ، كما هو الحال في الشيخ أبو حلاوة- القدس . وفي أضرحة أخرى لا تجد أية علامة للرأس أو الأقدام ، كما هو الحال في الشيخ شداد والشيخ صالح . ولا نجد في أضرحة الأولياء الإناث (البدرية ، رابْعة ، الخ) والأضرحة الضخمة (العزير والمفضل) أية شواهد . وفي كثير من الحالات ، عندما لا نجد مثل هذه الحجارة ، فإن التحري في الموضوع يبين أنها كانت موجودة ، ولكنها فقدت (الشيخ عْنين في صور باهر) . وحيث يوجد اكثر من ولي يفترض أنهم مدفونون في القبر نفسه ، نجد أكثر من شاهد ، كما هو الحال في ' الأنبيا ' - نابلس حيث توجد ثلاثة شواهد ، يمثل كل منها واحداً من أبناء يعقوب الثلاثة ، الذين يفترض بأنهم مدفونون هنا . وحسب ما يقول ' جوسين ' فإن العمودين الحجريين يرمزان إلى الملكين اللذين يزوران الميت (٧٣) . ولم أستطع أن أتفحص هذه الرواية(٧٤) .

وقد يصل إرتفاع الضريح إلى متر أو متر ونصف ، ولكن بعضها منخفض جداً . فأضرحة الشيخ بدر ، وزوجته ، وضريح الشيخ ريحان ، لا ترتفع بالمرة عن الأرضية المحيطة . وأما تلك الأضرحة المبنية خارج المقام فهي بصورة عامة عالية ، بينما الأضرحة المنخفضة تكون داخل الأبنية . وتختلف أحجام الأضرحة بشكل كبير ، فالعدد الكبير منها بحجم عادي ، على الرغم من أن بعضها يكون له حجم كبير . والأضرحة التالية هي أكبر ما رأيت :

اسم الولي	مكانه	الطول (سم)	العرض (سم)	الارتفاع (سم)
العزير	عورتا	٥٦٤	٣٦٢	٣٨٥
المنصوري	عورتا	٤٤٠	٢٣٥	-
المفضل	عورتا	٤٦٨	٢٦٤	-
السلطان خليل	نابلس	٤٥٨	-	-
قلواني				
الأنبيا	نابلس	٤١٠	-	-
حسن الراعي	قرب أريحا	٥٩٠	٢٢٥	١٤٠
النبي موسى	قرب أريحا	-	-	-
الشيخ جراح	القدس	١٩٥	١٣٧	١٨٥

ويوجد على أحد جدران الكثير من الأضرحة طاقة صغيرة ، حيث توضع مصابيح الزيت (سراج وجمعها أسْرجة) ، علب كبريت (شحاطة)(٧٥) . ويمكن أن توجد مثل هذه الطاقات في الجهة الشمالية من الضريح كما هو الحال في ' الشيخ صُوان '(٧٦) ، الشيخ مْبارك(٧٧) ، وقد تكون في الجانب الجنوبي كما هو الحال في ' الدواعره'(٧٦) ، 'الجراهيد (٧٨) ، الشيخ زيد(٧٩) والشيخ اسماعيل . وفي الجانب الغربي كما هو الحال في الشيخ حمد الله(٨٠) والشيخ عنبر(٨١) ، ويمتلك البعض أكثر من واحدة كما هو الحال في شيوخ ' الجراهيد' على جبل الزيتون ، حيث توجد ثلاثة أضرحة في صف واحد(٨٢) ، والضريح الأوسط له ' طاقتان ' واحدة غربية ، والأخرى جنوبية . والطاقة الأخيرة لها باب خشبي . في إحدى الطاقات وجدت سراجاً وأوعية زيت ، وفي

توجد حفرة مستطيلة في الصخرة بمساحة ٢×٤م وعمق ٥٠ ـ ٦٠سم . وتقود إلى الداخل درجتان . وفي وسط الجدار الغربي يبدو ما يشبه الضريح الاسلامي العادي . وعندما أستفسرت عن أهمية ذلك ، قيل لي أن الشيخ إسماعيل قد دفن في كهف صغير ، وأنّ ذلك البناء يهدف لتغطية أقدامه ، لأن الكهف لم يكن كافياً لكل الجسم . وفي الجانب الشرقي من نصف القبر هذا هناك طاقة للإضاءة والبخور .

وكثيراً ما تزخرف الأضرحة بالحنا والسراقون والنيلة ، ونصادف فروع النخيل والأيدي والخطوط والنقط . إن السراقون يعطي لوناً أحمر جميلاً . ومن الغريب أن جميع أشكال فروع النخيل المرسومة على قبور الدواعرة- صور باهر ، هي ذات خمسة أو سبعة فروع . وأحياناً نجد آيات من القرآن أو أسماء الله مكتوبة بتلك الألوان . وفي حالة قبور شيوخ الجراهيد الثلاث- جبل الزيتون ، فقد لاحظت أن خطاً أحمر مرسوم عبر كل ضريح ، يبدأ من الجزء الأسفل من الناحية الجنوبية . وفي كثير من الحالات توجد كتابات على الضريح ، ويكون الحجر المنقوش على الجوانب أو أعلى الضريح .

وأخيراً لابد من ملاحظة أنه في الغالبية العظمى من الأضرحة الموجودة داخل المزار نجد ستارة(٨٩) أو أكثر تغطيها . وبصورة عامة فهي من قماش أخضر مع حاشية أو تطريز بألوان أخرى ، وأحياناً نجد الستارة مزخرفة بآيات من القرآن . كما نجد أحياناً على الراسية ' عمة ' وأحياناً أخرى مسبحة . ونجد الأخيرة في ' بيرم شاويش ' ـ القدس ، وقد التفت على كل الضريح .

وفي كثير من الحالات نجد الستارة غير موضوعة بصورة مباشرة على الضريح ، بل على صندوق خشبي يحيط به . ونصادف هذه الحالات عندما يكون القبر واطئا كما هو الحال في ' البدرية ' و ' بيرم شاويش ' . وفي كثير من الحالات نجد كتابة الستارة مطرزة بقطع المخمل ، وتفيدنا باسم أو أسماء راقدي الضريح كما هو الحال في ' رجال العمود ' و ' الانبيا ' والشيخ احمد البسطامي و ' السلطان بدر الغافر ' (وجميعها في نابلس) . وأحياناً نجد الضريح محاطاً بهيكل من الحديد (الشيخ سلمان الفارسي) .

إن جميع الأضرحة التي أتينا على وصفها مبنية من الحجر ، ولكن هناك ما هو عبارة عن كومة مستطيلة من الحجارة ، محاطة بحويطة من الحجارة أيضاً (٩٠) . ومثل هذه القبور تشبه قبور الفلاحين البسيطة الحالية . ونشاهد مثلها عند البدو ، مثل الشيخ زغبة(٩١) في أريحا . وفي بعض الحالات لا نجد حويطة ، وذلك يشير إلى أبسط

الأخرى وجدت ماءً وكبريتاً وبخوراً محروقاً(٨٣) . وللشيخ الزغبة (بالقرب من ضريح المنصوري في عورتا) مثل هذه الطاقات : جنوبية ، غربية ، وشرقية .

وبينما نجد في الأضرحة الواقعة ضمن مزار أن البخور عادة يُحرّق في واحدة من هذه 'الطاقات'(٨٤) ، فإنه في جميع الأضرحة الموجودة في الحقول ، أو في المقابر ، والتي لا بناء لها ، توضع مواد الإشعال والبخور في طاقات الضريح . وفي بعض الأضرحة نصادف شكل فنجان ضحل أو عميق حيث نجد الماء والزهور . ويعتقد البعض أن روح الميت تزور القبر مرة في الأسبوع ، أي يوم الجمعة ، وهي تتوقع أن تجد ما يطفئ ظمأها من الماء . إن هذه الفناجين موجودة في الغالب في قبور عامة الناس أكثر مما في قبور 'الصلاح' . ومن خلال ما أمكنني جمعه من أناس مختلفين ، فإن هذه الفناجين تستعمل لواحد من الأغراض التالية :(٨٥)

١ـ يوضع الماء والزهر فيها . والهدف من الماء هو الحفاظ على الأزهار حية لمدة طويلة . وهذا التفسير تقدمه الطبقات الراقية من الناس .

٢ـ أن مياه الفناجين هي للعصافير لتشرب ' عن روح الميت ' . فالفكرة وراء هذا التفسير تكمن في أن العصافير ستشكر روح الميت بسبب ذلك الفضل ، وتشهد عند الضرورة بالخير له . ومثل هذا التفسير يتبناه الناس من الطبقات الوسطى(٨٥) .

٣ـ يخدم الماء في الفنجان(٨٦) في إطفاء عطش روح الميت . وقد سمعت هذه الفكرة من الفلاحين وبسطاء المسلمين في القدس . وفي العادة فإنه يتم إحضار الماء والزهور . . . الخ ، أثناء زيارة المقابر ، بعد ظهر يوم الخميس .

وهناك عادة تشير إلى الإعتقاد المذكور في رقم ٣ ، وهي حقيقة أن أقارب الميت يقرأون الفاتحة على روحه عندما تخطب زوجته لرجل آخر . وفي الوقت نفسه تدفن بيضة وجرة صغيرة مملوءة بالماء ، عند رأس الميت ، فالماء يفترض أن يطفئ عطشه ويبل ريقه ، بينما تنفجر البيضة ، بدلاً من رأس الميت ، عندما يعرف سلوك زوجته(٨٧) .

وحتى الآن فقد قمت بوصف الأضرحة الكاملة ، ولكننا نصادف أجزاء من أضرحة . ويكفي أن نقدم وصفاً قصيراً لأحدها . في صور باهر(٨٨) ، وبالضبط خلف المضافة ،

أشكال طقوس الأضرحة . والمثال الوحيد على ذلك هو الشيخ حُويسْ(٩٢) في بدو ، حيث لا توجد طاقة تتصل به(٩٣) . وفي حالات أخرى لا نجد كومة الحجارة ، بل نرى فقط حجراً عمودياً يشير إلى الرأس ، وآخر يشير إلى القدمين ، وذلك ما يدلنا على وجود القبر ، كما هو الحال في الشيخ صباح ـ أريحا . وهذا الضريح المفترض محاط بحويطة(٩٤) .

ج- الأشجار:

تشكل الأشجار عنصراً هاماً جداً لمعظم المزارات ، وهذه ليست عادةً جديدة ، لأن الكثير من ' الأماكن العالية' من العهد القديم كانت ذات علاقة بالأشجار الخضر . إنني لا أشك في أن كل مزار إسلامي ـ مع استثناءات قليلة ـ يتميز ، أو كان ذات مرة متميزاً بوجود شجرة أو أكثر . إن ' الأولياء' الذين يعودون إلى عهد قريب هم في العادة بدون أشجار ، مثل الشيخ أبو حلاوة . وإن عدداً كبيراً من تلك الأشجار قد قطع خلال الحرب ، بينما مات الكثير منها بسبب الهرم ، أو اقتلعتها العواصف (البطمة في بيت صفافا) . وهذه هي الأسباب الرئيسية التي تعود إليها مسألة خلو المزارات من الأشجار . لقد سمعت كثيراً هذه العبارة' إن الولي لا يملك شجرة في الوقت الحاضر ، ولكنني أذكر جيداً أنه خلال صباي كانت تنتصب هناك شجرة ضخمة' . وفي كثير من الحالات ، حيث قطعت الشجرة القديمة ، فإن السكان ، في القرية ، قاموا بزرع شجرة أخرى من نفس النوع ، كما تم في ' الشيخ عنبر' . أن شجرة التين الضخمة ، التي كانت تعيش هناك ذات يوم قد قطعها الجنود الذين كان معسكرهم في الجوار وأحرقوها . وقد قام سكان العيسوية بزرع أخرى مكانها . ويحدث أن تكون هناك شجرة على مسافة من الولي ، ويقول أحد الناس من سكان القرية أنه رأى في المنام بأن الشجرة ذات صلة بالولي ، ويكفي ذلك لحماية الشجرة تماماً . إن شجرة 'ميس' (L . Celtis australis) تنمو قرب الشيخ عبد الله (شُعفاط) وشجرة تين تنمو فوق كهف عبد السلام (عناتا) تعتبران في الوقت الحاضر شجرتين تعودان إلى القديسين .

وحسب المعطيات التي جمعتها عن المزارات ، التي تمكنت من الحصول على معلومات أكيدة حول وجود الأشجار أو غيابها فيها ، كان هناك ٦٠٪ من تلك المزارات مرتبطة بوجود أشجار . ومن خلال تحليل تلك المعلومات فإنني قد وجدت بأن القداسة لا تعزى للمكان بسبب الشجرة ، ولكن الشجرة تستمد قداستها من الولي

الذي كرست له . وفي بعض الحالات قد توجد براهين على عكس ذلك . إنه من بين ١٢٨ حالة ، وجدت فيها أشجار بالقرب من المزارات كانت الشجرة في ٣٠ منها هي شجرة بلوط(٩٥) ، وفي ٢٥ شجرة تين(٩٦) وفي ٢١ شجرة خروب(٩٧) ، وفي ١٦ شجرة زيتون(٩٨) ، (٩٩) ، وفي ١٤ شجرة توت(١٠٠) ، وفي ١٢ شجرة سدر(١٠١) وفي عشر كانت شجرة بُطم(١٠٢) . وأما الأشجار الأخرى فكانت : الصنوبر ، السرو ، القريش ، النخل ، الملول ، الصبر ، الدالية ، الرمان ، الميس ، الجميز ، الغار .

إن الأشجار السائدة في السهول مثل التوت والنخيل والجميز ترتبط بطبيعة الحال مع المزارات في السهول . وفي بعض الحالات فإن شجرة وحيدة تجمل المزار ، وفي بعض الأماكن الأخرى فإن بستاناً صغيراً أو كبيراً يكرس للولي . وفي إعتقادي انه بالقرب من العديد من هذه الأشجار المقدسة كانت توجد غابات لم يبق منها سوى القليل الذي يشهد على مجد الغابات في فلسطين . إن أشجار الشيخ القطراوني ، رجال أبو طوخ(١٠٣) ، الشيخ أحمد(١٠٤) ، الشيخ أبو ليمون(١٠٥) توضح وجهة النظر هذه . وليس من الضروري أن تكون مجموعة الأشجار المخصصة لولي من نوع واحد . وفيما يلي بيان بأشجار مختلفة متصلة بولي واحد :

الولي	المكان	الأشجار
أبو ليمون	بيت أكسا	البطم والبلوط
المنصوري	عورتا	توت وعنب
العُزير	عورتا	البطم ، النخيل ، والخروب
شجرة الأربعين	القبيبة	التين ، البلوط ، والبطم
العزير	العيزرية	الرمان ، السرو ، الزيتون والرمان
سلمان الفارسي	جبل الزيتون	صنوبر ، سرو ، زيتون ، ورمان
أبو طوخ	بيت لقيا	زيتون ، بلوط ، بطم ، خروب وعدة أنواع أخرى .

والأشجار عموماً قريبة من المزار ، وفي بعض الحالات الشاذة فإن البناء يضم الشجرة أو جزءاً من الجذع . وقد توجد الشجرة على مسافة ما من الولي . وعندما تكون هناك أكثر من شجرة مكرسة للولي ، فإن إحداها تنمو قرب المقام والبقية على مسافة لا بأس بها . وإن أفضل مثال على ذلك هو مقام البدرية الذي توجد فيه شجرتا بلوط إلى الشرق من المقام ، وثالثة في الوادي ، ورابعة في الطريق إلى المالحة ، وخامسة شرقي الرام ، وقد قطعت الأخيرة في الحرب . وللسلطان إبراهيم الأدهمي- بيت حنينا ، شجرة توت على مسافة منه ، وبلوطتان وشجرة ميس ، وأما الأخيرة فقد ماتت وقطعت منذ عهد قريب(١٠٦) .

إما الأشجار المقدسة التي لا تتصل بقبة أو ضريح ، فسنأتي على وصفها فيما بعد . وجميع الأشجار المقدسة ، بغض النظر عن قربها أو بعدها عن المزار ، تعامل باحترام ، وحتى تلك غير المتصلة بالمرة بأي مزار فإنها تتمتع بالاحترام . وإذا كانت الشجرة المقدسة شجرة فاكهة مثل التوت والتين والعنب والصبر فإنها تعتبر ' سبيل '(١٠٧) ويعني ذلك أن كل شخص يمر من الطريق يسمح له بأن يأكل ما يشاء ، ولكن عليه الا يحمل شيئاً من ثمرها معه . وكل شخص يكسر هذه القاعدة يقال أنه سيعاقب بشدة من جانب الولي الذي يمتلك الشجرة . وفي العادة فإن الذي يأكل من شجرة السبيل يقوم بقراءة الفاتحة لروح الولي . وفي حالات أخرى فإن القيم أو الخدام المسؤول عن المزار يحتفظ لنفسه بحق جمع الفاكهة ، تماماً مثلما يحتفظ بحقه في بساتين الوقف التابعة للمزار ، كما هو الحال في ' ستنا الخضرا ' - نابلس . وفي حالة ' المنصوري ' - عورتا فإن أشجار العنب تؤجر لبعض سكان القرية ، الذين يحصلون على حق جمع العنب ، وحدهم . ويُستغل المال الناتج عن ذلك في إصلاح المقام . وتوضح لنا الحكاية التالية كيف أن الولي يعاقب كل من يسرق ممتلكاته : الحكاية تتحدث عن المنصوري ، وتقول أن رجلاً من الجندرمة صادف أن مر خلال عورتا ، واستراح تحت شجرة توت إلى جانب المزار . وعندما لاحظ وجود قطوف العنب الجميلة فقد قطع بعضها على الرغم من تحذيرات سكان القرية . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الجندرمة يتقيأ ولم يستطع أحد مساعدته ، أو التخفيف عنه إلى أن إشترى رأساً من الغنم وقدمه للمنصوري وذلك تخفيفاً لغضب الولي وتكفيراً عن خطئه .

وهناك شيء آخر لابد من ملاحظته ، وهو أنه لا يجرؤ أحد أن يقطع أي فرع من هذه الأشجار ، مهما كان صغيراً ، وكذلك لا يسمح الولي لأحد بجمع الفروع اليابسة ، إلا

إذا كان الهدف من استعمالها في إشعال النار لطبخ وليمة مقدمة للولي . إن الشيخ بريك ' ويلفظ البعض اسمه بريتس ' والواقع مقامه إلى الجنوب من يالو ، يمتلك عدة أشجار ، تم قطعها بواسطة بعض سكان القرية وتحويلها إلى فحم . وحسب المعتقدات المحلية فقد انتقم الولي لذلك عن طريق ذبح كل من يمر به . ويعتقد الناس أن الجراد لا يستطيع أن يؤذي الأشجار المقدسة . إن معظم الذين تحدثت معهم حول هذا الموضوع قد أكدوا بأنه بينما أكل الجراد كل أشجار القرية في زحفه على البلاد عام ١٩١٥ فإن الأشجار المقدسة ظلت كما هي ولم يمسها الجراد . ويعتبر ذلك دليلا على التفكير الطفولي للفلاحين . ذلك أن الأشجار فقط التي لم تهاجم ، عموماً ، من قبل الجراد قد حُفظت ، فقط ، في حالة الأولياء .

وهناك نقطة إضافية لا بد من ذكرها فيما يتعلق بالأشجار . فقداسة الأشجار والاحترام الذي يظهر لكل ولي هما السبب الذي يجعل الفلاحين يودعون الحبوب ، الخشب ، المحاريث ، الأدوات الزراعية ، وما شابه ذلك ، تحت تلك الأشجار لليلة أو لأكثر من ليلة ، وهم يشعرون بالتأكيد أن الولي يحمي تلك الأشياء . وسيذكر الكثير حول هذا الموضوع فيما بعد .

ويجب ألا نخلط بين الأشجار المكرسة للأولياء وبين تلك الأشجار التي تسكنها العفاريت . ومن الصعب على الغريب أن يميز بين هذين النوعين من الأشجار . وربما كانت النقاط التالية ذات دور في تمييز الأمور :

١ . لم أسمع قط بأن الأشجار التي تسكنها العفاريت تعلق عليها قطع القماش(١٠٨) وكل من سألته أجاب بهذا المعنى ، ولهذا لم أتمكن من توضيح قول ملز الذي اقتبسه غولدتسير في كتابه 'دراسات إسلامية' .

٢ . وفي الوقت الذي يمكن أن تكون أية شجرة مقدسة بكرامة الولي ، فإنه يبدو أن الجن يسكنون أنواعاً معينة من الأشجار ، وبشكل خاص الخروب . والعديد من الحكايات التي توضح ذلك ذكرتها في كتابي ' الخرافيات ' (١٠٩) . ولذلك يقول المثل العربي ' النوم تحت الخروب غير ممدوح '(١١٠) ، ذلك لأن هذا الشجر ، ليس فقط مفضلاً لسكنى الجن ، بل لأن الجن تجتمع تحته ما بين فترة وأخرى . ولذلك فإن الفلاح البسيط لا يربط حماره تحت شجرة الخروب إلا بعد الاستئذان من الجن . وتخبرنا الحكايات بأن هذه الشجرة كانت السبب في

خراب مملكة سليمان ، والأمر متصل بفكرة أن الخروب(١١١) مرتبط بالنجم الجالب لسوء الحظ(١١٢) : زحل . وكذلك يعتقد بأن شجر التين الأسود هو من الأشجار المفضلة للجن والعفاريت (١١٣) .

وعندما تكون شجرة مسكونة بالجن فإنها لا يمكن أن تكون في نفس الوقت تابعة للولي . وذلك بعكس الينابيع التي يمكن أن تسكنها روح طيبة وأخرى شريرة في نفس نبع الماء(١١٤) .

أما قصة شجرة الخروب ومملكة سليمان فهي كما يلي : ذات يوم لاحظ الملك سليمان في بهو المعبد نبتة صغيرة غير معروفة لديه ، فسألها عن أسمها ، وكان الجواب خروب . وسأل الملك : وما فائدتك ؟ قالت الشجرة : لأخرب أعمالك . وعندها سأل الملك الإله ان يكون موته ، عندما يحدث ، مخفياً عن الجن ، حتى يعرف به كل البشر . وبعد أن قدم سليمان دعوته اقتلع الشجرة وزرعها في حديقة ليبعد أذاها ، وعندما كبرت قطعها ، وصنع منها عكازة .

وسألت بلقيس ملكة سبأ الملك سليمان كيف يمكن إدخال خيط حرير في خرزة بواسطة برغي ، فسأل الملك كل الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات أن تساعده في إيجاد الجواب . وهكذا قامت حشرة صغيرة بالمهمة عندما أخذت طرف الخيط بفمها ، وزحفت إلى الطرف الآخر من الخرزة . وقام الملك برد الجميل للحشرة بأن منحها الحق في أن تقيم في أية نبتة تختارها ، وتأكل منها . وبدون أن يعلم الملك ، سكنت الحشرة في شجرة الخروب ، ووصلت الى جذع الشجرة ، وعندما جاء أجل الملك ، كان يتكئ بجسده على عكازته ، وجاء ملك الموت وأخذ روحه ، دون أن تعرف الجن ذلك . وفي النهاية قامت الحشرة بتفريغ العكازة ، وسقط جسم الملك على الأرض . وهنا عرفت الأرواح الشريرة بموت الملك المستبد(١١٥) .

د- قنوات المياه:

الماء واحد من الملامح البارزة للأماكن المقدسة ، وقد يكون الماء بئراً تتجمع فيه مياه الأمطار أو هرابة ، وهي حفرة على شكل البئر غير مقصورة ، أو بيارة كما هو الحال في السهل الساحلي ، أو أخيراً مجاري المياه مثل الينابيع الجارية والنهيرات .

وبالطبع فالماء غير موجود إلى جانب كل مزار ، ولكنه موجود إلى جوار العدد الأكبر منها . ان مثل ذلك النبع أو البئر يأخذ صفة القداسة من الولي ، ومن الممكن أن يستمد منه قدرات خارقة للعادة . يستفيد منها الفلاحون في حال العلم بها ، وسنعالج هذا الموضوع لاحقاً بتفصيل أوفى .

وفي كثير من الحالات نجد البئر في حالة خربة ، وبالتالي لا تحوي ماء(١١٦) . وفي المزارات التي تقع بالقرب من قمم الجبال أو عليها فإن الآبار تكون موجودة عادة ، بينما نجد البيارة والهرابة في السهل . وفي المناطق الجبلية ، حيث توجد الأماكن المقدسة على سفوح الجبال ، فإننا نجد الينابيع أكثر ، عادة .

وفي حالات قليلة نجد ' السبيل ' إلى جوار المزار ، والسبيل في هذه الحالة (خزان) يبنيه الناس ، ويتم ملؤه بالماء في أوقات منتظمة ، من أجل أن ينتفع منه كل عابر وكل عطشان . ويوجد كأس ، في الغالب ، في ذلك المكان . ومن الأولياء الذين نجد ' السبيل ' عندهم : الإمام علي والشيخ جراح ، وفي المزار الأخير فإن السبيل محاط بزاوية . وخارج المقام نجد أنه قد بني مسجد جديد ، وعلى جدرانه الداخلية تتدلى الطبول والصنوج ، والحراب(١١٧) ، والسياخ والشياش (جمع شيش)(١١٨) .

وفي بعض الأماكن نسمع كلمة مسقاي وقد حلت محل 'سبيل' . ان بعض المزارات مثل سيدنا سعد الأنصار والشيخ حمد الله ، تتوفر فيها جرار كبيرة (زْيارْ) ، تظل دائماً مملوءة بالماء . وهكذا يجد التقي العابر الماء الضروري للقيام بالوضوء .

ويقع مقام الولي حمد الله(١١٩) إلى جوار مقبرة بدو من الناحية الغربية ، وهو يتألف من ساحة رباعية مبنية من الحجر والطين . ويقع الباب في الجهة الشمالية ، وحول الضريح هناك شجرة بلوط وورود وأزهار . وهناك جرة ماء ، ولكنها كانت مكسورة عندما زرت المكان عام ١٩٢٢ . ويوجد محراب يشير إلى القبلة ، وهناك قطع قماش مربوطة على الشجرة . والى الشمال من المزار هناك حوض ماء كبير محفور في الصخر .

وفي بعض الأحيان فإن الماء الجاري والشجرة يشكلان الدليل الوحيد ، أو المؤشر الوحيد على قداسة المكان . وقد نجد مجاري مياه التي لا تتصل بمزار أو قبر أو شجرة ، اعتبرت مقدسة وذات علاقة برجل مقدس .

وفي حالة واحدة ، المطبعة ، نجد أن ، مستنقعاً له صلة بالولي . ان هذا المستنقع يتمتع بسمعة كبيرة وقدرة على شفاء آلام الروماتيزم والعقم .

هـ- الكهوف:

ان الملمح الأخير ، في هذا السياق ، هو وجود كهف داخل المزار أو خارجه . ولابد من أن نلاحظ وجود ثلاثة أنواع مختلفة من الكهوف :

١- كهوف مقدسة تتصل بمزار : ويكون أما قبراً أو مقاماً .

٢- كهوف مقدسة لا صلة لها بأي مزار .

٣- كهوف بسيطة ، لا يبدو أن لها علاقة واضحة بقداسة المزار ، على الرغم من أنها موجودة إلى جوار إحدى المزارات .

ويجدر ملاحظة علاقة الكهف بالمزار ، سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ففي بعض الأحيان نجد الكهوف المقدسة داخل المقام نفسه ، وتظهر وكأنها خزان ماء ضحل بفتحة كبيرة(١٢٠) . وفي مثل هذه الأحوال نادراً ما نجد قبراً في المزار ، ويعتقد الناس أن القبر داخل الكهف نفسه(١٢١) . وبالطبع فإن أحداً لا يجرؤ على الهبوط إلى القبر . وفي الغالب فإن فتحة مثل هذا الكهف تكون مغلقة .

والقصة التالية توضح هذا المعتقد . فقد غامر ذات مرة قيم الشيخ محمد ، والذي يقع مزاره في وادي الدم ، إلى الجنوب من الجورة ، في الهبوط إلى الغار ، وهناك رأى الولي يحمل سيفاً يسيل منه الدم . ذلك السيف كان لقائد إسلامي سقط هنا بينما كان يقود المقاتلين لفتح عسقلان . وحالما صعد القيم وقع مريضاً ، ومات خلال أيام قليلة .

وفي حالات كثيرة نجد أن الكهوف خارج المبنى ، إما قريبه أو على مسافة ما منه .

ويروي الناس أحياناً بأنهم قد شاهدوا الولي ، وقد ترك المزار وسار إلى الكهف ، وأمَهُ بعض الوقت ثم رأوه يعود إلى المقام . والكهوف المتصلة بالرجال المقدسين هي محط إحترام دائم . و بعض هذه الكهوف ظلت بعيدة عن أن يدخلها أحد . كما أن البعض الآخر لم يقترب منه أحد إلا في ساعات النهار بسبب ' الوهرة ' القوية المتصلة به .

وفي بعض الحالات فإن المصابيح تضاء في الكهوف ، وكذلك يحرق البخور . ولا يسمح للحيوانات بالدخول إلى مثل هذه الكهوف ، لأنه يعتقد بأن روح الولي سوف تعمل على إيقاع عقوبة شديدة بالحيوان . وقد ذكر العديد من الفلاحين أنهم شاهدوا ضوءاً أخضر ، ينطفئ عندما يقترب الإنسان من المكان .

وفي معظم الحالات فإن ما ذكرته أعلاه ينطبق أيضاً على الكهوف التي لا تتصل بمزار . ان تفاصيل أوفى عن هذا النوع من الأماكن سوف يتم التطرق إليها لاحقاً . ومن بين هذه الكهوف نذكر :

كهف على يسار طريق العربات المؤدية من القدس إلى كولونيا ، مقابل البيت الأخير من لفتا ، الواقع على يمين الطريق(١٢٢) . وكهف في حديقة مستشفى البُرْص في القدس(١٢٣) .

وبالإضافة إلى هاتين المجموعتين من الكهوف هناك الكثير من الحالات التي نجد فيها كهوفاً ليست بعيدة عن المزارات ، ولكن لا علاقة وثيقة لها بتلك المزارات . وفي الغالب فإن تلك الكهوف تكون ضمن الخرائب . ومن الممكن أن يضع الرعاة أغنامهم فيها أثناء الليل .

ومن الأمثلة على وجود كهوف حول المزارات :

الشيخ عبد السلام ، الشيخ السدري والشيخ عنبر . أما المتصلة بالمزار الأول فموجودة في خربة علْميت ، في حين المتصلة بالمزار الثاني في خربة دير السد ، والمتصلة بالثالث في خربة ' ابْقوعْ الذانْ ' . أما الكهوف الواقعة تحت مزار البدرية (شرفات) فهي تستعمل كمخازن للتبن .

هذه الكهوف تنقسم إلى نوعين : طبيعية أو محفورة في الصخر . والنوع الأخير في معظمه قبور قديمة قام الناس بتوسيع مداخلها . وفي بعض الأحيان يحسب الناس أن بعض العقود المدفونة كهوفاً ، وقد لاحظت مثل ذلك في عورتا .

ان الكهوف الثلاثة التي تتصل بهذه الفئة هي في اعتقادي اكثر نماذج المزارات فظاظة ، فهي مهدمة ، ومعتمة وقذرة وغير معتنى بها ، ولا يزورها أحد . ' الشيخ سرور ' موجود داخل القرية ، ويتألف مقامه من غرفة واطئة قذرة معتمة وشبه خربة ، وكانت

عندما زرتها مملوءة بالجير . أما العجمي فهو فتحة منخفضة ضيقة وقذرة في منطقة سكنية . وكان مقامه مليئاً بخشب الوقود . وهناك مقام آخر للعجمي في كهف يشبه الغرفة ، موجود تحت بناية ، وله قبة .

وبالرغم من الوضع المزري لهذا النموذج من المزارات فإنها تحظى باحترام الفلاحين ، فتضاء لها مصابيح الزيت ويتم حلف الأيمان باسمها ، وتقدم النذور لها .

ومن بين المزارات التي لها كهف مقدس :

العُزير قرب عورتا والصخرة في مسجد عمر- القدس ، والشيخ أحمد الحويس في بدو ، والشيخ السدري قرب عناتا .

وسيتم التطرق للمزارين ، الأول والثاني ، بالتفصيل فيما بعد . أما ضريح الشيخ أحمد الحُويس(١٢٤) فيقع في مقبرة عامة ، بينما يقع الكهف ، الذي يحظى باحترام عظيم على حافة القرية . إنه قبر قديم محفور في الصخر ، ونراه خلال الشتاء وقد امتلأ جزئياً بماء المطر . ان جميع النذور والشموع والقناديل تقدم إلى القديس في هذا المكان . وقد لاحظ بعضهم القديس يسير خارج الكهف . وكنا قد وصفنا السدْري من قبل .

اما الكهوف المقدسة التي لا تتصل بالمرة بضريح أو مقام مبني سوف تتم دراستها حقاً . ومن بين الكهوف الموجودة بجوار أماكن مقدسة وغير متصلة بقدسية المقام فهي :(١٢٥)

- الشيخ يوسف : بين البيرة وصُرْدا .
- الشيخ عمار : في دير دُبوانْ .
- الشيخ أبو يوسف : شمال كفر نعْمة(١٢٦) .
- الشيخ عبد السلام : في عناتا .

يقع مزار الشيخ عبد السلام إلى الشرق من عناتا داخل منطقة خرائب . ويضم المزار غرفة تحوي الضريح المغطى بقماش أخضر . وأما حجر الراسية ، فعليه لفة خضراء ، (وهي لباس الرأس عند الفلاحين) . وقد وجدت في المزار : حصيراً من القش ،

مصابيح زيت عديدة ، زجاجات زيت كانت في الغالب خالية ، مكانس من القش ، جرة زيت من الفخار ، ونسخة من القرآن . وهناك عدة كهوف خارج هذه الغرفة ، منها الصغير ومنها الكبير الذي لا يحظى باحترام وقداسة الولي . والى الشمال الشرقي نجد ضريح ابنه الشيخ سليمان . وتنمو شجرة تين على الصخرة المجاورة للمزار ، وهي متصلة لدى البعض من باب ان الأب هو الذي زرعها ، ويقول آخرون أن الله جعلها تنمو في الصخرة لإثبات أصالة الولي .

لقد تعاملنا فيما سبق مع الكهوف ذات الطبيعة الواضحة ، وكثيراً ما يخبرنا الناس أنه تحت أو إلى جانب ' الولي ' هناك كهف مستور يكون في داخله ضريح الشخص المقدس . ويصادفنا ذلك في حالة الشيخ أحمد الكركي الطيار في القسطل ، وستنا الخضراء في نابلس ، والشيخ القطرواني بين بيرزيت وعطارة ، والنبي صمويل ، والشيخ عبد الله في القبيبة . . . الخ .

ان ' ستنا الخضراء ' توضح هذه الفئة . هناك ثلاثة أبواب ، الأوسط هو الرئيسي يؤدي إلى غرفة مستطيلة مفروشة بالسجاد ، وأما الجدران ، وخاصة الجنوبي فهي مزخرفة برسوم خشنة ، وآيات قرآنية . وقد عُلقت على الجدران آلات موسيقية وأسلحة الدراويش . وقد زين المحراب بشكل جميل . وهناك باب في الجدار الغربي يؤدي إلى غرفة صغيرة معتمة ، معروفة باسم ' حزن يعقوب ' ، والتي يقال ان يعقوب بكى فيها على ابنه المحبوب يوسف .

ويقول الشيخ بأن تلك الغرفة مبنية على كهف كان مفتوحاً يوماً من الأيام ، تؤدي إليه خمسون درجة . ويعتقد أن المكان هو بالفعل ذلك المكان الذي قضى فيه يعقوب أيام الحزن(١٢٧) . وتحيط بالمزار حدائق جميلة .

ومن الخطأ أن نخلط الحالات الموصوفة أعلاه بتلك التي يسكنها الجن ، والذين يظهرون بأشكال مختلفة وبشكل خاص خلال الليل ، ويحاولون إيذاء المارة . ومثل هذه الكهوف :

- مغارة أبو فرحْ .
- مغارة مرج البدْ .

وكلاهما في أبو ديس . وفي المغارة الأولى فإن الجن يظهر على شكل حيوانات ، وأحياناً على شكل بشر . وفي الكهف الثاني فإن العفاريت تظهر على شكل ديك .

وهناك أماكن وكهوف يعتبرها المسيحيون واليهود مقدسة وتحمل أيضا صفة القداسة عند المسلمين ، وهي مسكونة بالجن . وعلى الرغم من أن ذلك نادر فإن الحكاية التالية توضح ذلك .

'كان سليمان مصطفى ، وهو فلاح من المالحة عائداً من القدس ، وبما أنه تعرض لأمطار عاصفة ، فقد بحث عن مأوى له في كهف قرب ' بير البلاط ' وليس بعيداً عن دير الصليب المقدس . ويقال ان رهبان هذا الدير كانوا قد دفنوا موتاهم هناك في الأيام السالفة . وما أن جلس الرجل في المغارة حتى اقترب منه ' تيس غنم ' . وفرح الفلاح بما رأى ، وأشعل عود ثقاب ، ليرى تلك الهدية غير المتوقعة ، ولكنه لم ير شيئاً . وعندما انطفأ عود الثقاب رأى التيس من جديد . وقد أصابه الرعب بسبب ظهور التيس واختفائه ، وخرج من الكهف وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . وساعد ذلك على تحريره من العفريت الذي ظهر له على شكل تيس' .

٣ - أنواع المزارات:

لقد قمنا بدراسة مميزات المزارات باستثناء الحجارة الدائرية وأكوام الحجارة والصخور ، التي يمكن أن نصادفها . والآن نتقدم باتجاه دراسة العوامل التي تشكل شخصية الولي ويجب ، أولاً ، إبداء الاهتمام إلى العوامل التالية : ان أهم ميزتين هما : المقام والضريح . وتأتي الأشجار وقنوات المياه في المرتبة الثانية . وهناك عوامل أخرى ذات أهمية أقل . وإنني آمل أن أقوم في الصفحات القادمة بتوضيح تلك الميزات غير الهامة والتي تعطى أعلى درجات الاحترام والتقديس أحياناً . فلا يمكن اعتبار أي مكان مقدس ، بمعنى أنه مسكون من جانب قديس ، ما لم يتوفر فيه شرطان :

١- القيام بطقوس دينية مثل حلف اليمين ، النذر ، إشعال المصابيح ، حرق البخور . . الخ .

٢- تكرار حصول ظاهرة غير طبيعية ، مثل سماع الموسيقى الدينية ، رؤية الضوء ينبعث تلقائياً ، أو حدوث عقوبة قاسية لأحد المارة . وهذه النقاط سيتم التعامل معها في فصل قادم . ولندرس الآن الملامح المختلفة التي تُكون شخصية المزار ، بالمعنى الواسع للكلمة ، ويمكن أن تقسم إلى تسع فئات :

١ . مزارات تتألف من مقام وضريح ، مع كل أو بعض المميزات الأخرى .

٢ . مقام من دون ضريح .

٣ . ضريح من دون مقام .

٤ . كهف مع ضريح أو من دونه .

٥ . حويطة من الحجر من دون ضريح .

٦ . نبع أو بئر .

٧ . شجرة منعزلة ، أو مجموعة أشجار .

٨ . كومة من الحجارة .

٩ . حجر أو صخرة كبيرة .

ويمكن للمزارات ما بين رقم ١ أو رقم ٦ أن لا تترافق مع واحد أو أكثر من المميزات التالية ، الشجر والماء والخرائب والكهف :

١- مزارات بمقام وضريح

وهي اكثر أنواع المزارات اكتمالا وتطوراً ، وعادة ما نجد مثل هذه المزارات مرتبطة باسم قديس هام ومكرم وشهير . وفي مثل هذه الحالات فإن ضريح الشخص المقدس هو الجزء الرئيسي من المقام ، ومع مرور الزمن قام شخص أو قام أهل قرية ببناء المزار . وكلما زادت أهمية الرجل المقدس كلما زاد تعقيد البناء . ويتمتع الأنبياء بأكبر المقامات . وأحياناً نجد العديد من الشيوخ البسطاء في مزارات من هذه الفئة ، وعلى

سبيل المثال : الشيخ الثوري ، والشيخ عنبر . ولبعضهم أبنية ضخمة مثل الشيخ اعْمرْ في بيت دقو ، والشيخ حمد في كولونيا ورجال العمود في نابلس . وان أفضل الأمثلة على هذه المزارات مباني النبي موسى وعلي بن عليمْ(١٢٨) .

يقع مزار الشيخ اعمر(١٢٩) ابن الشيخ صالح على جبل تقع عليه قرية بيت دقو ، ويتألف المزار من ثلاث غرف . وبئر وساحة إلى الشمال من الغرف . أما الساحة فهي محاطة بجدار عظيم وفيها شجرة نخيل على جانبها الشرقي . وأما الغرفتان الغربيتان فتتصل الواحدة منهما بالأخرى . وفي الغرفة الجنوبية هناك ضريحا(١٣٠) الولي وزوجته ، بينما يوجد في الغرفة الشمالية قبر ابنه الشيخ داوود . وعلى جانبي الباب المؤدي من هذه الغرفة إلى الساحة نرى قبرين : الشرقي منهما يضم رفات الشيخ قاسم بن علي بن مرار ، بينما الغربي يضم رفات مرار بن داهود . وأما الغرفة الشرقية فكانت غرفة كتاب (مدرسة) ، ولكن حالتها الخربة في الوقت الحاضر تجعلها بلا فائدة . وفي الغرفتين الغربيتين نجد مصابيح زيت ، وزجاجات زيت ، ٤ أعلام ، وعاء طيب ، وكومة من ثمار الخروب . ويمثل الجزء الأخير حصة الولي من شجرة الخروب ، التي تخصه وتنمو على مسافة من المقام .

٢- مقامات بدون ضريح

هناك مزارات مبنية في القرى وتحمل اسم جامع(١٣١) مثل : جامع الأربعين (العيسوية) ، جامع عمر بن الخطاب(١٣٢) (صور باهر)(١٣٣) ، جامع العُزير (القرية) .

يقع جامع العزيز إلى الشرق من الدير والكنيسة الفرنسية البندكتية . ويتألف المقام من ساحة مفتوحة إلى الجنوب منها رواق بقوسين وغرفة للصلاة لها محرابان مزينان بشكل جميل . والى الغرب من الساحة المفتوحة غرفة صغيرة حيث يتم غسل الموتى . وهناك نبع وشجرة نخيل في الساحة . وحول المحرابين ، في غرفة الصلاة ، وحول محراب الرواق ، هناك طبعات يد وأشكال نخيل ، بعضها بسبع أوراق والآخر بتسع .

والناس يعرفون جيداً بأن الرجل المقدس الذي يحمل المسجد اسمه غير مدفون هنا . ويوضحون علاقته بالمزار ، بأنه كان في حياته تقياً ، ومن أجل ذلك تم تكريمه بإقامة محراب في كل مكان صلى فيه ـ ولم تكن تفوته أي من الصلوات الخمس ـ وبعد ذلك

بنى الجامع . لقد أفهمني هذا التوضيح مختار صور باهر(١٣٤) ، وسكان من شوبا . ويتصل هذا التفسير بالخليفة عمر بن الخطاب والسلطان إبراهيم الأدهمي(١٣٥) .

ان الكثير من المساجد التي تحمل اسم الخليفة تسمى 'عُمري' وهذا قد يصح على البعض ، ولكن بالطبع لا يمكن أن تفسر كافة الجوامع من هذه الفئة . ولكنه في الكثير من الحالات يعتقد أن الرجل المقدس قد علّم أو ظهر بعد وفاته في هذه البقعة ، ولذلك بني المسجد هناك تخليداً لذكراه . هناك تفسير ثالث قدمه لي مختار عناتا . لقد قال بأنه كلما كان يبنى مسجد جديد كان يسمى باسم بعض الناس المقدسين والذين لا يتم اختيارهم بالضرورة من بين المشاهير . ويعتقد الكاتب أنه لا بد من وجود أسطورة تربط بين الجامع والشخصية المقدسة .

والحكايات التالية يمكن أن تقدم بعض التوضيحات :

في الغرفة المعروفة باسم حزن يعقوب ، والموجودة في مقام ستنا الخضرا (نابلس) يفترض أن يعقوب بكى لوفاة ابنه المحبوب يوسف ، وجاء العزير إلى القرية ليعبد الله ، فربط حماره إلى عمود قرب النبع وصلى ، واستمرت عبادته بكثافة لمدة مائة عام ، وكان يظن أنه لم يلبث سوى دقائق قليلة . وعندما عاد العزير إلى المكان الذي ربط فيه حماره لم يجد سوى الهيكل العظمي(١٣٦) .

لقد عاش الشيخ القطرواني في قرية قطرة ، إلى الشمال من غزه . وحسب ما في إحدى القصص فإنه ترك القرية ـ لأنه لم يستطع أن يؤدي واجباته الدينية ـ وجاء إلى موقع ظهرة حمودة(١٣٧) ، وهي تلة عالية بين ببرزيت وعطارة ، وقد عاش هناك يؤدي واجباته الدينية . وفي رواية أخرى ، فإنه عندما نقل جثمانه للدفن ، طار الجثمان وتسلق التلة إلى حيث يوجد مزاره الحالي(١٣٨) .

وفي الغرفة المؤدية لما يسمى بإسطبلات سليمان ، نرى 'مهد سيدنا عيسى' . ويقال أن مريم العذراء اعتادت أن تضع طفلها هنا .

وتحت الصخرة المشرّفة في مسجد عمر فإن الزوار يرون أماكن يقال ان داوود ، سليمان ، إبراهيم ، إيليا ، ومحمد ، قد صلوا فيها ، كما هو معتقد . وان كل بقعة منها مقدسة .

وبالقرب من بعض المزارات ، من المجموعة الأولى ، تم بناء جامع حديث يحمل اسم الرجل المقدس الذي يحترمه الناس في الجوار . ولكن مثل هذا الجامع يستعمل فقط للصلاة ، بينما مظاهر الاحترام الأخرى تعود للمزار . ومن الأمثلة على ذلك : الشيخ جراح ، وسعد وسعيد(١٣٩) . (وكلاهما في القدس) .

وهنا تعاملنا مع مزارات من المؤكد أنه لا يوجد فيها ضريح ، وذلك حسب الاعتقاد السائد والمظهر الخارجي ، ولكن هناك تفرع لهذه الفئة يشكل حلقة وصل بين هذه الفئة والفئة السابقة ، والمكونة من المزارات التي لا يوجد فيها ضريح ، وتفتقد إلى أية علامة تشير إلى إمكانية وجود ضريح رغم تأكيد التقاليد المحلية بأنه مدفون فيها سواء تحت البناء ، أو في كهف أغلق فيما بعد . من هذه المزارات : القطرواني (عطارة) ، الشيخ احمد الكركي (القسطل) ، الشيخ حسين (بيت سوريك) ، الشيخ أبو إسماعيل (بيت لقيا) ، الشيخ عبد الله (القبيبة) . . الخ .

ومقام الشيخ أبو إسماعيل ، الذي يقع في وسط القرية ، يتألف من غرفتين . وتمثل الغرفة الأمامية مضافة ، بينما تمثل المقابلة ، مقام القديس . ولا نجد أثراً لضريح ، ولكن يقال بأن الولي مدفون في كهف تحت المقام . وفي وسط المضافة نجد الوجاق حيث يتم إعداد القهوة . وفي الساحة الخارجية هناك سدرة توفر الظل للضيوف الذين يجتمعون تحتها في أشهر الصيف . وهناك قسم من المزارات ينضوي تحته قبة الأربعين(١٤٠) .

ان كل مسلم يعرف بأن الأربعين ليسوا مدفونين في المزار ، ومع ذلك فإن شكلاً مستطيلاً من الحجارة وسط أرضية الغرفة من الشرق إلى الغرب يمثل الضريح .

٣- ضريح بدون بناء

يندر أن تكون قرية لا تمتلك مثل هذا الولي . وفي بعض الأماكن ــ كما هو في صور باهر وأريحا ـ فهذا النموذج هو الأكثر شيوعاً . ومثل هذه الأماكن المقدسة من الممكن أن تتألف من قبر أو عدة قبور . وحيث توجد عدة قبور متجاورة ، فإن الأشخاص المدفونين ينتمون بصورة عامة إلى نفس العائلة المقدسة . ومثال ذلك شيوخ الجعابرة (الخليل)(١٤١) ، الحاج عبيد (القديس يوحنا) ، رجال صوفة (دير غسانة)(١٤٢) ،

الشيخ أبو يمين (بيت عنان) ، الشهدا (الخليل) ، المجاهدين (الرملة) . وفي كثير من الحالات فإن أحفاد هؤلاء القديسين ما زالوا أحياء .

إن ضريح الشيخ أبو يمين محاط بجدار ، ويقع قبر الشيخ وابنه في المقام ، بينما تقع قبور أحفاده في الساحة المفتوحة حول البناء الذي يضمه السور . وتخص القديس شجرة رمان ، شجرة نخل ، وشجرة تين . ويقال أنه يرى في الغالب طائراً بينما تكون فرقته الموسيقية تعزف . وطبقا لاعتقاد محلي فإنه وأحفاده من الرجال الذين اختارهم الله .

وباستثناء أماكن قليلة ، مثل الشهداء والمجاهدين ، فإن هذه الفئة تنتمي إلى فترة حديثة ، وهم في العادة ضمن المجموعات التالية :

١ . شيخ حي من عائلة مقدسة يموت ويصبح ضريحه ، بصورة أو بأخرى ، محط احترام مثل أجداده . ومثال ذلك : الشيخ بخيت ، الشيخ حلو ، الشيخ صالح ، من عائلة الدواعرة في صور باهر ، وشيوخ الدواعرة هؤلاء مدفونون في المقبرة الغربية للقرية . ونجد قبورهم ضمن جدار مستطيل ، هو في العديد من الأماكن شبه مهدم . وأهم هؤلاء الشيخ نعيني وأبو ميثة . ولكل الأضرحة باستثناء النعيني حجارة عند الرأس والقدم ، وكوة لإشعال الزيت . والأضرحة الأحدث مزخرفة بالحنا والسراقون . ونجد جرار زيت وزجاجات زيت مكسورة ومبعثرة حول القبور .

٢ . إذا مات رجل مقدس هام ، أو درويش كان في حياته قد أسس طريقة أو كان عضواً بارزاً فيها ، أو كان يشفي المرضى في حياته ، فإن قبره يصبح أميل إلى اعتباره مقدساً ، ثم يعتبر ولياً من أولياء الله . وأفضل مثال على ذلك هو الشيخ أبو حلاوة :

"الشيخ أبو حلاوة مدفون في المقبرة الواقعة عند السور الشرقي للقدس . ويقع الضريح على أرض مرتفعة إلى الشمال من بوابة سان استيفان . والقنديل الذي يصفه كاله Kahle (١٤٣) ، والذي يُرى في الصورة التي أخذت للمكان ، سرق أثناء الحرب . ويندر أن توضع الورود على الضريح . وكان هذا الشيخ يحظى باحترام كبير خلال حياته . وقد إعتاد المرضى ،

والناس الذين يقعون في المتاعب ، الحصول على مساعدته . وعندما مات وحمل الناس جثمانه للدفن ، طار وهبط إلى البقعة إلى حيث موضع الضريح الحالي . ويحظى ضريحه الآن باحترام ، ويقوم المرضى بتمزيق قطعة من ثيابهم ويربطونها على الراسية[1] .

٣ . يحلم بعض القرويين أن مكاناً ما هو مكان مقدس ، باعتباره مدفن ولي . وهكذا يقوم القرويون ببناء ضريح على المكان ، كما هو الحال في الشيخ صُوان .

[1]كان فلاح من صور باهر ، يعيش في كهف صغير ، قد فقد أحد أفراد عائلته بعد فقد آخر . ولم يستطع أحد أن يفسر سوء حظه . وذات ليلة ظهر له شيخ محترم في المنام واقترب منه بخشونة وقال : لماذا لا تحترم مسكني ؟ إذا لم تعتذر عن ماضيك فإنني سأدع باقي أفراد عائلتك يموتون . وسأل الرجل الخائف : من أنت يا سيدي ؟ وجاءت الإجابة : أنني الشيخ صوان ، وأنا مدفون هنا . وفي الصباح تم بناء ضريح وتحركت العائلة من الكهف إلى مكان آخر[1] .

وفي كثير من الحالات نجد حويطة تحيط بالضريح . وحتى في الأبنية العالية فإننا لا نجد قبة ، بل حجارة غير مدقوقة ، كما هو في الحالات التالية :

الشيخ صباح : أريحا .

الشيخ زُغبة : أريحا .

الشيخ حمد الله : بدو .

الشيخ امبارك : بيت اكسا .

الشيخ الطيري : دير غسانة(١٤٤) .

الشيخ الهبيل(١٤٥) : دير غسانه .

وأحياناً فإن هذه الحويطة تبنى بشكل متماسك ، بإستعمال الحجارة المدقوقة ، والبلاط . وتكون الجدران عالية وتحيط بشكل كامل بالضريح والأشجار والمحراب والساحة المفتوحة . وترصف الساحة المفتوحة المحيطة بالضريح بالحجارة الملساء ،

وعلى الأخص في حالة الأولياء المهمين مثل العزير (لوحة ٢ شكل ٢) ، والمفضل والمنصوري في عورتا . وفي حالة المنصوري فإن الجدار المحيط بالضريح ، مقام من ثلاثة جوانب على الأقواس الجميلة (لوحة ٣ ، شكل ٣) .

وفي حالة الحويطة البسيطة تترك فتحة على شكل باب في أحد الجوانب . ويتألف الباب من حجرين كبيرين توضع قائمة ، ويوضع حجر آخر فوق كل منهما . وعلى الرغم من أنه يفترض في الزوار أن يدخلوا من هذا الباب ، فإنه نادراً ما يحصل ذلك . وهناك العديد من ' الأولياء ' البدو من هذا النموذج .

إن الشيخ صباح والزغبة(١٤٦) ، وكلاهما في أريحا ، هما مثالان جيدان للنموذج السابق . وللأول باب واطئ ، بينما يتوفر للثاني فتحة في الجدار الواطئ لتخدم الغرض . وعلى الزائر أن يزحف ـ إذا رغب ـ ليدخل من خلال الباب في حويطة صباح على الطريقة الرسمية(١٤٧) . ولذا فإن كل شخص يفضل أن يقفز فوق الجدار .

وفي معظم الحالات التي تخص الضريح بالحويطة يقال بأن الناس ، في أوقات مختلفة ، اقترحوا إقامة مقام ، ولكن القديس نفسه كان يرفض ذلك ويهدم في الليل ما بني خلال النهار ، ملقياً بالحجارة إلى مكان بعيد .

ان ضريح الشيخ درويش في بيت سوريك محاط بسور عال . وفي كل مرة كان الفلاحون يحاولون فيها بناء ضريح مناسب ووضع سقف على الجدران ، فإن القديس يظهر عدم الرضا من خلال هدم العمل ، حتى ألغى الناس الفكرة . والشيء نفسه حصل مع المفضل والمنصوري .

وفي بعض الحالات نرى ضريحاً ، لكن بعد التدقيق لا نستكشف سوى كومة من الحجارة ، التي يمكن أن تشير إلى موقع الضريح . وتحت شجرة البطم التابعة للشيخ مصطفى (شوبا) نجد حجارة غير منتظمة تشير إلى ضريح الولي . ولكنني لم أستطع أن أميز أية ملامح للضريح ، فالحجارة المبعثرة تحمل شكل حجارة الحقل العادية(١٤٨) .

٤- كهف بضريح أو بدونه

هناك نموذجان للكهف المقدس : الكهف الذي يضم ضريحاً ، والكهف الذي لا يضم الضريح . والنوع الأول نادر ، وأحسن مثال عليه الشيخ السدْري(١٤٩) . وإن وصفاً دقيقاً

لهذا المزار قد يكفي لتوضيح هذه النقطة بالضبط . موقع المولي في خرائب دير السد ، إلى الجنوب من الشيخ عبد السلام ، على قمة تلة منخفضة . وفي الخرائب هناك العديد من الكهوف(١٥٠) محفورة في الصخر ، وهناك درجات تؤدي إليها . وثمة عدة أحواض ماء ، غير صالحة ، مبعثرة هنا وهناك . ويوفر بير الزقاق ماء لاستعمال الرعاة . ويقع ضريح القديس في كهف طبيعي ذي سقف واطئ . وقد بني المدخل من حجارة مدقوقة ، وهو محاط بساحة خارجية مربعة ، تقع في مرتبة أدنى من الجزء الغربي . ولا يوجد باب لإغلاق الكهف . ونجد الضريح منتصباً على منصة منبسطة مربعة مع أعمدة على الزوايا الأمامية ، ونجد هناك مصابيح زيت ، وحاملات شمع ، وكبريتاً ، وجراراً مكسورة وزجاجات . . . الخ . والى جانب الضريح لا يوجد أي بناء . وفي الوقت الحاضر ليست هناك من شجرة متصلة بالمزار ، لكن في الماضي كانت هناك شجرة بطم تزين الفراغ .

ومن الأمثلة الأخرى على هذا النموذج : الشيخ أحمد الغريب (شمال المجيدل قرب الناصرة) الشيخ سلمان الفارسي (جبل الزيتون) الذي اعتدنا أن نرى ضريحه في كهف ، والسيدة الرابعة . والى جانب الشيخ سلمان الفارسي بنيت قبة جميلة . وفي السابق كان هناك دهليز يؤدي إلى الكهف ، وقد زرعت أمام هذا المزار الجميل عدة أشجار وهي شجرة سرو (أو الحياة) ، شجرة صنوبر ، وشجرتا رمان ، وشجرة زيتون . وهناك بئر يرتبط بهذا المكان(١٥١) .

السيدة الرابعة (وليست رحبا كما يقول مايسترمان(١٥٢) ولا راحيبت كما يقول بيديكر (١٥٣) ، والتي يقع مزارها قرب المصعد ، وتحت زاوية الأسعدية التي هي مقدسة بنظر المسلمين والمسيحيين واليهود . المسيحيون واليهود لا يكرمون الرابعة هنا ، ولكنهم يكرمون بيلاجيا (١٥٤) والنبية خولدا على الترتيب(١٥٥) . وتقودنا اثنتا عشر درجة من الغرفة العليا للكهف حيث نرى الضريح . وجميع الدرجات محفورة في الصخر الصلب . وهناك غرفة صغيرة قرب القبر يقال أنها كانت تؤدي فيها واجباتها الدينية . ويقال ان : الرابعة كانت تركع ألف مرة في اليوم وتقول :

" أنني لا أسأل عن تعويض ، ولكن لأرضي الله العظيم" .

وفي الغرفة العليا هناك بئر يقال ان لمياهه مذاق جيد .

وهناك بعض الكهوف ، تقع أمامها أضرحة وتجتمع فيها ملامح مزدوجة . ويقال أن الولي كان يُرى وهو يمشي من ضريحه إلى الكهف . وكمثال للتوضيح على هذا النوع فإننا نضع الشيخ أحمد الخواص ، الذي وصفنا مزاره من قبل ، والشيخ عصفور(١٥٦) إلى الجنوب من دير غسانه(١٥٧) . وفي الحالة الأولى ، فإن كل أشكال الاحترام تقدم للكهف ، حيث يفترض أن روح القديس تعيش . والمجموعة الأخرى ، مجموعة الكهف بدون ضريح ، والتي يفترض أن روح القديس تعيش فيه ، فلها ما يمثلها في أماكن عديدة في فلسطين . ان الكهوف ، إما أن تكون طبيعية أو منحوتة في الصخر ، وتتخذ مكانها على حافة القرية أو خارج الحقول . ونادراً ما نجدها وسط الأماكن المسكونة . ومن بين الكهوف التي تعتبر مساكن للقديسين(١٥٨) :

الخضر ـ جبل الكرمل(١٥٩) .

الشيخ علي قيطون ـ الخليل .

الشيخ غريب ، الخضر- قرب بيت جالا .

مغارة الشيخ ـ كفر عقب .

رجال الأربعين ـ بدو .

الأربعين مغازي ـ بيت لقيا .

رجال أبو طوخ ـ بيت لقيا .

الشيخ يوسف ـ بيت حنينا .

الشيخ عبد الله ، مزباح ـ صمويل .

ست(١٦١) درجات تقود إلى مغارة رجال الأربعين في بدو(١٦٢) ، أما الكهف فهو صغير ، دائري ، وله سقف منخفض . وخلال أشهر الشتاء يمتلئ جزء منه بالماء . وأمام هذا الكهف تنمو شجرتا بلوط ، وشجرة زيتون وشجرة بطم ، الواحدة منها إلى جوار الأخرى . وفي ظل هذه الأشجار يقوم الخطيب (شيخ القرية) بتعليم الأطفال . وليس

هناك أي ضريح في المكان . أما رجال أبو طوخ ، الذين لا يعرف عددهم فيسكنون في كهف صغير ، يقع في كرم زيتون كبير(١٦٣) .

ومدخل المغارة صغير حتى يصعب على أحد أن يجتازه . وعند المدخل نرى جراراً مكسورة ، وزجاجات زيت ، وبخوراً محترقاً ، وقد تبعثر كل ذلك هنا وهناك . ان هؤلاء القديسين يحظون باحترام كبير ، فلا يجرؤ أحد على قطع غصن من أشجار كرمهم .

والأسماء المختلفة المستعملة للكهف ، بغض النظر عما إذا كانت تنتمي لهذه المجموعة أولاً هي : مغارة ، غار ، شقاق ، حكف . ان التعبير غار يعني فقط البئر الذي على شكل كهف ، والذي يقع ضمن مقام . وتعتبر مثل هذه المواقع من أقدس الأماكن التي لا يجرؤ أحد على دخولها . وهناك حديث يقول : ما من نبي إلا وله غار . وفي كثير من الحالات (النبي صمويل) فانه يقال إن الضريح الواضح الموجود في المزار غير حقيقي ، وإنما يرمز إلى الضريح الحقيقي في الغار الذي لا يمكن زيارته .

أما الحكْف(١٦٤) فهو كهف صغير يغطيه حجر كبير رقيق ، مثل الشيخ العمري إلى الشرق من حزما . أما الأسماء الأخرى فتعبر عن كهوف . ومثلما نلاحظ فإن الغرف الصغيرة الواطئة المقوسة تسمى مغارة . ولقد لاحظت ذلك في عورتا . وفي شوبا فإن الأربعين مغازي يتمثلون بشكل ثقب ضحل في محجر قديم . وهذا سمي أيضاً مغارة . وهنا يشعل الضوء ويحرق البخور(١٦٥) .

وبالطبع فإن كل مظاهر الاحترام تؤدي للكهف كأي مزار آخر ، أذ يضاء ، وتقدم الأضحيات والنذور . ولا تدخل امرأه إليه الا إذا كانت طاهرة . ولا يسمح للحيوانات بدخوله وتدنيسه(١٦٦) .

وأحياناً يرتبط الكهف بشجرة أو كرم أو بئر ، كما هو الحال في :

الشيخ احمد غريب : في المجيدل قرب الناصرة(١٦٧) .

الشيخ موسى : في خربثا(١٦٨) .

رْجال أبو طوخ : في بيت لقيا .

رْجال الأربعين : في بدو .

والقصة التالية توضح كيف يمكن أن يكون لكهف بسيط احترام مزار :

'كان جمعة رجلاً أبرص(١٦٩) . وهو رجل مسلم من أبو ديس . وعندما كان في ملجأ البُرْص في القدس اعتاد أن يعيش في الصيف في خيمة في حديقة المستشفى ليقوم بحراسة المكان من اللصوص . وبينما كان ذات مساء خميس يؤدي صلواته سمع صلاة وموسيقى دينية للدراويش ، وترك جمعة خيمته في الحال ، وسار ببطء باتجاه المديح ، فرآه صادراً عن كهف ينبعث منه ضوء أخضر ولم يجرؤ على الدخول ، وبقي خارج الكهف حتى أنهى المصلون الغامضون صلاتهم . ولاحظ أن ذلك الأمر يتكرر كل ليلة جمعة . ومنذ ذلك الوقت حرص جمعة على إبقاء الكهف نظيفاً ، وكذلك حرص على نظافة محيط الكهف باعتبار أن الصلاح(١٧٠) يعيشون ويتجمعون هناك كل ليلة جمعة لأداء صلواتهم . وكان جمعة فقيراً ، ولم يقدر على إضاءة المكان ، كما يملي عليه ذلك الاعتقاد العام(١٧١)' . ان هذا يدلنا على أن قداسة بعض الأمكنة معروفة لأشخاص معينين ، ولا لجميع الناس .

وعلينا ألا ننسى قداسة الكهف الواقع تحت الصخرة المقدسة في مسجد عمر ، والأجزاء المختلفة من هذا الكهف سيتم وصفها عند دراسة الحجارة المقدسة . وهذا الكهف مقدس عند جميع المسلمين في فلسطين . وحتى المسيحيين فإنهم يؤمنون بكهوف مقدسة مثل مغارة الحليب في بيت لحم(١٧٢) . وتقول المرويات ان نقطاً من الحليب قد سقطت عندما كانت السيدة العذراء ترضع المسيح . وسيتم وصف القدرة العلاجية لهذا المكان فيما بعد .

٥- حويطة من الحجر

مثل هذه الحويطة من الممكن أن تكون صغيرة وبقطر ٣٠-٤٠ سم أو اكثر بكثير أحيانا وتسمى الحويطة أو الحويطية(١٧٣) ، بالحوض أو الصيرة(١٧٤) . وهي عبارة عن دائرة من الحجارة غير المدقوقة والموضوعة إلى جوار بعضها البعض من دون نظام ، أو جهد في المقبرة . وفي الغالب تترك فتحة لتكون مثل البوابة . وفي حالة الشيخة مْباركة (قلنديا) فإنه روي عن الولية أنها كانت تجمع قطع الفخار المكسور وترتبها على شكل حويطة ، تاركة فتحة صغيرة كمدخل . ومنذ الحرب فقد لوحظ بأن القطع القديمة لم

تبدل . وفي مكان ما من الجدار الداخلي لتلك الدوائر نجد طاقة توضع فيها مصابيح الزيت والكبريت .

في بدو نجد أن المقبرة مقامة على هضبة صغيرة ، وفي جانبها الشمالي الشرقي نجد(١٧٥) حويطة بسيطة يكرم فيها الشيخ علي الطلال . وبالقرب من هذه البقعة المقدسة تنمو شجرة زيتون وشجرة تين ، كما اكتشف حوض ماء هناك . وكل ذلك يخص الولي . وهناك جانبان من الهضبة مبنيان من الحجر القديم . وهذا المكان هو مثال جيد على حويطة مقدسة متصلة بأشجار وبئر وخرائب .

وفي حالة الشيخ فريج (بيت حنينا) ، هناك تنكة كاز قديمة تغطي الحويطة المقدسة ، وبذلك تحمي الضوء من أن ينطفئ . ان مثل هؤلاء الأولياء لا يحظون باحترام كبير وعليه نجد الحويطة غير معتنى بها . ونسمع عن حالات قامت فيها قرى بإقامة مقام لشيخ من هذه المجموعة ، ولكن الولي منع العملية ، كما شاهدنا في الشيخ حويس . ان بعض المزارات التي تنتمي إلى هذه المجموعة ، يمكن نقلها إلى المجموعة رقم (II) بعد البناء الذي حل محل الحويطة . ان مسجد ستنا عايشة- بجوار النبي موسى ، توضح هذه النقطة ، فقد قام بناء بسيط مربع مقام الحويطة . ولا يتصل بهذا المقام بئر أو شجرة . وعلى مسافة أمتار قليلة إلى الشمال من المنصوري في عورتا ، نرى حويطة يقال أنها تشير إلى قبر حوشا ابن المنصوري . وفي المركز وضع ' قنديل سفري ' كبير . ويقال ان الأولياء هنا لا يحبون أن تبنى أبنية ، على أضرحتهم .

ومن المثير للإهتمام أن نعرف بأن المسيحيين يملكون حويطات يقدسونها ، فعلى يسار الطريق من بيت جالا إلى الخضر التي تمر بالمراح والشرفة ، توجد حويطة صغيرة يمكن أن يلقي المار فيها خبزاً أو تيناً أو عنباً . وأحياناً تكون نظيفة . ويخبرنا فلاحو بيت جالا انه عندما جاء القديس جورج (الخضر) من الشمال إلى قرية الخضر (حيث بنيت له كنيسة) مشى بخطوات جبارة ، وإحدى هذه الخطوات وقعت في تلك البقعة(١٧٦) .

ومن الحُويطات المقدسة عند المسلمين :

الشيخ غريب ـ يالو(١٧٧) .

النبي دانيال ـ قرب الخضر .

الشيخ سعيد(١٧٨) ـ في إذنا .

الشيخ مُراد ـ في يالو .

الشيخ أبو الكفير(١٧٩) ـ في خربة الكفيرة(١٨٠) .

الشيخ عبد المحسن ـ في جيبيا .

النبي دانيال (والذي يلفظ أيضاً دانيان) له حويطة في كرم عنب يقع بين أرطاس والخضر في مراح الجامع . والنبي الذي كان يمر في هذه الطريق أدى الصلاة في هذه البقعة . وتنمو قرب الحويطة شجرات بلوط عُلقت عليها شرائط وخصلات شعر . ويقال أنه يظهر صدفة ماشياً في كرم العنب ويرتدي تاجاً أخضر . وأحياناً يكون معه حصانه الذي يربطه إلى شجرة . وفي السابق كان يرفض أن يكون له بناء ، وأخيراً غير رأيه وظهر لحسين موسى من أرطاس ، وسأله أن يبني له مزاراً .

٦ ـ الينابيع والآبار

نحن نعرف أن جميع ينابيع فلسطين تقريباً يعتقد بأنها مسكونة بالأرواح . ان هذه الأرواح تنتمي إلى فئة العفاريت(١٨١) . وفي الوقت نفسه فإن هناك من قنوات المياه ما تكرس لبعض الرجال المقدسين . ويعتقد كالة (Kahle)(١٨٢) أن شرطين يجب أن يتوفرا حتى يكون النبع مقدساً :

١ـ أن يكون النبع غامضاً (قناة معتمة) أو فجوه ضخمة .

٢ـ أن يلعب النبع دوراً في تزويد القرية المجاورة بالماء .

وعلى الرغم من أن العديد من الينابيع يتوفر فيها كلا الشرطين ، فإن العدد الأكبر لا يتوفر فيه سوى شرط واحد . ومن أجل دراستنا لا بد من أن ندرس الفرق بين النبع المقدس وذلك الذي يسكنه الجن :

الينابيع المسكونة برجال مقدسين	الينابيع المسكونة بالجن
١ . قد تقع بجوار ولي	لا
٢ . قد نسمع صلوات وموسيقى دينية ليلة الجمعة	لا نسمع
٣ . يظهر ضوء اخضر ويختفي	لا يظهر
٤ . قد يستعمل الماء لأمراض عديدة	في حالات استثنائية فقط
٥ . يظهر الولي على شكل شيخ محترم بغطاء رأس أبيض أو أحمر أو أخضر . . أو على شكل شيخة تقية .	في حالات استثنائية يأخذ الجن شكل حيوان ، عبد ، وحش ، أو عروس .
٦ . الناس الذين يسقطون في البئر تتسم وقايتهم وخاصة إذا طلبوا مساعدة الشيخ	على العكس من ذلك قد يضر الجن الضحية
٧ . يحب الولي أن يسمع اسم الله والصلاة	يرتجف الجن إذا سمع هذه الكلمات ، ويهرب . ومن الممكن أن يضر من يتلفظ بهذه الكلمات .
٨ . قد تظهر إشارة عجيبة	لا تظهر .

وعلى الرغم من أن هذه الوقائع صحيحة بالنسبة لجميع مسارب المياه ، التي هي ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمزار ، فإنها أيضاً صحيحة بالنسبة للينابيع التي لا علاقة لها بالمزارات ولكنها مسكونة بروح شخص مقدس . وسوف أتعامل فقط مع المجموعة الأخيرة . وفي الغالب فإن مسارب المياه تلك تنمو إلى جوارها شجرة ، ولأن الشجرة مقدسة ، فإنه في بعض الأحوال ، من الصعوبة بمكان التمييز في درجة الأهمية بين مسرب المياه أو الشجرة .

المطبعة(١٨٣) ، بركة مستنقعية يقال أنها تساعد في شفاء أمراض الروماتيزم . ولا تستطيع المرأة النجسة الاقتراب منها . وذات مرة قامت امرأه عاقر بزيارة حج إلى هذا المكان ، لعلها تجد العون . وحدث انه في اللحظة التي وصلت فيها المرأه إلى المكان جاءتها العادة الشهرية : توسخ رأسها . ولأنها كانت تقية فقد انتظرت بعيداً عن المطبعة حتى أصبحت طاهرة ، ثم أخذت بعض الوحل ومسحت جسمها به . ولم تمض سنة حتى حملت .

عين الشريف ، الواقعة فوق عين الشامية (كولونيا) هي عين مكتشفة حديثاً ومزار حديث . وبعد أسابيع قليلة من اكتشاف النبع ، ظهر شيخ بعمامة خضراء في الليل لمحمد علي وطلب منه أن يخبر القرويين بألا يلوثوا المزار . . وسأل محمد :

ـ ما اسمك يا شيخ ؟

ـ الشريف .

بعض الينابيع تأخذ قوتها من حقيقة أنها تختلط مرة في العام بمياه زمزم في مكة(١٨٤) . وفي هذه الفترة تصبح مياه النبع ذات قدرة على الشفاء . والآبار من هذا النوع هي :

ـ عين أم الدرج ـ سلوان(١٨٥) .

ـ حمام الشفا(١٨٦) ـ القدس(١٨٧) .

ـ بير مزار النوباني ـ نابلس .

وتفيض مياه زمزم في العاشر من محرم ـ عاشوراء ، في الذكرى السنوية لوفاة الحسين بن فاطمة (ابنة النبي محمد) . ان الصلة بين فيضان زمزم وذكرى الحسين ليست دون أهمية ، ويعتقد البعض بأنه في هذا اليوم تمتزج المياه المقدسة بالينابيع في كل البلاد الإسلامية ، وبذلك يشرب المسلمون في كل مكان من مياه زمزم .

ان قداسة الماء وقدرته على الشفاء تأتي من قداسة رجال مقدسين من مثل أيوب ، عيسى ، الخضر ، ستي مريم . . الخ . وسيتم التحدث عن الينابيع المتعلقة بأيوب فيما

بعد . ومنذ أن أرسل المسيح الرجل الأعمى ، الذي شفاه بالتراب الذي مزجه بريقه(١٨٨) ، إلى عين ام اللوز(١٨٩) ليغسل عينيه هناك(١٩٠) ، فإن بعض النساء المسيحيات(١٩١) يعتقدن أن هذا الماء لا يزال يحمل القدرة على شفاء العيون الملتهبة .

ويعتقد المسلمون في نابلس أن الخضر يأخذ حماماً كل ليلة جمعه في حوض في حمام الدرجة ، ولذلك يعتقد بأن الحمام مسكون بذلك الولي . ويذهب المرضى إلى ذلك الحمام في هذا الوقت للاستحمام ، وحرق البخور وإضاءة الشموع . وفي حمام ستي مريم(١٩٢) قرب بوابة سان استيفان في القدس ، فإن النساء العاقرات يستحممن على أمل ان يخصبن . ويعتقد أن السيدة العذراء مريم قد استحمت في هذا المكان ، ولذلك تنذر للحمام مصابيح وزيت وزهور(١٩٣) . وهناك صلة بين الينابيع المسكونة بالجن والمسكونة بالقديسين ، في ذلك الاعتقاد الذي مؤداه أن نبعاً ما قد تزوره روح خيرة وروح شريرة . ومن هنا تأتي مميزات الينابيع الدورية . وفي عين الفوار(١٩٤) يعتقد أن حراً وعبداً يسكنان العين ، والأول شخص أبيض بينما الثاني أسود . وفيما يلي الينابيع (١٩٥) التي تنضوي تحت هذه الفئة(١٩٦) :

* عين الجوز ـ رام الله وتسكنها عنزتان سوداء وبيضاء .

* عين أرطاس (ارطاس) وتسكنها عنزتان سوداء وبيضاء .

* بير عونة (بيت جالا) وتسكنها مريم وأحياناً يسكنها عبد .

* عين الحجر (دير غسانه) وتسكنها الست مومْنه ، وأحياناً يسكنها مارد .

ولم أسمع عن ينبوع يسكنه ولي ، ثم يسكنه جن كما يقول كورتس عن زرقاء ماعين . وفي كل الاحتمالات فإن النبع ينتمي للفئة المذكورة ويفترض أنه مسكون بروحين : روح خيرة وروح شريرة . وكل منهما كائن منفصل ، ولكن أحدهما لا يتحول إلى آخر .

ويقال ان فئتي الأرواح تتقاتلان باستمرار . ففي حالة عين الفوار ، وعندما ينتصر الحُر ينساب الماء لمنفعة الناس العطاش ، ولا يمضي وقت طويل حتى يستعيد العبد قواه وتعود المعركة ، وعندما ينتصر يغلق مجرى الماء . . وهكذا نجد ثنائية الخير مقابل الشر ، والأبيض مقابل الأسود والضوء مقابل الظلام ، والملائكة مقابل الشياطين ،

والعالم العلوي مقابل العالم السفلي والله مقابل الشيطان . وذلك جزء من الفكر السامي القديم ، ونجده وقد أخذ شكله الجديد في فكر الفلاح الفلسطيني الحالي .

وفيما يلي قائمة بأسماء الينابيع المقدسة ، مع أسماء القديسين الذين يسكنونها(١٩٧) .

١- حمام الدرجة	نابلس	الخضر(١٩٨)
٢- حمام ستي مريم	القدس	السيدة مريم
٣- حمام الشفا(١٩٩)	القدس	أيوب(٢٠٠)
٤- بير النوباني(٢٠١)	نابلس	يمتزج مع زمزم
٥- عين أم الدرج	سلوان	يمتزج مع زمزم(٢٠٢)
٦- بير السحر	دير طريف	الولي شعيب(٢٠٣)
٧- بير أيوب	سلوان	أيوب
٨- بير سنجل	سنجل	يوسف
٩- عين قينيا	قينيا	الولي أبو العينين(٢٠٤)
١٠ - عين الحجر	دير غسانه	الست مومنة
١١- عين الجاقوق	شرق مزباح صمويل	ولي
١٢- عين الأمير	شرق مزباح صمويل	صلاح وأولياء
١٣- عين المصيون	رام الله	ملاك
١٤- بير الجبارة	يالو	الشيخ احمد الجبارة
١٥- بير في . . .	حزما	صلاح
١٦- بير أم جُدة	بيت جبرين	صالحات
١٧- عين القبة	كوبر	الست زينب

١٨- عين الشرقية	كوبر	الست فطومة
١٩- عين الشامية	كولونيا	الشيخ الشريف
٢٠- المطبعة	تل الشمام	الشيخ ابريك
٢١- عين الجوز	كولونيا	الشيخ حسين(٢٠٥)
٢٢- عين رفيديا	رفيديا	الشيخ نافع(٢٠٦)
٢٣- بير الورقة	القدس	يؤدي للجنة(٢٠٧)
٢٤- عين الراهب	نابلس	راهب(٢٠٨)
٢٥- عين كارم	عين كارم	العذراء مريم
٢٦- بير عونه	بيت جالا	العذراء مريم
٢٧- عين كبريان	غربي بيت جالا	القديس جيريانوس
٢٨- عين أم اللوزة	تحت بير أيوب	تشفى آلام العيون(٢٠٩)

ويعتقد المسلمون وكذلك المسيحيون أن هؤلاء الأولياء يحاولون إنقاذ من يسقط في البئر .

والقصة التالية توضح ذلك :

"طفل من العيسوية سقط في بئر مهجور ، وقام والداه بإخراجه فوراً . وقال الولد إن رجلين جاءا لمساعدته وهو يسقط وحملاه بنعومة إلى القعر ، وكان أحدهما رجلا عجوزا مهيباً ، والآخر يرتدي ملابس تشبه ملابس القرويين في المنطقة المحيطة وكان هناك مسدسان من طراز قديم في حزامه(٢١٠) " .

والكبار في السن من أهل القرية يتذكرون أن درويشاً قد سقط في البئر قبل عدة سنوات(٢١١) .

ان الاعتقاد بوجود ينابيع مقدسة ، وينابيع مسكونة ، ومياه ذات قيمة شفائية لأمور كانت معروفة في عهد التوراة والإنجيل . فنعمان شفي من البرص بالاغتسال سبع مرات في نهر الأردن(٢١٢) ، والأعمى الذي أرسله المسيح إلى عين سلوان عاد ، بعد أن غسل عينيه ، وقد استعاد البصر(٢١٣) . وفي بركة بيت سيدا كان يشفي كل مريض(٢١٤) . وان وجود أسماء مثل عين شمس(٢١٥) تدل على حقيقة أن الينابيع كانت مكرسة للآلهة(٢١٦) .

٧- شجرة منعزلة

لن تضم دراستي هذه أية شجرة بعيدة عن أي مزار أو قبر ، بل فقط تلك التي لها صلة بولي من أولياء الله . ان الشيخ حمد الواقع مزاره في وسط قرية كولونيا تتبعه شجرة في الجبل المقابل للقرية ، على الطريق القديمة المؤدية إلى القدس . وهناك مثال آخر وهو البدْرية(٢١٧) . وكنت قد ذكرت الأشجار التي تخص هذه المرأه المقدسة . وليس لهذه الأشجار صلة بمقام . وأما جوسين (٢١٨) فيدخل ضمن هذه المجموعة من الأشجار تلك التي تتصل بنبع ماء أو رجم . وقد تجنبت ذلك بسبب صعوبة تحديد أي العناصر الأكثر قداسة . ان هذا السؤال الذي يتردد غالباً ، سيعالج لاحقا في سياق أخر . ومن بين الأشجار التي تتلقى الاحترام ، مثلها مثل الأولياء :(٢١٩) .

اسم القديس	المكان	نوع الشجرة
١ . الشيخ بري	دير غسانه	بلوطة(٢٢٠)
٢ . الشيخ عبد الله	قطنة	بلوطة
٣ . الشيخ عبد الله	شعفاط(٢٢١)	زيتونة
٤ . الشيخ أبو الريش	بيت عْنان	بُطم(٢٢٢)
٥ . شجرة أبو نار	الشعراوية	بلوطة
٦ . شجرة السعادة	بين اليامون وجنين	زرْدة

اسم القديس	المكان	نوع الشجرة
٧ . خروبة العشرة(٢٢٣)	العيسوية	خروب
٨ . زيتونة النبي(٢٢٤)	الحرم الشريف	زيتون(٢٢٥)
٩ . الشيخ حسن	كولونيا	بلوطة(٢٢٦)
١٠ . النبي أبو ليمون(٢٢٧)	بين بيت اكسا وبدو	بلوط وبطم

سنأتي على ذكر أشجار أخرى لاحقاً ، ولا بد من الإشارة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بمميزات هذه الأشجار .

إن لشجرة أبو نار عادة شهرية (بتحيض) . فإذا هيجها أحد المارة ، يخرج سائل منها(٢٢٨) . وتحت شجرة السعادة تم تنصيب الشيخ حسن العاروري قطباً وذلك بحضور العديد من القديسين . وهذا سبب كاف لاعتبار شجرة ما مقدسة(٢٢٩) ، لقد أخذت الشجرة الفضيلة من الرجل التي أصبحت على اتصال معه ، وأصبحت الشجرة قادرة على أن تساعد المحتاجين من خلال هذه القوة (٢٣٠) .

وينتمي إلى هذه المجموعة كل من الشيخ مصطفى إبراهيم (من شوبا) . ولـلأول ثلاث شجرات : بطم ولوز وقظاب . والحجارة المبعثرة بصورة غير منتظمة تحت هذه الأشجار ، والتي يفترض أنها تمثل الضريح لا علاقة لها بالقبر . ويتألف مزار السلطان إبراهيم من ساحة مربعة صغيرة ، وهناك طاقة ، ومحراب ، وحويطة ، وشجرة تين . أنني أظن بأن هذا النوع من المزارات هو حلقة الوصل بين النوع الذي ندرسه الآن وبين الساحة الكبيرة . وعند مراجعة أسماء الأولياء التي تتصل بهذه المجموعة نلاحظ أن بعضهم يحملون اسم الشجرة . وأننا لا يمكن أن نجد اسم شخص مخصص لشجرة ، وعلى سبيل المثال(٢٣١) ستنا الغارة(٢٣٢) موجودة إلى الشرق من بيت نوبا . وهناك شجرتا بطم تحمل كل منهما اسم : الولية البطمة : واحدة شمال بيت نوبا والأخرى في القبية . ويقال ان ستنا الغارة ظهرت أثناء الهجوم البريطاني على فلسطين (١٩١٧) ، ووقفت على قمة شجرة ، وهي ترتدي ثوباً أخضر ، وشال رأس ، وسيفاً في يدها كان يقطر دماً . وفي كل مرة كان يتقدم فيها الجيش الإنجليزي كانت ترده إلى الوراء .

وفي بيت صفافا هناك جامع مقام على موقع الولية البطمة(٢٣٣) ، والتي اقتلعت شجرتها عاصفة قوية . ولا يزال يعرف الجامع باسم : جامع البطمة . وقيل ان تلك الشجرة كانت مسكونة بالصلاح(٢٣٤) . ونجد أنواع الخرق وقطع القماش من كل الألوان معلقة على معظم هذه الأشجار . وأحياناً نجد الحجارة موضوعة على فروع الشجرة .

وعندما نجد شجرة وحويطة ، كما هو الحال في الشيخ فريج (بيت حنينا) فأنا اعتقد أن الشجرة هي الأكثر أهمية . ولكن عندما يكون هناك شجرة ونبع يمثلان المكان المقدس فمن الصعب أن نعرف لمن تكون الأفضلية(٢٣٥) .

وعادة نجد طاقة تتصل بهذه الأشجار المقدسة ، وقد تكون على شكل شق في صخرة مجاورة ، أو تأخذ شكل حويطة مغطاة بالتنك أو الحجارة الرقيقة ، أو تجويف في الشجرة نفسها . ومن الممكن أن تكون على شكل بنيان . وفي هذه الطاقة تضاء مصابيح الزيت ويحرق البخور . ومن أحسن الأمثلة على طاقة مبنية بالقرب من شجرة مقدسة ' خروبة العشرة ' ـ قرب العيسوية ، فإلى جانب الشجرة هناك ما يشبه غرفة صغيرة مبنية حديثاً . وهذه ليست قبة كما يقول كالة(٢٣٦) . وفي الشيخ عبد الله (شعفاط) هناك 'تنكة كاز ' تخدم كطاقة .

ويعتقد حتى بعض المسيحيين في فلسطين بصورة أو بأخرى ، بقداسة الأشجار ، ولكنهم لا يضيئون المصباح أو يحرقون البخور لها . ومن بين أشجار هذا النوع :

١- بطمة العذرا(٢٣٧)	جفنا
٢- شجرة ميس	قرب القديس إيليا (النبي الياس) Celtis(٢٣٨) بين بيت لحم والقدس
٣- شجرة نخيل	مار سابا(٢٣٩)
٤- شجرة زيتون	الجسمانية(٢٤٠)
٥- شجرة زيتون	حقل الرعاة (بيت ساحور)(٢٤١)

ونجد ما يوازي هذه الأشجار في التوراة ، وخاصة في حالة الشجيرة المحترقة(٢٤٢) . وهذه لم تكن ذات صلة بأي مزار ، وإنما هي نفسها مقدسة لأن الاله تكلم من قربها . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن شجرة التوت الخاصة بداوود . ان قداسة هذه الأشجار عبرت عن نفسها من الصوت النابع منها(٢٤٣) وكان ذلك إشارة من الله . وقام إبراهيم ببناء ' مذبحة ' الأول ، واستلم الوحي الأول تحت شجرة البطم في موريه (التكوين ١٢ : ٦ ـ ٧) . والمذبح الثاني الذي بناه كان تحت شجرة البطمة في مامري (حرم الرامة : المحرر) وفي بئر السبع زرع شجرة الطرفا وسماها باسم الإله (التكوين ١٢ : ٣٣) . وتحت شجرة بلوط ظهر الملاك لجدعون (القضاة : ٦ : ١١ ، ٢٤ ـ س ـ كيرتس) .

٨- أكوام الحجارة " الرجوم "

عندما يقف المرء أمام كومة حجارة ، من هذا النوع ، فإنه ليعجب عندما ينظر في كل اتجاه ولا يجد شيئاً يوحي بالقداسة ، باستثناء الحجارة وهي ، بالطبع ، لا تختلف في شيء من حيث الحجم والشكل عن مثيلاتها في أي مكان آخر . ولا بد من ملاحظة أيضاً أن الرجومة (جمع رجم) يمكن أن تكون أيضاً مسكونة بالجن . ويقال ان البقعة (سهل رفايم) مسكونة بدجاجة وصيصانها .

ان مثل هذه الأكوام هي من الأنواع التالية :

١ـ معزولة ومن دون أية ميزة ، باستثناء وجود حجارة عمودية لتكوين طاقة لإضاءة مصابيح الزيت .

٢ـ الرُجم ، أو قمته فقط ، محاطة بشكل تام بحويطة من الحجارة .

٣ـ نادراً ما يكون الرجم داخل كهف .

وكأمثلة على هذه :

١ـ الشيخ عُبيد ـ سطاف .

٢ـ الشيخ سعد ـ وادي الخضر ، شرق أبو ديس

٣ـ الشيخ أحمد ـ خربة القصور ، مقابل الجورة

٤ـ الشيخ عبد المحسن ـ جيبيا(٢٤٤)

٥ـ الشيخ البرْداق(٢٤٥) ـ بيت ريما

٦ـ الشيخ مُرْجان(٢٤٦) ـ الجورة ، قرب عين كارم

ومن الطبيعي أن يسأل المرء عما يمثل الرجم والغرض منه . فأحياناً نسمع عن وجود ضريح تحت الرجم . ونحن نعرف أيضاً أن الفلسطينيين القدماء كانوا يضعون كومة كبيرة من الحجارة على أضرحة موتاهم المهمين (٢٤٧) . ولا يزال الفلاحون حتى الآن يحيطون قبورهم بحويطة أو كومة حجارة .

ويقول جوسين(٢٤٨) أن البدو ما زالوا يضعون علامة على الأماكن التي يتم فيها قتل شخص ، سواء كان ذلك في الحرب ، أو غدراً ، وذلك بوضع كومة من الحجارة . وفي حالة بعض ' الرجومة ' ، التي أصفها ربما كان هذا التوضيح صحيحاً ، ولكنه لا يشمل كافة الحالات قطعاً .

وهناك نماذج أخرى من أكوام الحجارة مثل : المشاهدْ(٢٤٩) ـ جمع مشْهد وهي أكوام من الحجارة موضوعة بشكل غير منتظم في أماكن مختلفة ، ويمكن أن تشمل كلمة 'مشْهد' واحداً مما يلي :

(١) المكان الذي نشاهد منه شيئاً(٢٥٠)

(٢) أماكن ينطق فيها الزائر : أشهد أن لا إله الا الله . . وهكذا فالكومة هي شاهد .

(٣) حجارة تستعمل كشاهد أمام الله بأن الشخص الذي بناها قد زار المزار وأدى الصلوات . ويعتقد انه في يوم القيامة يطلب الإنسان من الحيوانات أو النبات أو الحجارة لتشهد له . وهكذا فإن هذه الحجارة التي يكومها الحاج قد تحمل الشهادة على تقوى الحاج وزيارته . كما أنها من الممكن أن تذكر صاحب المزار بزيارة الشخص وتدعوه ليساعده ويتوسط له (أمام الله)(٢٥١) . وهناك في التوراة إشارات إلى أكوام الحجارة كشواهد كما في قصة لبان ويعقوب(٢٥٢) .

وعندما نسافر من القدس إلى أريحا نجد تفريعاً إلى اليمين ، بعد عدة كيلو مترات من الحوض . وتؤدي هذه الطريق إلى ' النبي موسى ' . ان التلال المحيطة بالمزار مغطاة بأكوام الحجارة . وكل مسلم يمر من هنا يضيف حجراً إلى الأكوام أو ينشئ كومة جديدة ، وفي هذه المناسبة يقرأ الشهادة والفاتحة . ان القليل من هذه الأكوام كبيرة ، وبعضها لا يتجاوز عدة حجارة . والحجر السفلي هو اكبر الحجارة ، بينما الأعلى هو أصغرها . الأكوام الصغيرة قد تتألف من ٢ ، ٣ ، ٤ أو خمسة حجارة . وبصورة عامة فإنه في كل طريق تؤدي إلى المزار من كل اتجاه تقام الأنصاب (جمع نصب)(٢٥٣) .

وقد لاحظت وجود مثل هذه الأكوام على الطرق الأربع المؤدية إلى النبي موسى ، وعلى الطرق الثلاث المؤدية إلى الخضر في بيت جالا ، وعلى الطريقين المؤديين إلى الشيخ العُمر الجبعي ، والطريقين المؤديين إلى حسن الراعي(٢٥٤) . ان عادة ' تكويم ' الحجارة ترتبط فقط بعدد قليل من المزارات . وكذلك فإن المسيحيين ، أيضاً ، يعرفون القناطر (جمع قنطرة) ، وهم يكومون الحجارة عندما يصلون الشرفة ، على الطريق من بيت جالا إلى الخضر ، لأنهم ، ومن هذه النقطة ، يرون مار الياس على جانب من الطريق ، ودير القديس جورج على الجانب الآخر . إن هذه الشواهد لا تشبه الحجارة التي تدل على حدود الحقول كما يظن ماكاون(٢٥٥) . أما علامات الحدود ، فهي في العادة ، تتألف من حجارة كبيرة ، توضع بشكل منفصل على مسافة من بعضها البعض ، وهي تتوالى في خط مستقيم بين الحقول ، وهي تختلف عن القناطر في استعمال حجارة كبيرة وقليلة . و ' القناطر ' يمكن أن تخدم أغراضاً أخرى . ومن الأغراض الثانوية يمكن أن نذكر :

١ـ أنها توضع في أماكن لتدل على أن بعض القديسين قد وقفوا أو استراحوا ، (٢٥٦) كما هو الحال في جوار ' شقيف الشيخ عصفور ' .

٢ـ وأحياناً فإن مسافراً ، بعد أن يتسلق جبلا مرتفعا يبني كومة من الحجارة ، أو يضع حجراً على كومة ، ويؤدي صلاة تعبر عن شكر الله لإنجاز مهمة والتغلب على صعوبة . ان أكواماً من هذا النوع تسمى بصورة عامة ' المفازة '(٢٥٧) . ويمكن أن تُرى مثل هذه المفازات على قمة ' فرْخة ' قرب سلفيت . وهناك حالات مماثلة ورد وصفها في سفر ' يوشع ' حيث قام العبرانيون بنصب حجارة في جلجال ، كتذكار لعبورهم نهر الأردن ، والتغلب على صعوبة التية .

وكذلك أخذ صمويل (٢٥٨) حجراً بعد إخضاعه الفلسطينيين ووضعه بين مزبا وشين وسماه ايبنزر ، وقال : الله قد أعاننا(٢٥٩) .

٣ـ توضع القنطرة(٢٦٠) حيث يقتل قائد مشهور في قرية ما أو منطقة ما ، وذلك ليعرف الناس المكان ويؤدون الصلاة . وهنا تكون القناطر أصغر مما يكون عليه حال الرجم عند المزار . في ' مقتل المشايخ'(٢٦١) على الطريق من بيت ريما نجد مثل هذه الأكوام . إن القناطر من هذه الفئة ، هي حلقة الوصل بين القديسين والشخصيات البارزة ، وسوف أتوسع في هذه النقطة فيما بعد . وبالنتيجة فإنه بينما تمثل ' الرجومة ' مواقع مقدسة ، فإن ' الشواهد' و ' القناطر' و'المفازات ' لا تحوز على مثل هذا الاحترام .

ونجد كومة كبيرة من الحجارة على الطريق المؤدية من القسطل إلى شوبا ، وهي مبنية بصورة دائرية . وبارتفاع متر ونصف وقطر يصل إلى مترين . وفي الوسط حجر عمودي ، ولا توجد طاقة أو شجرة أو بئر تتصل بتلك الكومة ، وعندما سألت الناس عن توضيح الأمر قالوا ان الولي ' أشهر نفسه ' في تلك البقعة التي تعود إليه . وقد قام الفلاحون بنصب الكومة من باب الورع .

٩ـ صخرة أو حجر كبير

نحن نملك أمثلة قليلة على هذه المجموعة . وباستثناء ' الصخرة ' في مسجد عمر ، والتي لا يقدسها مسلمو فلسطين فحسب ، بل كل المسلمين في العالم الإسلامي ، فإن الحجارة الأخرى المماثلة في فلسطين تتمتع بإحترام أقل بكثير من المزارات والمقامات . ومن الأمثلة على الأماكن المقدسة من هذه المجموعة :

عراق العجمي : (٢٦٢) في بيت إجزا ، وهو صخرة طبيعية لا ميزة لها . وهو لا يرتبط بأي مقام ، شجرة ، كهف ، أو بئر . وفي وسطه هناك حفرة صغيرة إصطناعية ، وفيها كما قيل لي ، تقدم التقدمات .

في جوار دير غسانه هناك بعض الصخور التي تسمى ' نُقار العجم '(٢٦٣) . وهي تقع بين تلتين ومكرسة للعجم . وعندما يمر الفلاح فإنه يقرأ الفاتحة للأولياء ، تماماً مثلما

يفعل عنـد أي مـزار . ولا تقـدم تقدمـات أو نـذور أو تحلـف الأيمـان بـالقرب مـن هـذه الصخور .

في قرية الشيخ سعد (في حوران) يوجد حجر يسـمى ' صخـرة أيـوب ' يقـال ان النبـي أيوب كان يستند إليه في أيام إصابته بالمرض . والحجر قديم ويحمل كتابة هيروغليفية من عهد رمسيس الثاني(٢٦٤) .

وعلى قمة جبل المرْطوم(٢٦٥) قرب خرائب بني دار(٢٦٦) ، إلى الجنوب من قرية بني نعيم ، هناك مقام للنبي يقين(٢٦٧) . وفي الغرفة نلاحظ وجود صخرة يحيط بها هيكـل معدنـي . وتظهـر علـى الصخـرة آثـار قدميـن ويديـن . ويـروي ان إبراهيـم قـد أمـره اللـه بالمجيء إلى هنا ليشاهد تدمير سدوم وعمورة .

ومن الغريب أنه على الرغم من أن إبراهيم كان من أنبياء ما قبل الإسلام فـإن الطبعـات تشير إلى أنه أدى صلاته ووجهه نحو مكـة . وخـارج المقـام هنـاك صخـرة أخـرى تُـري طبعتي قدمين ، يقال أنهما قدما لوط ، وهذه الصخرة محاطة بحويطية .

حجر العاروري(٢٦٨) إلى الجنوب من سلفيت : وهو قطعة كبيرة مـن الصخـر ، يقـال أن الشيخ العاروري قد استراح إلى جانبها .

وقلعة الرفاعي ، إلى الغرب من دير غسانه ، وهي التي يفـترض أن تكـون المكـان الـذي استراح الرفاعي فيه . وفـي مقـبرة بـاب الرحمـة الواقعـة علـى مـوازاة سـور القـدس إلـى الجنوب من بوابة سـان استيفان يوجـد عمـود مكسـور(٢٦٩) ، والـى جـوار قـبر الشـيخ شداد . وإذا قام شخص بحك ظهره في العمود ، فإنه يشفى من ألم الظهر(٢٧٠) .

الحجر المنْسي ، يفترض فيه أن يكون قبراً لمسيحي انضم إلى الإسلام قبـل وفاتـه . ان بعض سكان الحـي الإسـلامي علـى جبـل صهيـون(٢٧١) قـد لاحظـوا فـي مناسـبات مختلفة بأن ضوءاً ساطعاً يُرى من ذاك المكان . وقد أثبت ذلك قداسة المكـان(٢٧٢) . وكان يضاء مصباح كل ليلة جمعة من أجل ذلك الرجل المنسي(٢٧٣) .

ويوجد في المسجد الأقصـى عمـودان لا يمكـن أن يمـر بينهمـا طفـل بنـدوق(٢٧٤) . وذلك مما يندرج تحت إسم معجزات الله(٢٧٥) .

وداخل المصعد (في غرفة الصعود) على جبل الزيتـون ، نـرى علـى حجـر طبعـة القـدم اليمنى للسيد المسيح . هـذا المكـان يعـود للمسـلمين ، ولكنـه مقـدس أيضـاً بالنسـبة للمسيحيين ، الذين يحتفلون به جماهيريا في أيام معينة . الحجر المقدس محـاط ببنـاء مثمن جميل ذي سقف مقبب(٢٧٦) .

ويكرم المسيحيون صخوراً وحجارة أخرى . وأنا لا أحتاج لذكر الجلجوثة ، والعمود الذي ربط عليه المسيح ، ولكنني سأصف ' القديـس جـورج ' و ' مغـارة الحليـب ' والصخـرة التي إستراح عليها ' إيليا ' .

إن الحجر المقدس للقديس جورج (الخضر بين بيت جالا وبرك سليمان) لا يزال يلعـب دوراً مهماً ، والقصة التي رويتها في الـ Aberglaube تقول :

> 'بينما كان راهب يوناني يؤدي صلاته في كنيسة مار جريس ، سـقطت نقطـة من النبيذ المقدس ، فتخللت النقطـة قدمـه وفجـرت الحجـر الـذي سـقطت عليه . ولم يشف جـرح الراهـب ومـات كعقـاب علـى إهمالـه فـي إيصـال دم المخلـص . أمـا الحجـر فقـد تلقـى قـدرة خارقـة فـي الشـفاء بسـبب النبيـذ المقدس ، وأصبح يفيد كل من يركع عليه . واشتهرت سمعته في كل أرجـاء فلسطين ، وهكـذا بـدأت زحـوف المرضـى فـي التوجـه إليـه . وحتـى قيصـر روسيا ، فقد سمع بالفضائل العجيبة لهذا الحجر ، وأرسـل رجلاً عسكرياً إلـى يافا لإحضار الحجر . ويقال أن الحجر قد أحضر إلى يافـا فـي موكـب رزيـن . ولكن القديس جورج لم يسمح بنقله إلى أبعد من ذلك . وفي كـل مـرة كـان القارب يحمـل فيهـا الكـنز الثميـن مسـافة مـا كـان الخضـر يعيـده برمحـه . واعترف الجميع بمغبة عصيان القديس ، فأعيد الحجر إلى مكانه '(٢٧٧) .

وتستعمل الحجارة البيض لمغارة الحليب من جانب المسيحيين والمسلمين فـي بيـت لحم ، والمنطقة المجاورة ، كتعويذة تسـاعد فـي زيـادة حليـب الأم . ويفـترض أن نقطـاً قليلة من حليب العذراء قد سقطت على الأرض .

ومقابل مار الياس على الجانب الغربي لطريق العربات ، هناك حفرة في الصخرة . ويقـال إن القديس إيليا نام في هذا المكان وهو هارب من مطارديه(٢٧٨) .

ولكن أهم الحجارة هي 'الصخرة' التي تصل مقاييسها إلى ١٧ ، ١٧ × ٥ ، ١٣ متراً ، وتقع في وسط مسجد عمر . إن السطح الخشن للصخرة يقف في تضاد مع جمال المسجد الذي يعتبر من أجمل مساجد الشرق . والصخرة بحد ذاتها مقدسة ، ويفصلها هيكل عن الزوار . وتعود قداستها لصلتها بعدد من الأنبياء وخاصة النبي محمد . فعندما صعد النبي إلى السماء كانت الصخرة ترغب في اللحاق به ، لولا أن ثبتها جبريل . وفي مناسبتين تكلمت الصخرة مرة مع محمد . ولن أقوم بوصف كل المعتقدات المتصلة بالصخرة ، هذه ، باعتبار أنها تتوفر في أماكن أخرى . وعلى الصخرة وحولها ، وتحتها نجد الأماكن المقدسة التالية :ـ

I ـ على الصخرة نفسها(٢٧٩) :

١ـ طبعات أصابع الملاك جبريل ، الذي منع الصخرة من اللحاق بالنبي وهو صاعد إلى السماء (القسم الغربي) .

٢ـ خطوات إدريس (شرقاً) .

٣ـ خطوات محمد ، وعددها إثنتا عشر خطوة ، ويقال أن النبي مشى على ذلك الجزء من الصخرة ، فغار الصخر وبقيت الطبعات .

II ـ تحت الصخرة :

٤ـ قبل دخول الكهف تحت الصخرة المقدسة ، نرى 'لسان الصخرة' ويقال أنه في ليلة المعراج حيا النبي الصخرة ' السلام عليك يا صخرة الله ' . وأجابته : ' لبيك وعليك السلام يا رسول الله ' .

٥ـ خمسة عشر درجة تؤدي إلى الكهف تحت الصخرة . والى اليمين نجد كوة الملك سليمان .

٦ـ والى اليمين من هنا صلى محمد ، ولأنه كان طويلاً والسقف واطئاً فقد كان من الممكن أن يصطدم رأسه ، ولكن

٧ـ تراجعت الصخرة فتشكلت في هذا المكان ' طعجة الصخرة ' .

٨ـ مكان صلاة الخضر في منطقة منبسطة .

٩ـ مسند جبريل حيث انتظر الملاك حتى انتهى محمد من الصلاة .

١٠ـ محراب إبراهيم الخليل . والى يسار الدرج ،

١١ـ محراب داود .

١٢ـ والصخرة ' مخرومة ' من الوسط حيث صعد النبي مباشرة إلى السماء .

١٣ـ تحت مركز الكهف هناك ' بير الأرواح ' المغطى بقطعة رخام ، فالأرواح تأتي مرتين في الأسبوع إلى البئر وتؤدي الصلاة .

III ـ حول الصخرة المقدسة ، مباشرة :

١٤ـ طبعة قدم النبي ، التي تظهر على حجر مستقل ، موضوع على عمود صغير إلى الزاوية الجنوبية الغربية .

١٥ـ شعرات من لحية النبي محفوظة في وعاء فضي فوق رقم ١٤(٢٨٠) .

١٦ـ أعلام النبي وعمر محفوظة في صندوق قرب رقم ١٥ .

١٧ـ كوتان متصلتان بحمزة .

١٨ـ محراب في الجانب الشمالي ، حيث كان يصلي بعض الأنبياء (محراب الأنبيا)(٢٨١) .

IV ـ على مسافة من الصخرة :

٢٠ـ باب الجنة (الباب الشمالي) (٢٨٢) .

٢١ـ البلاطة السودا(٢٨٣) : والتي أزالها جمال باشا ، وتسمى بلاطة الجنة ، ويقال أن محمداً قد ثبت ١٩ مسماراً ذهبياً في هذا الحجر ، وكان الله يرسل ملاكاً لإزالة مسمار من وقت لآخر . وعندما يزول آخر مسمار فإن اليوم الأخير

سيكون قريباً . وذات يوم فإن إبليس نجح في إزالة بعض المسامير . وبينما كان يحاول إزالتها طرده الملاك جبريل الذي اكتشف أنه لم يبقى سوى ثلاثة مسامير ونصف .

٢٢ـ نرى قرب الباب الجنوبي محراب أبي حنيفة النعمان(٢٨٤) .

٢٣ـ على جانب الباب الشرقي نجد محراب ' خلْوة علي ' .

وفي مرشد الزائر والدليل نجد تعداداً لهذه الأماكن ، وكذلك تعداداً للركعات التي يتوجب القيام بها . إن مجير الدين(٢٨٥) يذكر فقط المسميات في الأرقام ١ ، ٤ ، ١١ ، ١٤ ، ٢١ ، والكهف ـ الغار ـ (٢٨٦) . ويروي الإمام أبو بكر بن العربي(٢٨٧) بأنه قد رأى الصخرة وهي تسبح في الهواء دون دعم . ان الاعتقاد الحالي ، الذي نجد ما يوازيه في الأنس الجليل(٢٨٨) هو أنه يتدفق تحت هذه الصخرة أربعة أنهار(٢٨٩) ، إلى الجنوب حمام الشفا ، والى الشرق سلوان (عين ستي مريم) والى الشمال عين حاجي وعين القشلة والى الغرب حمام السلطان(٢٩٠) .

وقبل إغلاق هذا الفصل أود أن أذكر ' أبو الظهور ' ، وهي صخرة تقع على يسار طريق العربات ، من القدس إلى أريحا بعد المرور عن عين الحوظى(٢٩١) ، ولهذه الصخرة سمعة خاصة في شفاء آلام الظهر . وبعد أن يحك المريض ظهره في الصخرة ، فإنه يضع حجراً عليها . وعندما رأيت الصخرة لآخر مرة كانت محملة بالحجارة . وفي الوقت الحاضر فإن أبو الظهور ليس مكرساً لأي ولي ولا أستطيع أن أفسر استخدامها العلاجي الواسع إلا من خلال الافتراض بأنها كانت يوماً ما ذات صلة بولي أو نوع من العبادة(٢٩٢) . ولا أعتقد أن كيرتس محق في قوله بأن مثل هذه الحجارة تعمل بقوتها السحرية . كما أنه ليس للصخرة أي لون أو مادة لتختلف عن الصخور الأخرى وتجتذب اهتماماً خاصاً(٢٩٣) .

ولا بد من الملاحظة بأن فكرة تكريم الحجارة هي ليست ميزة للسكان الحاليين في فلسطين ، بل كانت معروفة في الشرق القديم ، ونقرأ في سفر التكوين (١٨ : ١٨) : نهض يعقوب مبكراً في الصباح ، واخذ الحجر الذي استعمله كوسادة ، وصب الزيت عليه . . وذكر اسم بيت ' إيل '(٢٩٤) . وفي إشعيا (٥٧-٦) نقرأ عن حجارة الوادي الناعمة التي صب عليها الإسرائيليون شراب التقدمة وقدموا لحوم القرابين من

أجلها(٢٩٥) . وقبل أن نترك هذا القسم من موضوعنا ، علينا أن نلفت الإنتباه لهذه الأماكن المقدسة القليلة التي ليست لها المميزات التي ذكرناها ، كتلك التي لا تكون في ضريح أو مقام أو شجرة أو كهف أو حويطية أو صخرة . ومن الصعب أن نتذكر بأن تلك الأماكن القذرة قد استحوذت على اهتمام الفلاحين ، ولا نجد أي سبب لربطها بولي ومن هذه الأماكن :

- الشيخ سلمان : (بيت سوريك) وهو على شكل خزانة صغيرة مجوفة في سور حديقة . وشجرة الرمانة القريبة لا تمت بصلة إلى الولي . وفي تلك الفتحة وجدت مصابيح الزيت .

- الجامع : (عورتا) مكان مفتوح وله على الجانبين بقايا جدارين . ولا يوجد ضريح أو بئر أو شجرة تتصل بالولي ، وفي الجدار الغربي هناك طاقة حيث يتم إشعال الزيت وحرق البخور .

- العجمي : (اسم آخر لولي في عورتا) وهو عبارة عن بناية خربة دون بقايا تشير إلى محراب أو ضريح . ويقول سكان القرية أن المكان كان في وقت ما بيت فلاح .

ويبدو أن هناك خرائب تتصل بمعظم الأمثلة من هذا النوع ، وأحياناً بقايا كنائس . ويقول الناس أن هذه الأماكن يسكنها الصلاح دون أن يعرف أحد من هم .

وليست جميع هذه الأماكن محط عناية ، وهي في الغالب قذرة وغير معتنى بها . وتزدهر فيها الأشواك والأعشاب البرية ، وتملأها بقايا علب التنك القديم والحجارة والمهملات من كل نوع . وينطبق هذا على المكانين الموجودين في عورتا ، وأيضاً على بنات الشيخ صلاح والعمري (وكلاهما في أريحا) . ويتألف المزاران الأخيران(٢٩٧) من بناية صغيرة مربعة(٢٩٨) ، والى جوار العمري(٢٩٩) نجد بئراً خرباً .

هوامش الفصل الاول

(١) ستذكر أسماء مختلف القديسين في نهاية هذه الدراسة .

(٢) يسكن الصلاح (جمع صالح) في الأماكن الخربة ، عند مدخل القرية ، من الجهة الغربية ، وليس هناك قبول موثوق لهم من جميع السكان . وقد ذكر لي دليلي (محمد ، من هذه القرية) أن بعض الناس قد سمعوا في مناسبات مختلفة ، دق العدة (موسيقى دينية) في هذا المكان . وأصيب فلاح ، تبول في المكان ، بألم في العينين . ويسكن هؤلاء الصلاح في خرائب كنيسة . ان ابن الشيخ عبد السلام ، الشيخ سليمان وهو ولي ذو أهمية أقل .

(٣) أما المكان المقدس السابع في جبل الزيتون ، فهو ' خروبة العشرة ' ، وهي شجرة على المنحدر الغربي ، وعلى قطعة من الأرض ، تمتلكها ، في الوقت الحاضر ، البعثة اللاتينية التبشيرية . وقد قطعت الشجرة .

(٤) مثل هذه الجوامع ، وخاصة تلك الموجودة في القرى القريبة من المدن ، لا تستعمل كثيرا ، فالكثير من الفلاحين يذهبون يوم الجمعة إلى المدينة لأداء صلاة الجمعة وتصريف أعمالهم .

(٥) تسمى الخرائب : خربة الجبيعي .

(٦) Annual of the American School of Oriental Research in Jerusalem I, P. ٦٢.

(٧) المصدر السابق II و III ص ٦٣ .

(٨) - Other verses are Lev. ٢٦ ٣٠; Num. ٣٣٥٢; ١ Kings ١٢٣١, ١٣٣٢ ; ٢ Kings ١٧٢٩, ٢١٣, ٢٣ ٥-١٩,Jer. ٣ ٢; etc

(٩) انظر Curtiss

(١٠) Kings ١٩٨-٩

(١١) ١ Sam. ١٠،٥

(١٢) H.Zeller, Biblisches Worterbuch , pp. ١٤٦, ١٤٧.

(١٣) ظهر يهوة على مكان عال (سفر الملوك ٣ ٤-٥) . وقد كان من المحرم على الإسرائيليين الاشتراك في العبادة على الأماكن العالية مثل الوثنيين

Ezek ٢٠ ٢٨-٢٩, Jer, ٢٠ , Deut. ١٢٢

(١٤) Curtiss ,p. ١٣٤

(١٥) من المهم أن نلاحظ بأنه في جوار هذا القديس ، وكما هي الحال حول الشيخ أحمد الساريسي أبو غوش ، والشيخ عبد الله- شعفاط ، فان الأطفال الصغار فقط هم المدفونون . وفي حالة الشيخ نوران فقد لاحظت أنه بينما كان الأتراك يحفرون الاستحكامات حول المزار كانت جثث الأطفال الموتى مدفونة داخل جرار مكسورة . (قارن : ممارسة الكنعانيين في دفن الأطفال في الجرار) .

(١٦) وهذه العادة لا تزال سائدة بين بعض القبائل البدوية كما يقول :

Jaussen, Coutumes des Arabes, p . ٩٩.

(١٧) Kings ١٢٣١; ١٣٣٢

(١٨) Jaussen. ١٠٢

(١٩) مثل هذا الزخرف يعود لبناء حديث .

(٢٠) Annual II and III, ٥٠.

(٢١) انظر محيط المحيط و Hava

(٢٢) Canaan, Aberglaube pp ٦٤ ff. Doutte, Magie et Religion pp ٣٢٥ ff.

(٢٣) Canaan, ١.c.; Doutte, ١.c. pp. ٣١٧ff; L. Einsler, Mosaik.

(٢٤) هناك أمثلة قليلة تعطي رقم ٤ .

(٢٥) جريدة العجائب ص ١٠٢ .

(٢٦) Aberglaube, p. ٨٧

(٢٧) Kahle, PJ , VIII, ١٤١

(٢٨) ويوضح كالة ان فروع النخيل أجراء وقائي ضد العين الحاسدة . ولم أسمع أبدا بمثل هذا التوضيح ، فلا فروع النخيل ، ولا ما يمثلها تستعمل كتعويذة ضد العين الحاسدة .

(٢٩) Canaan, Aberglaube, p.٨٥

(٣٠) Hava, ١٣٨

(٣١) Kahle, ١.c

(٣٢) Curtiss, ٢٠٩

(٣٣) في محراب المزار التابع للسلطان إبراهيم الأدهمي ، ومزار الأمام على طريق العربات قرب باب الواد ، تظهر دزينات من الطبعات والتي سنصفها لاحقاً .

(٣٤) يوجد في قبة الصخرة عدة محاريب للصلاة ، سنصفها لاحقا .

(٣٥) الاثنتان الأخيرتان مذكورتان في PJ, VII,٨٦.

(٣٦) يقال ان إبراهيم ولوط كانا يؤديان الصلاة ووجه كل منهما نحو مكة ، بالرغم من انهما شخصيتان سابقتان للإسلام .

(٣٧) لوصف مختصر انظر.PJ VII,٩٢

(٣٨) رغم أن الاسم يبدو كاله أنه مؤنث إلا أنه يشير إلى يوشع Kahle,PJ,VIII,١٤٠ .

(٣٩) جنوب باب الواد .

(٤٠) ان غرفة الصف في الشيخ غنيم (بيت اكسا) تستعمل حسب كاله كمضافة (pJ VI , ٧١) ، ويمكن استعمال الكتاب في وقت معين كمضافة ولكن هذا الاستعمال الموقت لا يعطى مثل هذا المكان المميزات الخاصة الموجودة في المضافة . المذكورة أعلاه .

(٤١) حول المضافة انظر (Haddad, JPOS II, pp. ٢٧٩ ff)

(٤٢) أن أفضل كتاب حول الموضوع هو

Madel, Altchristliche Basiliken und Lokal tradition in Sudpalastina, ١٩١٨ .

(٤٣) Kahle PJ VII ,٩١

(٤٤) على قمة جبل في أبو غوش .

(٤٥) هناك وصف قصير في ما كتبه (Baedeker) و (Meistermann) وكتب الدليل الأخرى . وهناك وصف علمي في :

R. Hartmann Gressmann, Der Felsendom in Jerusalem, PJ IV, suft Der Felsendom und seine Geschichte, ١٩٠٩ .

De Vogue, La Mosque d' Omar a Jerusalem. ١٩٠٥.

(٤٦) انني مدين بالمعلومات المتعلقة بالأماكن الثلاثة الأخيرة لعمر أفندي البرغوثي .

(٤٧) على حجر رخام .

(٤٨) يقع النقش في خمسة أقسام جنبا لجنب .

(٤٩) البدوي مكررة مرتان ، والمرة الثانية يجب أن تكون الرفاعي .

(٥٠) من الواضح أنها نقش خطأ لزبلون .

(٥١) تمثل I ssachar

(٥٢) القرآن سورة ٣ ، آية ٣٧ .

(٥٣) ويقول المعلقون ان أحدا لم يدخل غرفة مريم غير زكريا نفسه ، وأنه أغلق عليها سبعة ابواب ، ومع ذلك وجد دائما عندها فواكه الشتاء في الصيف ، وفواكه الصيف في الشتاء . انني لا اجد علاقة بين آية القرآن المذكورة ومزار الأنبياء الذي لا علاقة له بزكريا ومريم .

(٥٤) النقط تشير للكلمات غير المقروءة .

(٥٥) نُقش على قبر فاطمة ابنة حسن حفيد الرسول :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه — بالرغم مني بين الترب والحجر

أفديك فاطمة بنت ابن فاطمة — بنت الائمة بنت الأنجم الزهر

انظر مجير الدين الجزء الاول ص . ٦٧

(٥٦) حرفياً ' الى القرية '

(٥٧) Hava , p. ٨٨٧.

(٥٨) حرفيا سيد .

(٥٩) أكثر من رسول

(٦٠) حضرة هي لقب تكريم

(٦١) العدوي مستعملة هنا بدلا من البدوي .

(٦٢) ان الاعتقاد بأن هؤلاء مدفونون في نابلس قد يعود للسامريين .

(٦٣) وصف قبلا .

(٦٤) الشيخ إعْمرْ هو ابن الشيخ صالح ، وابن داهود له ولد واحد ، مرار ، وابنه قاسم . اعْمر والثلاثة الأخيرون مدفونون في هذا المزار .

(٦٥) الأخوان أحمد ومراد البسطامي لهما نفس الأهمية .

(٦٦) القبر الأهم هو البدرية .

(٦٧) فيما يتعلق ببناء المقابر الاسلامية انظر مقالة

Boehmer, Auf den muslimischen Freidhofen Jerusalems, ZDPV, ١٩٠٩-١٠.

(٦٨) PJ,VII , ٨٦; Jaussen Coutumes P . ٩٩.

(٦٩) وكلاهما في عورتا .

(٧٠) في نابلس .

(٧١) من الغريب انه بينما يكون اتجاه الضريح من الشمال الى الجنوب ، فقد ذكر بأن هذا النبي يتوجه إلى الجنوب في صلاته .

(٧٢) لا نجد تفسيرا خاصة في محيط المحيط و Hava . عدا 'وضع حجرا'

(٧٣) لم أتمكن من أيجاد تفسير لذلك في الكتب العربية .

(٧٤) Coutumes, ٣٣٧.

(٧٥) كحاته وتلفظ الكاف في بعض اللهجات شين .

(٧٦) في صور باهر .

(٧٧) في بيت اكسا .

(٧٨) في جبل الزيتون .

(٧٩) في عناتا . الطاقة عبارة عن مكان حجر يرفع من الجدار الممتد من الشمال الى الجنوب .

(٨٠) في بدو .

(٨١) في العيسوية .

(٨٢) يذكر كالة (Kahle) ضريحين فقط . ولكنه توجد ثلاثة ، انظر :

PJ, VII, ٩٠.

(٨٣) الضريحان الأوسط والجنوبي متصلان عند نهاية الرأس بجدار صغير . ان أي شخص يستلقي بينهما يشفى من مرضه . وانظر كاله :

PJ,VII,٩١.

(٨٤) في الشيخ حمد نجد مصابيح الزيت (الأسرجة) موضوعة على القبر .

(٨٥) من الغريب أن كالة أعطى تفسيراً واحداً لهذه الفناجين ، انظر ٩٠ .PJ VI (Kahle) ٨٥٩ (٨٥ أ) لنفس السبب اعتقد كاله أن ٤٥٠ كغم من القمح وزيرا من الماء توضع يوم العيد في مقام الأمام الشافعي ، على السطح . (في القاهرة) .

(٨٦) أحيانا يوجد اثنان من تلك الفناجين حتى في القبور العادية .

(٨٧) هذه العادة تضمحل وتتلاشى .

(٨٨) سمعت لفظ : صور باهر وصور باهل .

(٨٩) وهناك لفظ سترات جمع سترة ، وهو لفظ قليل الاستعمال .

(٩٠) Doutte , Magie et Religion, p. ٤٣٢.

(٩١) وليس زُعبة كما يذكر كالة (Kahle) في :

PJ,١٩١١, p. ٨٨

(٩٢) في عام ١٩٢٢ كوم سكان القرية الحجارة لبناء الضريح .

(٩٣) يصف كالة (Kahle) نموذجاً آخر من هذه المجموعة وهو الشيخ محمد ضرير القادري PJ, ١٩١١, p. ٨٧.

(٩٤) وفي الجوار شجرة زقوم .

(٩٥) Quercus coccifera

وبهذه المناسبة فأنني اشكر السيد دنسمور (Mr. Dinsmore) لتلطفة بإعطائي الأسماء النباتية العلمية .

(٩٦) Ficus carica L.

(٩٧) Ceratonia siliqua L.

(٩٨) Olea europea L.

(٩٩) ولا بد من ذكر بعض الكلمات حول دور شجرة الزيتون في الفولكلور الفلسطيني . تسمى شجرة الزيتون في القرآن : الشجرة المباركة ، فهي جاءت من الجنة ، وأنبل شجرة من بين الأشجار (فخر الرازي ، ٦ ، ص ٢٦٤ ، ٨ ، ص ٤٥٨ ، وهناك مثل يقارن بين شجرة الزيتون والبدوي الذي يمكن ان يعيش في أي مكان ويحتاج إلى القليل لأن يعيش ، ويقارن بين العنب والسريس الذي تحتاج إلى الكثير من العناية . ويعتقد المسيحيون بأن شجرة الزيتون تركع ليلة عيد الصليب المقدس .

(١٠٠) Morus nigra L.

(١٠١) Zizyphus Spina Christi L.

(١٠٢) Pistacia palestina Boiss.

(١٠٣) بيت اكسا .

(١٠٤) خربة قرية سعيدة .

(١٠٥) بيت اكسا .

(١٠٦) ومن الأمثلة الأخرى الشيخ حمد (كولونيا) مع شجرة توت في المزار ، وشجرة بلوط على مسافة منه . وكذلك الشيخ عبد الله (القبيبة) يمتلك شجرة توت ، وعلى التلة المقابلة في الجنوب شجرة خروب (الخروبة الجديدة) .

(١٠٧) والسبيل ، أيضاً كلمة تستعمل لخزان الماء ، مما سوف نوضحه فيما يعد .

(١٠٨) قارن : Goldziher, Mohammedenische Studien, II. ٣٥٠.

(١٠٩) ص ٨ .

(١١٠) النوم تحت الخروب غير ممدوح .

(١١١) المجريطي ، غاية الحكم .

(١١٢) خروب من خرب . ومن سوء الحظ ان تحلم بالخروب . انظر عبد الغني نابلسي : تفسير الأنام في تعبير المنام ، كذلك ZDMG

(١١٣) أن القصة التالية تبين هذه النقطة : ذهب م . أ من ارطاس مع زوجته س بنت م .ز إلى الكروم ، وقد نام معها دون أن يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، بهدف طرد الجن ، وهكذا أصيبت الزوجة بالصرع الذي سببه الجن . وعندما استشار الزوج الشيخ قال له إن الجن طير الطيار لا يمكن الإمساك به .

(١١٤) JPOS, I , pp. ١٥٣- ١٧٠ and Aberglaube

(١١٥) القصة موجودة في دائرة المعارف ، ٧ ، وهناك جزء منها في الأنس الجليل (١ :١٢١) ، وفي : Hanauer, Folklore of the Holy Land, PP. ٤٩-٥٠ وقد أخذت معظم النص عن المصدر الأخير .

(١١٦) كما هو الحال في أبو ليمون ، القطرواني ، السدري . . . الخ .

(١١٧) الجمع الصحيح هو ' حراب ' .

(١١٨) سنأتي فيما بعد على وصف هذه الاسلحة والأدوات الموسيقية .

(١١٩) McCown ذكر الاسم فقط ، ولم ير المكان .

(١٢٠) كما هو الحال في النبي لوط ، بني نعيم .

(١٢١) S. Kahle, PJ,١٩١١.P.٩٢

(١٢٢) في أرض اسمها الحُومة .

(١٢٣) قصة هذا الكهف سيرد ذكرها .

(١٢٤) يبدو أن McCown ص ٥٠ لا يعرف شيئاً عن قبر هذا الولي .

(١٢٥) هذه الكهوف ليست دائماً قريبة من الولي .

(١٢٦) عن عمر أفندي البرغوثي .

(١٢٧) ولا يوجد ضريح في هذا الكهف .

(١٢٨) شمال يافا .

(١٢٩) تحريف عمر .

(١٣٠) القبور مزخرفة بالحنا والمغرة .

(١٣١) ريحان ocymon basilicum

(١٣٢) وهذا بالطبع ، ليس قاعدة مطلقة ، فهناك مسجد يضم ضريحاً مثل جامع العمري (دير أبان) .

(١٣٣) ربما كان كنيسة تحولت إلى جامع .

(١٣٤) يلفظها البعض صور باهل .

(١٣٥) في شعفاط ، بيت حنينا وشوبا . وفي الموقعين الأول والثاني هناك جامع ، بينما في المكان الثالث نجد مكاناً مربعاً له محراب ، وشجرة تين كبيرة (وليس شجرة بلوط كما يقول ماكاون McCown) وحويطه ، في الزاوية الشمالية الغربية . وفي الطاقة الكائنة في الجدار الغربي نجد قطعاً من الفخار المكسور ، حيث كان يحرق البخور . ان معظم الناس أعطوني اسم السلطان إبراهيم وليس الشيخ إبراهيم (McCown) .

(١٣٦) وورد ذكر ذلك في القرآن ، سورة ٢-٢٥٣ .

(١٣٧) والمزار محاط ببقايا كنيسة .

(١٣٨) سمعت الحكايات من أهل عطارة ، والقصة الأخيرة تبدو وكأنها السائدة .

(١٣٩) المزار الأخير هو الآن على شكل خرائب .

(١٤٠) يقع على جبل الزيتون ، وسط مقبرة ، وهو بناية مربعة ، ذات قبة صغيرة ، وتتصل به حاكورة تين صغيرة .

(١٤١) جدهم عالم الجعابرة .

(١٤٢) عن عمر الصالح البرغوثي .

(١٤٣) PJ VI . P. ٦٧

(١٤٤) عن عمر أفندي البرغوثي .

(١٤٥) Kahle, PJ, ١٩١١. pp. ٨٨ ليس زعبة بل زغبة .

(١٤٦) الزحف اكثر احتراماً للولي .

(١٤٧) McCown, op cit. p. ٥٦.

(١٤٨) حسب البعض فإن اسمه الأول محمد وحسب البعض الآخر عبد الله .

(١٤٩) تستعمل حالياً لإيواء الأبقار .

(١٥٠) Kahle, PJ VI, ١٩١٠ p. ٧٩ وقد بنيت القبة ورممت .

(١٥١) الاسم الكامل هو الرابعة العدوية البصرية حفيدة العاقل .

(١٥٢) Guide de la Terre Sainte, p. ٢٧٨.

(١٥٣) Palastina und Syrien, p. ٩٤

(١٥٤) يقال أنها ماتت عام ١٣٥ للهجرة .

(١٥٥) كان اسمها في السابق مارجريتا وتوفيت عام ٤٥٧ م بعد أن كفرت عن ذنوبها (مايسترمان) .

(١٥٦) يلفظ سكان جبل الزيتون الاسم : خولدا .

(١٥٧) عن عمر أفندي الصالح البرغوثي .

(١٥٨) وكان القديس يقيم في الكهف أثناء حياته .

(١٥٩) Jaussen, Coutumes des Arabes, p. ٣٠٢, يذكر كهفا باسم ام جدي .

(١٦٠) Curtiss, Kahle and Mullinen.

(١٦١) وليس ثمانية Annual of American School of Archaeology, II-III.P. ٥٨ .

(١٦٢) انه واحد من اكبر كروم الزيتون المرتبطة بولي .

(١٦٣) غالبا ما تختصر ارجال بلفظ جار .

(١٦٤) ربما كانت مشتقة من قحْف .

(١٦٥) انظر الوصف والصورة في مقالة ماكاون ص ٥٦ ، انه لا يصف المكان كمغارة . ويذكر مزار الشيخ شحادة والشيخة مسعودة ولا يكرم هذا الموقع كثيراً .

(١٦٦) ان هذه القاعدة لا تطبق بحزم ، كما كانت في العادة .

(١٦٧) عن شاب من الناصرة .

(١٦٨) عمر أفندي البرغوثي .

(١٦٩) عن الرجل نفسه .

(١٧٠) عندما لا يكون بالإمكان تسمية ولي بعينه نسمع عبارات مثل : صلاح ، أولياء ، دراويش ، اعجام . .

(١٧١) وقد نسي الناس قداسة المكان بعد أن لم يعد جمعة يقيم هناك .

(١٧٢) هذه المغارة سيأتي وصفها لاحقاً .

(١٧٣) التعبير الشائع ' حوطتك بالله ' من حوط يحوط .

(١٧٤) تعني الصيرة حويطة للأبقار والغنم.

(١٧٥) وليس الطلالي كما جاء في ماكاون ص ٥٩ ، والبقعة المنخفضة هي الحويطة وليست قبر الولي ، والشيخ حسن أبو العلمين من بدو غير مذكور في قائمة ماكاون .

(١٧٦) وهي الحويطة الوحيدة التي يقدسها المسيحيون ضمن ما أعلم .

(١٧٧) وبالقرب منها شجرة غار لا تعلق عليها الخرق .

(١٧٨) الحجارة مزخرفة بالحنا ، ويشفى المحموم إذا استلقى في الحويطة .

(١٧٩) بالقرب منها شجرة خروب وشجرة بلوط .

(١٨٠) هذه الخربة محاطة بخندق وجدار .

(١٨١) Canaan, Haunted Springs and Water Demons,

JPOS, Vol. I,p. ١٥٣. and Aberglaube.

(١٨٢) PJ,Vol. I.p. ٩٣f.

(١٨٣) تقع بين الشيخ ابريك وتل الشمام ، عن عمر أفندي البرغوثي .

(١٨٤) JPOS, Vol. I. pp. ١٥٣-١٧٠

(١٨٥) ورد في الأنس الجليل (٢ : ٤٠٧) عن خالد بن معدن بأن هذا النبع يستمد ماءه من الجنة .

(١٨٦) ويسمى أيضاً حمام عاشورة (١٠ محرم) .

(١٨٧) أود أن ألفت الانتباه إلى اعتقاد سائد مؤداه أن معظم الحمامات التركية مسكونة بالجن . والقصة التالية من الممكن أن توضح الأمر ' ان زوجة أحد الأفندية فقدت مجوهراتها في الحمام ، وفشلت كل الاستفسارات في العثور عليها . أخيراً قامت امرأه ساحرة بالتأكيد أن الجن الساكن قد أخذ المجوهرات . وأعطت المرأه الساحرة طلسماً لزوجة الأفندي ، وطلبت منها أن تحرق ثلثه كل يوم في الحمام على مدى ثلاثة أيام . وفي اليوم الثالث وجدت زوجة الأفندي مجوهراتها في المكان الذي فقدتها فيه وفي Aberglaube أعطى قصة مماثلة .

(١٨٨) يوحنا ٩-١ .

(١٨٩) تحت بير أيوب .

(١٩٠) أو إلى عين سلوان . ولا تبعد أم اللوزة كثيراً عنها .

(١٩١) عن نساء أرمنيات في القدس و JPOS, I, ١٥٣-١٧٠

(١٩٢) طبقاً للانس الجليل فإن بلقيس ابنة شاراحيل من يأرب (قحطان) ، أخذت حماماً في هذا المكان لتزيل الشعر عن رجليها وفخديها وكان الشعر موروثاً عن أمها التي كانت جنية (JPOS) .

(١٩٣) هذه العادة تتلاشى .

(١٩٤) انظر Aberglaube

(١٩٥) JPOS, I , ١٥٣

(١٩٦) يعتقد البعض ان عين الفوار تسكنها عنزتين بيضاء وسوداء .

(١٩٧) JPOS, I, p. ١٥٣-١٧٠

(١٩٨) وتستحم فيه الأم مع طفلها في اليوم السابع لولادتها .

(١٩٩) ويسمى حمام عاشورا ، ويمتزج مرة في العام مع زمزم .

(٢٠٠) فيه حوض يقال ان أيوب اغتسل فيه وشفي .

(٢٠١) يوجد البئر هذا في غرفة تعلق فيها أدوات الدراويش الموسيقية وأسلحتهم وأعلامهم وتظهر الآيات القرآنية .

(٢٠٢) هذا البئر يسكنه جمل ، وسكنته دجاجه مع صيصانها بعد وفاة الجن .

(٢٠٣) Aberglaube

(٢٠٤) JPOS, ١. C.

(٢٠٥) كرست لهذا الولي شجرة .

(٢٠٦) يضاء مصباح هنا .

(٢٠٧) أنس الجليل ، ٢ : ٣٦٨ .

(٢٠٨) يتوقف النبع يوم الأحد من كل أسبوع عندما يؤدي الراهب صلواته .

(٢٠٩) يعطى كيرتس وكالة أمثلة قليلة من الينابيع المقدسة .

(٢١٠) هناك قصص اخرى ، انظر . JPOS, I . c

(٢١١) لن أصف هنا عيون الحصر ، لأنها لا تتصل بأي مزار أو ولي . ولا يتم احترام هذه العيون من الناحية الدينية . وكانت تسمى عيون موسى ، وكان الناس يرون سيدتين صغيرتين إلى جوار النبع تمشطان شعريهما ، وكانت السيدتان تختفيان بمجرد اقتراب الناس .

(٢١٢) ٢ King ٥ ١ ff.

(٢١٣) John ٩٦-٧ .

(٢١٤) John ٥ ١-٥.

(٢١٥) Jos . ١٥٧.

(٢١٦) Paton, Annual of Amer . School , Vol. I, pp. ٥١ ff

(٢١٧) ذكر كاله بعض هذه القصص PJ V, ٩٨

(٢١٨) Coutumes des Arabese, p. ٣٣١

(٢١٩) يبدو أن كيرتس قد سمع عن أمثلة قليلة ، ويصف شجرة واحدة في شمال سوريا .

(٢٢٠) عن عمر الصالح البرغوثي .

(٢٢١) Kahle, PJ, VI, ٩٨, ٩٩.

(٢٢٢) هناك كهف صغير الى جواره ، ويقدم فيه بخور وبضاء مصباح . وأظن أن العنصر الأساسي هو الشجرة .

(٢٢٣) هناك خروبة العشرة التي كانت أيضاً تنمو على المنحدرات الغربية لجبل الزيتون .

(٢٢٤) See Canaan , Aber glaube and Kahle PJ, VI , ٩٧.

(٢٢٥) نبت مكانها شجرة نخيل ، وعندما زار النبي القدس في رحلته المعجزة ، جلس تحت تلك الشجرة وبعد ذلك ذبلت النخلة ونمت زيتونة محلها .

(٢٢٦) توجد خرائب حول شجرة البلوط ، والأسرجة موضوعة في كهف صغير ، وإلى الجنوب الشرقي من هذه الشجرة المقدسة هناك نبع تحمل اسم الولي ، وتسمى رسمياً عين الجوز .

(٢٢٧) ويذكرها أيضاً Kahle, PJ, VI, ٩٨, ٩٩ ويحيط بالشجرة بئر وخرائب .

(٢٢٨) هذه الحالة الوحيدة التي تمكنت من الوصول اليها حول شجرة تحيض ، وانظر JPOS, I, ١٥٣ وقد حصلت على المعلومات من عمر أفندي البرغوثي .

(٢٢٩) عن عمر أفندي البرغوثي .

(٢٣٠) ويذكر كيرتس حالة أخرى .

(٢٣١) هذه الأشجار لم تذكر في القائمة السابقة .

(٢٣٢) تبخير شخص بأوراق مثل هذه الشجرة يؤدي إلى شفائه .

(٢٣٣) قرب بركة ماميلا كانت هناك شجرة بطم . وكان هناك اعتقاد عام بأنه عندما تقطع هذه الشجرة أو تذبل سيزول الحكم التركي من فلسطين . وقد حصل انه خلال العام الأخير من الحرب جفت الشجرة ، وبعد ذلك بقليل دخل الجيش البريطاني إلى فلسطين ، تلك الشجرة كان اسمها البطُمة .

(٢٣٤) كان هناك رجل من بيت لحم يأخذ خشب هذه الشجرة ليستعمله خشباً للبد (المعصرة) واضطر الرجل ، بدلاً مما أخذ ، أن يبني جامعاً برواق وبئر ، ولأنه بنى الجامع بطريقة رديئة أدت إلى انهياره بعد سنوات قليلة ، فإن القديس ساكن الشجرة عاقبة بشدة ، ومات كل أفراد عائلته واحداً إثر الآخر . وتحت البطمة فإن سكان القرية يجتمعون للثرثرة واستقبال الضيوف ، كما هو الحال في المضافة (روى ذلك إمام بيت صفافا) .

(٢٣٥) في حالة الشيخ حسين ، نجد هناك شجرة ونبعاً مكرسين له . وأنا اعتقد ان الشجرة هي الملمح الأهم ، على الرغم من أن الناس قد رأوا الولي جالساً عند النبع . وقد سمى النبع عين الجوز .

(٢٣٦) PJ, ١. c.

(٢٣٧) ان الرجل الذي قطعها عوقب بالموت .

(٢٣٨) Aberglaube, p. ٦٣

(٢٣٩) المصدر السابق ص ٨٧

(٢٤٠) زيت هذه الشجرة يباع بسعرٍ عالٍ ، وتصنع المسابح من ' عجمها ' .

(٢٤١) يقال ان الملاك قد ظهر للرعاة عند هذه الشجرة ، وان الفلاحين الذين حاولوا مرة إحراقها ، لاحظوا لدهشتهم الكبيرة أنه ليس للنار أي مفعول . وهذا أثبت قداسة الشجرة عن ل . بالدنزبيرغر .

(٢٤٢) الخروج ٣ : ٢ .

(٢٤٣) صموئيل الثاني ٥ : ٢٤ .

(٢٤٤) يظهر الشيخ على شكل ' عبد ' ومعه سيف بيده .

(٢٤٥) يسكنه العجم . فقط ، القمة محاطة بحويطة .

(٢٤٦) ولي عبد

(٢٤٧) يوشع ٧ : ٢٦ ، ٨ : ٢٩

(٢٤٨) Coutumes des Arabes, ٣٣٦.

(٢٤٩) لا تستعمل كثيراً بصيغة المفرد .

(٢٥٠) انظر لوقا ١٩ : ٤٠ .

(٢٥١) إن مثل هذا الاعتقاد ليس حديثاً ، فنحن نقرأ في ' التحفة المرضية في الأخبار القدسية ' ، لمؤلفه عبد المجيد علي ، في الصفحة ٦٢ أن الإنسان عندما يكون على جبل عرفات يأخذ سبعة حجارة ويقول : أيتها الحجارة اشهدي بأني أومن بالله وأقول بأن لا إله إلا الله وان محمد رسول . وفي تلك الليلة حلم الرجل أنه في يوم الحساب ، وانه تبين ذنبه وأرسلوه إلى النار ، وعندما وصل باب النار الأول وجد أن الحجر يغلق طريقة ، ولم يتمكن الملائكة من إزالة الحجر . وتكرر الأمر مع أبواب النار السبعة ، وأخيراً يأمر الله بأرسال الرجل إلى الجنة ، حيث أن الحجارة شهدت لصالحه .

(٢٥٢) التكوين ٣١ : ٤٥ .

(٢٥٣) وليس (نصيب) كما يقول ماكاون . (والنصيب هو الحظ) .

(٢٥٤) ومن المزارات التي تقام حولها أكوام حجارة : النبي لوط ، النبي يقين ، علي بن عُليم ، العُزير .

(٢٥٥) Annual of the Amer School , II and III . p.٦٦

(٢٥٦) عن عمر أفندي البرغوثي .

(٢٥٧) المفازة ، في الواقع ، هي الصحراء ، وهنا تعني الانتصار على صعوبة خطرة (محيط المحيط) .

(٢٥٨) يوشع ٤ .

(٢٥٩) صموئيل الأول ٧ : ١٢ .

(٢٦٠) هذا يماثل من بعض النواحي أكوام الحجارة المذكورة في يوشع ٧ : ٢٦ ، ٨ : ٢٩ وصموئيل الثاني ١٨ : ١٧ .

(٢٦١) عندما رأيت المكان عام ١٩٢١ كانت هناك أكوام قليلة .

(٢٦٢) لم أجد طاقة مرتبطة بهذا المكان .

(٢٦٣) يتألف نقار العجم من حجارة كبيرة . ويخاف دراويش الصوفية من المرور بجوارها وخاصة خلال الليل . واخطر الأوقات هي ليلة الجمعة (عمر أفندي البرغوثي) هذه الملامح تصدق على مواقع مقدسة أخرى ستجري دراستها .

(٢٦٤) ZDPV , XIV, ١٤٧ ولم ار هذا المكان .

(٢٦٥) النظر من هذا الجبل ، وخاصة نحو الشرق هو منظر أخاذ ، ويمكن رؤية البحر الميت وجبال مؤاب .

(٢٦٦) الخرائب تسمى الآن خربة النبي يقين .

(٢٦٧) يقول مجير الدين أن المزار كان يسمى مسجد اليقين ، لأن إبراهيم قال عند خراب سدوم ' هذا هو الحق اليقين ' (الأنس الجليل ص ٣٥) .

(٢٦٨) عن عمر أفندي البرغوثي .

(٢٦٩) Kahle , l.c.

(٢٧٠) ويستمد هذا العمود قوته العلاجية من الشيخ المدفون إلى جواره .

(٢٧١) يسمى الحي حي النبي داوود .

(٢٧٢) أنها المقبرة الأرمنية .

(٢٧٣) سمعت من الأرمنية فكتوريا .

(٢٧٤) فقط ، الذين سيدخلون الجنة يستطيعون المرور بين هذين العمودين .

(٢٧٥) انظر جولد زهيرII ، ص ٤٨٠ و ٤٠٩ وكيرتس الفصل الأول .

(٢٧٦) في المسجد الأقصى نرى ما يسمى قدم سيدنا عيسى ، وفي الغرفة المؤدية إلى ما يسمى بإسطبلات سليمان نرى ' سرير سيدنا عيسى ' .

(٢٧٧) Hanauer , Folklore of the Holy Land ,p. ٥١

(٢٧٨) من بين مار الياس وطنطور نقلت قطعة من صخرة إلى بيت جالا . ويقال انه بينما مريم العذراء قادمة من بيت لحم إلى القدس حاملة الطفل مرت بيهود يدقون الفول على صخرة إلى الشرق من الطنطور . وقد طلب المسيح بعض الفول ، فطلبت الأم من اليهود حفنة من الفول . ورفض اليهود وقالوا ان ما معهم حجارة وليس فولاً . وهكذا تحول الفول إلى حجارة . وبعد ذلك تبعها العمال واتهموها بأنها ساحرة . وركضت تسرع هاربة . وعندما أوشكت على الوقوع بين أيديهم طلبت من صخرة ان تؤويها . وعلى الفور انفتح حجر وحماها .وعبثا حاول مطاردوها البحث عنها . هذا الحجر يحمل اسم : ' سرير السيدة ' .

(٢٧٩) Kahle, PJ, VI , ٩٣ ويذكر ٢٠ مكاناً .

(٢٨٠) ويرى الناس الأعلام في ٢٧ رمضان ، ليلة القدر .

(٢٨١) ويقال ان النبي محمد قد صلى هنا مع الأنبياء الآخرين في ليلة المعراج .

(٢٨٢) ان أبواب المسجد هي :

الباب الغربي / باب الغرب أو باب النسا .

الباب الشمالي / باب الجنة .

الباب الشرقي / باب داهود أو باب السلسلة .

الباب الجنوبي / باب القبلة .

ويعطي الأنس الجليل اسم باب إسرافيل للباب الشرقي .

(٢٨٣) يقال ان تحتها قبر سليمان .

(٢٨٤) ولا تعتبر مهمة ، شأنه شأن غيرها .

(٢٨٥) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، ص ٣٧١ .

(٢٨٦) وفي كتاب للهيئة الإسلامية العليا في فلسطين ذُكر فقط : ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ .

(٢٨٧) مجير الدين ص ٣٧١ .

(٢٨٨) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(٢٨٩) JPOS, I,١٥٣-١٧٠

(٢٩٠) يقول مجير الدين ان كل المياه التي نشربها تأتي من تحت الصخرة . وان كل شخص يشرب الماء في الليل عليه أن يقول : ' يا مياه المدينة القديمة ، حياك الله ' . ص ٢٠٦ .

(٢٩١) وتسمى أيضاً عين الأنبياء . وربما كانت نبع الشمس الوارد في يوشع ١٥ : ٧ .

(٢٩٢) ليس بعيدا عن هذه الصخرة ، نجد ' عراق الشمس ' و ' مغاير الشمس ' التي تشابه مصطلحات توراتية مثل ' عين هشيمش ' .

(٢٩٣) الصخرة غير مذكورة في كتب الدليل ، ولا تعطي أهمية دينية لها .

(٢٩٤) Curtiss , ١. C.

(٢٩٥) S. Bevan, in Hasting's Dictionary of the Bible, III , ١٨٨١

(٢٩٦) بعضهم يسميهن بنات الشيخ صباح .

(٢٩٧) كن ثلاثاً وكان الناس يحترموهن في أريحا . وعندما ضرب بيتهن هناك ذهبن إلى حسبان . وكن يظهرن على شكل امرأه بدوية .

(٢٩٨) وجدت مصابيح زيت من تنك في هذا المزار .

(٢٩٩) يقال بأن العجمي كان مرة قائماً هنا ، ويحمل اسم عمر .

الفصل الثاني

الطقوس والممارسات

في دراستنا للأنواع والفئات المختلفة للمزارات الإسلامية في فلسطين وضعنا الأساس لتقصينا التالي ، ذلك انه بدون المعرفة التامة بالأول فان دراسة الجزء التالي ستكون صعبة وغير كاملة . في هذا الفصل أريد أن أجيب على هذا السؤال :

ما هي الطقوس والممارسات التي تتم في الأماكن المقدسة ؟

إن الأعمال التي تتم في المزار ، من الممكن ان تؤدى في المقام نفسه ، خارجه ، أو على مسافة منه . وتضم أعمالا بسيطة وأخرى معقدة ويشمل التصنيف التالي أهم الأفعال التي تؤدى في المكان المقدس ، مرتبة حسب درجة تعقيدها :

١- الممارسات الدينية .

أ- التلفظ بكلمات التقوى

ب- الصلوات والأدعية

ج- الاحترام

د- صلاة مثل تلك التي تتم في المسجد

هـ- البركة

٢- وضع الممتلكات تحت حماية الولي .

٣- ربط الخرق .

٤- الأمور المتعلقة بالشفاء :

٥- القسم .

٦- أداء النذور .

٧- الاحتفالات في الأعياد والمواكب .

وهناك طائفة من الممارسات الأقل أهمية سنذكرها تحت هذه العناوين .

١- الممارسات الدينية

أ - التلفظ بكلمات التقوى

انه لا يمكن لفلاح تقي أن يقترب من مقام أو يدخل إليه إلا بعد الاستئذان من الولي . إن التعبير الأكثر شيوعاً هو : ' دستور(١) يا سيدنا عبد السلام(٢) . وهناك عادة عربية شائعة خصوصاً عند المسلمين بموجبها لا يدخل رجل إلى بيت الحريم(٣) الا بعد ذكر كلمة ' دستور '(٤) ، وذلك واجب على كل رجل(٥) . وقد يلفظ الرجل ' دستور ' وحدها أو مع كلمة ' حظور ' وأحياناً مع كلمات : يا ستار ، يا حافظ ، يا أمين ، . . . الخ . وعلى كل شخص ذكر كقاعدة أن يحصل على الإذن قبل الدخول ' دستور قبل ما تدخل : ، وحتى عندما يريد المرء أن يتناقض مع آخر ، أو ينتقده يقول :

- دستور(٦) . . المسألة مش هيك . وتصبح المسألة اكثر أهمية عندما يدخل المرء إلى مسكن رجل ذي قوة خارقة : عفريت ، روح ، قديس . ولا يعمد أي شخص على دخول كهف مسكون ، نبع ، أو شجرة ، أو سحب الماء من نبع دون الحصول على الإذن(٧) ، وبغير ذلك يمكن للجن المنزعجة أن تؤذي الشخص ، وللسبب نفسه يتوجب على أي شخص عدم إطفاء الفحم المحترق بالماء دون أن يستأذن بصوت عال(٨) : 'دستور ، حظور يا ساكن النار ' ، أو ' يا أهل الأرض إحنا في العرض ' .

المقابر هي أماكن سكن أرواح الموتى ، ولم يكن يتم الدخول إليها إلا بعد الاستئذان . ولذلك فإن الأماكن المقدسة ، لا يتم الاقتراب منها أو دخولها الا بعد الاستئذان . إن ذلك يعكس الاحترام البالغ للولي . وفي حالة الجن فان الاحترام مشوب بالخوف . وبذلك فإن المرء يكسب إحترام أهل الله وتجنب الخطر الذي قد يصيبه بسبب الأرواح الشريرة .

ولا تتم مثل هذه الاحتياطات ، فقط ، عند الاقتراب من مقام ، ولكن أيضاً ، عند ذكر اسم أحد أولياء الله إذ يخشى من إزعاج الولي(٩) ، والمثال التالي يوضح هذه العادة ؛ فعندما سألت فلاحاً من عناتا عن الشيخ عبد السلام ذكر لي قصة تبين أهمية وقوة الشيخ ، فقال : مرة ركبْ ولدْ على قبر الشيخ عبد السلام . . وفجأة بدأ القبر يرتفع ، وسقف المقام يرتفع . ونذر الوالد هدية للشيخ إذا جعله ينزل على الأرض . وفي الحال

بدأ القبر يهبط إلى مستواه العادي . وارتجف الوالد وأسرع للوفاء بنذره(١٠) (عن محمد من عناتا) .

ومثلما رأينا في هذا المثال ، فإن اسم الولي يضاف لكلمة دستور . . أو قد يقال : دستور يا ولي الله . ونادراً ما تلفظ كلمة دستور وحدها . وفي حالة النبي موسى ، سمعت من امرأه من القدس هذه العبارة : ' دستور يا بن عمْران . . إللي ناره من حجارُه '(١١) . وعند الدخول إلى النبي صالح يقولون : ' دستور يا نبي صالح(١٢) ، يا راعي الناقة ، دستور ' . وفي حالة علي بن عْليم(١٣) : دستور يا علي بن عْليم يا لاجم البحر بْشعْرُه'(١٤) . وليست هذه العادة مقصورة على المسلمين ، بل إن المسيحيين أيضا يستعملونها ؛ فالقديس جورج يتمتع بسمعة عظيمة في فلسطين ، ولذلك ' يطرح الناس السلام عليه ' و ' الدستور ' .

وفي حالات قليلة فإن الشخص الذي يدخل حمى المزار ويقول : دستور ، فإن الناس الموجودين يقولون له : دستورك معك . (أي انك تستطيع دخول المزار وحين يكون الجواب بالنفي ويعطى مثل هذا الجواب عندما تكون بعض النساء في حمى المزار ، ولا يسمح بوجود رجل . ويقال نفس الكلام لرجل يطلب الإذن بدخول البيت) .

وإلى جانب طلب الإذن نقابل حالات تطلب فيها مساعدة الولي في كل مظهر من المظاهر . أن أي فلاح لا يمكن أن يبدأ العمل دون أن يطلب مساعدة الله أو ولي ما . ويستعمل العبارات التالية :

باسم الله

باسم العذرا

يا نبي الله

يا خظر لخْظر

يا نبي روبين

وأكثر العبارات استعمالاً عند المسلمين هي الأولى . ولا يمكن أن يتناول المسلم طعامه ، أو يبدأ عمله ، أو يقدم الطعام ، أو يعجن الطحين ، أو يكيل القمح ، دون التلفظ بهذه الصلاة القصيرة (ذكر اسم الله) . ويعتقد أن الجن سيمتلك كل شي إن لم يذكر اسم الله عليه(١٥) . ومثل هذا التعبير لا يحمل فقط طابع البركة ، بل يعمل على أبعاد العفاريت ومنعها من إيذاء البشر .

وعندما يمر شخص بالقرب من مزار ، أو يكون قريباً منه ، ويقابل صعوبة فأنه يطلب مساعدة الولي : ' بْينخاه (يطلب نخوته) - بسْتجيرْ فيه ، (يطلب منه أن يجيره) . وفي العادة فإن المساعدة تطلب من أقرب الأولياء ، وقد جرب الناس هؤلاء مثل : إبراهيم خليل الله ، موسى كليم الله ، داوود نبي الله ، محمد رسول الله ، وعيسى روح الله(١٦) ، أما التعبير المعتاد فهو :

* دخيل عليك يا رسول الله(١٧)

* أنا طنيب(١٨) عليك(١٩) يا ستي يا بدرية

وأحياناً نسمع العبارة البسيطة من مثل :

* يا سلطان إبراهيم إشفي إبني

* يا أبو الأنبياء

وكل فلاح يعتقد بأن كل ولي سوف يستجيب في الحال للدعاء . وقد سمعت مكاري(٢٠) في لبنان ، وقد سقط حيوانه تحت الحمل ، وهو يقول :

- 'يا مارْ الياسْ إلكْ نُصه ولا يْخسوا '

أي أن الرجل ينذر نصف الحمل لمار الياس إذا لم يحصل الضرر .

وسوف اذكر بعض الحالات التي يطلب فيها العون :

- ينزلق جمل على صخرة ، ويخشى أن تكون رجله قد إنكسرت ، أو في حالة يخشى فيها ضياع الجمل(٢١) .

- حمار محمل بكيس ثقيل من الطحين ، ويقع تحت حمله(٢٢) .

- مسافر يضل الطريق ليلاً ، ويفشل في معرفة الاتجاه الصحيح .

وتوضح لنا القصة التالية هذه النقطة :

- الدكتور جاد ، من حيفا كان مدعواً لحضور حفل عرس في يعبد ، وهناك هاجمته الحمى . وكان هناك ' عربْنجي ' ينطلق في طريقه إلى حيفا ، ورفض أن يحمل الرجل معه . وهكذا استجار بالصحابي ميسر(٢٣) ، ليعاقب العربنجي ، والذي سرعان ما انكسرت عجلة عربته على الطريق . وهذا الطبيب نفسه دعا الولي نفسه ، ليعيد أخاه ، الذي أبعده الأتراك ، فعاد الاخ بطريقة معجزة . وتتم دعوة الأولياء للمساعدة في حالة وقوع الصعوبات الكبيرة . وعند فحص النذور سنرى بان النذر هو نخوة للولي مرتبطة بوعد . وسأروي هنا قصة(٢٤) أخرى توضح بشكل كامل المسألة موضع البحث :

'هاجم بدو قبيلة التياها بيت جالا في الليل ، وقام سكان البلدة المرعوبون والذين كانوا أقل عدداً من البدو ، بطلب مساعدة ' مارْ نقولا ' - استنجدوا - وبصورة فجائية بدأ البدو يهربون بشكل فوضوي وهم يصرخون :

- أعوذ بالله من بلد شجرها برْشُق حجر .

واجتمع الفلاحون في الكنيسة الخاصة بالولي ليشكروه على تخليصهم من أعدائهم الباغين . وقد لاحظوا ، ولدهشتهم العظيمة ــ أن القونه كانت تقطر عرقاً ، وكان ذلك علامة على قوته(٢٥) .

ب- الصلوات والأدعيه

عند دخول المقام فإن الفلاح يقرأ الفاتحة أو سورة من القرآن . والدعاء أمر تتلوه بركة القديس والله ، حسب الاعتقاد . ولا يقوم الفلاح بالدعاء ، عند زيارة المقام ، فحسب ، بل أيضاً عندما يمر بالمقام وخاصة ليلاً . وعندما يقوم حاج برحلة الزيارة إلى مزار ولي ، ويشرف على ذلك المزار من على جبل ، فإنه يقف ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله . والشيء نفسه يحصل مع شخص يشرف على مزار ، دون أن يكون قاصداً زيارته : يرفع

الشخص راحتي يديه ، ويمسح بهما وجهه ' يتبرك '(٢٦) . ويعتقد الكواكبي ، في ' طبائع الاستبداد ' ، أن الممارسة هي تطوير لعادة المسيحيين في رسم الصليب . وفي الحالة الأولى يتم رمي عدد من الحجارة على كومة - مشهد(٢٧) . وفي حالة زيارة نبي يقول الزائر : الصلاة والسلام عليك يا نبي الله . ولا تستعمل هذه العبارة في زيارة ولي . أما أحمد الرفاعي فعندما يزوره حاج يقول : ' يا أحمد يا رفاعي(٢٨) احمينا من كل شيء ساعي '(٢٩) .

إن الصلوات والأدعية التي تؤدى في المزار تعتبر لصالح القديس . ولذلك نسمع من يقول : اقْرأ الفاتحة عن روح الشيخ ، أي من أجل راحة روحه . ويُخلد الزوار أسماءهم بكتابة آيات القرآن على جدران المقام أو على الضريح . الجمل التي تكتب : ' أودعت في هذا المقام شهادة أن لا إله إلا الله ' . وبعد أن ينهي الزائر زيارته يرجو أن يتقبل الولي زيارته .

ج- الاحترام

الاحترام تجاه الأماكن الدينية عام ، ويتجلى بأشكال مختلفة ، وفي الوقت الحاضر ليس بالصراحة المعهودة . ولا يمكن لفلاح تقي أن يدخل مزار الولي دون أن يخلع نعليه ، فأما أن يتركهما في الخارج أو يحملهما معه(٣٠) . ولم أتمكن من دخول مزارات مثل الشيخ الثوري والشيخ عبد السلام إلا حافي القدمين . وفي حالات أخرى ، مثل زيارة الشيخ عبد الله (في القبيبة) ، الشيخ سلمان الفارسي (على جبل الزيتون) ، الشيخ حمد (في كولونيا) ، فلم يعترض أحد على الدخول منتعلاً .

ولا يدخل أحد إلى مزار إلا إذا كان طاهراً ، ولهذا السبب فان العديد من الفلاحين لم يصاحبوني إلى الداخل بل ينتظرون في الخارج وحين كنت أستفسر عن شيء ، كانوا يجيبوني دون أن يخطوا للداخل(٣١) . أن عادات الفلسطينيين المعاصرين هذه تذكرنا بالأيام الغابره ، حينما دعى الرب موسى من وسط الشجيرة المحترقة اخلع حذاءك من قدميك ، فالأرض التي تقف عليها مقدسة(٣٢) ، وكان المتعبدون العبرانيون القدامى لا يسمح لهم بالوصول إلى المنطقة المقدسة قبل التطهر ، ويقبل المتطهرون طقوسياً فقط(٣٣) .

ولا تجرؤ امرأه غير طاهرة(٣٤) على الاقتراب من المقام ، أو لمس شجرة مقدسة ، أو نشل الماء من بئر مقدس أو الاقتراب من نبع مسكون . ولا شيء يثير الرجل المقدس أو الله مثل هذا العمل الطائش(٣٥) . وفي وسط كروم العنب في بيتونيا يقع مصدر نبع خربة نوتا ، والذي يعتقد انه مسكون بروح الشيخ صالح . ومن وقت لآخر ، ينقطع الماء أو يشح ويعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى أن امرأه غير طاهرة اقتربت من النبع ، وذات مرة توقف النبع ، وحاول سكان بيتونيا البحث عن السبب دون جدوى وعندما عرفوا أن امرأه غير طاهرة جاءت للمكان ، قدموا أضحية للشيخ صالح . وهكذا تم تنظيف النبع من جديد(٣٦) . كذلك فان الينابيع التي تسكنها العفاريت لا يجوز أن تقترب منها المرأه الحائض أو التي في حالة نزيف . أن نبع جفنا ، المسكون بعروس ، هو مثال على ذلك(٣٧) . وحتى أرواح الموتى تكره أن تمشي المرأه الحائض بين القبور(٣٨) . ويعتقد الناس في سلوان أن تلك الأرواح تغسل أماكن خطوات تلك المرأه في الحال لتنظيف المكان ، وتعطي الماء القذر لأرواح أقارب المرأه الموتى ليشربوه كعقوبة على فعلتها(٣٩) .

وهناك بعض المزارات المسيحية التي لا تدخلها النساء أبداً ، مثل أديرة مار سابا والغرفة التي يحفظ فيها الحجر المقدس في دير القديس جورج . وهذه العادة أيضاً ليست جديدة حيث نقرأ في الكتاب المقدس لا يحق لامرأه غير طاهرة دخول بيت الله أو الاقتراب منه ' وأي شي تلمسه وتجلس عليه يكون نجساً ' (Lev. ١٥, ١٩) . ولا يستطيع الرجل غير الطاهر ، بعد الاتصال الجنسي مع امرأه ، أن يدخل إلى المقام ، لأنه غير نظيف . ومثل هذا الشخص يسمى ' مُحدْث ' أو ' جنب '(٤٠) . ولضريح ' النبي نون '(٤١) طاقة في الجانب الغربي ، ولا يجرؤ رجل أو امرأه ، وهما في حالة غير طاهرة ، أن يضعا يديهما في الطاقة تلك ، أي انه لا يستطيع أن يشعل النور أو يحرق البخور . وإذا ما تجرأ شخص على هذه الفعلة فأنه سيلسع من قبل حية تحرس المكان(٤٢) .

ولسنا في معرض مناقشة للآثار الدقيقة (الخير والشر) والتي يمكن أن تتسبب بها المرأه الحائض(٤٣) . ولا تستطيع امرأه من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية أن تدخل إلى الكنيسة وهي غير طاهرة . وحتى بعد الولادة فعليها أن تنتظر أربعين يوماً ، وعليها أن تستحم قبل أن تذهب إلى بيت الله .

وعلى الذين يدخلون إلى مزار مهم أن يظلوا صامتين ، وإذا اضطروا للحديث فأنهم يتحدثون بصوت خفيض ، ولا يسمح لأحد بالتدخين أو الضحك أو ما شابه ذلك . إن مثل أشكال الاحترام ، تلك ، تقدم للأنبياء والأولياء المهمين . وتمارس بدرجة أقل في المزارات الأقل أهمية . وعندما زرت جامع الأربعين في العيسوية ، وجدت جابي الضرائب نائماً . وكان يأكل ويصرف أعماله في ذلك المكان . وقدمت لنا القهوه التي جهزت هناك . ودخن الجميع سجائرهم دون أن يعترض أحد .

ويغضب الرجال المقدسون إذا مارس أحد الزنى بجوار المزار ، ويعتقد أن الجبل ، المحيط بالنبي موسى بأكمله يهتز إذا حصل شيء من ذلك .

ولا يسمح للحيوانات بالدخول إلى المزار . ويعترض بعض الفلاحين إذا ربط أحد حصانه بالقرب من المقام . إن هذه العادة الأخيرة تتلاشى الآن . وهناك الكثير من الحكايات(٤٤) التي توضح كيف أن الأولياء قد عاقبوا الحيوانات الغريبة بالموت ، منها :

'وجد بعض أهالي العيسوية ، وهم في طريقهم إلى مزارعهم ابن آوى ميتاً وفي فمه مصباح زيت . وكان الحيوان مطروحاً أمام مزار الشيخ عنبر . وقد اظهر ذلك بوضوح انه دخل إلى المكان المقدس وحمل المصباح ، وحصل على عقوبته على الفور ' . وفي بعض الحالات فان الأولياء يعطون وقتاً كافياً للحيوان ليوقف إساءته . ولكنهم عندما يلاحظون أن الناس أخذوا بالشك في قدراتهم ، فانهم ينتقمون .

عين قينا مسكونة بروح الولي ' أبو العينين ' . وقد اعتاد الفلاحون أن يضيئوا مصباحاً من الزيت ، تكريماً للولي مساء كل خميس . وكانت بنات آوى يشربن الزيت . وقد أثار ذلك حفيظة صاحب الأرض (محمد عبد الله) الذي أضاء مصباحاً من الزيت وقال : ' إذا لم تتمكن من حماية ممتلكاتك ، فأننا لن نضيء لك مصباحاً بعد اليوم ' . وفي اليوم التالي وُجد ابن آوى ميتاً والمصباح في فمه . وقد اثبت ذلك قدرة الولي دون جدال .

وقد اعتادت امرأة أن تضع ' طوس ' الزبدة تحت حماية الولي أبو نجم . وفي اليوم التالي لاحظت أن جزءاً من الزبدة قد سرق . وهكذا وضعت طوساً آخر . وفي اليوم التالي وجدت ' واوي ' برجل أمامية مشلولة داخل الطوس . ويقع مزار أبو نجم على قمة تلة ،

على مسافة ساعة من ارطاس(٤٥) . وكان أبو نجم ' نجاب ' الرسول . والنجاب هو الرجل الذي يسير أمام النبي أو شيخ الطريقة في موكبه إلى القرية التي يتوجه اليها ليعلن قدومه .

وعُرف عن ' الشيخ عبيد ' ، قرب سطاف ، انه كان يقتل كل عنزه تدخل إلى الكهف . وهناك حالات شاذة يسمح فيها للحيوانات ، عن قصد ، بالدخول من باب المزار . وسنتحدث عن هذه الحالات فيما بعد .

ويفترض في المزار ومحيطه أن يكونا دائماً في غاية النظافة ، ولكن ذلك أمر نادر . وعلينا أن نوضح معنى النظافة عند الفلاحين . إن النجاسة في مفهومهم هي كل شيء غير طاهر طقوسياً مثل ما ينتج عن التلوث ببول أو براز الآدميين ، وبمقدار اقل من الحيوانات(٤٦) ، وكذلك عند ملامسة أجسام الموتى أو الأطعمة والمشروبات النجسة ، مثل لحم الخنزير والمشروبات الكحولية . ومن الأشياء النجسة الدم والقيح ، ودم الحيض . ومن المحرم تماماً هو التجمر(٤٧) (مسح مقدمة قضيب الرجل بعد البول) بجدران المقام . بهذا المعنى يفهم الفلاحون النظافة ولكنهم لا يأبهون لأكوام القمامة التي توجد في محيط المقام أو داخله . إن ' بنات الشيخ صالح ' و ' العمري ' وهما في أريحا ، ليعتبران مثالين صارخين على القذارة في المقامات . ومن النادر أن تنظف أرضية المقامات . ويمكنك أن ترى قطع السجاد ، والفراش الممزق ، وعلب الصفيح ، وعلب الكبريت الفارغة ، والجرار المكسورة ، وزجاجات الزيت الفارغة ، مبعثرة في الكثير من المزارات .

إن كل شيء يمت بصلة للمزار هو مقدس ، ويجب الا يؤخذ أو يحرك من مكانه ، بأستثناء ما يمكن فعله في مناسبات مختلفة مثل الحجارة وأوراق الأشجار وزيت الاضاءه . فهذه الأشياء تعامل على إعتبار أنها بركة أو دواء . وفي كل الحالات الأخرى فان القديس يعاقب الفاعل بقوة . وأحياناً يقوم الفلاحون بمعاقبة مثل هذا الشخص لتلافي غضب الولي على القرية : وتوضح القصة التالية هذه النقطة بروعه(٤٨) :

'فلاح من الجديدة ، هجر زوجته وأطفاله وذهب إلى حوران وأصبح مسلماً ، ولأنه كان شبه متعلم فقد أصبح خطيب القرية ، وبذلك حصل على مركز مهم ، وكانت أفكاره تنتقل إلى الناس دون تذمر . وذات ليلة ذهب ليقطع شجرة شوكية قرب ولي القرية معتقداً بأن مكانته تحميه ، ودبت حالة ذعر حين إنقشع الفجر وشجرة الولي مطروحة

أرضا . واكتشف الناس أن الخطيب هو الفاعل ، وكان لابد من موته للتكفير عن جريمته ودرء غضب الولي عن القرية . واندفع إليه جمهور مسلح وضرب حتى الموت(٤٩) ' .

انه لا شيء يغضب الولي أكثر من الاعتداء على ممتلكاته ، أو فتح قبره ، أو قطع شجرته (٥٠) . ويعتقد البدو - حول غزه - أن الأتراك خسروا معركة غزه ، فقط ، لانهم لم يحترموا هذه القاعدة الأساسية ، وهدموا مزار الشيخ نوران(٥١) ،وقطعوا شجرة الشيخ أبو هريرة(٥٢) . لقد طلب شخص متنفذ ، من أهل القدس ، من فلاحي شرافات أن يقطعوا غصناً يابساً من بلوطة البدرية ، ورفض الفلاحون ذلك ، ونصحوه بالعدول عنه ، وهكذا استأجر الرجل مسيحيا من القدس قام بالعمل . وقد وقع الرجل مريضاً في اليوم التالي بالروماتيزم وعرف الفلاحون بأن هذا هو العقاب المتوقع من البدرية(٥٣) .

د- العبادة في المزار كالمسجد

نجد أنه في بعض المزارات تؤدي الصلوات اليومية ، مثلما يتم ذلك في المسجد ، فكل هذه المزارات تضم محراباً وهي موجودة في القرية أو بجوارها . وسكان القرى القريبة من القدس لا يملكون الجوامع ،لذا فهم يصلون الجمعة في القدس ، بعد أن يحضروا (سوق الحلال) يوم الجمعة(٥٤) ، ويؤدون الصلاة في مسجد عمر . وفي القرى البعيدة عن القدس ، فإن مثل تلك الجوامع معروفة ، ويقوم الناس بزيارتها ليلة الجمعة ويوم الجمعة أيضاً ، وأحياناً ليلة الاثنين (٥٥) والأعياد ، وسنصف زيارات الأعياد لاحقاً .

وفي هذا الصدد أود الإشارة بأن بعض الكنائس المسيحية التي يحترمها ويزورها المسلمون ، مثل الكنائس المكرسة للقديس جورج ، وخاصة في بلدة الخضر قرب بيت لحم ، غالباً ما تتمتع بهذه الميزات . وبعد ذلك تأتي ستنا مريم ، وكنيسة الصعود ، وكنيسة المهد ، ومغارة الحليب ، ومار الياس(٥٦) وتحظى الأخيرتان باحترام من المسلمين المجاورين فقط(٥٧) وحسب مجير الدين لا ينصح بأداء أي صلوات في كنيسة القديسة ماري لانها مشيدة في وادي جهنم(٥٨) .

هـ- البركة

لا يذهب الفلاح إلى المزار ، ليقدم النذر ، وليقسم اليمين ، وليكسب الشفاء فقط ، ولكنه يذهب أيضاً للحصول على البركة(٥٩) ، والبركة كما يقول هي قوة خيره تشع من المكان المقدس لكل شخص يتصل معه ، ولذلك نرى الزائر يمس الضريح وأغطيته والمسبحة ، ثم يمرر يده على وجهه وجسمه ، ليوزع البركة على كل أطراف جسده(٦٠) . ويقوم آخرون بتقبيل تلك الأشياء ، أو يلفون أجسادهم بستارة القبر ، وإذا قام الزائر بمسح وجهه ويديه بزيت المقام فأنه يحصل على بركة دائمة . ويشرب الزائر الماء من نبع المقام ، أو الآبار المقدسة لنفس الغرض . ومن أجل ذلك يعود زوار مكة ومعهم ماء زمزم ، ويوزعونه على الناس . ويأخذ بعض الناس التذكارات ' السوفونير ' من المقام كبركة ، وقد تعلق في البيت باعتبار أنها جالبه للحظ . ومن ذلك 'النجاصة'(٦١) المصنوعة من تراب مكة والمغموسة بدم الضحايا(٦٢) . ويأتي الحجاج بالعديد من الأشياء ويوزعونها على الأصدقاء الذين يعلقونها في بيوتهم(٦٣) . ويقوم المسيحيون بأخذ الماء من نهر الأردن ، أو أوراق الشجر من الجثمانية لنفس الغرض ، أو يحتفظون بالصور التي نالت القداسة من وضعها على القبر المقدس أو كنيسة المهد .

ومثلما أوضحنا في كل الأمثلة السابقة ، فليس فقط أرواح الرجال القديسين التي تمتلك القوة ، بل كل شيء يمت بصلة إلى المقام - مسكن الروح - يمتلك هذه القوة وقادر على إشعاعها إلى الإنسان . ومما لا شك فيه أن جزءاً من جسد القديس نفسه ، أو أي شيء يتصل بتاريخه الشخصي يمتلكان تلك الصفة المعجزة . وهكذا فإن شعرات من لحية النبي(٦٤) ، المحفوظة في مسجد عمر في القدس يزورها الناس في ٢٧ رمضان(٦٥) . كما أن أجزاء من الصليب الحقيقي للمسيح يحملها العديد من المسيحيين لنفس السبب(٦٦) . بالإضافة إلى تلك الطرق في البركة من ' الولي ' فأن العديد من الفلاحين يحاولون أن يستفيدوا من زيارة أكبر عدد من مزارات الأولياء الهامة . وهكذا فإن العديد من زوار النبي موسى ، يقومون بعد نهاية الموسم بزيارة حرم الخليل ، النبي صموئيل ، النبي صالح . . . الخ .

إن الكثير من الحجاج يزورون العديد من الأولياء في مصر وفلسطين للحصول على التبرك من الأولياء المختلفين . ويعتقد المذنب أنه من خلال مثل هذه الزيارات

والصلوات يحصل على البركة التي تمسح أو تمحو ذنوبه ، ذلك لأن روح الولي التي يسرها ما فعل تكون جاهزة للمساعدة(٦٧) . وفي كل مزار مهم يقوم خادم المقام بنصيحة الزائر بتلاوة أدعية وصلوات معينة في كل نقطة . وتوجد أنواع من الكتب التي ترشد الزائر إلى الأماكن المقدسة في القدس والخليل ، وأفضلها كتاب الحاج مصطفى الانصاري ' المرشد للزائر والدليل في مناسك وزيارة أماكن القدس والخليل '(٦٨) ، والكتاب الذي وضعه يوسف ضياء الدين الدنف الأنصاري بعنوان ' مناسك القدس الشريف '(٦٩) . وتوضح هذه الكتب أية سورة(٧٠) وأي دعاء يجب أن يقال في كل مكان مقدس .

ويحاول الشيوخ العائدون من مواسم النبي موسى ، النبي روبين ، النبي صالح ، إلى قراهم زيارة اكبر عدد ممكن من مقامات الأولياء التي تقع على طريقهم . وإذا كان موقع الولي بعيدا عن الطريق فان الموكب يتوقف ، ويتلو الشيخ الفاتحة .

لا تؤخذ البركة فقط من الأولياء والموتى ، بل أنها تشعُ أيضاً من الشيوخ الأحياء . وكان للشيخ أبو حلاوة خلال حياته سمعة كبيرة في هذا المجال . ويقوم الناس بتقبيل يديه ولمس حلته ، وتناول طعامه ، أو القيام بأعمال مشابهة لأخذ البركات . وتوضح القصة التالية هذه الفكرة :

'كان ' أ ' زوج أم ' ف ' غائباً في القسطنطينية . وبما أن زوجته لم تستلم أخباراً عنه ، فإنها ذهبت مع ابنتها ، التي كانت في الثامنة من عمرها إلى الشيخ أبو حلاوة ، وقبل أن تدخل الغرفة سمعته يقول : ' أهلاً بابنة وحفيدة قطب الغوش ' وأصيبت المرأه وابنتها بالذهول لأن الشيخ عرفهما قبل أن تدخلا . وجلست أم ' ف' إلى جوار الشيخ واخذ الشيخ الخبز والسكر من عبه ، وقدم ذلك إلى الزائرة كبركة . وبدأ أبو حلاوة يروي القصة : عندما كنا نسافر بحراً ، وصلنا إلى جزيرة مجهولة . وخلال الليل أوصلت العاصفة قاربنا إلى الشاطئ . وعبثاً حاولنا إبقاء السفينة طافية . وبينما كنا جميعاً نندب حظنا ظهر جدك ' قطب الغوش ' وعمل على إبقاء السفينة طافية ودلنا على الأتجاه الصحيح . وقد حصل ذلك يوم الأربعاء الفائت . وبعد عدة أيام وصل ' أ ' وأخبر كيف أن ' قطب الغوش ' قد أنقذ حياتهم ، وبعد أن اعتقد الآن بقوة الشيخ ، قام بزيارته للتبرك(٧١)' ، ولن أصف هنا قدرة القديسين على الشفاء والتي يعزوها البعض(٧٢) إلى البركة ، ولكن كما سأوضح تعود إلى قوى أخرى .

٢- وضع الممتلكات الخاصة تحت حماية الولي

تقع مقامات العديد من الأولياء في الحقول خارج القرى ، وبما أن الفلاحين يقضون الكثير من أوقاتهم هناك ، يستغلون الأرض ، ويجنون المحاصيل ، ويقطعون الحجارة ، ويجمعون الأشواك لعمل الجير . . الخ ، فإنهم يضعون بعض ممتلكاتهم التي لا يستطيعون حملها تحت حماية ' الولي ' متأكدين بأن أحداً لن يجرؤ على الاقتراب منها . ويعاقب الأولياء بشدة كل من يمس شيئا وضع تحت حمايتهم . وهناك قصص كثيرة توضح ذلك . ومن ذلك هذه القصة التي روى لي إياها ' مختار شعفاط ' والتي حصلت معه أثناء طفولته :

'قام بعض الفلاحين في القرية بنشر الزيتون على سطح مزار 'الشيخ إبراهيم الادهمي' من أجل أن تنضج بسرعة في حرارة الشمس . وقام هو - المختار - بتسلق السطح خلال الليل وملأ جيوبه وعبه بالزيتون . ولم يتدخل الولي في المرة الأولى والثانية . ولكن عندما قام الطفل بتسلق السطح للمرة الثالثة ظهر له رجل عجوز محترم يرتدي ثياباً بيضاً ، بلحية بيضاء ، وبيده رمح ، وقال له : بالله سأقطع عمرك وأجعلك تسقط أرضاً إذا تجرأت على السرقة مرة أخرى . وأجاب الولد : والله تبت يا شيخ ' .

وهناك قصة أخرى توضح الأمر بطريقة أخرى :

'ذات مرة دخل اللصوص إلى الصيرة القريبة من الشيخ زاكاري ، وسرقوا القطيع ، وبالكاد ، ابتعدوا أمتاراً قليلة عن المكان ، حتى شعروا أن الولي جعلهم عمياناً . وعندما لأحظوا انهم لم يعودوا يرون شيئاً ، وأن ما حصل هو عقوبة قاسية من ولي الله ، قاموا بإعادة الأبقار إلى مكانها . وفي الحال عاد نظرهم اليهم وولوا هاربين ' .

أن الأشياء التي توضع تحت حماية الولي متنوعة .

* عند الشيخ عبد الله - شعفاط ، الشيخ عبيد - دير ياسين والشيخ رمضان رأيت أكواماً من الشوك(٧٣) الذي تجمعه النساء ليكون وقودا للشتاء .

* في كهف الشيخ عيسى - بيت لقيا ، وفي مقام الشيخ أحمد الطيار - القسطل ، وجدت التبن .

* في كهف رجال أبو طوخ - بيت لقيا ، وجدت ثلاث جرار من اللبن .

* في جامع الأربعين وضع فلاح من الجيب كمية من الشيد .

* في الشيخ حامد وجدت حمولة حمارين من جرار الفخار .

* في الشيخ أحمد ـ خربة قرية السدة وجدت أدوات زراعية .

* في الشيخ عبد الله السدري (خربة السد) وضع البدو بعضاً من أغراضهم المنزلية .

كذلك يقوم الأولياء بحماية ممتلكات الجيران أيضاً . ويوضح كل ذلك أن الأولياء يراعون عادات العرب وأعرافهم التي لا يزال سكان فلسطين(٧٤) يراعونها .

٣- ربط الخرق

إن ربط الخرق بمكان مقدس هي عادة قديمة جداً ولا تزال موجودة في الشرق . فالخرق تربط بالأشجار ، والقضبان الحديدية للشبابيك الخاصة بالمزارات ، وتوضع على مقابض الأبواب ، على المحجانة(٧٥) ، وكذلك على راسية القبر . إن ربط الخرق هو بمثابة بطاقة الزيارة ، ويشير إلى أحد المقاصد التالية :

١- إشارة لزيارة المقام والوفاء بالواجب الديني .

٢- تذكير للولي حتى لا ينسى الزائر ورغبته .

٣- رمز لإلقاء حمل المريض على الولي . يربط المريض الخرقة ويقول : 'رميت حملي عليك يا ولي الله' . ويعتقد الناس أن الولي بذلك يبعد المرض(٧٦) . في بيوتنا يضع أقارب المصاب بالحمى سلسلتين من الحجارة على شجرة معينة ، معتقدين أن المرض سيختفي فوراً . وهناك عادة وضع الحجارة على 'صخرة أبو الظهور' بعد حك الظهر بالصخرة .

والمبدأ الأساسي خلف هذه الأفكار هو ما تسميه ' السحر الاتصالي ' القائل بأن كل شيء له صلة بشخص أو كان عائداً له لا يمكن أن يفقد تماماً علاقته به . وهكذا فأن الخرق تعبر عن علاقتها بالشخص الذي ربطها . أنها تمثله وتمثل رجاءه بالشفاء . ومن خلال أتصال الخرق لمدة طويلة بالولي فأنها تأخذ بعض قوته التي تنتقل إلى الزائر الذي ربطها بالمقام . وهذا الاعتقاد الخرافي مكرس بقوة في الفولكلور الفلسطيني وسوف نتطرق اليه في أماكن أخرى .

في مزار المنصوري (عورتا) رأيت خمس قطع من القماش بحجم منديل اليد تتدلى من أشجار العنب والتوت . إثنتان منهما كانتا خضراوان ، وواحدة حمراء ، وواحدة زرقاء ، والخامسة صفراء . وعلمت أن الخرق كانت من ستارة الولي . وأفهموني بأنها كانت بدلاً من الوفاء بنذر لتقديم ستارة كاملة للولي . وبما أنه يستحيل الوفاء بستارة حقيقية للقبر الكبير (٤٤٠ × ٢٣٥سم) فقد وعد بهذه القطع وقنع النبي بها ، كما لو أنها ستارة حقيقية كبيرة . وهناك فكرة وضع حجر على ضريح الولي ، فقد وجدت حجارة على قبور : حسن الراعي ، الشيخ غانم ، أبو هريرة ، مساجد ستنا عايشة ، الشيخ عبد الله . . الخ . وهذه العادة أقل إنتشاراً من ربط الخرق ، وفي هذه الحالات فإن الحجارة ترمز إلى زيارة المقام . وفي حالة النبي يقين ، قرب بني نعيم ، فأن مقبض الباب ، وكذلك الإفريز المحيط بالصخرة المقدسة ، والتي تدل على طبعات قدم إبراهيم ، مملوءان بالخرق المربوطة ، كما وجدت أساور وخرزاً وعقوداً كانت وسط الخرق(٧٧) . ويأخذ الكثيرون هذه الخرق معتقدين بأنهم سيتلقون البركة . وغالباً ما يمارس ذلك المرضى والذين يتوجب عليهم وضع خرقة أخرى بدلا من الخرقة التي أخذوها ، وتماثل هذه العادة بدون شك تلك المذكورة في 'Acts ١٩ : ١٢ ' ومن جسمه يجلب للمريض خرقه ويغادرهم المرض والروح الشريرة ' . وأحياناً يربط البدو وأشباه البدو العقال على الشجرة المقدسة ، معتقدين بأن هذا اكثر فعالية لأنه يمثل غرضاً كاملاً من اللباس ويمثل صاحبة بصورة أفضل ، وأحيانا قليلة يوضع الحجاب على الجسم المقدس . ومن الأشجار التي رأيت عليها الخرق المربوطة :

الشيخ يوسف	شمال رام الله
النبي نون (بلوطة)	يانون
الشيخ البختيارية (بلوطة أو خروبة)	شمال خربة اللوز

خربة العشرة	العيسوية
الشيخ بري (بلوطة)	شمال دير غسانه
أبو الرايات (بلوطة)	غربي دير بلوط
الشيخ عبد الله (بلوطة)	شمال يبرود
البُطمة	القبيبة
النبي عنير	رأس ابن سمحان

ومن بين المزارات التي رأيت الخرق مربوطة في قضبان حديد شبابيكها :

أبو مدين	القدس
بيرم شاويش	القدس
طاقة سلوان	المسجد الأقصى
النبي موسى	
أبو زيتون	غربي بيتونيا
البدرية	شرافات

وحتى على القبر نجد هذه التذكارات :

النبي نوح	الكرك
الشيخ سليمان	دير أبان
الشيخ أحمد العمري	قرب دير أبان
أبو هريرة	تل أبو هريرة

الشيخ نوران	قرب الشلالة

وعلى أبواب الشيخ عبد الرحمن (رمون) ، النبي لوط ، والنبي يقين (وكلاهما في بني نعيم) ، وعلى محجانة الشيخ أحمد الغريب (شمال مجدل الناصرة) يمكن أن نجد الخرق .

ولم أصادف حالات وضع اللحم على الشجر التي أشار إليها كورتيس كما ذكر جوسين(٧٩) وداوتي ، ويبدو أن هذه العادة خاصة بالبدو .

٤- الشفاء

انه لما يثير العجب استمرار إعتقاد متماسك بقوة القديسين في الشرق ، وقد رأينا كيف يأتي الفلاح في شتى مراحل حياته إلى أشباه الالهه ، وهو يأتي طلباً للمساعدة ولكن أيضاً لتأدية واجب الشكر . عندما يمرض طفل ، تذهب الأم إلى الولي راجية منه أن يشفي ابنها بالقول أرجوك يا نبي داود أن تشفي ابني ، أو بصوره اكثر تواضعاً ' أنا خادمتك يا خليل الله احم ولدي الوحيد ' . وقد لاحظنا كيف أن الفلاح الفلسطيني يحاول أن يحصل على العطف الخاص والمساعدة من الولي مقابل تقديم تقدمه له إذا استجاب . وهكذا نلاحظ بأنه اعتقاد راسخ عندهم كما كان عند أسلافهم لأن كل شيء له صلة بالولي يحمل شيئاً من قوته(٨٠) . وعليه فإن الأشجار ، العشب ، الماء ، التراب ، والتي لها اتصال بالضريح ، إضافة إلى أغطية القبر ، وحتى الكناسة ، تتمتع بشيء من القوة الغيبية للولي ويدفع هذا الاعتقاد بالإنسان الشرقي ، لإستعمال مثل هذه الأغراض أصلاً في الحصول على بعض قوة الولي وحمايته من سوء الطالع ، والتخفيف من آلامه وإسراع شفائه ومن خلال فحص هذه الأدوية العلاجية ندهش لتعددها وتنوعها . ويمكننا أن نقسم هذه المادة إلى الأقسام التالية :

١- أشياء تؤخذ من المزار وتستعمل للحماية وللعلاج . المواد المستعملة يمكن أن تكون أعشابا ، معادن أو سوائل ، فالعشب المحيط بالبناء يؤخذ أو يجفف عند الضرورة ليعالج المحموم بطريقة التبخير . والكلمة المستعملة للتبخير هي ' دعق ' وتستخدم أوراق الأشجار بهذه الطريقة وأحياناً تؤخذ أجزاء من الشجرة المقدسة لتستعمل

كحجاب . إن شجرة الميس التي تنبت في ساحة مسجد عمر(٨١) ، هي مصدر معظم الحجابات الخشبية ، فهي تفيد في علاج العين الحاسدة . ويمكن للمرء أن يرى الأطفال - وأحياناً الحيوانات- يحملون مثل هذا الحجاب . وأن أكثر عود يملك فاعلية ، هو الذي يقطع من الشجرة ليلة ٢٧ رمضان(٨٢) ، بعد الغروب وقبل الفجر ، (أي في ليلة القدر والتي تفتح فيها أبواب السماء ، وتهبط الملائكة . وفي هذه الليلة يستجيب الله لكل دعاء) ويعتقد المسلمون بأن الأمر الإلهي للعام القادم يثبت في تلك الليلة(٨٣) ، لقد زرعت أشجار الميس طبقاً للخرافة الشعبية التي تقول أن الجن قامت بهذه المهمة كتقدمة للملك سليمان لحماية معبده(٨٤) . وتؤخذ الفروع على شكل شوكة ذات طرفين(٨٥) . ويقوم المسيحيون ، الذين يعتقدون بهذا العمل بدرجة اقل من المسلمين ، بقطع فروع شجرة الميس قرب بئر الملوك الثلاثة(٨٦) (بئر قادسمو) . ويعتقد أن هذه الشجرة تنحدر من تلك التي كانت موجودة عندما هربت العذراء مريم من ملاحقة اليهود(٨٧) . وإذا كان ممكنا فأن العود يؤخذ على شكل صليب .

ويجلب الناس التمر من مكه ، كبركة ، ومن أجل أن يساعدوا الأطفال على النطق بسرعة وله أيضاً منافع أخرى ، فإذا قدم للأطفال فسيصبحون خطباء مفوهين بصوت جميل(٨٨) . ويعتقد المسيحيون أن البلح المأخوذ من نخلة مار سابا ، هو أفضل علاج للعقم . وتستخدم أوراق النخيل المقطوعة في قشرة الخميس التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

إن أوراق شجرة زيتونة النبي التي تجمع في ' جمعة العلمات ' - الجمعة العظيمة - لدى الكنيسة اليونانية تساعد على الشفاء من الحمى وآلام المعدة . وتقع هذه الشجرة بين الأقصى ومسجد عمر - إلى الغرب من حوض المياه (الكأس) .

وفي كل عام يسكن النبي والصحابة تلك الشجرة ، في ذلك الوقت المذكور . وهذه الحقيقة الخارقة للطبيعة توضح نفسها بتبخر الفروع . وتخص شجرة الزيتون بتكريم خاص في فلسطين(٨٩) . ويقوم المسيحيون(٩٠) خلال موكب خميس الغُسل بحمل فروع الزيتون الصغيرة ، ويمزجونها بقشرة الخميس(٩١) ، وهي كبسولة المحلب الممزوجة بأوراق النخيل والزيتون وبعض الأزهار - وتوضع كبسولة المحلب في الماء الذي يغسل به بطريرك اليونان الأرثوذكس أرجل الأساقفة في ' خميس الغسل ' . ويعطر الماء بماء الورد . وتأتي الأزهار من ' أحد الفصح ' - الأحد من أواسط صيام

الفصح أو من عيد الصليب . وفي هذين اليومين يوضع الصليب على صينية مغطاة بالأزهار ، وتتلى عليها الصلوات ، ثم توزع على الجمهور . أما أوراق النخيل فهي من أحد النخيل ، وأحياناً يجد المرء ' الشب ' و' الملح ' ممزوجين بقشرة الخميس . وبهذا المزيج يبخر الطفل المريض ، وكذلك المصاب بالعين الحاسدة . وإذا لم يكن الشب والملح مضافين ، فإنهما يضافان عند التبخير .

أخذت الميرمية أسمها من القديسة مريم ، ويقال أنه عندما كانت مريم تسير في يوم صيفي قائظ ، أخذت نبتة لتمسح وجهها . ومن هنا أخذت النبتة أسمها ، وصارت تستعمل لعلاج أمراض عديدة .

ونجد أن قصارة وحجارة وكناسة المزارات تستعمل لأغراض علاجية ، فتؤخذ الحجارة ، وتنقع بالماء ، ويشرب الماء بعد ذلك . إن حجارة النبي موسى تعتبر بمثابة حرْز فعال ، وهي تظهر فاعليتها بسبب قابليتها للإحتراق . وأحياناً يتم قصها على شكل مكعب أو مثلث ، ويرسم عليها الطلسم ، وتستعمل كحجاب . ويستعمل المسلمون والمسيحيون حجارة مغارة الحليب ، البيضاء والناعمة في بيت لحم للعمل على زيادة حليب الأم . وتنقع الحجارة بالماء وتعطى للأم الحامل . ويعتقد أن العائلة المقدسة أخذت ملجأ لها في تلك المغارة حيث سقطت نقطة من حليب مريم على الأرض . وفي حالات كثيرة تؤخذ بعض الحجارة لتكون ذات فاعلية . وكثيراً ما لاحظت أنهم يستعملون سبعة أحجار . وتؤخذ سبعة أحجار من الشيخ غريب ، شيوخ المسالمة ، والشيخ أبو يمين ، وذلك لعلاج الحمى .

وتستعمل كناسة الشيخ إصنيت (الخليل) لعلاج العقم(٩٢) ، وكذلك تؤخذ الكناسة من مقام النبي صالح ، والشيخ قيطون (الخليل) والشيخ رمضان(٩٣) لشفاء الحمى . إن 'تراب' الشيخ الزغبي (علما - المالحة) والذي يحضر بالزيت كمعجون يساعد على شفاء ' وجع الرأس ' . كذلك فإن التراب المأخوذ من قبر الراعي(٩٤) (قرب النبي موسى) ، والمحلول بالماء ، إذا أعطي للقطعان فأنه يحميها من المرض .

وتستعمل مياه الأماكن المقدسة لأغراض العلاج ، وذلك من خلال الاستحمام بها ، أو شربها . وفي معظم الأحيان فإنها تستعمل لعلاج الحمى والعقم . إن الأشخاص الذين يعانون من الحمى يستحمون في ' عين سلوان ' ، عين الشامية(٩٥) ، أو عين النبي أيوب ، أو بئر الشيخ إبراهيم- بيت جبرين ، أو يشربون من ' بئر الشهدا '(٩٦) .

وفي حالة عين سلوان يتم إستحمام المرء خلال صلاة يوم الجمعة ، بصب الماء سبع مرات على المريض . وتأخذ المرأه العاقر معها إلى الحمام سبعة مشاخص(٩٧) ، وسبع مفاتيح تفتح أبوابها إلى الجنوب ، وسبع كؤوس من الماء ، لا تصل إلى فوهاتها أشعة الشمس(٩٨) ، فتضع المشاخص والمفاتيح في الماء ، وتستحم فيه ، وتصب مياه الآبار السبعة على جسدها بعد ذلك ، والمشاخص هي عبارة عن عملات ذهبية قديمة تظهر على أحد وجهيها صورتان بشريتان .

أن المطبعة ، وهي مستنقع في سهل مرج بن عامر ، بين الشيخ بريك وتل الشمام ، ذات سمعة في شفاء الروماتيزم . ويقال أن الشيخ بريك هو الذي يعطي المكان قدرته على الشفاء . وبعد أن تأخذ المرأه حماما في 'المطبعة' فأنها تغسل نفسها في عين أسحق ، ثم تذهب إلى الشيخ بريك لتقديم هدية للولي . وتساعد عين 'النبي أيوب' إلى الشرق من خربثا على علاج العقم . ويعتقد العديد من سكان القدس أن الجلوس في جُرن ستي مريم (قرب بوابة سان اسطفان) يزيل العقم . ويعتقد أن العذراء مريم أخذت ذات مرة حماماً في ذلك المكان . وكان عبرانيوا العهد القديم (٩٩) يحملون هذا الاعتقاد(١٠٠) . وكذلك فأن غسل العيون الملتهبة في ماء 'عين أم اللوز' قرب سلوان يساعد على الشفاء . ويعتقد المسيحيون بأن المسيح أرسل الرجل الأعمى ليغسل عينيه في ذلك الماء .

إن الينابيع المتعددة التي يعتقد الفلسطينيون بأن أيوب قد استحم فيها وشفي من مرضه ، لا تزال تستعمل لشفاء كل أنواع الأمراض الجلدية ومنها :

حمام الشفا(١٠١)	القدس
بير أيوب(١٠٢)	قرب سلوان
عين النبي أيوب	راس ابن سمحان
النبي أيوب	خرْبثا
النبي أيوب	دير أيوب (قرب باب الواد)
بير أيوب	دير أيوب (قرب باب الواد)

ويعتقد أهل غزه بأن أيوب قد شفي عندما أستحم بمياه البحر يوم الأربعاء الذي يسبق عيد الفصح اليوناني 'أربعة أيوب أو أبْرية أيوب' . وفي يوم الأربعاء المذكور يتم إحضار كل الغنم المصابة بالمرض الى البحر لتغسل ، وأفضل مكان هو قرب ستنا الخضراء (قرب عسقلان) وبجوار 'نبع أبو زيد' و 'عين أبو فكه' - بيت زكريا ، تنمو أعشاب تشفي من مرض 'الخوفة' ، وينسب الفعل الشفائي للنبي زكريا .

إن مياه 'عيون الحصْر' (حصر البول) مشهورة في فلسطين ، ووجدت من بينها واحداً يسكنه 'ولي' مثل 'بير السحر' في دير طريف ، والذي يسكنه الولي شعيب . والسؤال كيف تحققت لهذه العيون القدرة الشفائية يبقى بدون إجابة(١٠٤) .

كذلك نجد أن التقدمات المودعة في المزار تشفي من المرض ، مثل فتيلة الضوء ، البخور ، الخرق المعلقة على الأشجار والشبابيك ، أغطية القبر . ويقوم المصابون بالروماتيزم والأمراض العصبية بفرك رؤوسهم ومفاصلهم بزيت المزار ، الذي يمزج أحيانا بالأعشاب البرية ، كما هو الحال في 'الشيخ اصنيتْ' و 'الشيخ كنفوش' ، وكلاهما في الخليل ، أو يمزج بتراب مزار الزغبة في المالحة' ، ويستعمل المعجون لشفاء أمراض الجلد . وعندما يتم أخذ شيء من زيت لا بد من تعويضه ، والا حصل المريض على نتيجة عكسية .

إن فتيلة مصباح النبي موسى (وأحياناً النبي داوود في حرم الخليل) ، هي علاج جيد للمرأه العاقر إذا ابتلعتها أو حملتها كحجاب . كذلك فأن المريض بالحمى ينصح بأن يبخر ببخور ستنا الخضراء (قرب الجورة) أو بقش حصيرة من مقام شهاب الدين (قرب يافا) . وإذا لبس الأطفال 'خلَقَ' من مزار أو شجرة مقدسة ، فأن ذلك يحميه من كل الأرواح الشريرة . وكذلك فإن التبخير بهذه الخرق يشفي من الأمراض التي يسببها الجان . ولا بد عند أخذ خرقة ، من تعويضها بخرقة أخرى . ومن أشهر الخرق في هذا المجال ، تلك المأخوذة من 'شجرة السعادة' (بين اليامون وجنين) . وتحاول بعض النساء نزع قطعة من غطاء قبر النبي موسى لشفاء طفل . وأما الخيط الذي حول ضريح النبي موسى فيستعمل كحزام واق من أخطار الإجهاض المتكرر عند النساء . وتساعد مسابح الأولياء ، على تسهيل الولادة ، فإذا علقت المرأه المسبحة في رقبتها ، أو على بطنها فوق الرحم فأنها تلد بسرعة . (هذه مسبحة اليسر من يسر) ومنها مسبحة البكري

(دير غسانه) في حمى حسن ، وتلك التي للشيخ أبو يمين (بيت عنان) في حمى الشيخ يوسف والشيخ الآرامي . ويمكن الأستفادة من أغطية قبر الشيخ محمد الخليلي (محمد بن شرف الدين الشافعي الخليلي الذي ولد في الخليل ودرس في القاهرة وتوفي في القدس سنة ١١٤٧ هـ . أن خبز سيدنا الشيخ أبو مدْين(١٠٥) ، المصنوع من قمح الوقف التابع لهذا الرجل المقدس ، في شهر رمضان(١٠٦) هو بركة ودواء . إذ يوضع الخبز فوق رأس المريض أو تحت مخدته ، وخلال عملية صنع الخبز ، يقرأ القرآن ؛ إذ يُقرأ كل الكتاب مرة واحدة ، والفاتحة سبع مرات ، والسورة ١١٢ عشر مرات والسورة ١١٣ ثلاث مرات ، والسورة ١١٤ ثلاث مرات . وبما أن المرء يحتاج إلى وقت طويل لقراءة القرآن كله نجد رجالاً بعدد أحزاب القرآن يقومون بالمهمة . وقد يجهز هذا الخبز في شهر شعبان ، ولكن المجهز منه في رمضان يمتلك تلك القوة الخارقة . ويستعمل الخبز المقدس (القداسة) بواسطة المسيحيين ، ولا يجوز أن يأكله الا طاهر .

ويستعمل بابوج المجذوب (في دير غسانه) لعلاج ' الملْتاح ' بالضرب على الجهة المتضررة . وإذا ارتدت المرأه العاقر بابوج البكري (جماعين) فأنها تحمل . وبالنسبة لطاسة الرجفة أشير إلى مقالي المنشور في مجلة جمعية الاستشراق الفلسطينية (العدد الثالث صفحة ١٢٢) .

٢- سنعالج الان الأفعال المرتبطة بالمكان المقدس والتي يقوم بها الشخص المريض للحصول على العلاج ، وهذه الأفعال مرتبطة بأكثر الأماكن قداسة في المزار وهي القبر عموماً . وتوضح هذا الأمثلة التالية :

يحاول المرء أن يتخلص من المرض من خلال المشي سبع مرات حول القبر في مزار الشيخ خريس ، وبعد كل جولة يحمل حجراً ويضعه على القبر . ويقوم أقارب المريض ، أثناء مشيه حول القبر ، بتلاوة الأدعية . ويظن آخرون أن وضع الحجارة على القبر (قبر الشيخ اصنيت) هو بمثابة عمل من شأنه إزالة الحمى .

وفي أريحا أخذ أقارب أحد المرضى مريضهم ووضعوه على قبر الشيخ غانم ليتخلص من الحمى ، وتركوه وعادوا إلى البيت ، من أجل أن يتحاور مع الشيخ ويحصل على الشفاء . وقد قال لي المريض أن الشيخ أمره أن يقوم بواجباته الدينية وشفاه . وفي نابلس يؤخذ المريض إلى مزار الأنبياء . ويوضع عند القبر ويترك لوحده وأذ رشح العرق من جسمه يعتقد بأنه شفي . ويضع الناس المريض عند الشيخ سعيد (في إذنا) في

حرم المزار . ويسعى الناس للشفاء من ألم الظهر بحك ظهر المريض في صخرة أبو الظهور ، ووضع حجر على الصخرة . وهناك عمود مكسور في مقبرة باب الرحمة ، قرب الشيخ شداد ، يعتقد الناس أنه يؤدي الغرض نفسه . وفي الخليل ، فأن الأمهات يضعن أطفالهن في الشيخ (اصنيت) ليخلص من المرض ويرتضوا . إن الرجل العقيم يجب أن يغتسل في مقام العطري (دير غسانه) . وإذا كتب خادم مقام الخضرا في نابلس حجاباً ولبسه العقيم بعد الصلاة في غرفة حزن يعقوب فإنه يشفى . وتأخذ الأم الطفل المصاب بالحمى إلى الكأس وهو حوض ماء يقع ما بين مسجد عمر والمسجد الأقصى ، طلباً لشفائه . ويسير الولد ثلاث مرات خلال صلاة الجمعة حول الكأس . وفي هذه الأثناء تلقي المرأه 'الملبس' على الأرض وتأخذ طفلها إلى البيت دون أن تلتفت إلى الخلف .

وتصنع الطلاسم في المزار ، ويرتديها الناس كوقاية من المرض ، وتستخدم لشفاء الأطفال المرضى . ويستعمل ختم مسجد الخليل بأسماء الأنبياء وزوجاتهم المدفونين هناك ضد الحمى (Aberglaube p. ١٣٠) كطلسم ، وفيما يلي نصه :

أ-

نبي الله إبراهيم عليه السلام	زوجته التي إختارها الله	ختم
نبي الله اسحق عليه السلام	زوجته رفعة التي أختارها الله	ختم

ب-

نبي الله يعقوب عليه السلام	زوجته ليقة التي أختارها الله	ختم

ج-

	زوجته زليخة التي أختارها الله	ختم
الكهف المقدس	طبعة قدم النبي	ختم

وتقطع هذه الورقة ، عند الخط أ ، ب ، ج ، د ، ويتم تبخير الولد بكل قطعة يومياً . وهناك أختام يستعملها بعض مشايخ مسجد عمر ، وتضم أختاماً دائرية ، طبعات يد ، سيوفاً ، موازين ، وقد كتب عليها :

١- في تمثيل السيف : لا فتىً إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار(١٠٧) .

٢- على ختم وميزان قال عليه السلام من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس .

السيد أحمد الشريف

الصراط

شحادة

٣- على ختم آخر وميزان : هذا ميزان هذا صُراط .

٤- على الختم الدائري (لموسى) : موسى كليم الله .

٥- ختم إبراهيم الدائري رسول الملك العزيز العلام إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلوة والسلام .

٦- على ختم دائري نقرأ آية الكرسي .

٧- في تمثيل اليد وبشر المؤمنين يا محمد نصر من الله وفتح قريب .

لا إله إلا الله ومحمد رسول الله

لا فتىً إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار

يا حنان يا منان يا رحمان يا الله

الظاهر الباطن الأول الآخر

هناك ختم كبير يضم عشرين دائرة ، وسبعة أخرى . وتضم تلك الدوائر أشعاراً . وعندما تصور مثل هذه الأوراق نلاحظ بأن كل واحدة منها تضم عدداً من الأشكال المذكورة آنفاً .

وفي الغالب فإنه عندما يكون هناك طفل مريض ، وتعتقد الأم ، أن الحجاب فقط هو الذي يشفيه ، ولا تستطيع أن تحصل على حجاب مكتوب في تلك اللحظة ، فأنها تأتي بصرة ملح وتضعها في ثقب في الجدار الشرقي من مقام الرفاعي وتقول : على كيس الرفاعي .

وفي الصباح تذهب إلى شيخ من الطريقة الرفاعية ، وتطلب منه أن يكتب "حجاباً" للطفل . أن نيتها المسبقة تؤكد الرجاء من الله هذا وذلك قبل أن تحصل على الطلسم من أحد أتباعه .

وعند تحليل الأمراض التي تشفيها علاجات الأولياء ، نجد هناك مرضين رئيسيين : الحمى والعقم ، ويأتي بعد ذلك : الأمراض العقلية ، حصر البول ، وأمراض الجلد .

ويعود السبب بأنتشار التفكير بالحمى والعقم إلا أن الحمى تعني عند الشرقي كل الأمراض المتصلة بها مثل نزيف الرئة والمعدة والجفاف والسعال والملاريا والتيفوئيد . وفي كل هذه الأمراض نجد الحمى . ونعرف بأن الملاريا مرض شائع في كل مناطق فلسطين وبهذا المعنى تعتبر الحمى الوباء الرئيسي في فلسطين ، أما مسألة العقم وهي الزواج بدون أولاد وخصوصاً الذكور منهم . وتكريم الرجل يعبر عنها بدعوته باسم أبنه الأكبر وليس باسمه . ومن أجل المداراة على الوضع الحقيقي لرجل بدون أولاد يكنى بإسم أبيه . وعلى سبيل المثال من لا يملك أولاداً ، واسم أبيه محمد ، يطلق عليه إسم أبو محمد أو أبو إبراهيم إذا كان اسم أبيه إبراهيم . وهذا هو السبب الذي يدفع المرأه العاقر لطلب المساعدة في أي مكان للهروب من هذا الوضع المذل . إذ ينظر اليه الشرقي على أنه عقوبة شديدة من الله ، ويؤدي إلى احتقار الناس .

ومن المثير للإهتمام أن بعض الأولياء يملكون قوة خاصة ضد بعض الأمراض ، فهم متخصصون في نوع واحد منها ، وهذه قائمة بأسماء الأمراض والأولياء الذين يشفونها ، فمن أجل الأمراض العقلية يتجه الناس إلى الخضر ، رجال صوفة (دير غسانه) ، النوباني ، الشيخ جبر (رافات) وستنا الخضرا .

وأما الخضر فهو اكثر الأولياء قدرة في هذا المجال . وكل مكان يقال أن أيوب قد أستحم فيه تكون هناك فرصة لشفاء الأمراض الجلدية . ويملك شيوخ العارووري - دير غسانه القدرة على علاج وجع الرأس ، وتتم المعالجة بالكي بالنار ، ويصنع ' دهون ' من الأعشاب البرية التي تنمو قرب المزار . ومن أجل معالجات الحالات الحادة في العادة الشهرية لدى النساء كان الناس يلجأون إلى 'بنات يعقوب' .

وعندما كان 'الرفاعي' حياً فأنه كان يشفى لدغة الأفعى السامة . وقد رجا الرفاعي من الله أن يعطي 'قرن الحلتيت' قوة خارقة . ومنذ وفاة ذلك الولي فأن قرن الحلتيت يفرك بالحليب من أجل تحضير دواء لشفاء الملسوع ، كما أن شيوخ الرفاعي لا يتأثرون بلدغة الأفاعي .

وهناك إعتقاد بأن الشفاء يصبح أكثر تأكيداً في أوقات معينة . فالاستحمام في حمام العين ، والينابيع المكرسة لأيوب ، في يوم عاشوراء (العاشر من محرم) يعطي مفعولاً علاجياً أكثر من الأستحمام في أي وقت آخر . وكذلك فأن الأستحمام في البحر يوم أربعة أيوب (ابرية أيوب) هو أكثر فاعلية في الشفاء من الأيام الأخرى . وأفضل عود ميس هو ما قطع ليلة القدر . وكذلك فأن الممارسات التي تتم عند صلاة الظهر هي أكثر فاعلية من غيرها . . . الخ .

وسوف انهي هذا الفصل بدراسة لمقامات الخضر (القديس جورج) ، وهو أكثر الأولياء شهرة في شفاء الأمراض العصبية والعقلية . إن رجل الله هذا ، الذي يقدسه كل أتباع الديانات في فلسطين يمتلك العديد من المقامات ، لكن بعضها معروف أكثر من البعض الآخر . وقد جمعت المعلومات التالية عنها :

المكان	الموقع	الوصف
١- القدس	حي الأرمن	يخص الكنيسة اليونانية
٢- القدس	قرب دير الفرنسيسكان	يخص الكنيسة اليونانية
٣- القدس	داخل باب يافا	يخص الأقباط(١٠٨)
٤- القدس	خارج باب يافا	يخص عائلة قرط ويقدس المقام كل من المسلمين والمسيحيين(١٠٩)

٥- القدس	مسجد عمر(١١٠)	مقام الخضر تحت قبة الصخرة(١١١)
٦- القدس	مسجد عمر في الزاوية الشمالية الغربية	قبة الخضر
٧- القدس	مسجد عمر في الزاوية الشمالية الشرقية	قرب باب الأسباط غير معروف كثيراً الآن
٨- القدس	الأقصى	باب الخضر ، الباب الشرقي وهو باب غير مستعمل الآن
٩- بين بيت جالا وبرك سليمان		يقدسه المسلمون والمسيحيون
١٠- نابلس	شويترا	جامع
١١- نابلس	حارة العقبة	غرفة بمحراب(١١٢)
١٢- نابلس	قرب الجامع الكبير	غرفة معتمة(١١٣)
١٣- نابلس	حمام الدرجة	حوض يستحم فيه الخضر كل يوم جمعه(١١٤) ويستحم الناس فيه يوم الجمعة بقصد الشفاء
١٤- الطيبة		كنيسة مسيحية
١٥- بيت عنان		حويطة وعدد من أشجار التين . المكان المهمل
١٥- جفنة		مقام مسيحي(١١٥) توجد فيه سلاسل للمجانين
١٦- الكرمل	كهف	يقدسه الجميع(١١٦)
١٧- بيت ريما		يقدسه المسلمون
١٨- اللد	داخل القرية	كنيسة يقدسها المسلمون والمسيحيون
١٩- قرب بيت جالا على الطريق إلى الرأس		حويطية تضم خطوة الخضر (خبطة الخضر)
٢٠- الكرك		مقام يقدسه المسلمون والمسيحيون

وهناك بعض الأولياء الذين يحملون اسم ' الشيخ خضر ' مثل ذلك المقام الموجود إلى الغرب من رمون ، والذي من المحتمل ألا تكون له علاقة بالقديس جورج . وهناك الكثير من المقامات المكرسة للخضر والتي لم ترد في القائمة السابقة ، ومن أهمها الموجود على الكرمل(١١٧) ، والذي يسميه البعض مار الياس ، وكذلك المقام القريب من بيت جالا . والمقام الأخير يقع على مكان منبسط بين القرية وبرك سليمان . والكنيسة الجميلة ، تقع في قرية تحمل اسم الخضر ، وسكانها ، جميعاً ، من المسلمين . إن المنطقة المحيطة بالمزار كلها تخص الدير ، وتتبع البطريركية اليونانية في القدس . وجزء كبير من المزار أعيد بناؤه قبل الحرب بسنوات ، وهذا التغيير على جانب كبير من الأهمية . وكانت الغرف تخصص في الماضي لمعالجة المجانين(١١٨) ، وقد منعت الحكومة ذلك الآن . وسوف نصف الطريقة التي كان يعامل بها المرضى قبل حدوث هذا التغيير :

مع إزدياد شهرة القديس جورج في شفاء الأمراض وانتشار أخبارها عبر البلاد ، فقد جيء بالمرضى إليه من كل حدب وصوب . وبمجرد وصول المريض فإن الكاهن يقيده أمام الكنيسة بسلسلة ثقيلة توضع في رقبة الكائن المسكين ، وتوصل بحلقة حديدية تجري عبر أحد الشباكين على طرفي المدخل الرئيس ، وتربط داخل الكنيسة . وفي حال إرسال ثلاثة في نفس الوقت يوضع الثالث في غرفة صغيرة بنيت إلى الغرب من القبة ، وتمر السلسلة في هذه الحالة من شباك صغير في القبة لربط المريض بالكنيسة . وفي الشتاء البارد كان المرضى يوضعون في داخل الكنيسة .

والقصة التالية التي أخذتها من مذكرات والدي المكتوبة توضح ، بدلالة ، الاعتقاد الشعبي بمعجزات القديس جورج ، وتبين كيف أن الأفكار يمكن تعميمها والدعاية لها من خلال الكهنة أنفسهم . تقول القصة :

'ذهب الكاهن الأرثوذكسي اليوناني إبراهيم العوا(١١٩) ، يرافقه اسحق توما(١٢٠) ، كالمعتاد ، بعد ظهر يوم السبت إلى دير القديس جورج ليشارك في قداس الأحد وقراءات الليل . ووجد الرجلان شيخاً بدوياً في حالة من الهياج . كان الشيخ من قبيلة التياها ، وكان مقيداً في الكنيسة . كانت حالته سيئة حتى أنه مزق كل ثيابه . وكلما ألبسه رئيس الدير ثوباً جديداً كلما مزقه من جديد . وعندما كان الكاهن ومساعدة اسحق يقومان بواجبهما الديني في الليل ، شاهدا خيال إنسان يتحرك فوق سطح

الكنيسة . وهكذا ، وبسبب خوفهما ، أيقظا الراهب . ومن خلال التحري تبين أن الشيخ العاري كان يقعي في إحدى الزوايا ويرتعد من البرد والإرهاق . وفي الحال بادر رئيس الدير فأعطى الشيخ ملابس جديدة ، وأدخله إلى غرفة في الداخل ، وأشعل ناراً ليدفئه حتى تحسن حاله . وسأل الرئيس الشيخ : كيف خرجت من الكنيسة في حين كانت كل الأبواب مغلقة ؟ فأجاب : جاء رجل مهذب ، وبيده رمح ، وهو يركب حصاناً وأمرني قائلا : ' انهض واذهب إلى قبيلتك ' . ولمس الرجل السلسلة بالرمح ، فسقطت عن عنقي . وتسلقت السلسلة التي يتدلى منها مصباح الكنيسة . وبطريقة التأرجح وصلت شباكاً في قبة الكنيسة ، وخرجت منه . لقد أصبح الشيخ رجلاً عادياً وطبيعياً منذ تلك اللحظة . وقد نذر أن يقدم سبعة رؤوس من الغنم للذي شفاه - الخضر . ويقال أنه ما زال يفي بوعده(١٢١) .

ولم يكن المرضى ليحصلوا على أية معالجة طبية ، بل كانوا يعتمدون على التدخل العجائبي من جانب القديس جورج . وغالباً ما يرى رئيس الكنيسة ضرورة تسريع العلاج لطرد الشيطان . وكان هذا يتم من خلال الضرب والصلوات ، ولا عجب أن هذه المخلوقات المسكينة تهتاج عندما يخفف الكاهن قبضته عنها . وعندما تصبح حالة المريض طبيعية إلى حد ما فان الكاهن يفك وثاقه بشكل سري ويبلغه أن القديس جورج قد أعلن شفاءه .

وكانت تعطى للمريض فرشة من القش فقط ، والاثنان اللذان يوثقان أمام الكنيسة لم يكن هناك ما يحميهما من حر الصيف أو برد الشتاء . أما الطعام فكان مجرد خبز وماء ، وبمقدار محدود . وكانت رائحة فضلاتهم تجعل المكان غير محتمل . في الوقت الحاضر بنى المشفى على مسافة قريبة جنوب الكنيسة ، ويتألف من اثني عشر غرفة في كل واحدة منها سلسلة مربوطة بأحكام في الجدار . والوضع الصحي لهذا المكان أفضل في كل الأحوال من النظام القديم . كان هذا المستشفى الجديد عندما شاهدته متصلاً بالكنيسة بواسطة سلك معدني ، وهكذا تنتقل القدرة الشفائية للقديس إلى المريض .

إن تحليلا للمعالجة التي قمنا بوصفها في غاية الأهمية : المريض يحصل على الشفاء من خلال الإقامة بجوار الخضر وعبر السلسلة التي تقيده بالكنيسة . وعندما بني المستشفى فقد أصبحت الصلوات والضرب هي الطريقة المثلى لطرد الشيطان . وهذه

مكتبة سمير منصور

العادة ما زالت منتشرة لدى الشيوخ . وعندما تظهر على المريض أعراض عصبية لحالات الهستيريا أو الصرع أو لأمراض ناتجة عن الحمى يدعى الشيخ للعلاج ويقوم بكتابة طلسم وتلاوة الأدعية والبصق على المريض وعمل المساج (١٢٢) لجسمه . ويحرك الشيخ يده ، في المساج ، من أعلى نقطة في الجسم إلى أدناها ، والغرض من ذلك طرد الجن من الأعضاء المهمة إلى الأعضاء الأقل أهمية ، وبالتالي إلقاؤه خارج الجسم من الفتحات الدنيا للجسم(١٢٣) . وقد يتطور المساج إلى ضربات قاسية باليد والعصا والحذاء(١٢٤) أو بشيء مقدس مثل بابوج المجذوب .

ومن السهل طرد الجن عندما تكون حالته الجسدية في أدناها(١٢٥) ، وينتشر الاعتقاد بأن الجن تفضل الأصحاء والبدينين وهذا ما يفسر سوء تغذية المرضى ، كما أن إهمال نظافتهم تؤدي نفس النتيجة(١٢٦) .

٥- القسم

هناك عادة منتشرة تقوم على دعوة الله أو الولي ليشهد على قول شخص ما أو براءته . ويتم ذلك عبر قسم باسم الرجل المقدس في مزاره ، عادة ، أو باسم الله في بعض الأولياء . أما القسم البسيط الذي يذكر فيه اسم الله والذي يُنطق به في أية مناسبة عادية فلا يحصى ، وليس موضع النقاش هنا . والقسم هو جزء أساسي من الحياة اليومية للفلاح(١٢٧) ، فإذا كان يروي قصة أو مغامرة ، وشعر أن عليه أن يؤكد ما يقول ، لشك الناس فيما ورد على لسانه ، فنراه يقول : 'وحق الخضر الأخضر أني رحت وجيت' . أو : 'وجاه النبي موسى' . ان مثل هذه الأيمان تتم في أي مكان ، وليس من الضروري أن تؤدى في المزار . ومن العادة أن يذكر اسم ولي محلي . أما جميع الأيمان التي تؤدى في ' الموسم ' أو ' بجوار المزار ' فيجب أن تحمل اسم الولي أو النبي صاحب المزار .

نماذج من الأيمان :

* والله ومحمد رسول الله

والله وما اعز من الله

* وحياة هالعود والرب المعبود

* والنبي داهود

* والصليب الحي

*وحق القبلة المحمدية

* وحق هالكنيسة والساكنين فيها

* وباب هالشرق معبد النصارى

* والكعبة

* والمهد الشريف

* والمصحف

* ولحية النبي

* وحق عْوينة هالشمس

المغربة لطاعة ربها

* وحياة هالشارب

* وحياة الماي (الماء) المطهرة الحي والميت

* وحياة الماي الجارية والسموات العالية

* وحياة هالشجرة التي بتشرب من عرقها وبتسبح ربها

* وحياة هالبساط الأخضر اللي طلع من أرض خرسا طرْشا

* وحق من يعلم كم ورقة في هالشجرة وكم شعرة في هالحيوان

ومن الأيمان الأكثر أهمية تلك التي تجري في المزار نفسه لأسباب هامة أو ثانوية ؛ فعندما يتهم شخص بأنه سرق شيئاً ما ، ولم تتوفر أدلة مباشرة على ذلك ، فان الشخص الذي يتهمه يطلب منه أن يذهب إلى الولي ليحلف من أجل براءته . ويدخل المتهم ، ومعه من اتهمه إلى المزار ، ويرفع الأول يديه ويقول :

'بالله العظيم

واللي ما أعظم منه عظيم إني هالبغلة

لا سرقتها

ولا أخذتها

ولا بعلم مين اللي أخذها ' .

وعلى المتهم في هذه الحالة أن يقبل باليمين ، ويعتبر خاسراً للقضية . ومن الممكن أن لا يذهب الاثنان إلى الولي بل يكتفي الشخص الذي يوجه التهمة بأن يطلب من المتهم أن يحلف اليمين وهو متوجه ناحية المزار .

إن مبدأ ' اليمين على نية المحلف ' له معنيان : الأول أن مُوجه الاتهام له الحق في أن يختار المزار ، الوقت ، وأحياناً الجزء من المزار الذي يجب أن يحلف عنده المتهم (القبر ، المحراب ، القرآن . . الخ) وفي المرتبة الثانية فأن لموجه الاتهام أن يختار الكلمات الواضحة التي لا لبس فيها . فالكلمات التي يمكن أن تعبر عن الحقيقة ظاهريا فقط ، ولكنها جوهريا غير صحيحة هي يمين خاطئ . وعلى سبيل المثال يتهم س شخصا هو ص بأنه سرق فرسه من الإسطبل حيث كانت مربوطة . وكان اللص قد سرقها فعلاً مع خادم س ، والخادم هو الذي فتح الإسطبل وفك وثاق الفرس ودفعها إلى الخارج حيث كان ينتظره ص وذهب بها ، وبعد بيعها أعطى الخادم حصته ، ويُتهم ص ويطلب منه اليمين ، وحين يقول ' والله العظيم ما دخلت الإسطبل ولا فتحت الباب ولا فكيت رباط الفرس ' فأن قسمة حرفياً صحيح ، وعلى س أن يقبله ، ولكن لأنه حاول الخداع في قسمه بالكلمات فإن الله والولي سيعاقبانه بشدة . ويقسم الشخص وهو طاهر ، وإذا لم يكن كذلك يبقى خارج الباب متوجها نحو الداخل حيث يُؤدي اليمين .

وأما بدو شرقي الأردن ، فانهم يقومون بالخطو فوق القبر ' يفشق ' قبل أداء اليمين معتقدين بأن الولي يستثار ويقوم بمعاقبة الكاذب فوراً .

وإذا كان المُتهم مذنباً ، لكنه لا يجرؤ على الاعتراف بإثمه بصراحة أمام الناس ، مع أنه في الوقت نفسه خائف من عقوبة الولي ، فإنه من الممكن أن يخرج من الورطة كما أخبرتني صوفيا من ترمسعيا على النحو التالي : يرتدي المتهم ديمايته مقلوبة مثبتاً فيها سبع إبر ، واضعاً في جيبه سبع أساور من فضة . ويفعل كل ذلك بشكل سري . ومن خلال هذا العمل الوقائي فإنه يعتقد بأن الشر لن يحل به ، حتى لو أقسم قسماً كاذباً . ويقصد من خلال ذلك أن يعترف بشكل سري أمام الولي بأنه إرتكب الآثم ، ولكن شرط أن يعد بأن يعيد الأشياء المسروقة سراً أو بواسطة وسيط .

وعندما يخسر مُوجه الاتهام قضية عبر يمين كاذب من المتهم ، فإنه يحاول إثارة غضب الولي ، إعتقاداً منه بأنه يمكن التعجيل بعقاب خصمه . وهناك أشكال كثيرة من الإستثارة(١٢٨) مثل : رفع حصيرة المزار ، والتلويح بها ، ورش الغبار على المتهم قائلاً : يا سيدي ، يا سيف الدين . . حصل لي حقي من هذا الظالم ' أو يقول ' قلبت عليك حصر الخواص يا ظالم ' . وقد يقوم بعملية ' قلب الحصر ' مظلوم ، فيذهب إلى الولي ويلف نفسه بالحصيرة أو يرمي الكناسة على القبر ، بهدف إثارة الولي(١٢٩) .

وعندما يضطر برئ متهم أن يحلف يميناً يشعر بالإساءه من الشك الموجه له ويحاول بأحد الطرق التالية أن يجعل الولي ينتقم له ، فأنه يرمي جزءاً من قصارة(١٣٠) المكان على الشخص الذي أجبره على القسم وهو برئ ، ويقول له : ' يمينك يُقلب عليك ' ، فيرد موجه الاتهام : ' اليمين يُقلب ع الكذاب '(١٣١) ويقوم آخرون بإلقاء الحجارة والتراب على قبر الولي ، أو مقامه بهدف إثارة روح الولي وإبقاء مقامه نظيفاً(١٣٢) .

من النادر جداً أن يذهب شخص إلى المزار فيربط قطعة قماش على راسية القبر ويقول : 'ثور يا مجذوب في فلان اللي ظلمني ' . وتمارس هذه العادة على حد ما أعرف نساء دير غسانه (١٣٣) . والمحاولة الأخيرة لإظهار براءة الشخص وطلب الثأر من الله هي قلب المصحف والقول : ' هاي قلبت مصحف عليك ' .

وهناك ' الأيمان العرظة ' للمخالفات البسيطة التي عالجناها ، والتي يمكن أن تؤدّى عند أي ولي . وهناك الأيمان المغلظة للجرائم الكبيرة المتعلقة بأمور القتل والعرض

والاغتصاب والهجْسة (١٣٤) (دخول البيت بهدف السرقة أو الزنى) ، وفي الحالة الثانية لابد وأن يحلف المتهم أمام ولي مهم ، وقد اخبرني منصور من لفتا بأنه يُختار في هذه الحالة ولي حِشرْ أو نِزقْ ، لأنه سيعاقب المذنب فوراً .

وفي هذه الحالة يقرر القاضي وليس المُتهم حلف يمين بالأسلوب الأخير في حالة عدم إحضار أي دليل قطعي على جرم المدافع . ويحضر القاضي عملية الحلف أو يحضر من يمثله . وعلى من يحلف اليمين أن يُؤيد موقفه بأن يحلف أحد الأعيان معه ، ويزكيه ثلاثة آخرون(١٣٥) .

ونلاحظ أن جميع الأيمان التي تُؤدى في المزار يتم النطق بها باسم الله ، وليس باسم النبي . ومن الممكن أن يذكر النبي بعد ذكر الله ، إلا أنه لا يؤدى يمين مهم بإسم ولي . ويختار الناس أيام الجمعة والاثنين لأداء اليمين المهم . وتعود أهمية اليوم الأخير إلى أن النبي ولد في هذا اليوم .

تظهر مادة الفصل السابق الاحترام والخوف الكبيرين من الأولياء وإن قليلاً من الناس يغامرون بالقيام بيمين كاذب في مزار ، وذلك بسبب الخوف من الانتقام الشديد للأولياء الذي يظهر في الشخص أو أبنائه أو عائلته أو ممتلكاته أو حيواناته . وهناك الكثير من القصص التي توضح هذا الأمر . وفي حالة الولي شهاب الدين من صفا نراه يقوم بوضع علامات على بيوت الذين أقسموا يميناً كاذباً ، وفي الصباح الباكر يجد الناس جثة حيوان ميت عند الباب . وإن لم يجدوا ذلك فأن اليمين كان صادقاً .

٦- النذور

إن ممارسة أداء النذور هي تنفيذ لإلتزام طوعي تجاه الله ، لأنه حقق مطلباً هاماً مثل : الشفاء من المرض ، الخلاص من الموت والخطر ، النجاح في مشروع ، الحصول على تركة وما شابه . وهي ممارسة غاية في القدم ومعروفة عند كل أنظمة الأديان ، وهناك إشارات متعددة في التوراة تعالج النذور وهي حقيقة تؤكد مدى أنتشار هذه الممارسة ، وقد أعطى النبي محمد بعض القواعد الخاصة بها في القرآن والحديث ، ولا زالت النذور التي تؤدي في الوقت الحاضر تحتفظ بمعظم سماتها القديمة(١٣٦) . ولا تزال

النذور معروفة عند الفلاحين وسكان المدن على حد سواء ، وعند المسلمين والمسيحيين ، الأغنياء منهم والفقراء . ويؤمن الجميع بضرورتها وفاعليتها وبركتها الأكيدة . إن كل صعوبة ، أو سوء حظ ، يتعرض لهما الإنسان الشرقي في حياته اليومية يقرباه من الله والأولياء . وبالاعتقاد بأن الأولياء أقرب إلى الله منه نفسه ، وأقرب إليه من الله ، فأنه مؤمن بقدرتهم على مساعدته .

ويحاول المرء أن يحصل على حماية وعطف ومساعدة الأولياء ، ويعتقد أنه سيحقق نجاحاً أكبر إذا كافأهم . ولذلك فأنه يعد ولياً من أولياء الله أو أكثر بتقدمة إكراماً لهم . والمناسبات التي تقدم فيها النذور متعددة كالمرض ، وعودة الغائب ، والعقم لدى المرأه ، والموسم الزراعي السيئ ، وفي مواجهة خطر محدق ، وتكرار فقدان الأولاد والعمل الصعب ، والمرض الوبائي للقطيع . . . الخ . ومن بين كل هذه الأسباب فإن المرض هو أهمها ومعظم النذور ذات صلة به ، ويدعى الكثير من الأولياء للمساعدة ، ويمكن للأب وللأم والزوجة والأخوة والأخوات والأولاد والأقارب الآخرين أن يقوموا بالنذر . وغالباً ما يتوجه كل واحد منهم إلى ولي لضمان مساعدة جميع الأولياء المهمين . وفي الحالة التي تسمح بها ظروف المريض فأنه يعد بالتقدمة بنفسه ، وتتراوح قيمة التقدمة إلى حد ما مع أهمية الشخص المريض في العائلة . ويتمتع الأب والزوج والابن الوحيد بأهمية خاصة من هذه الناحية يليهم الزوجة والبنات والمرأه الكبيرة في العائلة . وقد شاهدت الحادثة التالية التي وصفتها في كتاب Aberglaube(٧٠) . لقد وقع أبو أمين البيتوني ، زعيم حمولته(١٣٧) ، مريضاً بذات الرئة وقد إنتكس بشدة وطال المرض ووصل مرحلة حادة وحرجة . وهكذا نذر أحد إخوته أن يقدم ما قيمته ثلاثين فرنكاً(١٣٨) من الشمع لمزار إبراهيم في الخليل ، ولمسجد عمر في القدس ولمقام النبي موسى . وفي الوقت نفسه فأنه دعا الله أن يشفي أخاه وينقل المرض إلى ولده إبن الثمانية أشهر(١٣٩) وهكذا فأنه كان مستعداً أن يخسر إبنه إذا ما حفظ الله أخاه(١٤٠) . أما الأخ الثاني فقد نذر ذبيحة للولي زيتون (بيتونيا) ، وأخرى في الشطحة مع الأصدقاء والأقارب . أما الزوجة فقد نذرت للنبي صموئيل رأساً من الغنم ، بينما نذر المريض نفسه ذبيحة وقفة(١٤١) رز لإبراهيم . وقام الأقارب الآخرون بالإعلان عن نذور اقل .

وحسب الاعتقاد العربي الفلسطيني فأن الله هو القوة العليا ، الذي يسمو على كل الأولياء ، وإذا ما أراد فهو قادر على فعل كل شيء ، ممكنا أو مستحيلاً ، هذه هي

التعاليم القرآنية ، ولكن الأولياء هم المفضلون ، فمن السهل الوصول اليهم ليقفوا إلى جانب الإنسان فقد كانوا مرة بشراً ، وفي نفس الوقت فهم يعرفون احتياجات الناس وضعفهم الإنساني جيداً . وعلى ذلك فان الاعتقاد بهم والخوف منهم قد انتشر كثيراً بين الفلسطينيين ، إلى الحد الذي أخذوا فيه تدريجيا مكانه الله . وتنظر الناس إليهم كآلهة صغار ، ولا أبالغ إذا قلت بأن الخرافة قد رفعتهم إلى مرتبة مساوية لله . ان عدد الأولياء ممن تقدم لهم النذور لا يحصى ، وعموماً فإن الأولياء المحليون مفضلون ، ولكن في كثير من الأحوال يجري التفكير بآخرين سواء بسبب كونهم أنبياء ، وعلى ذلك إحياء العلي القدير ، أو لأنهم اكتسبوا تدريجياً من خلال معجزاتهم الثقة المطلقة للفلاحين . وحتى في القرية الواحدة نفسها ، حيث يوجد العديد من الأولياء ، فإن واحدا منهم يتحلى بالشعبية الكبرى ، لانه يعتقد بأنه أكثر قوة من الآخرين ، وهذا يفسر ملاحظتنا أثناء معاينة العديد من الأولياء في المنطقة الواحدة ، بأن بعضها أكثر نظافة وعناية وغنى من الآخرين . والى جانب الأنبياء العظام ، مثل موسى وإبراهيم وداود وعيسى وروبين وصموئيل وصالح . . الخ ، الذين يمجدون أكثر من البقية ، فهناك بعض الأولياء مثل بدرية وسلمان الفارسي والقطراوني(١٤٢) . . . الخ يتمتعون بشهرة واسعة .

وبعض الأولياء لا يرغبون في أن يروا النساء يدخلن المزار ، حتى لو جاءت إحداهن لتقديم نذر باسمه . وهذا يصدق بشكل خاص على مار سابا . ولذلك فإن بعض النساء التابعات للكنيسة اليونانية لا يقدمن له النذور لأنه لن يسمح لأي منهن بدخول المزار . وتوضح القصة التالية هذا الاعتقاد(١٤٣) :

'قدمت سيدة روسية مصباحا ذهبيا لمار سابا ، وأرادت أن تُحضره بنفسها ، فتنكرت بملابس ذكر ، ودخلت المزار دون أن يعرفها أحد ، ووضعت المصباح أمام صورته . وقامت قوة غير مرئية بإلقاء المصباح ونثرت الزيت . وفي كل مرة كان المصباح يوضع ثانية أمام الصورة كانت القوة الخارقة تلقيه بعيداً . ودهش رئيس الدير ، وأخيراً اكتشف أن صاحب التقدمة امرأه ، فرجاها أن تغادر الدير ، مؤكداً أن مار سابا لا يقبل التقدمات من النساء ، بل حتى أنه يمنعهن من دخول المزار'(١٤٤) .

ولا تقدم النذور فقط للمزارات ذات المقام والضريح ، بل لكل مزار بالمفهوم الذي تحدثنا عنه آنفاً مثل الكهوف والحجارة والأشجار والينابيع . ومن الطبيعي أن النذور

التي تقدم لها هي أقل قيمة مما يقدم للأنبياء ، والنذور المقدمة إلى الحجارة والأشجار المقدسة هي رابط آخر مع الأديان البدائية . ويمكن أن تقدم النذور للأشخاص الأحياء . وعموماً فإن الأشخاص المختارين ينتمون إلى أحد الفئات التالية :

١- أحفاد رجل مقدس ، وقد أظهر استطلاع للأولياء الموجودين ، بأن بعضها حديث وأن أحفادهم ، ما يزالون على قيد الحياة ، مثل حالة الحاج عبيد(١٤٥) وعبد الله(١٤٦) ، ورجال صوفة(١٤٧) ، وينذر لأبنائهم الأحياء أشياء بسيطة (تنباك(١٤٨) ، جاجة وثوب . . . الخ) .

٢- شيخ طريقة ، أو من يعتبر تقياً بشكل خاص كالشيخ أبو حلاوة .

٣- خدام المزار أو الراهب ، والنذور من هذا النوع ، غالباً ما تقدم من قبل المسيحيين . وتوضح الحالة التالية هذا النوع : نذر شخص من جفنا كان أبنه مريضاً بقوله ' يا قديس جورج إذا ما شفي أبني فأنني سأقدم ستارة لكنيستك وخلعة للراهب(١٤٩) .

٤- المجذوب . وفي عين عريك عاش مجنون(١٥٠) كان يصمت معظم الوقت ويسير إلى الوراء فقط ، وقد اعتبر ليس عند أهل عين عريك فقط ، بل سكان المناطق المجاورة ولياً . واعتقدوا أنه بسلوكه يمكن أن يتنبأ بمستقبل القرية ، فإذا ما صاح خلال الليل ، يسقط المطر ، وإذا ما ركض بدون هدف جيئه وذهاباً يعرفون بأن الخيالة(١٥١) (الجندرمه) يقتربون من القرية لجمع الضرائب . وقد أعتادت النساء أن ينذرن له دجاجة إذا ما مرض أحد أفراد العائلة . وكانت تؤخذ بضع شعيرات من رأس هذا الولي حين يجلبن الدجاجة ويبخرن المريض بهذه الشعيرات(١٥٢) .

وأحياناً تقدم النذور لأشياء وأماكن لا علاقة لها بالمزارات المعروفة ، ذلك لانه بمجرد أن يشاهد الناس إشارة معجزة في مكان ما ، فان المكان يعتبر مسكوناً بقوة خارقة للعادة ، وربما بالصُلاح الذين تقدم لهم النذور . والمثال التالي هو توضيح جيد لهذا : فإلى اليسار من طريق العربات(١٥٣) المؤدي من القدس إلى كولونيا ، ومقابل آخر بيت في لفتا(١٥٤) ، في موقع يقال له الحُومة ، يوجد كهف اعتاد أن يسكن فيه بعض سكان لفتا خلال أشهر الصيف . وخلال الإقامة في هذا الكهف بدأت إحدى العائلات

تفقد عضواً من أعضائها في اثر آخر . وذات مرة لاحظ الأب ضوءاً غامضاً ، مما أكد إعتقاده بأن الكهف مسكون بقوة خارقة عاقبته لسكناه في الكهف ، وفي الحال انتقل الرجل من الكهف وصار يقدم نذراً هو عبارة عن عنزه ، ويضيء مصباحاً في الكهف ، مرة كل أسبوع(١٥٥) .

كما أن هناك طائفة أخرى من النذور لا علاقة لها بالفئات الموصوفة أعلاه ، حيث تؤدى التقدمات لأشياء لا ترتبط بولي مقدس ، وأفضل توضيح لذلك هو العادة التالية : إذ تستحم المرأه العاقر في البحر وتعد ' إذا ما حبلت يا بحر لاذبحلك خروف ' وذلك قبل أن تذهب إلى موسم الحسين ، قرب عسقلان .

وفي موعد الموسم التالي ، فأن المرأه التي يستجاب دعاؤها وتحمل تذبح عنزه على الشاطئ ، بطريقة يسيل الدم فيها إلى البحر (خذ نذرك يا بحر)(١٥٦) وتلقي الشقط (الأطراف والرأس والأمعاء . . الخ) في البحر . ان هذه المعتقدات ، رغم ندرتها ، تذكرنا بالأيام الخوالي التي كان البحر يعبد فيها ويعتبر إلها . وفي كثير من الأحوال تقدم النذور لله دون ذكر الولي : ' إن طاب ابني يا الله لا ذبح لك خروف ' . ويوزع لحم الضحية على الفقراء . ويعتقد البعض أن ' اللي بينذر لولي من دون ذكر الله صارت ذبيحته فطيسة ' ، والأصح أن يقال : إن طاب ابني يا الله . . إلك يا خواص . . .'(١٥٧) ، وتقول : خُذْ نذْرك يا بحر .

ويقول البدو عن ذبح الأضحية : ' منك واليك يا الله اجْر وثواب لسيدنا موسى الله أكبر'(١٥٨) .

ومن صيغ النذور :

* نذرن علي يا نبي موسى ان طاب إبني لأقدم لك خروف .

* يا ستي البدرية ، أنا مديون لك بجرة زيت إذا رجع إبني بالسلامة من أميركا .

* ان طاب أخوي لاظوي شمعة طولي يا خضر لخْضرْ .

وهذه نذور مقيدة(١٥٩) ، ومشروطة ، وهناك نذور تُؤدى دون شرط مثل :

* إلك علي يا رسول الله اني أصوم شهرين .

ومن الصيغ الجميلة للنذور ما تم التعبير عنه بالأسعار التي اقتبست عن أم أثناء زيارتها لكنيسة الخظر مع ولديها داعية لهما البقاء :

(١) يا خظر لخظر عليك اليوم طيرين

واحد مْريش وواحد مْكحل العين

نذرنْ علي ان عاشوا هالْثنين

لاذبحْ ذبايح ولقدم للخظر(١٦٠) دين(١٦١)

(٢) يا عذرا حرير الشام زنارك

نذرن علي ان أجو الغياب لاحتْاجك(١٦٢)

(٣) يا الله يا سيد

والولد وْحيدْ

تنْشلنّا ولدنا

زي ما نشلت الخظر من يد الكفار

وفي بعض الأوقات يذهب الإنسان المصاب بكرب شديد إلى المزار ويصلي ، ويرجو العون ، ويعلن نذراً ويكتبه على جدار المقام مقيداً نفسه بالتنفيذ ومذكراً الولي بكتابته . في مقام الشيخ عكاشة ، وجدت الكتابة التالية : ' يا سيدي عكاشة . . إذا أحمد بن خديجة بن زكريا طلع من السجن لأجيب لك ثلاث اواق زيت (٧٥٠غم) . وسآتي لزيارتك ، اصلي لله ، يا سيدي . . '

وعند الوفاء بالنذر نسمع عبارات مثل :

* أجاك نذرك يا . . . .

* خذ ذبيحتك يا . . .

* هاي شمعتك يا . . .

ويمكن أن تتلى النذور في أي وقت . ففي بعض الأماكن تتلى في الليل (بني زيد)(١٦٣) . وهكذا فأن المرأه التي يصاب أبنها بالمرض تختار الليل ، وخاصة بعد منتصفه ، وتخرج من البيت وتخاطب الله ، بأن تكشف صدرها(١٦٤) وترفع ذراعيها وتتلو النذر . وأحياناً تخرج عارية(١٦٥) ، وتخاطب الله أو الولي واعدة بتقديم نذر . ويعتقد بأن سبب اختيار الليل(١٦٦) يعود إلى ما يلي : عندما يغيب الناس داخل بيوتهم(١٦٧) تتمكن الملائكة من سماع الدعاء بشكل أوضح ، فيحملونه إلى السماء فوراً ويوصلونه إلى الولي المطلوب(١٦٨) وهناك أيام مفضلة لتلاوة النذور مثل : ليلة القدر ، ليلة عرفات ، وليلة عاشوراء .

وعلى كل من يعد بنذر أن يؤديه ' كل نذر فرض ' . وتعطي التوراة(١٦٩) والقرآن قواعد خاصة لإيفاء النذر ، ويحبذ ايفاء النذور بالسرعة الممكنة . ويقوم الأولياء بتذكير صاحب النذر لأداء نذره . وهناك فلاح نذر للشيخ إبراهيم(١٧٠) نذراً ، ومضى وقت طويل ، فظهر له الشيخ في المنام وحذره : ' ادفع نذرك حالا ، وإذا كنت عاجزاً فأدفع جزءاً منه ' . وقد يعاقب الولي من لا يفي بنذره . هناك امرأه وعدت الشيخ حسين(١٧١) بنذر لم تف به ، فضربها الولي بحجارة (بناي)(١٧٢) وفقدت حملها . ويظن البعض أن الأولياء يحاولون تذكير المرء أحياناً بلطف ، وأحياناً أخرى بقسوة . وعندما تمسك الأشواك بثوب شخص ، أو يمرض يسأله الناس(١٧٣) : - هل وفيت بنذرك(١٧٤) ؟

ويمكن للشخص العاجز عن تقديم النذر أن يُعدل في الوضع و يستبدله بشيء آخر . ويمكن ذبح ' النذر ' في القرية وليس في مقام الولي . وعندما تعد امرأه بأنها ستمشي حافية القدمين إلى المزار ، ولا تستطيع الوفاء بذلك لأسباب جسمانية ، يمكنها أن تعوض عن طريق تقديم نقود باسم الولي تعطيها للفقراء أو تضعها في المزار . ويروى عن النبي محمد انه قال(١٧٥) ' من أنذر أن يمشي إلى محل ولم يستطيع أن يقوم به فلا يجوز أن يكمل نذره مشيا ' . وعندما يعجز المرء عن الوفاء بنذره يذهب للشيخ ويقوله له : انصحني . وقد ينصحه بأن يشتري نذره بالمال ، أي يقدم المال عوضاً عن الوفاء بالنذر . وهناك إعتقاد دارج بين الفلسطينيين بأنه يمكن تغيير النذر بغيره ، ولكن

نذر الصيام لأيام محدودة أو لأسابيع بجانب شهر رمضان لا يمكن تغييره . وهكذا النذر غير قابل للشراء بأي طريقة حسب تعاليم العهد القديم كل نذر يمكن تغييره سوى حيوان الأضحية(١٧٦) . وأحياناً يقوم المرء ، أثناء الوفاء بالنذر بالإلتزام بتقدمات مستمرة . مرة عندما كان أب لطفل يفي بنذره للنبي موسى قال : ' هاي نذْرك يا كليم الله وإلك علي كل سنة خروف إن خليت لي إبني طيبْ' . وليس المسلمون فقط ، ولكن المسيحيين أيضا يمكن أن يلزموا أنفسهم بهذه الطريقة .

ومعظم النذور غير ثمينة ، ولكن بعضها يكلف الكثير . هناك رجل من ' أبو ديس' أصيب بالمرض أثناء أقامته في أمريكا فنذر قائلاً :

'ان رجعت بالسلامة لعيْالي يا الله لأبني مئذنة لجامع بلدي(١٧٧)' . وشفي الرجل ، وعندما عاد للبلد بنى المئذنة . ونذر آخر مُكلف أيضا كان لشيخ عائلة الأمام(١٧٨) (القدس) . فقد نذر أنه إذا شفي من المرض ، سيبني ' جامعا ومئذنة ' . وقال ولكن إذا مت فأنني اطلب من أقاربي أن يكسو أربعين يتيماً باسمي . والأشياء التي ينذر بها عديدة ، بحيث أنه من غير الواقعي تسجيلها في قائمة واحدة ويمكن تقسيمها تبعاً لنوع النذر إلى نوعين :

١- النذور المادية .

٢- الأعمال الموعودة

وأفضل تصنيف لها حسب الغرض منها هو التالي :

١- أشياء تخدم لرعاية المقام :

أ- تقدمات لخدمة المقام والحفاظ عليه وتجميله

ب- مواد للصيانة

ج- العمل الشخصي

٢- نذور من الطعام تؤدى بإسم الولي وتقدم غالباً في المزار ولا يتلقى المقام أية فائدة مباشرة من التقدمة ، ولكن يتلقاه الفقراء في معظم الأحوال :

أ- أضحيات

ب- قربان وليمة لله .

ج- طعام دون لحم

٣- أشياء تقدم للمحتاجين بإسم الولي ، مثل تقديم ما هو ضروري للفقراء والمرضى ، والمستشفيات والأيتام والأرامل والسجناء .

٤- نذور دينية .

٥- نذور يتم الوفاء بها على جسم مقدمها أو المقدمة له .

٦- نذور لا علاقة لها بالأولياء أو المزار ولا تؤدى للفقراء .

٧- نذور للموتى .

١- الأشياء التي تقدم لرعاية المقام:

أ- تقدمات لصيانة وتجميل المقام

ان الأشياء التي تقدم ، كنذر ، لصيانة وتجميل وإصلاح المقام ، هي غالبية النذور ، ومعظمها بسيطة وزهيدة الثمن ، ويمكن لأي فلاح فقير أن يقدمها . وهذا سبب شعبيتها . وفي مقدمة هذه الاشياء : الزيت والبخور . وهي تتمتع الان كما عند الشرقيين القدماء بقيمة خاصة . والزيت هو أكثر الأشياء التي تقدم كنذر ، يقدمه الفلاحون وسكان المدن ، المسيحيون والمسلمون والأغنياء والفقراء . ويمكن تقديم الزيت لكل أنواع المزارات . فشجرة الزيتون ، شجرة النور(١٧٩) كما يصفها القرآن ، تعتبر شجرة مقدسة . وتركع هذه الشجرة في ليلة القدر(١٨٠) (حسب اعتقاد المسلمين) وفي عيد الصليب المقدس (عند المسيحيين) ، وذلك أن أبواب السماء تفتح حينئذ(١٨٢) . وقد ذكر لي أحد الفلاحين من بيت لحم القصة التالية :

'ذات ليلة فقد فلاح حصانه ، وبدأ يبحث في الظلام ، ودون جدوى ، عن الحيوان . ولكنه وهو يبحث عنه في كرم زيتون وجد أن الأرض مغطاة بأغصان الأشجار . ولم يكن ليصدق ما تراه عيناه ، ولأنه لم يجد تفسيراً لما يرى ، قام بتمزيق قطعة من ملابسه ، وربطها إلى الفرع ، ليحدد المكان ويتحقق من الأمر في اليوم التالي في ضوء النهار . وعندما عاد إلى البيت شرح الأمر لأقاربه . ولم يصدقه أحد . ولكن رجلاً عجوزاً ، في الزاوية ، قال لهم ، إن هذه هي ليلة الصليب المقدس ، التي تركع فيها كل الأشجار إحتراماً لخالقها . وفي اليوم التالي عاد الرجل إلى الحقل ، فوجد الأشجار منتصبة كالعادة ، ووجد قطعة القماش ترفرف في الهواء في قمة الشجرة .

ويرد إسم شجرة زيتون : 'الشجرة المباركة' في القرآن والتوراة مراراً ، وهي التي يقسم بها الله في الآية(١) من سورة(٢٧) ، وهي التي أعطيت لآدم وحواء بعد طردهما من الجنة ، وكانت أول شجرة تظهر بعد الطوفان(١٨٣) . يقول العرب أنه كانت لدى آدم مشاكل في الجنة ، فشكا ذلك لله ، الذي أرسل له جبريل بغصن من شجر الزيتون ، وقال له ازرع هذا الفرع لتأخذ منه ثمرة الزيت والذي سوف يشفي كافة الأمراض عدا التسمم(١٨٤) . ويقسم الفلاح الفلسطيني أحيانا بشجرة الزيتون ويقول :

- وحياة شجرة النور

أو - وحق من دار الزيت في الزيتون

ولا تزال هذه الشجرة تلعب دوراً في عالم الطب الشعبي والاحتفالات الدينية والممارسات السحرية . كما كانت تستعمل في الشرق القديم(١٨٥) .

هذا الزيت ، الذي هو دائماً زيت زيتون(١٨٦) ، وليس زيت سيرج ، يستعمل أيضاً لمصابيح الزيت الصغيرة ، التي سنصفها لاحقاً . ويقدم الشخص نذراً من الزيت حسب قدرته : جرة(١٨٧) ، نصف جره ، رطل ، قْزازه (قنينة) - تتسع ل ٨٠٠ - ١٠٠٠ سم٣ - ولا تحدد الكمية غالباً . ويقدم أغلب الفلاحين قنية من الزيت ، وفي القرى يقولون إبريق زيت ، بدلاً من جرة زيت . وتترك الأواني التي ينقل بواسطتها الزيت(١٨٨) إلى المقام ، هناك . وذلك هو السبب في أننا نجد دزينات من الزجاجات والأباريق المبعثرة هنا وهناك حول المقام . ومن أفضل الأمثلة على ذلك ما نراه في : قبة الأربعين ، الشيخ عنبر ، العزيرات ، السدري . . الخ . وفي البدرية (شرافات) نجد جرتين كبيرتين

من الزيت(١٨٩) ، وزجاجات فارغة وجراراً مكسورة . ولا تزال الزجاجات الفارغة والجرار المكسورة موجودة ، لذا نجد كمية من كسر الفخار متناثرة في المكان . وفي المقامات الكبيرة يقدم صاحب النذر الزيت لخادم المقام ويقول له بوضوح أن الزيت هو للولي ويجب أن يستعمل داخل المزار . 'قمت النذر من رقبتي وحطيته في رقبتك' ويعتقد الجميع بأنه إذا حصلت مخالفة ، فان الولي يعاقب الخادم . ومثل ذلك يحصل عندما يقدم المسيحيون الزيت لمقام من المقامات التي في أيدي المسلمين مثل النبي موسى ، النبي داهود ، إبراهيم الخليل . . . الخ (١٩٠) .

وهناك عادتان لا بد من ذكرهما في هذا السياق . فبعض الفلاحين ينذرون للولي كمية من الزيت يقدمونها في كل عام ، كما أن البعض الآخر يأخذ معه الزيت للمقام ، كلما ذهب للزيارة . وفي مثل هذه الحالة يأخذون سعة نصف زجاجة حتى ولو لم يرتبطوا بنذر ، وهم يعتقدون أن ذلك يسر الولي ، الذي يعطف على صاحب التقدمة . عندما زرت العيسوية سألت الشيخ محمد علي(١٩١) أن يرسل معي من يرشدني إلى الشيخ عنبر . وعندما جاء الولد لاحظت أن بيده نصف زجاجة زيت . وسألته : هل هذا وفاء بنذر . فقال : لا ، نحن نفعل ذلك كلما أتينا إلى المقام . معظم الذين يقدمون الزيت يحضرون معهم علبة كبريت (كحاته) ، ويتركونها في المقام ، وذلك لإعطاء فرصة لكل زائر كي يقوم بإشعال المصباح . ولذلك نجد الكثير من علب الكبريت الفارغة في طاقة المقام .

ويتوقع أن يقوم كل شخص بالوفاء بوعده تماما ، ولا يقبل الولي أكثر مما نذر له . ولذلك فإن تقدمة أكبر مما نذر قد لا يقبلها الولي ' هناك أرملة فقيرة نذرت للولي ، عندما كانت في خوف دائم بسبب مرض إبنها فقالت : ' يا خظر الجريد . ان طاب أبني لأقدم لك زيت في قشرة بيظة . وعندما شفي أبنها ، أحضرت الزيت للولي بإبريق . وملأت إبريق الولي بالزيت ، ولكن قوة خارقة سكبت الزيت على الأرض . وحصل نفس الشيء في المحاولة التالية . وعندما إنتبه الكاهن ، سأل المرأه عن حقيقة الأمر ، فأخبرته بما نذرت . وهنا قال لها بصرامة ، إن الولي لا يقبل الا ما نُذر له'(١٩٢) ولا قمحه أكثر من ذلك ' .

إن الزيت المنذور ، يستعمل فقط ، لإضاءة المصابيح . وسنأتي لاحقاً على المؤشرات الخاصة باستخدام المصابيح في المزارات . وبما أن زيت الزيتون غير متوفر في شرق

الأردن ، فإن السمنة تأخذ مكان الزيت في النذور(١٩٣) وأحياناً تقدم نذور من الشمع والكاز . وفي حالة الشمع نجد النذر يتضمن النوع والطول أغلب الأحيان .

'يا نبي موسى ، إذا وجدت أبني في صحة جيدة ، ساضئ لك شمعة بطوله(١٩٤) ، شمع نحل' ويحدد طول الشمع فقط في حالة الأطفال المرضى ، وعندما لا يتحدد الطول يستعمل التعبير التالي 'يا رب لاضويلك شمعه' ، وفي بعض الأحيان يحدد وزن الشمع . وفي ' البدرية ' يمكن للمرء أن يرى أكواماً من الشمع(١٩٥) ، ومعظمها مقدمة من المسيحيين في بيت جالا وبيت لحم . وقد لاحظت أن الشمع نادراً ما يوجد في المزارات الأقل الأهمية . وفي حالة كنيسة القديسة مريم في الجثمانية(١٩٦) ، فأن النذر يحدد عدد الشموع وطريقة الوفاء بالنذر : ' يا ستي مريم إن مشي ابني الياس لاظوي درجك على الجهتين ' . ولكل درجتين تضاء شمعة ، وبعد دقائق يقوم الكاهن بإطفاء الشموع لحفظها للاستعمال في وقت لاحق(١٩٧) . وان نذراً كهذا لا بد وأن يقدم في اليوم الأول من عيد العذراء . ويمكن أن نسمع صيغة نذر كالتالية : ' إذا ابني إبراهيم بمشي سأضئ شمعة في كل مزار يدخله' .

ان غالبية الأسرجه صغيرة ومصنوعة من الفخار ، بدون إتقان وشبيهة بالمصابيح الكنعانية من جوانب مختلفة . ويمكن أن تحدد الأسرجه في النذر . وتوضع في خزانة الضريح أو في كوة في الجدار ، أو على الضريح نفسه أو حوله (كما هو الحال في الشيخ أحمد وقبة الأربعين) ، أو على حامل في الجدار(١٩٨) (الشيخ عنبر والسلطان إبراهيم الأدهمي والبدرية) ، أو في كهف كما هو الحال في (أحمد الخويص) ، أو تحت شجرة (الشيخ عبد الله) ، أو في حويطة (الشيخ فريج)(١٩٩) ، أو في الخلاء (العُمري)(٢٠٠) .

وأحياناً نجد مصابيح مصنوعة من التنك أو أنها علب تنك تطوى حوافها على شكل مصباح(٢٠١) ، وأحياناً نجد مصابيح مصنوعة من علب السردين الفارغة . إن مثل هذا المصباح لا يكون من التقدمات ، بل يصنع في الموقع بسبب عدم وجود المصباح الفخاري(٢٠٢) . وتصنع الفتيلة بطريقتين :

أ- قطعة من خيط قطني أو مجرد شريحة رفيعة من القماش تغمس في الزيت .

ب- يوضع خيط القطن على عود رفيع من الخشب يغمس في الزيت .

وينذر بعض الناس مصباحاً زجاجياً أو قنديلاً من الفضة يوضع أمام صورة(٢٠٣) الولي فوق القبر(٢٠٤) أو أمام المحراب . ويقدم الأغنياء حامل شمعدان فضي وحتى ثريا ثمينة للشمع ومصابيح الزجاج(٢٠٥) . وفي حالات كثيرة ينذر الناس مادة البخور: ' يا شيخ صباح ، إذا أبني بطلع من السجن ، راح ادعق(٢٠٦) لك البخور ' . أو ' راح ادعق البخور في مقامك ' . ويمكن أن يحرق البخور على الفور أو يعطى لخادم المقام . وفي المقامات غير المهمة يحرق البخور في طبق قديم ، أو على قطعة من التنك أو وعاء من الفخار ، وتبقى هذه الأوعية في المقام بعد ذلك كما في مزارات أريحا ، الشيخ حسين ، قبة الأربعين ، الدواعرة ، وأحياناً تحدد كمية البخور في النذر . ويقدم البخور في كل أنواع المزارات(٢٠٧) .

إن حرق البخور هو عادة قديمة ، نجدها في العديد من الديانات وترتبط بالاحتفالات(٢٠٨) . ولا يحرق البخور فقط في المقامات ، ولكن أيضاً في الأماكن المسكونة بالجن . ويهدف حرق البخور إلى إرضاء الأولياء ، وفي الحالة الثانية إلى طرد الأرواح الشريرة ، على افتراض أن ما يسر أهل الله يغضب الأشرار والعفاريت والجن والروح الشريرة . ولذلك نجد العرافين يستخدمون البخور في طرد الأرواح الشريرة من الشخص الذي تلبسه الجن .

ومن الأشياء التي تقدم كنذور ، أيضاً : الحصير ، السجادة ، المكانس ، الجرة ، السطل والهشه ، التنكه ، الحبل ، القربة (والصغير منها سعنْ وجمعها سعونه) ، والحطب . وباستثناء السجاد ، فأن كل ما ذكرناه يمكن نذره لكل أنواع المقامات ، وبخاصة ، الصغيرة منها . أما السجاد والحجرْ (جمع حُجْرة) وهي سجادة طويلة تنسجها النساء يدوياً ، فتقدم فقط للمزارات الكبيرة .

ومن الأشياء ، ذات الطابع الزخرفي ، التي تقدم للمزار كنذر وتعلق على الجدران نجد : آيات من القرآن ، كف ، قمح ، مجوهرات ، شجرة نسب النبي ، صورة الكعبة ، والمدينة وتصنع كف القمح من السبل والسيقان الطويلة المجدولة ، ويقدم كف القمح عموماً كعلامة شكر على محصول جيد . وفي بيت جالا أعتاد أصحاب الكروم(٢٠٩) أن يقدموا في عيد التجلي(٢١٠) سلة صغيرة من العنب(٢١١) إلى الكنيسة ، وبعد مباركة العنب يوزع الكاهن بعضه على الحضور(٢١٢) . وقد ذكرت العادتين الأخيرتين(٢١٣) لأنهما تمثلان مظهراً لتقدمات الشكر(٢١٤) . وتنذر أيضاً

المجوهرات والحلى مثل زناق ، حلق ، شكلة ، خاتم ، أساور ، شطوة (لباس الرأس لنساء بيت لحم ، بيت جالا وبيت ساحور) ، صفة (وهي لباس الرأس في رام الله والقرى المحيطة) ، وتعلق هذه الأشياء على ستارة قبر (مثل البدرية) ، أو حول القونة (صورة القديس المسيحي) . وقد تباع ليرصد ريعها للمقام(٢١٥) .

وعندما تنذر امرأه من بيت جالا(٢١٦) شيئاً مما ذكر للمقام ، فأنها تضعه عند صورة القديس . وإذا مات الشخص الذي وُضع النذر من أجله ، فأن الشيء المنذور يسترد ، ولكن إذا شفي الشخص يظل النذر كجزء من ممتلكات المقام(٢١٧) . ومعظم هذه الحلي خصوصاً الزناق والشطوة والصفة هي قطع ثمينة ، وتقدم من قبل نساء يعتقدن أنه بحرمان أنفسهن من هذه الأشياء الثمينة سيحصلن على رعاية الأولياء وعطفهم ، أن وصف الشطوة مهم لتبيان قيمة غطاء الرأس هذا ، وهي ذات شكل أسطواني ثابت مغطاة من الخارج بقماش أحمر وأحياناً أخضر ، وقمتها بارزة ومغطاة بنفس نوع القماش ، ومقدمتها محلاه بصفوف من قطع العملة الذهبية والفضية . وتثبت الشطوة على الرأس بخيط من تحت الذقن ومن كلا طرفي الشطوه يتدلى الزناق(٢١٨) .

أما النذور التي تقدم للضريح فهي : ستارة(٢١٩) (أو غطا) ، عقال ، أو لفة . والستارة هي قطعة قماش كبيرة تغطي القبر . وفي المقامات الأقل أهمية فهي تتألف من قماش ذي لون واحد ، وفي المزارات الأكبر يكون القماش سميكاً من الصوف أو الجوخ(٢٢٠) أو الحرير الهرمزي . وأشهر الألوان للستائر هي الأحمر والأخضر ، بينما الأبيض والأصفر أقل استعمالاً . وأحياناً نجد الستارة وقد زخرفت بالآيات القرآنية . وأحياناً نجد عدة ألوان في الستارة ، ويتم ذلك بخياطة شرائح قماش إضافية على الستارة الأصلية . وقد نجد عدة ' ستارات ' على ضريح ، مثلما نجد في مقام النبي موسى والبدرية '(٢٢١) ... الخ

ومن الأولياء الذين يمتلكون ستارة : سلمان الفارسي ، عنبر ، عبد السلام ، بدر ، ستنا الخضراء ، البدرية ، والخليلي . وقد لا تكون الستارة ملتصقة بالقبر ، بل ترفع على هيكل من الخشب ، كما نجد ذلك ، في ' بيرم شاويش ' و' البدرية ' .

وفي بعض الأحيان يقدم ' بيرق ' مزخرف كنذر ، ومثل ذلك يوجد في مزارات لوط وموسى وداوود . وعلى البيرق نجد اسم الولي والأقطاب الأربعة وآية من القرآن الكريم . ويثبت ذلك بالتطريز(٢٢٢) .

إن لون العقال واللفة(٢٢٣) (غطاء رأس الدرويش) له صلة بالطريقة التي ينتمي اليها ذلك الدرويش(٢٢٤) . ولا تقدم الستارة وغطاء الرأس إلا للأولياء الذين تكون قبورهم داخل بناية ، ولا يمكن أن تقدم لولي يقع قبره في العراء (ويستثنى من ذلك أولياء البدو) . ومقام سيدنا الحسين الواقع إلى الجنوب الشرقي من الجورة قرب عسقلان ، لا يضم قبراً . ولكن داخل المقام هناك عمود يحمل لفة خضراء وتحتها قماش أحمر(٢٢٥) .

وينذر بعض الفلاحين ، وخاصة المسيحيين منهم عدة أشجار للولي . وتصبح ثمار الأشجار ملكاً للرجل المقدس . وإذا تم قطع هذه الأشجار ، فإن الخشب يعود للمقام ، ولكن الرجل المقدس يفقد حقه في الأرض ، باعتبار أن الإنسان نذر الشجر ، وليس الأرض ، لصالح الولي . وتعود الأرض للمالك الأصلي أو لأحفاده ، وبالطبع يمكن أن 'ينذر' شخص ما قطعة أرض وأشجارها ، أو حتى بيتاً لصالح أحد المزارات . إن مثل ذلك يصبح ' وقفاً '(٢٢٦) . والنذر بتزيين المقام هو الرابط بين التقدمات الكلامية والنذور بإنجاز العمل . واكثر وسائل الزينة شيوعاً هي الحنا والسراقون والنيله . يقول صاحب النذر : – أنا دخيل عليك يا ستي الشامية إذا أرزقتيني صبي لاذبحلك خروف واحنيك . ويمكن أن يحنى المقام أو الحويطة . ومثال على تحناية الأخيرة ما نجده في الشيخ سعيد في أذنا (الخليل) . إن نذور ' التزويق ' في الغالب هي نذور من جانب النساء(٢٢٧) .

ب ـ نذر مواد لإصلاح المقام

أن النذور بتقديم المواد لإصلاح المقام واستكمال بنائه شائعة جداً أيضاً ، ولو لم تكن مثل هذه النذور موجودة لكان العدد الأكبر من هذه المزارات في عداد الخرائب ولفقدت بعض المواقع تماما . ومن أهم المواد التي ' تنذر ' لإصلاح المقام : الحجارة ، والدبش ، العُقاد ، الشيد ، النحاته ، الماء ، الحديد ، الباب(٢٢٨) . ويتفق عادة مجموعة من الأشخاص يجلسون في المضافة بأن يقدم كل واحد منهم شيئاً ، وفي نقاش شيخ القرية لحالة المقام يقدم الوعد الأول ، فيتبرع الواحد بعد الآخر قائلاً أنا علي كذا ، ويمثل هذا القول نذراً يجب الإيفاء به . وحتى لو لم يكن المقام خرباً ، فإن الناس يقدمون الشيد الذي يخزن في المقام نفسه أو بجواره(٢٢٩) . ويقدم هذا النذر عادة من قبل أناس يعملون بصناعة الشيد ، طلباً لمساعدة الولي في إنجاز عملهم

بشكل جيد(٢٣٠) . وفي عورتا فان العديد من الناس الذين يصنعون الشيد يقدمون للعزيرات ' فردة ' من الشيد (٣٠ – ٥٠ كغم) ، ويجد الزائر للمقامات الإسلامية غالباً أكواماً من الشيد ، مغطاة عادة بطبقة من التراب (الشيخ عنبر ، السلطان إبراهيم ، الشيخ حمد واحمد الكركي . . . الخ) .

ومن المناسبات الأخرى لإطلاق هذا النذر ، قيام فلاح غني ببناء بيت فهو يعد ببعض مواد البناء لنفس السبب قائلا : ' إن خلصت بْناية بيتي بالسلامة لارْميلك يا . . . ثلْثْ حمال(٢٣١) شيد ' . وتقدم مثل هذه النذور من قبل فلسطينيين يصابون بالمرض في القرية كما رأينا في حالة الرجل من أبو ديس . وأحيانا نجد الولي وقد ظهر في المنام لشخص وطلب منه أن يصلح المقام . ويقوم هذا الشخص بسرد الرؤيا لأقرانه في القرية ، وسرعان ما تجمع المواد المطلوبة .

ج– العمل الشخصي

ما أن تتوافر المواد حتى يتداعى الرجال والنساء والشباب والأطفال في القرية لتقديم المساعدة في العمل . فهذا يقدم يومين من العمل وأخر ينذر بدق بعض الحجارة ويعد ثالث بنقل الماء . . الخ . ويُنجز العمل في وقت قصير ، وحتى الأغنياء وكبار السن يعتبرون المساعدة في البناء تكريماً وبركة ، ويتعاون جميع سكان القرية ، خصوصاً في العقد ، ويتحرك الجميع بحيويه في إنهاء المقام . وفي حالات استثنائية يحتاج المقام إلى بناء كامل ، وفي الغالب يحتاج إلى أعمال إصلاح ، كترميم السقف والقصارة ، وإصلاح الباب ، والدهان الأبيض . .الخ . وفي هذه الحالات ينذر شخص للقيام بأعمال الإصلاح . ' إن خلصتلي اللتون من الخراب يا سيدي يا شيخ عبد السلام لارميلك جملين ولأطرش قبرك ' . وقد نذر هذا محمد من عناتا ، الذي بنى لتونا مع أقربائه ، وقد قام بحرقة لمدة أربعة فصول(٢٣٢) (الفصل ، نصف يوم) ، حين بدأ جزء من اللتون في الانهيار ، وقد خاف المالك من أن يخسر عمله لذا قام بهذا النذر ، حيث يظهر الولي في وسط اللهب ويبدأ في إخماد النار . وقد اصلحوا اللتون وأعادوا إشعال النار وتم إنقاذ العمل ، ومن المزارات الرحمة ، بناء إطار حجري لمدخل الشيخ السدري ، كما عمل باب حديدي لمقام عنبر وشيد قبر للشيخ صوان ، ومنارة بجامع أبو ديس ، وتم دهان قبر الدويري ، وبالقرب من جامع السلطان إبراهيم في بيت حنينا . أضيف رواق . . الخ .

إلى جانب هذه النذور الثمينة هناك نذور عديدة أكثر بساطة وزهداً ، حيث تنذر امرأه بكناسة المزار عدة أيام وأسابيع أو أكثر . وفي الحالة الأخيرة يكنس المزار مرة في الأسبوع ، ويجري هذا مساء كل خميس ، وينذر آخر بتعبئة السبيل بالماء . ويقدم البعض عمل ثلاثة أيام في وقف الولي ، وتساعد العديد من النساء في بيت جالا في قطف زيتون مار الياس ، وآخرون في حراثة كروم الخضر .

٢ ـ نذور الطعام

تقدم هذه النذور في المقام عادة ، ولا توجد منفعة مباشرة للمقام منها ، ويستفيد منها الفقراء في معظم الأحوال ، ويمكن أن تكون هذه النذور على شكل :

أ- اضحيات (ذبائح)

ب- قربان - وليمة لله .

ج- طعام بدون لحم .

وجميع هذه الفئات كانت معروفة جداً في الشرق القديم ، وفي وصف كل فئة سوف نشير إلى الممارسات التوراتية المقابلة .

أ- الاضحيات الحيوانية

يفهم من الذبيحة(٢٣٣) ، الأضاحي الحيوانية دائماً ، والذبيحة هي مؤنث ذبيح وتعني 'كل ما يذبح كتقدمة' . وهي كما أشار جوسين(٢٣٤) من إناث الحيوان ، وفي الوقت الحاضر فقدت الكلمة معناها المحدد ، وتستخدم لأي حيوان . ومن نفس الجذر (ذبح) اشتق ' مذبح ' ، وهو أصلاً المكان الذي تذبح فيه حيوانات الأضاحي ، ومن المثير أن كلمة سماط(٢٣٥) تستعمل في بعض أنحاء فلسطين للإشارة للذبيحة ، كما في بني زيد(٢٣٦) وبني مالك(٢٣٧) ، وفي أنحاء أخرى مثل القدس والقرى المحيطة ، تستخدم نفس الكلمة للإشارة للطبخة وليس لأضاحي الحيوانات ، وحيثما تستعمل كلمة سماط(٢٣٨) في هذا الفصل (لأضاحي الحيوانات) فهي تعني ذبيحة والصيغة المستخدمة نشأت في دير غسانه وأبو غوش .

ولا أعتزم في هذه الدراسة تقديم كافة أنواع الذبائح المعروفة في فلسطين ، وقد قدم جوسين في كتابه Coutumes des Arabes قائمة بتسع وعشرين نوعاً تمارس في مؤاب(٢٣٩) .

ويمكن تقسيم الذبائح إلى ثلاث مجموعات ، ومن الخطأ خلط الواحدة بالأخرى .

١- اضحيات مرتبطة مباشرة بالأفكار الدينية .

٢- تلك المرتبطة بالجن .

٣- تلك المرتبطة بالشؤون العائلية ، كالدعوات ، والاحتفالات العائلية . . . الخ .

سنصف الاضحيات الحيوانية المرتبطة بالمجموعة الأولى فقط ، أما تلك التي تعود إلى الفئة الثانية فسيشار اليها من قبيل الايفاء بالموضوع فقط ، أما مناسبات الفئة الثالثة فهي تنصيب المختار(٢٤٠) وقدوم ضيف(٢٤١) ، والزواج ، وتدشين البيت . كما أن الاتفاقات الهامة غالباً ما تختتم بالذبح(٢٤٢) ، ولكن اكثر المناسبات خصوبه لعمل الذبائح هي التحلل من النذر(٢٤٣) ، وتعود هذه الذبائح إلى الصنف الأول .

ان عادة نذر حيوان ليست بالعادة الجديدة ، وقد مارستها كافة أديان الشرق القديم . وأنواع الحيوانات المستعملة لهذا الغرض هي الجمال الصغيرة (جمل جزور) ، وناقة جزور ، والسخل والخروف .

وفي أنحاء مختلفة من فلسطين ، تفضل حيوانات مختلفة ، وهكذا ينذر البدو غالباً جملاً ، في حين أن الفلاحين يفضلون نذر الضأن ، ولا يسمح بنذر حيوان نجس كالخنزير . ويتحلى الحيوان المنذور بمميزات خاصة ، سنأتي على وصفها لاحقاً . ويحصل أحيانا أن ينذر جزء من الحيوان ، النصف أو الثلث أو الربع . وفي هذه الحالة فأن نصف أو ثلث أو ربع ثمن البقرة يقدم للمزار . وتقدم النقود عندما تباع البقرة مباشرة . وقد أخبرني أبو طالب وهو رجل من بيت حنينا بأنه ليس نصف ثمن الحيوان يقدم فقط ، ولكن ما دام الحيوان المنذور غير مباع ، فإن الجزء المنذور للولي يتبعه ما يعادله من عمل الحيوان وحليبه ونسله ، منذ لحظة وقوع النذر . وفي الوقت الحاضر يقدم نصف ثمن الحيوان فقط ، وجرى سحب كافة الحقوق الأخرى للولي ، وأردف أبو طالب ' الجميع يوكلوا حق الأولياء . وينذر شخص حي الضمير ، لهذا ، نصف ثمن

حيوان فقط ، بالقول : ' إن أجاني خبر شفاه يا نبي الله لاشتري بنص ثمن البقرة كسوة للفقرا ' .

وأخبرني مسيحي من الطيبة بأنه جرت العادة ، إذا ماتت العجول المولودة لبقرة واحداً في اثر آخر ، فأن الفلاح ' ينذر ' جزءاً من المولود الجديد للخضر : ' اقبل نذري يا خظر لخظر ، ربع ما بتجيب إلك ' .

ان أكثر الحيوانات المنذورة هي الأغنام(٢٤٤) ، حينما لا يحدد الحيوان ، وعلى سبيل المثال ، حين تستعمل كلمة ذبيحة أو سماط ، كما في بني زيد وبني مالك فالمقصود بها ضأن .

ويجب أن يكون الحيوان المقدم صحيحاً وخاليا من الكسر ، ولا يجوز نذر(٢٤٥) حيوان مشلول أو أعمى أو مريض ، والحيوان المكسورة قدمه أو الذي جرح بعيار ناري لا يناسب إيفاء النذر(٢٤٦) ، ويقدم العهد القديم بعض التعليمات ، فكلمة ذبيحة تعطي معنى الذبح ، لذا فإن الحيوان الذي فقد بعض دمه بأي طريقة غير الذبح ، لا يوفي الغرض الحقيقي للنذر .

وتُختار أضاحي الحيوانات في أغلب الأحيان من قطيع الشخص نفسه ، ولا تُقبل الحيوانات المسروقة من قبل الولي . ولا أستطيع التعقيب على ملاحظة داوتي في شمال أفريقيا ، بأن الذبيحة يجب أن تكون ذكراً . والتعابير المستخدمة في أخذ النذر بالذبيحة متعددة ، وسوف أذكر أكثرها أهمية .

* سمْاطك يا حواس أن راق ابني .

* ندْرنْ علي يا نبي موسى أن رجع جوزي بالسلامة لأقدم لك ذبيحة .

* أن اجاني صبي يا خليل الله لاذبح لك كل سنة خروف .

وتتضمن جميع الأقوال السابقة معنى أن الحيوان سيذبح . ومن الممكن أن يرسل الخروف حياً الى المزار ، كما نفهم من هذا القول : يا مار جريس إلك علي ان طاب ابني خروف واقف . ولرئيس الدير الحق في أن يفعل بالخروف ما يشاء . تقدم أضحيات الحيوان في مناسبات هامة مثل : المرض ، غياب عضو من العائلة ، خطر داهم ، عدم

أنجاب الأولاد الذكور ، وباء يصيب الحيوانات . ونسمع الناس يقولون في الحالة الأخيرة : ' إن رفعت الوبا من غنمي إكبيرها سماطك يا رفاعي '(٢٤٧) .

وفي حالة الشيخ عنبر(٢٤٨) ، فان صاحب القطيع إذا هاجمه المرض يقوم بإرساله إلى المقام ' بزوروه - يجعلونه يزور المقام ' . و ' رأس الغنم ' الأول الذي يدخل باب المزار يتم نذره ويقال اختاره الشيخ ، وفي هذه الحالة يقوم صاحب القطيع بقص جزء من أذن ذلك الحيوان ويقول : شرحت ذانه - قطشْتها ، ويظل ذلك الحيوان ' على اسم الولي - مخصصاً له ' . وأحياناً يعد صاحب القطيع بتخصيص أول مولود (٢٤٩) من قطيعه(٢٥٠) من الغنم ليكون ذبيحة للولي ، وينذر البعض الآخر ، التوأم الأول ، من أجل أن يبارك الرجل المقدس القطيع بأكمله . ويربى ذلك المولود إلى أن يكبر ويسمى ربْيبة(٢٥١) . وإذا مات استبدله الناس بآخر . بينما يقول البعض ، ما دام الله قد سمح بتلك الخسارة فإنه ليس للولي الحق ببديل . وإذا مرض الحيوان المنذور باعه صاحبه وأحضر بثمنه حيواناً آخر ، أو ذبحه ووزع لحمه على الفقراء . ومن الممنوع جداً استبدال الحيوان المخصص للولي ، ويقول الناس بأنه إذا حصل ذلك فلن يقبل الولي الضحية ، وسيعاقب الفاعل .

وليس من الضروري أن يكون كل حيوان مولود ومنذور مكرساً للذبح ، بل يمكن أن يباع في السوق أو المزار . وفي بعض المزارات هناك سوق كبير في وقت الموسم (مثل النبي موسى ، روبين ، صالح . . . الخ) . ومن هذا السوق يمكن شراء الحيوان المنذور للذبح(٢٥٢) . ولإيفاء واجب النذر يمكن أن يكلف صديق بإعطائه الحيوان ، أو النقود لشراء واحد ، وفي بعض الأحيان يرسل مبلغاً من النقود إلى قيم المزار لشراء حيوان وذبحه باسم المقدم . وسوف نبين لاحقاً ، لماذا من المهم وحتى من المُلزم أن يكون الشخص حاضراً أو ممثلا بواحد من أصدقائه أو أقاربه عند الذبح ، فتقديم حيوان لشخص آخر بدون صلاحية تُذهب الرابط المطلوب بين الشخص والرجل المقدس(٢٥٣) .

وعموماً فأن الشخص الذي يعد بالنذر والشخص المنذور من أجله يذهبون برفقة الأقارب والأصدقاء للوفاء بالنذر . وإذا ما أصبحت المرأه غير طاهرة بالعادة الشهرية في وقت الوفاء ، فأنها لا ترافق الموكب ، ولا تستطيع حضور الذبح ، ولا يحضر الأطفال الكبار والرضع هذا الحفل كقاعدة ، خصوصاً إذا كان الولي بعيداً .

وفي العادة فأن الذبيحة تذبح في المقام الخاص بالولي الذي نذرت باسمه ، ولكن هذا ليس قاعدة مقيدة . ومن الممكن أن تقدم ذبيحة لإبراهيم (الخليل) في القدس . وأخرى للنبي داوود (القدس) في نابلس . وفي مثل هذه الحالة ' ابتنذبح على اسمه ' . ويحصل ذلك عندما يتعذر السفر . وقد أخبرني بدوي من قبيلة العدوان أن الذبائح التي تذبح للنبي موسى يتم ذبحها في مضارب القبيلة في شرقي الأردن وليس في المزار نفسه ، ولكن يعتبر أن من الأصح تقديم الذبيحة في المزار المقصود ، لان مجرد زيارة المزار بركة .

عندما يؤخذ ' رأس الغنم ' إلى المزار يزخرفه الناس بالأزهار والأشرطة الملونة . ويثبتون مرايا صغيرة على جبينه ، ويحنون القرون بالحنا . وفي موسم النبي موسى يرى الزائر الكثير من الغنم التي حُليت بالسراقون والذهب .

إن أي شخص يتقن ذبح الغنم يقوم بالعمل ، ويقوم بذلك عموماً صاحب النذر ، وفي حالات استثنائية قيم خادمة المزار . وفي المزارات الشهيرة يكون هناك جزار يقوم بالمهمة مقابل ' مجيدي ' ، لكن لا أحد يقدم ذبيحته لجزار مضطراً . ولا يمكن أن تقوم النساء بهذه المهمة . أن ملاحظة دوتي(٢٥٤) بأن المقدّم يذبح في معظم المزارات ، لها مماثلها الوحيد في فلسطين . في الزاوية المغربية في أبو مدين(٢٥٥) . وفي مقام كبير مثل النبي موسى(٢٥٦) هناك مذبح خاص(٢٥٧) (على مسافة دقيقتين من المزار قرب البئر) . وفي المزارات الصغيرة يتم الذبح في المطبخ كما هو الحال في النبي صالح (قرية النبي صالح - رام الله) . وهناك مزارات ليس لها مطبخ ، لكن هناك حويطة قريبة من جدار المزار ، أو رواق يسد مسد المطبخ (كما هو الحال في الرفاعي ورجـ[illegible]نة) . وفي شرق الأردن تذبح الذبائح أحياناً على سطح المقام ، ليجري الدم على واجهة المزار . وفي المقامات الأخرى يتم الذبح في أي مكان بجوار المقام ، تحت شجرة ، أو على صخرة منبسطة ، أو أمام المزار نفسه . وإذا ما ذكر مكان بعينه في النذر فيجب عمل ذلك . وقد نسمع بعض الأقوال مثل :

- سماطك يا حواس أذبحه على عتبتك .

- ذبيحتك يا حاتم اذبحها على تابوتك .

وفي حالة الذبح الأخيرة داخل المقام يحرص الناس على عدم تلويث الأرض أو القبر . يضع الناس ' لكنْ ' ليتدفق الدم فيه(٢٥٨) . ولم أر أو اسمع(٢٥٩) عن حالات ذبحت فيها الذبيحة وتسرب الدم إلى النبع أو الكهف المقدس كما يذكر كورتيس(٢٦٠) . ولا يقوم الناس بذبح أنثى الحيوان الحامل . ويمكن نذر مثل ذلك الحيوان ، بحيث تصبح هي ووليدها نذراً للمقام بعد ذلك . وإذا ذبحت الذبيحة الحامل (دون علم بحالتها) ، قام الناس برمي الجنين(٢٦١) .

يتم وضع الحيوان على الأرض بحيث يتجه رأسه إلى الشرق ووجهه إلى الجنوب . ولابد من ملاحظة أن هذا هو الإتجاه الذي يوضع فيه الميت ، لكي يكون وجهه بأتجاه القبلة - ناحية مكة (إتجاه الجنوب في فلسطين) ، والفرق بينهما(٢٦٢) ، إن الميت يوضع على جانبه الأيمن ، ورأسه بأتجاه الغرب ، بينما توضع الذبيحة على جانبها الأيسر ورأسها باتجاه الشرق . ويقول الشخص الذي يقوم بالذبح : ' باسم الله - الله اكبر '(٢٦٣) أو ' باسم اللي قدر عليك الذبح - الله أكبر' . وفي بئر السبع سمعت شخصاً يقول عند الذبح ' بسم الله - الله اكبر - حل عليكي الذبح . ربي أنها منك واليك فدا ' . ويمكن أن يضاف اسم الولي الذي تُنْذر له الذبيحة ، بالإضافة لاسم الله . بهذا الشكل سمعت أهالي أريحا يقولون : ' باسم الله والشيخ صالح ' . ولا تذكر عبارة البسْملة المعتادة : ' بسم الله الرحمن الرحيم '(٢٦٤) عند الذبح لانها تتناقض مع القتل .

ويعتقد البعض بأن الحيوان الذي يذبح بهذه الطريقة لا يحل أكله ورغم أن بعض الممارسات لا تأتي ضمن موضوع النذر مباشرة ، ولكنها تتضمن قيماً توضيحية في هذا السياق . فالإنسان الخائف (المرجوف أو المخضوض)(٢٦٥) يتعرض لمعالجة خاصة للتغلب على تأثير ' الرجفة' . ومن بين الطرق للوصول إلى هذا الهدف هي أكل ركبة خروف تطبخ في شدة أو حواجة الطربة(٢٦٦) ، وعند ذبح الحيوان يستخدم تعبير ' باسم الله وباسم ارواح الرجفة '(٢٦٧) . وحينما يصيب أحد العمى الليلي المعروف باسم ' هداب '(٢٦٨) . فإنه يعالج بأكل الزوايد ، وتحضر له 'الفشه ' بدون ملح ، وعند ذبح الحيوان يقال ' باسم الله وباسم الهداب ' وبدون ذلك فلا فعالية للعلاج(٢٦٩) .

ولا يذكر اسم الله في نذر الذبح فقط ، بل عند ذبح أي حيوان للأكل ايضاً . وإذا لم يذكر إسم الله ، فأن أكله حرام . ويجري هذا لانه مذكور في القرآن(٢٧٠) (سورة ٥ أية

٤ : ٤) 'وحرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به '(٢٧١) ، وقد أمر الله بهذا لان عبدة الأصنام اعتادوا على ذبح الحيوانات باسم أصنامهم ' باسم اللات أو العزى' .

أن ملاحظة دوتي(٢٧٢) في المغرب حول استعمال سكين خاص لذبح الأضاحي غير معروفة في فلسطين ، ولكن لا يذبح عرب الترابين(٢٧٣) الحيوانات بسكين في مقبضة ثلاثة مسامير ، ويتبع من يذبح كلمات باسم الله ، الله اكبر بالقول تقبل يا . . . . نذر . . . . ، أما الذين يوفون بنذورهم فيشعرون بالتحرر من واجبهم ، وافضل تعبير عن هذا بالقول أثناء ذبح الحيوان ، وفينا شاتك يا شيخ يوسف أو ' هي نذرك يا نبي روبين' .

وحين تكون هناك ذبيحة من أجل طفل صغير ، فأن الطفل يُحمل حول الذبيحة ثلاث مرات ويقولون : ' بطوّفوا الولد حول الخروف ' . وإذا كان الطفل كبيراً يمكن أن يركب على الخروف ، وهذه العادة ليست منتشرة كالأولى . ويتم ذلك عندما يكون من الصعب على الطفل مرافقة الموكب إلى المزار . ولكن إذا ذهب الطفل إلى المزار وحضر عملية الذبح فأنه يخطو فوق الذبيحة، أو فوق الدم النازف(٢٧٤) . وحسب البعض ، فأنه يدور حول الخروف ثلاث مرات ثم يخطو على الدم ، وفي هذه الأثناء تقرأ الفاتحة ثلاث مرات . وحتى المسيحيين في بعض القرى يفعلون ذلك عند تقديم أضحية لمار جريس – الخضر(٢٧٥) . ويسمى الخطو فوق الدم ' فشقة ' ، وفي الطيبة تجر الذبيحة حول مزار القديس جورج وفي كل دوره تقرأ الصلوات مرة . وعادة الخطو فوق الخروف ، أو دمه ، تمارس أيضاً في ذبيحة الفدوى ونادراً في الضحية ، ويميز بين هذين النوعين وذبيحة النذر . وأن أفضل حيوان للظحية هو ' رأس الغنم ' – الأبيض ، ومن الممكن أن يضحي الفقراء (عنزه) . ويفضل البدو الجمل أو الثور .

وأكد لي رجل من الرام بأن الضحية يجب أن تكون ' رأس بقر ' عمره ثلاث سنوات ' ثلثي ' . ويمكن أن يقدم الفقير سبع رؤوس من الغنم بدلاً من بقرة . ويبدو أن هذا الاعتقاد محلي لأنني لم ألمسه في قرى أخرى . وعند ذبح الضحية توضع على جانبها الأيسر ورأسها بأتجاه الشرق ووجها بأتجاه الجنوب ، ويولي من يذبحها وجهه شطر مكة(٢٧٦) قائلا : اللهم تقبلها مني . وقد تقدم الضحية في العاشر من محرم (في عيد قربان بيرم)(٢٧٧) . وفي هذا اليوم يضحى الأغنياء برأس من الغنم لكل فرد من أفراد العائلة . ويشترط في ' رأس الغنم أن يكون بلا عيوب ، غير مكوي بالنار ، وغير أعور أو

أعمى وقد أتم العام(٢٧٨) . ويضحي الفقراء برأس غنم واحد عن كل العائلة(٢٧٩) . وتعتقد بعض النساء(٢٨٠) حسب ما روت لي ' أم محمد ' من ' عمواس ' أن دم الضحية له قدرة على الشفاء والعلاج . وإذا ما قامت امرأه بالاغتسال بدم الضحية الممزوج بالماء فأنها تشفى من العقم وتنجب الأطفال(٢٨١) . وإذا كان الدم مأخوذاً من ضحية على جبل عرفات ، فستكون له قدرة علاجية أكبر . ويأكل صاحب الضحية وعائلته ثلث لحم الحيوان المذبوح ، ويقدم الثلث الآخر للأقارب ، أما الثلث الأخير فيوزع بين الفقراء . ولا يقبل البعض وليس الكثير ، هذه القسمة . وقد أكد لي شيخ عمواس بأن الصيغة المذكورة أعلاه غير صحيحة ، وانه لا يجوز لشخص أن يأكل من ذبيحته ، وحين يقدم العديد من سكان قرية رأساً من الغنم ، يشارك الشخص في لحم الأضاحي المقدمة من الآخرين ويوزع جميع لحم ذبيحته .

ويعتقد بعض الفلسطينيين أن الضحية تظهر يوم القيامة لابسة ، مزخرفة ، مكحلة ، وتحمل من قدمها على الصراط إلى الجنة ، ولذلك يقال :

– ضحايانا مطايانا(٢٨٢) .

وعند الذبح يحرص المضحى بألا يكسر أية عظمة من عظام الحيوان المذبوح لتظهر كاملة يوم القيامة وتقوم بمهمتها يوم الحساب بعدم إرجاح كفه أخطائه وخطاياه(٢٨٣) .

وتقدم ذبيحة الفدوى ، في مناسبات معينة ، كماعندما يهاجم الطاعون جزءاً من سكان البلد أو المنطقة المحيطة بها . ويتوقع الناس بأن يتقبل الله الأضحية ويفرج عن الناس . ويعتقد البعض الآخر بأن الذبيحة تمنع انتشار المرض . وقد تكون الفدوه لشخص واحد مثل ابن العائلة الوحيد العائد من السفر الطويل(٢٨٤) ، والذي يجب أن يقفز فوق دمها قبل دخول البيت(٢٨٥) . وأن ما ذكره جوسين في النقب حول تبادل كلمة ضحية وفدوى للإشارة إلى نفس الشيء يصح في بعض المناطق الأخرى في فلسطين . وفي فحصنا لنذر الضحية ، لاحظنا بأن دم الحيوان يتدفق على الأرض . وفي بعض المزارات حيث يعين مكان داخل حويطة المقام للذبح ، يسري الدم في قناة خاصة . وقد يجمع دم الذبيحة لتتم زخرفة المقام به ، يستثنى من ذلك المقامات الكبيرة كالنبي موسى ، وذلك بوضع أشكال زخرفية ، بالدم ، على شاشية الباب وصداغاته ، كما ترسم طبعة الكف . ويصنع مسيحيو الطيبة شكل الصليب بدم الضحية على مزار الخضر ، ويأخذون الدم في (كيكاره) ويلطخون الباب بالدم . وكانت هذه العادة منتشرة

في الفترة التوراتية ، عندما رش هارون دم الضحية على المذبح وحوله(٢٨٦) . ويقوم أهل الطيبة ' بطراشة ' حجارة المقام بالشيد بعد ذبح الحيوان ، ذلك لانه يعتقد بأن اللون الأبيض يجلب الحظ . كما يمكن أن تلطخ إطارات البيوت الجديدة بدم الضحية التي تخصص لهذا الغرض . ويمكن أن يوضع دم الضحية(٢٨٧) على جبين الطفل .

وقد يرسم الصليب بالدم على جبين الطفل (عند أهل الطيبة وبيرزيت) . ويقوم أهل بئر السبع بتلطيخ الجمال بدم الذبيحة ، كدليل وإشارة على انه قد تم الوفاء بالنذر(٢٨٨) .

ويحصل قيم المقام على حصته من لحم الذبيحة ، وتتألف بشكل خاص من الجلد والسقط وتسمى 'الطراف' في بعض الأماكن . ويفهم الفلاح من هذا التعبير ، الرأس والأحشاء والمذبح ، أي ذلك الجزء من الرقبة حيث تقطع السكين الحنجرة . كما تقدم له قطعة طيبة من اللحم ، ويشارك الحاضرين في تناول طعام الغداء . وهذا يصح أيضاً على شيخ المزار(٢٨٩) . ويحصل ' لحام ' مقام النبي موسى على الجلد أو ربع مجيدي(٢٩٠) ، وأحيانا نصف مجيدي لقاء عملية الذبح . أما الأجزاء الأخرى فتطبخ وتؤكل . أن ملاحظة كورتيس بأن القيم يحصل على ربع اللحم صحيحة في بعض الأحيان فقط ، وهذه العادة قديمة موضحه في قصة أطفال إيليا(٢٩١) . والأضحية المقدسة لا يمكن أن تحضر على شكل زرْب(٢٩٢) . وفي الغالب يطبخ الرز ليقدم مع اللحم . وتُحضر الجماعة القادمة للمقام من أجل الضحية معها الخبز واللوازم الضرورية الأخرى . ويشارك كل الحاضرين في تناول الطعام . وحالما يُري أناس ومعهم رأس غنم أو أكثر ذاهبين بأتجاه المزار يعلمون بأن نذراً سيقدم . وفي المواسم الكبيرة فأن جزءاً من اللحم المتبقي (اللحم الأخضر) واللحم النيئ يوزع على الحاضرين . كما تقدم النذور لمطبخ النبي موسى ، ليتم أعدادها وتقديمها لكل الناس ، الذين يأخذون منها على سبيل البركة .

ويتم تجهيز الطعام في المطبخ ، أو في أي مكان حول المقام بحيث لا يتعرض للريح . وفي الغالب يتم طبخ الطعام تحت شجرة . وتوضع الطناجر والدسوت (جمع دست) على المواقد . وتمتلك الكثير من المقامات أدوات كهذه . ويؤخذ الخشب من ممتلكات الولي ، أو يُحضره الزائرون معهم . ويمكن الاستفادة من كل الخشب الجاف الساقط من الأشجار في عملية إشعال النار ، ولكن لا تقطع أغصان من الأشجار حتى لو كانت جافة ، ولا يستخدم الحطب الجاف في أي مناسبة أخرى .

ويشارك الجميع في الوليمة المقدسة ، ويقرأ الواحد الفاتحة على روح الولي المقدم له ، ويعتبر جميع الحضور ضيوف الولي ، ذلك أن الذبيحة له ، ويطبخ الطعام تكريماً له . وعلى ذلك فأن كل من يحضر ، أو تصادف مروره في هذه المناسبة مدعو للمشاركة في الوليمة المقدسة . ويحصل الولي على أهم جزء من الذبيحة ، وهي الروح ، التي تسكن الدم(٢٩٣) ، كما سنرى ذلك لاحقاً ، وكانت هذه الممارسة معروفة في العهد القديم(٢٩٤) ، فوليمة التضحية تعقب التضحية ، ويؤكل لحم الضحية في المزار من قبل المقدمين ، وعائلتهم (صموئيل الأول ١ : ٣-٧) أو من قبل ممثلي المجتمع (صموئيل الأول ٩ : ٢٢-٢٥) ، والفكرة الضمنية هنا ، هي المشاركة في وجبة عامه مع الآلهه ، والعابدون هم ضيوف الله في مزاره(٢٩٥) . ويتحولون بسعادة من الاحتفال ، ويشاركون في الألعاب وتمضية الوقت في التسلية ، ويغادرون المزار متيقنين بأن الولي قد باركهم على وفائهم بواجبهم .

والأضاحي المتبعة في الأعياد معروفة في التوراة (صموئيل الأول ٢ : ٤) ونجد في سفر الملوك الأول (٣ :٣) والآيات الأخرى(٢٩٦) بأن هذه الأضاحي تجري في أماكن مرتفعة . وعند البحث عن حمير والده ، جاء شاوول إلى صموئيل وأخذه النبي إلى وليمة أضحية .

وقبل أن ننتقل من موضوع الذبائح سنتعرض لبعض العادات غير المنتظمة ، والتي تمارس في بعض أنحاء فلسطين ، فنادراً ما يحدث بأن رأس الغنم المذبوح في المزار ، أو بالقرب منه ، ينقل إلى القرية ويطبخ في بيت مقدم النذر . وفي بعض الأحيان فأن وضع المقام لا يسمح بتقديم الحيوان فيه أو بالقرب منه ، وفي هذه الحالة يمكن بيع الحيوان وتقديم ثمنه للمقام ، أو شراء بهذا الثمن مجوهرات ، تقدم للمقام وتعلق على صورة القديس ، فالذبائح التي تنذر للقديسة ماري لا تقدم بهذا الشكل ، ويباع الحيوان ، ويشتري بثمنه مجوهرات وتقدم للقونه .

وبعض نذور هذه المجموعة لها صلة بنذور الطعام بلا لحم ، كالمسروله ، وهي طبق من الحليب والرز ، يخلط بطبق أخر من اللحم والرز ، وتطبخ هذه التقدمة سلفاً في البيت ، ثم تنقل إلى المزار ، حيث يوزع جزء منها ويؤكل الجزء الأخر . وعند البدو وبعض الفلاحين نلاحظ أن الطبخ المرافق للمولد هو أهم من المولد نفسه . وقد يكون طعام الاحتفال باللحم أو من دونه .

هناك بعض الممارسات الفرعية مرتبطة بالأضاحي ، ذلك أنها تمس المبادئ الأساسية لعمل النذور ، ويمكن من خلال دراستها تفسير المفهوم الرابط بين حيوان الأضحية والشخص المنذور لأجله . وسأقدم مثالين ، رغم أنهما لا يعودان إلى حيوان الأضحية الموصوف أعلاه ، فأنهما يمثلان بلا شك الفكرة التي تنطوي عليها بوضوح .

فعندما يموت شخص ويحمل البدو والفلاحون الميت على جمل إلى قريته ، تسود بين الفلاحين خرافة مؤداها أن الجمل قد يموت من الكبْسة(٢٩٧) ، التي يمارسها الميت . ومن اجل أن يتلافى الناس مثل هذا الخطر فأنهم يذبحون ديكاً على ظهر الجمل ، قبل تحميل الجثة عليه . ويمنع الدم ، الذي يسيل على ظهر ذلك الجمل ، كما يعتقدون ، هذا الخطر المحدق . وهكذا فان الديك الذي قدم حياته ، قد حمى روح الجمل الغالي الثمن .

ومثل ذلك يقال عن محاولة تخليص الطفل المريض من الأرواح الشريرة التي سببت له المرض . إن تلك الأرواح لا ترحل من جسم الطفل الا إذا تم إرضاؤها بحياة أخرى . لذلك يأتي الناس بحمامة ويضعون رأسها بعمق داخل أست الطفل حتى تموت . وهكذا فأنه يتم التضحية بحياة حيوان من أجل إنقاذ حياة إنسان ، ويكتفي الجن بالتقدمة التي حصل عليها ، ويغادر الطفل .

ويظهر هذان المثالان النقاط الثلاثة التالية :

١- لحماية حياة كائن مهم يجب التضحية بحياة واحد اقل أهمية .

٢- تقدم التضحية لإرضاء القوة الغيبية التي يعتقد بأنها سبب الخطر ، أو التي تحوز بيديها على القدرة على منعه .

٣- أن الحيوان المضحى به له علاقة ظاهريه مباشرة مع الكائن الذي يقدم حياته لأجله .

أن نظرة فاحصة للممارسات المرتبطة بالنذور وتضحية الحيوانات كما تابعناها ، تظهر بأن نفس الفكرة تكمن وراءها مع بعض التعديلات .

يعتقد الفلسطينيون أن المرض والإصابة به وسوء الطالع هي من الله . وقد سمح الله بذلك تماماً مثلما سمح للشيطان أن يصيب أيوب ويذيقه كل أنواع المصائب(٢٩٨) . وهكذا فان الفلاح يُرضي القوة الكبرى التي سببت المرض ، بتوجيه غضبها نحو كائن آخر ، وبالتالي لا بد من تقديم ضحية . وهكذا فما زال الفلاح يسير على خطى أجداده : حياة مقابل أخرى(٢٩٩) . وهذا هو السبب الوحيد(٣٠٠) لانتشار عادة نذر الأضاحي(٣٠١) . وفي حين أن النذور الأخرى قد لا تنفذ بصرامة ، فإن وعداً بتضحية الحيوان يعامل بكل جدية ، ومثل هذه الممارسة المعتقدية موجودة في كل الديانات السامية .

ولما كان من الصعوبة بمكان الوصول إلى الله ، وهي فكرة متجذره في المعتقد الديني الشعبي الفلسطيني(٣٠٢) ، فلا بد أن يكون هناك وسيط يساعد في الاتصال بالله ، وذلك هو الولي الذي كان ذات يوم من البشر ، ويفهم صعوباتهم والاغراءات التي يتعرضون لها . والولي يكون دائماً جاهزاً للمساعدة إذا اظهر الإنسان بعض الخضوع له . وبما أن المرء لا يقترب من الله دون هدية(٣٠٣) . فإن الأمر كذلك بالنسبة للأولياء . فلا بد من تقديم نذر لهم . وكان هذا المفهوم منتشراً في عهد التوراة ، لا أحد يظهر أمامي خالي الوفاض(٣٠٤) . وأهداف التضحية ببساطة هي ضمان رضى الولي وتجنب غضبه والتعبير عن الشكر . ولا شيء يرضي الأولياء مثل تقديم الضحية للولي لأنها وهي عبارة عن طعام تقدم للفقراء باسمه ، أولاً ، ولان كل من يشارك في تناول الطعام يمدح الولي ، ثانياً ، .

أن دراسة العلاقة بين الحيوان المقدم والشخص المقدم لأجله هي غاية في الأهمية ، وعلى سبيل التحليل سنقدم وصفاً مختصراً لبعض العادات الموصوفة أعلاه :

يحوم الطفل المنذور له ثلاث مرات حول الحيوان ، وحين يكون الطفل اكبر فإنه يمتطي الخروف(٣٠٥) .

يمكن أن يخطو على الضحية أو على دمها المتدفق .

تلطخ جبهة الطفل أحياناً بدم الذبيحة .

يدهن القطيع بدم الحيوان المذبوح لحمايته .

وتظهر كافة الأفعال بوضوح بأن الضحية يجب أن تكون على علاقة مباشرة مع الشخص المقدم لأجله ، وعلى ذلك ، فأن الشخص المُضحى له لأجل إنقاذ حياته يؤشر بدم الضحية ، كما يلطخ مزار القديس المنذور له في حالات كثيرة بدم الذبيحة(٣٠٦) ، ويجري هذا للتأكيد للولي بأن النذر قد تم الوفاء به ، ذلك ان تكريس الحيوان أثناء الذبح بالقول ' خُذ وعْدك ' غير كاف . ويمكن أن يتساءل الإنسان لماذا يلعب الدم مثل هذا الدور الهام في الطقوس الدينية ؟ ان تمعن السؤال يفيد بأن الدم يلعب دوراً مهماً ومعقداً في الخرافات الفلسطينية ، وأنا أعتقد بأن دراسة هذه الممارسات ستوصلنا إلى مفاهيم واضحة للأفكار الكامنة ، والتي سأصف بعضاً منها .

يعتقد الفلسطيني بأن الدم هو مسكن الروح ، وهذه الفكرة موجودة في الفترات الأولى للتاريخ التوراتي ' الدم هو الحياة '(٣٠٧) ، وعلى ذلك فأن نزف الدم وفقدانه هو فقدان لجزء من الحياة والروح ، وهذا يجعل الدم غالياً جداً ، وخطيراً جداً في نفس الوقت ، وتلقي الخرافات التالية الضوء على هذه الفكرة :

١- عندما يريد طفلان أن ' يتخاوا ' ، فأن كلاً منهما يثقب إصبعه بدبوس ، ويمص الواحد منهما دم الآخر ليأخذ جزءاً من روحه ، وتصبح هناك قرابة دم .

٢- في كل مكان يقتل فيه إنسان ، تظهر روحه على شكل رصد (مْفاول) ، وتصيح بآخر الكلمات التي تلفظ بها القتيل(٣٠٨) . وقد جاء في سفر التكوين (١٠ :٤) ' وقد صعدا لي صوت دم أخيهم من الأرض ' .

٣- عندما تريد امرأه ، غير محبوبة من زوجها ، أن تلهب عواطف ذلك الزوج ، فأنها تسقيه جزءاً من دمها على شكل نقط في شرابه(٣٠٩) ، ذلك لأنها تأمل في أن جزءاً من روحها ، يدخل جسمه عن طريق الدم ، سيربطه بها بصورة أقوى .

٤- تحوم القوى الخارقة للطبيعة فوق كل مكان وشخص عليه الدم . وهذا هو السبب في رهبة الفلسطينيين من دم العادة الشهرية(٣١٠) .

أن تقديم حيوان يعني تقديم حياة وروح بدل روح الإنسان ، وليس لحم الذبيحة هو الجزء الأهم من التضحية ، فلحمها يرضي الناس فقط .

إن الآلهة لا تأكل ولا تشرب ، أنها تشعر بالرضى عند تقديم الأضحية لها(٣١١) . . قالت امرأه من جفنا : ' للخظر فديت الدم وللناس الذبيحة ' . إن نزول الدم هو العنصر الأساسي في الأضحية الحيوانية . ويلعب الدم دوراً هاماً كرمز للحياة ، وإهراقه هو الجزء الأهم من التضحية الحيوانية(٣١٢) . ولذلك لا يقبل الولي ضحية ذبحت من قبل ، إذ يجب أن تذبح في مزاره أو بإسمه على الأقل ، هذا هو الفعل .

ب- القربان أو وليمة الله

يتضمن القربان أيضاً الذبيحة . وهذا النوع من النذور يعود جزئيا إلى هذه الفئة ، وجزئيا إلى فئة لاحقه ، وسنصفها هنا تماماً ، كجزء من التضحية الحيوانية . ويقدم النذر في هذه الحالة إلى الله فقط ، وليس لأي قديس أو ولي . ويتضح بأن القربان تضحية حقيقية ، في حالة المرض ، باسم الله . وحالما يتماثل المريض للشفاء يجب أن تقدم حياة حيوان لمن نجاه . وتعود الذبيحة كليه لله ، ولكن الله لا يحتاج أي طعام ، ولذلك توزع كلها على الفقراء ، ولا يأخذ الناذر شيئاً منها ، خلاف العادة التي أتينا على وصفها سابقاً . ويمكن ذبح هذا الحيوان في أي مكان . ويوزع اللحم أخضر (بدون طبخ) ، أو يطبخ ويوزع على الفقراء ، ومن هذه العادة جاءت تسمية ' وليمة الله ' .

والقربان من قرب أو قرابة ، تشير إلى كل شيء يقدم لوجه الله ، يقرب المقدم إليه ٣١٣) . وتفسر ' وليمة الله ' الفكرة في مكان آخر ، وتظهر بأن التضحية هي في الواقع ليست سوى عيد للمحتاجين لوجه الله .

وفي كثير من الأحوال التي يقدم فيها هذا النذر ، فأن الأم أو الأب يمسك بسكين (موسى ، خوصه) ويغرسها في باب غرفة المريض ، وهو يقول ' قربان لوجه الله ان طاب أبني ' ، وتبقى هذه السكين مكانها حتى يذبح الحيوان(٣١٤) .

وتشبه هذه العادة ، إلى حد كبير ، عادة النذر بشمعة لله ' إذا تكلم أبني لأضوي شمعة لله(٣١٥) ' . وحسب المعتقد المسيحي ، يجب إضاءة هذه الشمعة في الهواء الطلق وليس في المزار ، وقد أخذت أم الياس من القدس على نفسها هذا النذر وأضاءت

الشمعة على السقف ، وقد أمضت الليلة في حراستها ، حتى لا تُسرق ، وحين لا تحترق الشمعة بالكامل ، تضاء في الليلة التالية . وحسب العادات الإسلامية ، فأن الإضاءة من هذا النوع يمكن أن تقدم إلى أقرب ولي ، وتحرق هناك باسم الله(٣١٦) .

وقبل أن ننهي موضوع أضحيات الحيوان يمكن ان نلاحظ أن عادة الذبيحة لا علاقة لها بالنذور . وفي حالة خداع الولي قبل بعض البشر ، يمكن له أن يعاقب فاعل الشر ، وربما جميع سكان القرية بصورة قاسية . ويقدم خروف لإرضاء الولي عادة ، وقد أشرت إلى قصة الشيخ صالح الذي يسكن خربة توته والتي توضح هذه النقطة بجلاء .

ج- طعام بدون لحم

يسمى نذراً الطعام الذي يقدم دون لحم ، في القدس وما حولهما ، 'سْماط ' . بينما تعني كلمة ' سْماط ' عند بني زيد وبني مالك : ذبيحة . وفي كل الأمكنة الأخرى تسمى مثل هذه النذور 'طبخة ' ، ولم أعثر على التفسير الذي قدمه جوسين لهذه الكلمة ، والذي أستنتجه من أستعمال الكلمة في شرق الأردن(٣١٧) . ومعظم سكان القدس والقرى المسيحية المجاورة يفهمون كلمة ' سْماط '(٣١٨) على أنها طبق خاص من ' الرقاق والعدس ' ، وبعضها يتضمن أنواعاً أخرى من الطعام سنأتي على ذكره . ويطبخ السْماط في البيت ويوزع على الفقراء . وفي العادة يتم تجهيز كمية كبيرة ، وترسل أطباق ممتلئة إلى بيوت الفقراء . وذكرت لي امرأه مسلمة من القدس أنه كان يوضع أحياناً ' لكنْ رشتة' على البوابة الرئيسية (باب القطانين) ، في منطقة الحرم ، وذلك من أجل أن يتمكن المصلون ، بعد صلاة الظهر(٣١٩) ، من أن يأكلوا منه(٣٢٠) . وكان ذلك يتم في الغالب يوم الجمعة ، حيث توضع في الركن عدة ملاعق . وأما الشخص الذي أحضر الطعام فكان يقول للناس .

– أقروا الفاتحة للنبي إبراهيم ، هذا من نذرُه .

ذكر لي مسيحي من رفيديا (قرب نابلس) أنه يتذكر عندما كانت هذه العادة معروفة بين السكان المسيحيين لقريته . وكان يوضع الطعام ، يوم الأحد ، أمام الكنيسة ، وكلما مر شخص تناول ملء ملعقة منه . وكان على الكاهن أن يبدأ الموكب . وكانت تتلى الدعوات لأرواح القديسين . ومن الأكلات الأخرى التي كانت تقدم : عصيدة (برغل

وعدس) ، مجدرة (رز وعدس) ، وبحتيه (رز وحليب) . ولكن طبق الرقاق وعدس (الرشتة) كان أشهرها . وهو طبق مفضل لأنه يعتقد أنه كان طبق النبي إبراهيم(٣٢١) .

وقد ' ينذر ' العديد من المسيحيين(٣٢٢) (خاصة في بيت جالا وبيت لحم) الغرْبونية(٣٢٣) ، وهي من الخبز من أرغفة كبيرة مستديرة ، مصنوعة من طحين ناعم منُخل(٣٢٤) . وتوسم الأرغفة قبل خبْزها برسْمة ، وتسمى ' وجْوه '(٣٢٥) ، وتعطى للكاهن الذي يتلو عليها الصلوات ويطلب البركة لأفراد العائلة التي قدمتها ، ويأخذ الكاهن أربعة من الأرغفة لنفسه ويعيد رغيفاً للعائلة ، لتأكله وتتبرك به . وبعض الناس يعتقدون أن تناول مثل هذا الخبز يشفي من المرض . وتقدم هذه الغرْبونية(٣٢٦) (أو القداسة) قبل يوم من عيد القديس الذي تنذر له ، ويبارك القديس الخبز بعد صلاة العصر . ومثل هذا النذر هو بمثابة مساعدة مادية للكاهن(٣٢٧) . وينذر الكثيرون الخبز للفقراء والمحتاجين باسم القديس ، وسأتي على وصف هذه العادة بالتفصيل في الفصل التالي .

٣ . تقدمات للمحتاجين باسم الولي

تعرضنا في الفصل السابق للنذور التي توفى لصالح الفقراء . ويأتي تحت هذا العنوان ما يقدم من ' سماط ' ، ' طبخة ' أو قربان . إن جميع النذور من الطعام يجب أن تقدم للفقراء ، على الرغم من عدم ورود ذكرهم في النذر ، وفي جميع النذور الأخرى فأنها تحدد مثل ' يا نبي صالح إذا ما طلعتني من هالمشكلة لأوزع سلة رز على الفقراء' وينذر الطعام والملبس ، ويعطى الطعام مطبوخاً أو نيئاً للفقراء والمحتاجين الذين هم : الفقراء ، والأيتام ، والأرامل(٣٢٨) ، والسجناء ، والمرضى ، وخصوصاً المجانين .

وهنا بعض التوضيحات ' إذا قمت وصرت أمشي يا نبي الله لأكسي ثلاثين يتيم ' ، أو 'أن خرجت من السجن لأوزع ميتين رغيف على المساجين' أو يا خضر ' إذا أبني رجع عقله لأذبح خروف للمجانين في مزارك ' .

وإذا نذر شخص ' الكسوة ' فإن عليه أن يقدم : قميصاً ، صرامي(٣٢٩) ، (مركوب – مشاية) ، لباس(٣٣٠) (سروال) ، قمباز(٣٣١) ، طرْبوش(٣٣٢) . (أو حطة

وعقال)(٣٣٣) . ولا يقدم الجميع كل هذا ، بل قميصا وقمبازا ، ومن العادة أن يؤجل الوفاء بنذر الكسوة إلى العيد (عيد الأضحى أو عيد الفطر) .

لقد كانت حالة السجناء تثير الشفقة . وفي الغالب كان المتهم ، أو المشتبه به يبقى في السجن لعدة شهور قبل محاكمته . وكان السجين يدعو الله والأولياء أن يساعدوه على إطلاق سراحه ، وينذر لوجه الله ' رأس غنم ' أو خبزاً (قداسة) للسجناء الآخرين ، إذا افرج عنه . وحتى المسجونين بحكم كانوا ' ينذرون ' النذور لزملائهم المتبقين في السجن عند خروجهم منه . وحتى لو قدمت هذه النذور باسم الولي فأنها لا تصل إلى مزاره .

إن أفضل طريقة لتقديم نذور الطعام في القدس(٣٣٤) ، كما ينصح كثير من الناس ، هو إعطاء مادة الخبز للتكية التي كانت تقدم الطعام للفقراء يومياً . وبصورة عامه يظل الشخص الذي ينذر رأساً من الغنم ، في التكية ، حتى يتم طبخ اللحم وتوزيعه . ويمكن أن يؤتى بالخبز إلى المطبخ . ويتذكر الناس بيوت الأيتام والمستشفيات ، فيرسلون اليها الطعام المنذور ، ويقدمون لها الطحين والرز والسمن ، والفول والعدس . ويتلقى ملجأ البرص مثل هذه النذور على فترات متباعدة . وبعض الناس يقومون بتأليف وقفية (مؤسسة وقف منتجة) بدلاً من التبرع للفقراء . يا ربي إذا عشت وشفْت أبني في صحة منيحة أتبرع بالبيت الأرضي للتكية ' ، وتقدم الأجور السنوية للبيت إلى وقف التكية كمؤسسة دينية ، وقد عرفت شخصاً قام بنقل ممتلكاته لقريبه كوقفيه ، بشرط أن يقدم مبلغ من المال من قبل الورثه إلى الفقراء باسم المتبرع . وقد يعد شخص لا يملك نقوداً بأجرة عمله لعدة أيام لصالح الفقراء(٣٣٥) .

٤ - النذور الدينية

قراءة المولد :

النذر الديني هو الوعد بتقديم واجبات دينية اكثر مما هو مطلوب ، وتمارس النذور الدينية من قبل المسلمين والمسيحيين . وأشهر الامثلة على ذلك ، ' أن شفيت بنتي لأقرأ المولد ' . والمولد هي قصة مولد النبي الخارقة وافعاله ، وتذكر أسماء أسلافه

الأنبياء الذين سبقوه . والجزء الأساسي من المولد هو في مدح النبي . وهناك موالد مختلفة ، أهمها هو مولد الأمام عبد الله بن محمد المنوي ، وحسب وفيات الأعيان لابن خلكان (الجزء الأول) فإن الشخص الأول الذي أكد على أهمية المولد هو مظفر الدين (أمير أربيل) ففي عهده سنة ٦٠٤ هجرية كتب الحافظ عمر أبو الخطاب أجمل قصيدة مولد . ويكون أداء النذر بسيطاً أو معقداً ، وفي المقام الأول يقدم صاحب النذر ' مجيدي ' أو ' مجيدي ونصف ' لشيخ يقرأ المولد من مئذنة الجامع أو في المسجد أو من داخله أو من مزار ، باسم المقدم . ومن بين هذه الأماكن تختار المئذنة ، - على المئذنة الحمراء(٣٣٦) ، أو على مئذنة النبي موسى(٣٣٧) . والمؤذن هو الذي يقوم بالمهمة .

إن المؤذن ، أو الشيخ ، الذي يقرأ المولد يتعاون مع عدد من الأشخاص الذين يساعدون في الغناء والإلقاء . ويتم ذلك عادة ليلة الخميس - الجمعة أو ليلة الأحد - الاثنين . وأهم من ذلك قراءة المولد في البيت . ويدعى العديد من الأصدقاء ، وتقام حفلة كبيرة ، ويجتمع الجميع بعد تناول الوجبة في قاعة كبيرة حيث يعقد الحفل . ويقوم الشيخ بقراءة المولد ويردد الجمهور خلفه . ويحتاج ذلك إلى ساعتين أو ساعتين ونصفا ، وخلال هذه المدة لا يقوم أحد بالتدخين أو الحديث . ومن الممكن أن يدخل شخص أو يخرج آخر في أي وقت . وبعد إنتهاء الاحتفال تقدم الحلويات ، وهكذا نلاحظ أن الاحتفال الديني هذا يسبقه ويلحقه عمل إحتفالي . وإذا أقامت المولد امرأه دعت النساء إليه واستدعت شيخاً ضريراً(٣٣٨) ليقرأ ، ذلك لأن الشيوخ العميان يستطيعون حضور مجالس النساء .

وفي بعض القرى يضعون عدة أرطال من الشعير ، وعدة بيضات نيئة أمام الشيخ ، والبعض يأتي ببيضة واحدة . ويأكل الشيخ البيض ليساعده على أن تظل حنجرته سالكة(٣٣٩) ، بينما يقدم الشعير للناس كشيء يتبركون به ، ويفترض بأن الشعير يحصل على قوة خارقة أثناء قراءة المولد ، وتصبح له قوة على الشفاء ، فإذا مرض طفل يتم تبخيره بالشعير(٣٤٠) .

وأخبرتني إمرأه عجوز ، من القدس ، بأن طبقاً من الطحين وكوباً من الماء يوضعان أمام الشيخ الذي يتلو المولد ، وبعد ذلك توزع محتويات الكوب والطبق على الحاضرين .

ويتم الآن الاحتفاظ بذلك باعتباره ' حرز ' للأطفال الصغار ، يتم تبخيرهم به أو يحملونه في رقابهم . ويشرب الحاضرون الماء باعتباره يفيد ضد ضيق النفس .

وعلى الرغم من أن هذه العادة هي عادة إسلامية بحْتة فإن إمرأه مسيحية قد ' تنذر ' بأن تقرأ المولد وذلك بأن تعطي شيخاً مبلغاً من المال وتطلب منه أن يقرأ المولد باسمها ، ويحدث هذا نادراً .

وقد وعدت زوجة الكرى(٣٤١) (كنيسة الروم الأرثوذكس) ' إذا ما شفي طفلي سأقرا المولد ' ، وللإيفاء به فقد جرى الاحتفال في بيتها . وعموماً يفضل المسيحيون إعطاء شيخ مبلغاً من المال ويطلبون منه قراءة المولد باسمهم .

والى جانب المولد ، حيث ينذر الصيام غالباً . ويفرض الدين على المسلمين صيام شهر رمضان(٣٤٢) ، حيث يمتنع عن الأكل والشرب والتدخين أثناء النهار . وفي ساعة معينة عند المساء يجرى الفطور . وبعد عدة ساعات من منتصف الليل يكون موعد السحور . ولا ينذر شخص للصيام في هذا الشهر ، لأن هذا واجب عليه ، ولكن الصيام في أيام وأسابيع أخرى من رمضان ينذر غالباً من قبل النساء ، ويحدد عدد الأيام أو الأسابيع في النذر ، ويجري بنفس طريقة الصيام في شهر رمضان ، ويفضل للصيام شهرا رجب وشعبان ، وأيام الاثنين والخميس من أيام الأسبوع . ومثل هذه النذور غير قابلة للتبديل ، كبعض النذور الأخرى التي يمكن أن تتغير إلى واجب أخر . والشخص الذي نذر الصوم مدة شهر عليه أن يفي بوعده بدقة ، في حين أن الشخص الذي يعد بتقديم رأس من الغنم أو زيت . . الخ ، يمكن أن يقدم مبلغاً من المال بدلاً من ذلك . ولا يسمح للمرأه غير الطاهرة بالصوم .

ويحدث أن ينذر المسيحيون بالصوم عدة أيام أو أسابيع أكثر مما هو مطلوب من الكنيسة ، وفي هذه الحالة فهم يمتنعون تماماً عن لحوم الحيوانات ، ويشمل هذا السمك أحياناً . ومن الغرائب أن يعد المسيحي بصوم شهر رمضان أو جزءاً منه . وفي بعض الأحيان تلزم نساء مسلمات أنفسهن بالصيام في عيد العذراء أو جزءاً منه .

من الممكن أن تنذر أم مسلمة تفقد أولادها الواحد بعد الآخر بتعميد أبنها خشية أن يموت ، ليكون تحت حماية المسيح ، مما يساعد على حمايته من الموت وأبعاد القرينه . والقرينة جنية شريرة تهاجم الأطفال والنساء الحوامل مسببه المرض للأطفال ،

والإجهاض للمرأه الحامل . حصل ذلك مع وطفا زوجة أ . عقل ، من لفتا ، التي نذرت لمناسبة وفاة أطفالها بناء على نصيحة جارها العجوز وقالت :

– يا ربي ان رزقتني صبي نذْرن علي لأعمده عند النصارى ولأسميه على اسم النصارى .

وقد حملت وطفا وأنجبت طفلين سمتهما : حنا وجريس . وقال لي شيخ من شعفاط أن امرأه عاقراً نذرت بأنها ستسمي ابنها الياس ، أي تعطيه أسماً مسيحياً ، وبذلك تكرسه لقديس مسيحي ، ويتوجب عليها أن تُعمده . وفي هذه الحالة يتم اختيار الأسماء المسيحية الشائعة مثل حنا وجريس . . . الخ ، ويفضل إسم القديس جورج لأنه صلة وصل بين المسلمين والمسيحيين . ويقال بأن الخوري يقوم بنفس طقوس التعميد كما لو كان طفلاً مسيحياً .

هناك قليل من النساء المسيحيات اللواتي تقطع الواحدة منهن على نفسها نذراً بأن ' تطهر ' طفلها (أي تختنه) ، وتعطيه اسماً إسلاميا مثل درويش وحسن . . . الخ . ويحصل ذلك عندما تفقد المرأه كل أطفالها الذكور بالموت . وتحدد النساء المكان الذي سيتم فيه الختان ، إن تعميد الأطفال المسلمين معروف أكثر من ختان الأطفال المسيحيين ، ويجري الأخير في بعض القرى المسيحية .

و ' تنذر ' المرأه المسلمة أن تطهر إبنها في مزار الولي ، محددة بذلك المكان فقط ، لأن مبدأ الطهور عند المسلمين أمر ثابت أصلاً . ويعتقد الناس بأن الطفل الذي يتم ختانه في المزار يصبح تحت حماية الولي . وقد يشتمل النذر على وعد بتطهير أولاد الفقراء مع الإبن المعني بالنذر . وقد يضاف للوعد تقديم ملابس ، كهدية للأطفال الفقراء .

وينذر البعض خدمة المزار ، ' يا الله إذا ما أعطيتني ولد سأجعله يخدمك شهر ' . ان هذه العادة الموجودة عند المسلمين ، أوسع انتشاراً عند المسيحيين . إن خدمة المزار المباشرة لفترة معينة ، تساعد الفندلفت(٣٤٣) في عمله ، وعند المسلمين ، بكنس المزار وإضاءته . مثل هذه النذور تشبه نذر حنه ، والدة صموئيل (صموئيل الأول سفر ١ :١١) . ويقال نذرته لمار انطون ، وتعني أن يلبس الطفل ثياب الكهنوت في المزار لمدة عام . ويضع الكاهن ثياب الكهنوت على الطفل ويخلعها عنه بعد سنة ، ويقدم شمعة في كلا المناسبتين ، ويقدم الدير الثوب والمسبحة والطاقية في حين يقدم

الأبوان القماش الذي يقصه الكاهن ، ويصلي الكاهن على الثياب والطفل ، وهكذا يلبس الأطفال مسوح الرهبان لمدة عام . ويتبع أفراد طائفتي اللاتين والروم الأرثوذكس هذه العادة ، ويطلب الثاني كاهناً من الأول لأداء هذا العمل .

وأحياناً يشمل النذر كل جسم الإنسان أو جزءاً منه ، يقولون :

- يا سيدي يا خواص(٣٤٤) إذا إبني بشْفى بعطيك نُصه (نصف ديته) . ومقدار الدية عند المسلمين ٣٣ آلف قرش(٣٤٥) . ويعطى نصف المبلغ لخادم المزار . وإذا كانت المسألة متعلقة ببنت (أنثى) فأن المبلغ هو نصف مهرها . وفي هذه الحالة لا يمكن إتمام الزواج حتى الوفاء بالنذر(٣٤٦) . ونجد في العهد القديم تقسيماً على أساس العمر الجنسي(٣٤٧) .

وأخيراً لا بد من ذكر عادة هي رغم أنها لا تعود لهذه المجموعة من النذور ، ترتبط بها أكثر من غيرها . فقد ربطت زوجة خوري من الروم الأرثوذكس كان أبنها مريضاً ، منديل حرير على راية النبي موسى ، وجرى هذا في اليوم الأول للاحتفال ، حين انطلق الموكب من مسجد عمر ، وأثناء ذلك قالت ' إذا ما شفي أبني يا نبي موسى سأعلق منديلاً آخر في يوم عودة رايتك'(٣٤٨) . ويظهر هذا المثل التكريم الذي يكنه غير المسلمين للمقامات الإسلامية ، ومثل هذا النذر نادر جداً . ولتفسير هذه العادة ربما نشير إلى العادة الإسلامية ' إذا طاب إبني لأربطلك يا خواص ذراع بفت راية بيضه ' . ورفع راية بيضاء لشخص معين هو إعتراف بقدرته ، ونزاهة خلقه وعفته . . . الخ .

٥ . نذور ذات صلة بجسم صاحب النذر

تقول إمرأه : ' إذا شفي أبني ، يا ستي مريم العذراء ، سأزورك (في مزارك) عارية القدم' . إن نذر السير بقدمين عاريتين يمكن أن ينذر بواسطة امرأه مسلمة أو مسيحية . ويفضل مسيحيو القدس مزاري العذراء مريم ومار الياس . ويقدم المسلمون هذا النذر ، لمزار العذراء (ستي مريم) . ويفضل عمل ذلك في عيد القديس . وعموما تذهب المرأه في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الناس ، وتسير حافية القدمين إلى المزار وتصلي وتعود قبل قدوم الزوار . ويقول الحديث ' من انذر أن يمشي لمحلف ولم يستطيع أن يقوم به

فلا يجوز أن يكمل نذره مشياً . ويمكن أن ينذر المرء أن يكنس المزار بغطاء رأسه ' نذرن علي أني اكنس سيف الدين(٣٤٩) بغطاء رأسي إذ اخوي طاب '(٣٥٠) . وهو نذر للخضوع ، فرمي غطاء الرأس على الأرض ينظر له كعمل مهين .

وينذر آخرون أن يقصوا شعر الطفل المريض في مزار الولي . وينمو شعر الطفل دون قص من اليوم الذي يعلن فيه النذر إلى يوم الوفاء بذلك . وعند المسيحيين يقص شعر الطفل في الكنيسة . وفي حالة كنيسة القيامة (قبر الخلاص) يتم الوفاء بالنذر خلف قبر المسيح . ويرسم القسيس إشارة الصليب بقص ثلاث خصلات من الشعر مؤشراً شكل الصليب ، ويقوم الحلاق بإكمال المهمة . وفي الكنائس الأخرى يقترب الطفل من المذبح ، حيث يجري الاحتفال ، وتتم العملية بحضور الأقارب ، ثم تقام وليمة في البيت . وعند المسلمين يتم قص الشعر في المحراب أو عند قبر الولي . وفي ' النبي موسى ' يتم قص الشعر خارج المزار . وقد أخبرت بأن نذر قص الشعر في منطقة جنين يجري في معظم المقامات . أن عادة حلاقة الرأس أو قص شعر الرأس عند نهاية النذر هي عادة قديمة ، وتوجد لها إشارات في التوراة(٣٥١) . ويوزن الشعر في كل الحالات ، ويقدم ما يعادله من الذهب أو الفضة أو النقود للمزار وتعطى للكاهن أو القيم .

٦ - نذور لا علاقة لها بمزار أو قديس

٧- نذور للجن والموتى

لن أدع نقاش النذور قبل التنويه بالنذور المقدمة للجن والأموات ، ورغم أن هذه الفئة من النذور تختلف عن تلك النذور المقدمة إلى الأولياء ، الا أنها تظهر العديد من أوجه التشابه ، وتخدم في إيضاح بعض النقاط المهمة ، فمن الصعب أيجاد نماذج مميزة من الأضاحي المقدمة للجن والأموات كتلك المقدمة للأولياء . وعلى أي حال ، فإن مقارنة دقيقة تظهر العديد من العادات التي تنتمي لهذا الموضوع ، والمقارنة بينهما تشير إلى نفس الفكرة في مراحل مختلفة من التطور . وسأصف بعض العادات والخرافات من هذا القبيل .

أ- تقدمات للجن

إن ذبيحة الدار عند الفلاحين ، والتي توازي ذبيحة بيت الشعر(٣٥٢) عند البدو ، هي أمثلة مميزة على ذلك . وإضافة إلى ذبيحة الخليل(٣٥٣) ، هناك أنواع أخرى من أضحيات الحيوان يمارسها الفلاحون بعد إنهاء بناء البيت . ولا يسكن البعض البيت الجديد قبل تقديم ذبيحة ، لإرضاء الجن والتي أخذت مواقعها فيه ، وتلطخ واجهات الباب بالدم كإشارة خارجية للتقدمة ، ويقوم البعض بذبح خروف في أساسات البيت ، ويبادر شيخ القبيلة البدوية وآخرون إلى ذبح ذبيحة للجن حين تنقل مضاربها إلى مكان أخر ، وذلك بالقول : دستور يا صاحب المحل(٣٥٤) .

وحسب أعتقاد قديم ، يتلاشى حالياً ، فإن بعض المباني : خصوصاً الحمامات والبيوت المنشأة قرب العيون لن يحالفها النجاح والازدهار ، إلا إذا أريق دم في أساس البيت . وأكثر من ذلك ، فإنه في حالة بناء حمام تركي ، لا بد من التضحية بإنسان . وقد أكدت لي بعض العجائز بأن رأس عبد(٣٥٥) يكفي إذا ما دفن تحت العتبه . وتشهد الأمثال القائلة ' الحمام ما بدور إلا على عبد ' و ' قايم على عبده ' و ' مبني على عبد' على هذه التضحية البشرية . وقد أظهرت التنقيبات الأثرية بأن تقدمات الأساس كانت منتشرة في الشرق القديم ، ونقرأ في سفر الملوك الأول ' في عهده شيد هيل البيتيني في أريحا ، ووضع الأساس على ابنه البكر أبيرام ، والبوابة على أبنه الصغير سيغيب ' .

وعندما يُظن بأن بيتاً تسكنه العفاريت ، بسبب فقدان السكان لواحد أو اكثر من أعضاء الأسرة بالموت ، فأن أحداً لن يسكن في البيت الا بعد أن يقدم أضحية ، إذ يعتبر البيت مسكوناً بالأرواح الشريرة .

ويعتقد أن نبع ' جفنا ' مسكون بالجن ، الذي يظهر على شكل عروس جميلة . وذات مرة إقتربت إمرأه ، من نساء القرية ، من النبع ، وهي في حالة الحيض ـ العادة الشهرية ، فأثار هذا السلوك المستهتر غضب الجنيه فجف النبع . وأضطر الكاهن أن يذهب إلى المكان ويحرق البخور ، وذلك لإرضاء الجنيه(٣٥٦) .

وتنتمي لهذه الفئة ممارسة تعرف باسم ' التحلاية ' ، وتشير الخرافات بأن الجن تحب تقدمة الحلويات والسكر(٣٥٧) . ويبين المثال التالي ذلك : ضربت إمرأه إبنها على عتبة الباب ، وتسبب هذا الفعل المستهتر في عقاب قاس للطفل وأمه ، وأصيب الطفل

بالحمى ، وأصيبت الأم بشلل جزئي في وجهها ، وكان هذا من عمل الجن التي تسكن المكان ، ولإرضائهم نصحت المرأه بنثر الحلويات على العتبه .

أما المعتقد التالي فاكثر تعقيداً : أصيب طفل بالحمى ، وأخبرت المرأه بأن سبب ذلك هو 'خوفه ' ، أخذت إبنها إلى الحجر المنسي حيث غسلت يديه ورجليه ، ونثرت بعد ذلك الحلويات ثم عادت إلى البيت ، وهذا هو التفسير : الحمى الناجمة عن الخوفة تسببت بها الجن . وهكذا أخذ الطفل إلى قبر الولي وغسلت أطرافه هناك لطرد الشياطين بقدرة ولي الله . والحلويات هي تقدمة لإرضاء الجن التي يجري خداعها لأنها ستغادر مواقعها .

وفي تحليل هذه الممارسات نجد أن فكرة تقدمة شيء للأرواح ممثلة في كل واحدة منها . وقد ذكرت بعض الأمثلة فقط من كل فئة . والفكرة الكامنة هنا هي الحصول على عطف الأرواح بهذه التقدمات ، لإدخال السرور اليها والإعتذار عن الأخطاء التي أدت إلى إستثارتها . وحسب المعتقدات الشعبية فإن رد فعل الأرواح يكون بالرضى على هذه التقدمات . وتشير الكثير من الأمثال التوراتية إلى تقدمات للأرواح والجن(٣٥٨) .

ب- تقدمات للموتى

بصدد تقدمات الموتى سوف أتطرق للممارسات التي لها علاقة خاصة بموضوعنا . فأثناء غسل الميت ، يوزع الأقارب بعض النقود عن روح الميت ، وتسمى ' سقوط الصلاة ' . وفي المقبرة وعند انتهاء الدفن ، توزع النقود مرة أخرى على الشيخ الذي يردد طول الموكب كلمات ' الله اكبر' كصلاة على الميت . وعند القبر يوزع الخبز والقطين على الفقراء ' عن روح الميت ' ، ويوفر القادر تابوتاً خشبياً جديدا لنقل الميت إلى القبر ، ويترك التابوت بعد ذلك لخدمة فقراء الأموات ومساعدة الفقراء بهذا العمل ، وهي طريقة لكسب الثواب عن روح الميت .

ويتلقى المعزون القهوة في بيت العزاء ، مع قطعة من الكعك أحياناً . وبعد شرب القهوة ، يقولون عند مغادرتهم ، وأحياناً عند دخولهم ' الله يرحموا ' ، وفي الليلة الثالثة تقام ' التهليلة ' وتوزع الحلويات على المدعوين ، الذين يختارون من الطبقة العليا ومن الفقراء أيضاً ، وتتردد جملة' لا إله إلا الله ' من قبل الحضور ، حتى تصل ألفاً في

المدن وخمسا وسبعين ألفاً(٣٥٩) في بعض القرى ، وتقرأ (الختمة) القرآن ، ويوهب ثوابها لروح الميت ، وينتهي الاجتماع بوليمة ، ويقرأ الجميع الفاتحة على روح الميت ، وتسمى هذه الوليمة ' ونيسه ' في المالحة .

وفي يوم الخميس الأول يوزع الأقارب نوعاً من الفطير والزلابية لمن يأتي للمقبرة ، وتسمى ' فكة حنك ' . وفي الخميس الثاني تقام ' الخميسية ' في بعض القرى ، ويذهب جميع الأصدقاء إلى المقبرة لزيارة القبر ، ويوزع الأقارب القطين والحلويات والزبيب . . . الخ على الحضور ، خصوصاً الأطفال ، كذلك ' عن روح الميت ' . وكما في الحالات الأخرى يطلب الجميع الرحمة لروح الميت . وفي نهاية الأربعين يقام عشاء آخر . وفي خميس الأموات يرسل الفلاحون الفواكه إلى المضافة ، وفي المدن يذهب أقارب الميت ويوزعون الحلويات والبيض النيئ ، ونادراً الأكل المطبوخ ، على الفقراء كصدقة عن الأموات . وقد يرسل الفلاحون الطعام في أي وقت إلى المضافة على سبيل الصدقة ، الفقده ، الرحمة ، والكفارة . ويقدم سكان المدن الطعام عموماً إلى الفقراء في كل عيد (رأس السنه وعيد رمضان والعيد الكبير) ، في حين أن أي نوع من الأكل ، بما في ذلك الفواكه قد يرسل في أي مناسبة إلى المضافة . أنه لمن الدارج في القرى أن يذبح خروف في التهليلة ، وأحياناً في خميس الأموات .

مما تقدم نرى أن الفلاحين يفضلون إرسال ' الصدقة ' إلى المضافة ، لان جميع الزوار والمسافرين والغرباء يفدون اليها للإقامة والراحة . وكل مرة يحضر أقارب الميت الطعام إلى المضافة يقولون : هذا عن روح فلان ، وكل من يأكل منه عليه أن يترحم على الميت ، وهكذا تصلى الكثير من الصلوات لله ، ضارعه إليه الخلاص للميت .

ويقوم بعض أقارب الميت بتقديم مبلغ من النقود لشخص فقير من أجل زيارة مكة والحج عن روح الميت ، وعندما ينتهي من الطقوس الرسمية يتوجب عليه القول : 'تقبل يا الله ثواب هالحج عن روح فلان ' ، ولا تقدم ذبيحة العيدية عن روح الميت .

ويقوم بدو القبلة في سيناء كل عام بتمرير القطيع على المقبرة ، ويعتقدون بأن أي حيوان يدخل المقبرة ، أو يتوقف بالقرب منها . قد اختاره الميت ، ويذبح هناك ، وقد أخبرت بأن العديد من الخراف قد ذبحت في هذه المناسبة . ويأتي جميع البدو ، حتى الفقراء منهم ، بأغنامهم لزيارة المقبرة ، حتى يتمكن الميت من إختيار تقدمته .

ويوكل البعض شيخاً بقراءة الختمة(٣٦٠) من أجل الميت مرة واحدة أو أكثر في السنة ، وكما في حالة الحج ، عليه القول هنا أيضاً حين ينتهي من القراءة 'وهبت ثوابه لروح فلان ' .

وهناك بعض العادات سوف نغض النظر عنها . وأود على أي حال ، تأكيد ما تم ذكره مراراً ، وهو أن كل من يتلقى نقوداً أو طعاماً باسم الميت يقرأ الفاتحة ويترحم على روح الميت قائلاً ' رحمة الله عليه' أو ' الله يرحمه' .

وفي حين أن هذه العادات يمارسها المسلمون ، ويمارس المسيحيون عادات أخرى ، ترتكز على نفس المفاهيم . ولا أريد أن أصف الصلوات والقداديس على الأموات ، بأعتبارها مبادئ دينية ثابتة لدى الكنائس المختلفة ، لكنني سأقتصر على الممارسات الشعبية ، ذاكرا الممارسات التي تختلف عن العادات التي سبق وصفها .

في اليوم الثالث والتاسع والأربعين وبعد عام وستة شهور من الموت(٣٦١) تقدم ' صينية ' ووجه من قبل أقارب الميت وتوزع في المقبرة . والصينية هي عبارة عن طبق من الرز المطبوخ بالسكر ، مزينة باللوز . . . الخ .

أما الوجه فهو عبارة عن قرص كبير من الخبز (٤٠×٦٠سم) مغطى بالسمسم . ويقرأ الكاهن بعض الصلوات ثم يوزع الطعام على الحاضرين ، ويقدم معظم الناس هذا ، مرة أو مرتين في السنة(٣٦٢) .

ويقوم بعض المسيحيين بتوزيع الكعك (كعك بسمسم ، بقسماط ، أو رحمة(٣٦٣)) في عيد الأموات الأول ، ويأخذ بعض أفراد طائفة الروم الأرثوذكس بعض الخمر في هذه المناسبة ، ويبارك الكاهن الخمر ، ويعطي كل واحد كأسا ، ويتلقى الميت نصيبه أيضاً ، ذلك أن الكاهن يصب قليلاً من الخمر على شكل دائرة على القبر . وكما هو عند المسلمين ، فإن المسيحي الذي يتلقى شيئاً ، يتضرع إلى الله طالباً الرحمة للميت .

ويقودنا تحليل هذه العادات إلى النقاط الرئيسية التالية :

١- يقدم الطعام والتقدمات الأخرى باسم الميت ومن أجل منفعته .

٢- يرافق هذه التقدمات مزيج من الصلوات ، والدعوات الطيبة ، من أجل منفعة الميت .

وعند سؤال الفلاحين عن مغزى هذه العادات ، كان الجواب ، أنه إذا قدمت المساعدة للفقراء والغرباء والأطفال بإسم الميت ، وتليت على روحه الصلوات ، فان الله سيحسب هذه الأعمال لصالحه يوم الحساب . وكلما كانت هذه الأعمال أكثر ، كان لصالحه ، لأنها ستضاف جميعها إلى كفة الأعمال الصالحة في الميزان ، وبهذا تطغى على الأعمال السيئة ، وبكلمات أخرى ، ترى أن هذه الأعمال هي عبارة عن تقدمات يقوم بها الأحياء لصالح الأموات . ويعبر المثل ' لولا الأحياء لهلكت الأموات ' عن هذه الفكرة بشكل جميل ، وهي الفكرة الأساسية لتقدمات الميت ، كما سنرى ذلك لاحقاً .

إن التحري الدقيق لأهداف وغايات هذه التقدمات والصلوات ، تزيل كافة الشكوك حول طابع التضحية ، وتصبح الأخيرة اكثر جلاء إذا ما تذكرنا الكلمات التي تقال كل مرة تقرأ فيها الفاتحة والختمة ، وهي ' تقبل يا الله ثوابه عن روح فلان ' . ويمكن توضيح هذا العادات بحقيقة أن الكلمة العبرية عتار . مرادفة لجذر الكلمة العربية عتر ، والتي تعني ضحية(٣٦٤) (رأس غنم) . ان الصلوات والأضاحي متداخلة إلى الحد الذي تكون فيه كل صلاة تقدمة ، وكل تقدمة صلاه . وحتى الأمثال البسيطة مثل ' الله يرحمه ' أو ' رحمة الله عليه ' تبدو كأدعية ، تقدم من أجل الميت ، وليس مجرد تعبير مهذب(٣٦٥) .

وهناك دافع آخر لهذه العادة ، والتي أود أن ألفت الانتباه إليها ، ذلك أنها لا تربط عادة بتقدمات الموتى ، والفكرة الكامنة وراء جميع هذه التضحيات ، بما في ذلك تلك المقدمة للأولياء ، هي نفسها ، فلا الأولياء ولا الأموات يأكلون أنفسهم ، رغم أن الولائم تقدم باسمهم ، وعلى موائدهم يدعى الكثيرون ، وعندما يفرغون يتلون الصلاة على أرواح الأموات ، الذين هم مضيفوهم الحقيقيون ، وهكذا يكرم الشخص حتى بعد مماته بقيمة عليا في نظر الشرقي ، وهي الكرم .

ونجد في التوراة أمثالا موازية لعادة التضحية للأموات . ومن أكثر الأمثلة إثاره ما جاء في سفر المكابيين' وعند الاجتماع ، أرسل اثني عشر ألف دراخما من الفضة إلى القدس للتضحية ، لتقدم عن خطايا الميت للتكفير من اجل البعث ، ذلك أنه لم يكن

هناك أمل بأن الذين ذبحوا سيبعثون مرة أخرى ، ويبدو أنه من العبث الصلاة على الأموات ' .

٧- الاحتفال بالأعياد

تعني كلمة موسم(٣٦٦) : فصلاً أو بعضاً من الوقت الذي يجتمع فيه الناس للزيارة والحج(٣٦٧) . وفي الحالة التي نتحدث عنها ، فهو الوقت المخصص لزيارة المقام ، ويقال مثلا إيمتا (متى) موسم النبي روبين ، أي وقت يحتفل الناس بزيارة النبي روبين ، وحين يتحدث شخص عن الموسم في القدس والمناطق المحيطة بها ، يفهم بأنه موسم النبي موسى من الجميع . وللعديد من المقامات مواسم منتظمة ، ويجري العيد بشكل احتفالي في بعضها ، يمتد لعدة أيام في حين يكون بسيطاً جداً في البعض الآخر يمتد ليوم واحد . وفي الموسم تكون هناك أيام مخصصة للاحتفال والصلاة وتقديم النذور . ويأتي الناس من كل حدب وصوب ، زرافات ووحداناً ، للمشاركة في الاحتفالات والابتهاج والصلاة ، وختان الأطفال . . . الخ .

إن وصفاً لاحتفال النبي موسى(٣٦٨) ، من الممكن أن يعطي صورة واضحة عن الموسم ، وتشبه جميع المواسم الأخرى موسم النبي موسى في الكثير من مميزاتها ، ذلك لأن النبي موسى يتلقى الاحترام من كل المسلمين في فلسطين . ويأتي الناس للموسم من قرى جنوب فلسطين والمنطقة الوسطى ، كما يأتي الكثيرون من شمال فلسطين .

يقع المزار على مسافة سبعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من أريحا ، والى الجنوب من الطريق المؤدية من القدس إلى أريحا . ويتألف المزار من بناء كبير ذي بوابات كبيرة . ويمكن تقسيمه إلى قسمين : المزار نفسه ، والغرف المحيطة به . وتفصل الغرف عن المزار من جهات ثلاث ساحة(٣٦٩) مكشوفة مبلطة بالحجارة الرقيقة . أما المزار نفسه فهو محاط من الشمال والشرق برواقات (جمع رواق) تغطي الضريح الذي يفترض أنه يضم رفات النبي . وهناك كمية من الخرق مربوطة بحديد الشباك . وفوق شاشية الباب نقرأ نقشاً يقول ' عبد الله باشا أعاد بناء المكان سنة ١٢٣٥هـ ' . ولا يفتح المقام للجمهور الا في مناسبات معينة ، وخلال أيام الاحتفال . أما المئذنة فتقع

في الزاوية الشمالية الغربية من هذا الجزء ، وليست مرتبطة بشكل مباشر بالمزار . وهناك مسجدان ملتصقان بهذا الجزء منها ، الأول وله محراب ، أما الثاني والذي يبدو أنه تحول من إسطبل إلى مكان للصلاة فبدون محراب . ويفتح الطابق الثاني تقريباً على ردهة تطل على الساحة . وفي الطابق الأرضي هناك مطبخان ، وإسطبلات(٣٧٠) ، ومخازن وغرف لحفظ الخشب ، بالإضافة لغرف الحجاج الكثيرة .

وعلى الرغم من أن هذا البناء مبني على قمة تله ، فإن المزارين الآخرين (حسن الراعي ومسجد ستنا عايشة) يشرفان على مناظر أجمل ، فهما موجودان على مناطق أعلى . والى الشرق من البناء هناك مقبرة لدفن من يموتون أثناء الاحتفالات .

أما الأعيان الذين يُتوفون في أريحا فيتم إحضارهم إلى هنا ، وكذلك يتم إحضار رجال قبيلة العدوان ، من شرق الأردن ، للدفن في هذه المقبرة ، إذ يعتبر ذلك جالباً للبركة لهم بدفنهم قرب 'ولي الله '(٣٧١) . ولا توجد شجرة واحدة في المكان ، ولكن هناك آبار كبيرة(٣٧٢) لجمع مياه الأمطار للاستعمال خلال الأعياد . ويبدو أن هذه الآبار تعود لفترة أقدم من البناء ، وهناك من يفترض بأنها آبار دير القديس أيوثيموس(٣٧٣) . ويعتقد الناس أن الآبار تمتلئ بطريقة معجزه ، إذ يملأها النبي موسى بإرساله المطر . ويقوم المزار على هضبة من الحجارة الكبريتية التي تشتعل بسهولة وتنبعث منها رائحة إسفلتية ، ويعتقد الناس بأن هذه العلامة الطبيعية ، والتي لا توجد في مزار آخر هي دليل حاسم على عظمة النبي ، وقد اصبحت جملة ' ناره من حجارة '(٣٧٤) مثلاً ، ولم اسمع القول الذي أورده سبوير حول هذا الحجر الكبريتي(٣٧٥) ، والذي يكون أبيض من الخارج (مثل ملاك الضوء)(٣٧٦) ، وأسود من الداخل (مثل ملاك الموت)(٣٧٧) .

ويبدأ الاحتفال يوم الجمعة التي تسبق الجمعة العظيمة عند الروم الأرثوذكس(٣٧٨) ، وينتهي يوم الخميس . وتسمى الجمعة جمعة النزلة ، والجمعة التي تسبقها ' جمعة المناداة ' ، أي جمعة الدعوة للموسم . ويبدأ كل من ينوي المشاركة في عملية التحضير ، ويجتمع الأصدقاء والعائلات ويتحدثون عن خططهم ، ويشبه هذا من بعض الوجوه التحضير لعيد الفصح عند اليهود . أما يوم الخميس ومساءه فيسميان ' ليلة الوقفه '(٣٧٩) . ويسمى الخميس التالي ليلة الشيل (المغادرة) .

وقبل أن نصف بداية موكب الاحتفال ، يجب أن نلفت الانتباه إلى حقيقة وجود ستة جُمع في هذه الفترة تتفاوت في أهميتها ، ويشكل إحتفال النبي موسى نواتها ، وهذه قائمة(٣٨٠) بأسماء الجمع ، كما هي معروفة في محيط منطقة القدس ، وتحمل بعض هذه الجمع أسماء أخرى في أماكن أخرى :

ترتيب الجمع	بالمقارنة مع عيد الفصح اليوناني الشرقي	الأسماء فى القدس والمناطق المحيطة	الأسماء عند البدو والفلاحين
الأولى	١٤ يوماً قبل الجمعة العظيمة	جُمعة المناداة	خميس أو جمعة النبات
الثانية	٨ أيام قبل الجمعة العظيمة	النزلة البيرق السداري	خميس الأموات أو خميس البيض
	خميس الغُسُل	خميس الطلعه يوم الشيل	المُغره
الثالثة	الجمعة العظيمة	العلمات	أو الحيوانات
الرابعة	٨ أيام بعد الجمعة العظيمة	الرغايب الحلاوي(٣٨١) الجمعة الطويلة	
الخامسة	١٤ يوماً بعد الجمعة العظيمة	الغُربا	
السادسة	٢١ يوماً بعد الجمعة العظيمة	الحزانا	

يبدأ الموكب بإحضار ' علم النبي موسى ' من المكان الذي يحفظ فيه طوال العام ـ الدار الكبيرة ـ التي يمتلكها آل الحسيني ، إلى الغرب من الحرم ، في الشارع الذي يربط باب الحبس مع شارع خان الزيت . ويجتمع هناك الأعيان ورجال الحكومة . ويُقدم

العلم إلى المفتي على طبق ، وبعد قراءة الصلوات ، يرفع العلم على السارية . والعلم ، نفسه ، مصنوع من المخمل الأخضر ، ومطرز بخيوط الذهب ، ومقاسه ٢٠٠سم×١٤٠سم . وقد خيطت عليه قطعة من الحرير الأسود في مركز كل جانب منه وعليها كتابة . ويربط العلم على ' زانة ' في قمتها هلال ذهبي .

وفي العهد العثماني كانت ترافق الموكب فرقة موسيقى ، وفرقة من حرس الشرف عند تحركه ببطء من مسجد عمر ، ليدخل باب الحبْس (أو باب علاء الدين البُصيري) . وبعد صلاة الظهر يتحرك الموكب من الباب نفسه ، وليس من باب حطة كما ذكر سبوير(٣٨٢) . مع أن جزءا ' كبيرا' من الحشد الذي يحضر الحفل يخرج من بوابات أخرى . ويخرج الموكب بقيادة ' المفتي ' الذي يحمل العلم ، وبطانته ، ثم يركب القادة الخيل عند ' باب ستي مريم ' ويتحركون ببطء عبر طريق الآلام . وتعج الشوارع والشرفات بالمتفرجين ، ونرى الناس واقفين على جنبات الشوارع عند مرور الموكب . ولكثرة عدد الشماسي التي يحملها الناس ، سمي اليوم بعيد الشماسي (شمسية ـ مظلة) . ويجتمع الشباب ليغنوا ويرقصوا في حلقات الدبكة ، وترتفع أعلام عديدة ، أحضرت من العديد من المزارات والقرى المجاورة . وكل علم له تابعية ، ونرى أعلام الشيخ عاطف(٣٨٣) ، الشيخ قزاز(٣٨٤) ، علي الشريف(٣٨٥) (قيم الخضرا ـ نابلس) ، علم من النبي صمويل . . . الخ . ودائماً نجد علم مسجد عمر ، والنبي داوود في الموكب .

وتستمر مرافقة موكب النبي موسى حتى يصل الموكب رأس العمود ، ويتقدم الموكب ببطء بعد ساعتين إلى ثلاث ساعات . وعند رأس العمود يكون في إستقبال الموكب رئيس بلدية القدس وأعضاء البلدية للترحيب . وتدعو البلدية الضيوف بهذه المناسبة ، وتقدم لهم المرطبات . وبعد ذلك يطوى العلم ، وتستمر المسيرة بالسيارات والعربات . ويسير آخرون وراء الموكب ، ويعود القسم الأعظم من الناس إلى القدس .

وفي كل يوم من أيام الإحتفال تتزايد أعداد الناس ، وهم يأتون على الوجه(٣٨٦) التالي :

الوصول	المجموعة	الرحيل
الخميس	أصحاب المقاهي والتجار	الجمعة بعد ٨ أيام
الجمعة	خدم النبي وبعض التجار	الخميس
السبت	قبيلة العدوان	الاثنين أو الثلاثاء
الأحد	أعلام القدس (عاطف ، القزاز . . الخ)	الخميس
الاثنين	الخلايْلة ، وأعلام شباب القدس وشباب نابلس	الأربعاء
الثلاثاء	بدو الديوك	الأربعاء
الأربعاء	سكان أريحا	الأربعاء

أن الشخص الذي يأتي خلال النهار يسمى صباحي ، بينما الذي يأتي ليلاً يسمى 'بياتي' ، ويغادر أهل الخليل بلدهم يوم السبت ويخيمون في البقعة ، جنوب غرب القدس . وفي اليوم التالي يدخلون القدس من باب يافا في موكب كبير وهم يغنون ويرقصون ويلعبون السيف والتُرس .

ويقف جمهور كبير لمشاهدة الحدث . ثم يواصلون مسيرهم داخل المدينة القديمة حتى الوصول إلى الحرم من باب المحكمة . ويقضون الليل في ساحة المسجد ، ويغادرون المكان في الصباح الباكر في طريقهم إلى المزار . وكلما اقتربوا من قرية أرسلوا 'رجاد ' ليعلن قدومهم ، ويستقبلهم الناس بالأعلام والعدة ، ويستضيفونهم ، وتغادر السيارات القدس إلى النبي موسى وسط الضجيج والموسيقى ويتقدم الموكب العلم . وعندما يصل الموكب الجثمانية ينشرون العلم ، ويسيرون ببطء وهدوء . وحالما يقع نظرهم على المزار يعيدون تنظيم صفوفهم ويرفعون العلم وينتظمون في الموكب الرسمي مرة أخرى .

ويبنى الناس القناطر(٣٨٧) (أكوام الحجارة على الطريق) ، ويقرأون الفاتحة . وعندما يصل درويش إلى المزار ، يرسل من يعلن قدومه ، ليستقبله الدراويش الموجودون هناك من قبل . ويسمى الرسول : النجاب . ويربط سيدُهُ منديلاً حول رقبته ، ليفكه الشيخ الذي يستقبله في المزار ، ويأتي مع الشيخ الذي سيرحب به في المزار . ويجري النجاب مباشرة إلى المقام وهو يدق 'النقارة' ـ آلة موسيقية صغيرة تشبه الدف . ويهب الدراويش ، من الطريقة التي ينتمي اليها ، لاستقباله ، ويقوم شيخهم بحل المنديل المربوط على رقبته ، ويقرأ الفاتحة . ويأمر الشيخ بتجهيز السيارات والعدد (جمع عدة) لاستقبال القادمين الجدد .

وتبدأ الزيارة لمقام الراعي ، ثم يتوجه الموكب إلى النبي . وعندما يصل الموكب إلى الساحة الخارجية يسير الجميع ببطء بينما يزداد الحماس . ويطلق الرجال الرصاص لبث الحماس والإعلان عن القدوم . وهذه العادة لم تعد مسموحة .

ويتم ترتيب الموكب على النحو التالي : يسير حامل العلم في المقدمة ، يتبعه الموسيقيون ، ثم يسير الشباب وهم يحيطون بقائدهم ويغنون ويرقصون على إيقاعه . ويهزج القائد ويردد الآخرون ، بينما يلوح القائد بسيف أو عصا أو منديل محدداً الإيقاع . ويصفق الحاضرون في سحجة جميلة . وهذا التصفيق نراه في مناسبات الأفراح ، ولا يمل الممثلون والجمهور من هذه المتعة البسيطة المعروفة في كل العالم(٣٨٨) . ويستمر المسير حتى يصل الجميع إلى المقام . ويرحب الناس بالقادمين عن طريق إطلاق الزغاريد والأغاني القصيرة .

إنه لمن الأهمية بمكان ملاحظة أن الوصف السابق لهذا الموكب يشبه من نواحي كثيرة المواكب الممتعة الموصوفة في التوراة ، فالأغاني والرقص وتصفيق الأيدي وإستعمال الأدوات الموسيقية بمشاركة جميع الطبقات ، هي نفسها اليوم ، كما كانت قبل آلاف السنين ، والوصف الوارد في (حزقيال ٢٥) يشبه إلى حد كبير رقصة السحجه ، التي سنأتي على وصفها لاحقاً ' تصفيق الأيدي وضربات الأقدام وفرح القلب ' .

إن أهم أنواع الرقصات الشعبية هي السحجة والدبكة . ومن أنواع الدبكة : الطيارة ، الشمالية ، الْعرْجة ، الفْتُوحية ، الْقرادية ، السْبْعاوية ، والمثْلُوثة . ويصاحب هذه الرقصات التصفيق بالأيدي وضربات الأقدام . وكذلك هناك لعبة السيف والتُرس ويكون

كل شخص مسلحاً بسيف وترس صغير في وسط الحلقة ، حيث يقوم المشاهدون بالتصفيق والغناء . ويحاول كل من حامل السيف والترس أن يقلد لعبة الحرب ، مهاجمين ومتراجعين ، وقوفاً وركوعاً على ركبة واحدة ، ملوحين بسيوفهم ومتمايلين ذات اليمين وذات الشمال . وبين فترة وأخرى يضرب الواحد من اللاعبين سيفه على درعه أو على ترس اللاعب الآخر . وتكون ضربات السيف ذات إيقاع منتظم .

وسيجد القارئ بعض نصوص الأغاني المرافقة لهذه الرقصات في مكان آخر .

الآلات الموسيقية المستعملة :

طبْل

كاسْ ـ كاسات

مزْهرْ

شبابة

أرْغول

ناية ـ نايات (زمارة طويلة)

زماره

مجْوز

دربْكه

نُوبة (طبل كبير)

أما اللحن الصادر عن الطبل والكأسات فيحمل معنى ، مثل :

الله ، الله ، الله حي

دايم ، دايم

قيُوم ، قيُوم

في حالة الله لوحدها يحمى الطبل ، وتنقل الواحدة ببطئ إلى الأخرى ، ويقدم المقطع الأخير بنقره قوية ، والأعلام هي من القماش الأخضر والأبيض والأحمر بآيات قرآنية ، واسم الولي التي تعود له ، ثم اسم الله . وتطرز الأسماء بخياطة شرائط ملونة من القماش على العلم نفسه .

ومن الكتابات على الأعلام :

١- علم النبي موسى — لا اله إلا الله محمد رسول الله

٢- الجهة الاخرى (من العلم) — وكلم الله موسى تكليما ١٣٠٩

٣- علم بيت سوريك — باسم الله الرحمن الرحيم
نصر من الله وفتح مبين
مددك يا سيدي احمد البدوي

٤- علم الشيخ جابر النعناع — لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الحياة
ان لم اكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

٥- علم آخر لنفس الشيخ — لا اله إلا الله
بسم الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله محمد رسول الله
سيدي احمد الرفاعي ولي الله
قد نشر الله سره العزيز

٦- شوهد في احتفال النبي روبين — أبو بكر عمر
لا اله إلا الله ومحمد
رسول الله
علي عثمان

٧- علم الشيخ أحمد الفالح — أبو طلحة سعد
جدده الفقير احمد
الفالح خليفة الحضرة
الأحمدية
زُبير سعيد

٨- علم آخر لنفس الشيخ — بسم الله الرحمن الرحيم
وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم
يكن له شريكا في الملك ولم يكن له ولي

٩- شوهد في روبين (١٩٢٤) — أبو بكر عمر
بسم الله الرحمن الرحيم
لا اله إلا الله ومحمد رسول الله
وإذا عزمت توكلت على الله
سيدنا الخضر عليه السلام
عثمان علي

لوحة ٤

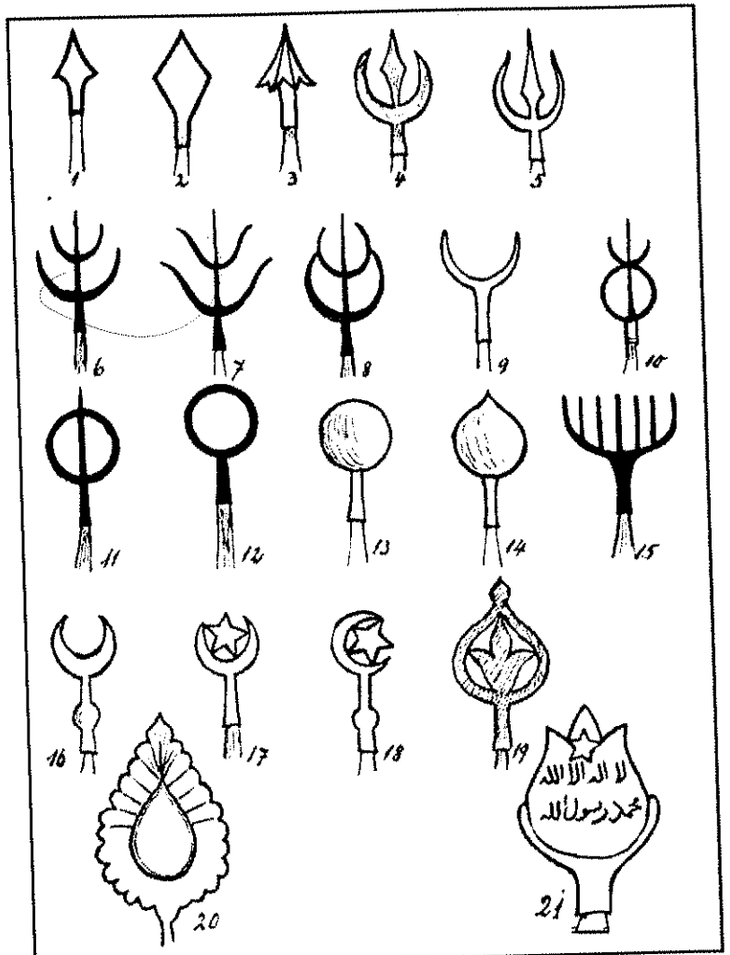

يكون في نهاية العمود (الزانة) الذي يربط به العلم ، قطعة معدنية مصنعه على شكل هلال ، مبينة في لوحة الأشكال ، ويمكن تقسيمها إلى المجموعات التالية :

١- تمثيل شكل رمح ، رقم ١ و ٢ و ٣ .

٢- تمثيل شكل الكف (رقم ٦-٧) ، ويمكن أدراج رقم ٨ في هذه المجموعة .

٣- أشكال مختلفة تمثل تطور القمر (رقم ٤ ،٥ ،٩ ،١٠ ،١٦ ،١٧ ،١٨ ،٢٠) . أما الأشكال (رقم ١١ ،١٢ ،١٣ ،١٤) ، والتي تبدو على شكل دائرة أو حلقة فيمكن تصنيفها تحت المجموعة ، رغم أنه يمكن تفسيرها كتمثيل للكرة الأرضية .

إن هذه الإشارات دارجة في الخرافات الشعبية ، ونجدها في التعاويذ السحرية والطب الشعبي(٣٨٩) .

نجد العدة في بعض القرى ، والتي يؤتى بها عند زيارة النبي موسى ، ومن هذه القرى : بيت اكْسا ، النبي صمْوئيل ، بدو ، بيت عنان ، بيد دقو ، بيت سُوريكْ ، أبو غوش ، العيسوية ، سلْوانْ ، الدْيوك ، أريحا . . . الخ . واخبروني بأن قبيلة العدوان ، وقبيلة الكعابْنه لا تُحضران العدة أو العلم معهما .

إن خدام النبي الذين لهم وظائف معينة يقومون بها في المقام ، وهم من أتباع عائلات : الحسيني ، يونس ، قليبو ، وبزْبزْة ، وليس لهؤلاء دور كهنوتي(٣٩٠) ، كما يذكر كورتيس ، وليس لهم أي مسحة دينية . ولكل من أتباع العائلتين الأولى والثانية مطبخ ، حيث يتم أعداد كميات هائلة من الطعام لتوزع على الزوار مرتين يومياً . ويحمل أتباع عائلة قليبو الأعلام ، أما المؤذن فهو من عائلة بزْبزْة ، وهو الذي يشرف على إضاءة المقام . ويقوم مفتي القدس ، بقيادة الموكب . ويفتخر كل من هؤلاء بخدمة كليم الله .

وفي كل يوم يتم طبخ قنطار (٣٠٠ كغم) من اللحم تتبرع به عائلة الحسيني ، كما يقدم آل اليونس عدداً مماثلاً . ويطبخ اللحم في قدور ضخمة تعود إلى المقام . ويجهز مقدار كبير من 'الرز المفلفل' . وتطبخ اليخْنة ، وهي يخنة الفول والبصل والملوخية والباذنجان وهي أهم الأطباق ، واليخنة طبيخ من الخضروات واللحم والسمنه . وتحضر

يومياً وجبتان عامتان : الغداء والعُشاء . وعندما ينتهي الطبخ يأتي كل واحد ليأخذ نصيبه ، ويتجمعون عموماً على شكل مجموعات صغيرة ويقوم واحد عنهم بتلقي الطعام . ويقدم الخبز أيضا . وتقف الجموع بأنتظار توزيع الطعام ، كل يحمل وعاءه وهم يتدافعون عند التوزيع . وبعض الناس يأخذون حصتهم ' خرْج ناشف' ويطبخونها على حدة بواسطة أدوات المقام ، التي يقدمون رْهناً من أجل التأكد من إعادتها .

وتذبح الأغنام خارج المزار ، على طريق العربات ، وكذلك يفعل من ينذر ذبيحة للنبي ، ويقال عند الذبح :

* منك وإلك ، أجرْ وثواب لسيدنا موسى .

* تقبل نذرك يا كليم الله .

وأما اللحم فيوزع على الحاضرين عند الذبح ، أو يرسل لمطبخي المزار ، ويقدم للزوار . وفي العادة ، فأن صاحب الذبيحة يحتفظ بجزء طيب منها لنفسه وأصدقائه . والنفقات الكبيرة لأيام الاحتفال السبعة ، مع ذلك ، تغطى من الدخل الكبير لأوقاف النبي .

وتغص الغرف والساحة ، والمنطقة الواسعة المحيطة بالبناء بجماهير الزوار . ويكون هناك منظر مثير للاهتمام : وجوه مختلفة ، وأزياء ، وعادات والعاب ، ومميزات أخرى لذلك الحشد العظيم . ونرى فلاحين وأشباه بدو وبدواً يختلطون بسكان القدس ونابلس والخليل . ومن السهل على الدارس أن يميز بين كل هؤلاء الناس . وباستثناء نساء المدن اللواتي يبقين في الغرف معظم الوقت ، أو يقفن على الشرفات المفتوحة للطابق الثاني ، فأن كل الزائرات من النساء يشاركن الرجال في احتفالاتهم ، ويختلطن بهم بصورة مستمرة . وكلهن يظهرن بأجمل الملابس التي تمثل كل ألوان الطيف الشمسي . ويصل عدد الحجاج إلى رقم كبير ، ويبلغ العدد الذروة يومي الاثنين والثلاثاء ، وبعد ذلك يغادر الناس ويبدأ العدد بالتناقص . وقول كيرتس بأن ١٥٠٠٠ نسمة يزورن الاحتفال مبالغ فيه . وعندما ينتهي الاحتفال فان المكان يصبح مهجوراً ، ويبقى هناك حارسان طوال العام . وفي الوقت الحاضر ، فأن أحدهما هندي عينته أسرة الحسيني ، وأحمد يونس عينته أسرة يونس(٣٩١) .

إن جزءاً كبيراً من الزوار يقيمون في الغرف المختلفة ، وبعض العائلات تملك حقاً موروثاً في غرفة معينة تحفظ لها . والأجانب تتم دعوتهم من قبل العائلات التي تخدم المقام ، وتجهز الإقامة المريحة لهم . ولكل عائلة صالون يتم فيه الترحيب بالزوار(٣٩٢) . وتقدم القهوة والليموناضة والسجاير . إن صالون آل الحسيني يشرف على الساحة وعلى نشاطات الجمهور ، ويقوم العديد من الزوار بإحضار الخيام التي تنصب على التلال . ويخيم البدو في بيوت الشعر . ويمثل وصول ورحيل البدو منظراً خلاباً ، فالجمال التي تحمل بيوت الشعر تكون في العادة مزخرفة بشكل تفصيلي ، وتحمل النساء والأطفال على ' الهوادج ' .

ومن المبهج أن تسير في المخيم مساءً ، فكل الخيام مضاءة ، وغالباً ما يتم ذلك بالشموع التي تكون منذورة لهذا الغرض . ونسمع صوت العود ، وصوت المغني الذي يصاحبه في إحدى الخيام ، بينما تستمع الجماعة بأنتباه شديد ، معبرة عن استحسانها من وقت لآخر بقولها : الله ! وفي خيمة أخرى نرى الناس يستمعون إلى الحكايات ويشربون القهوة ويدخنون الأرجيلة . ونرى الكثيرين يتجولون بين التلال .

ومن الطبيعي أن يجتذب مثل هذا الجمهور كل أنواع التجار ووسائل التسلية . وتجد باعة الحلويات ، والسكاكر ، والفواكه المجففة ، والمناديل ، وأحزمة القماش ومواد أخرى مثل الزجاج ، والأساور المذهبة ، والخواتم والسلاسل ، والخرز ، والفخار ، والحجابات ، والتبغ ، والكبريت ، والشموع ، وأشياء أخرى . وفي حين يضع التجار بضائعهم على رفوف خشبية مؤقتة ، يضع آخرون بضاعتهم على قطعة من القماش على الأرض (مبسط) ، وعلى مدار النهار وحتى الليل يحاول الكل جاهداً أن يتفوق في الصوت على جاره مطنباً في مدح بضاعته . كما يمكن شراء الذبائح للأضحيات من المكان خارج الساحة .

وخارج بناء المقام توجد المقاهي المصنوعة من الخيام ، وفيها تتوفر الكراسي الصغيرة الواطئة لجلوس الزوار . ويمكن للمرء أن يطلب القهوة والليموناضة والأرجيلة . ومن الممكن أن يجلس المرء في هذا المقهى ، خصوصاً في الأماسي ، ويراقب النشاطات العامة ، بينما يمكن الاستماع إلى الفونوغراف يعزف ألحاناً رتيبة . ويجلب انتباه المارة مسرح قراقوز (خيال الظل) ، إلى الدخول . ويجذب ' صندوق العجب ' البدو والفلاحين والأطفال ـ وهو صندوق مكعب مزخرف من الخارج بالأجراس والمرايا ،

وكرات الزجاج ، والصور والأزهار ، ويوضع على كرسي صغير . ومن الأمام هناك الفتحات التي يتفرج منها المتفرجون على الصور التي تدور على بكرة بحيث يتابع المشاهد من خلالها القصة ، التي يرويها صاحب الصندوق ، بسرعة ورتابة . وكذلك من الممكن أن يقضي المرء وقته بلعب الورق أو الطاولة .

ويجري سباق الخيل في الميدان ، ويلعب الرجال الجريد وهم ركوب على الخيل أو واقفون على الأرض . ويتبارى اللاعبون لإثبات القدرة على رمي الجريد لمكان أبعد . ويحاول أبناء المدن والفلاحون أجراء السباق مع البدو ، الذين يكون لهم الفوز غالباً .

وفي لعبة أخرى ينقسم اللاعبون إلى فريقين ، ويقوم بدوي من الفريق الأول بالإمساك بلجام حصانه ، ويحمل بندقيته باليد الأخرى ، ويطرد فرسه بأقصى سرعة ، ويحاول أن يسقط بخصمه من الفريق الآخر أو يقطع طريق تراجعه . وإذا نجح في ذلك ، فان خصمه يصبح أسيراً . ولكن إذا تم الإمساك به أو لمسه خصمه ، فعليه أن يذهب مع آسره . ويحاول باقي الرجال من الفريق الذي ينتمي اليه الأسير أن يحرروا رفيقهم ، وذلك بالاندفاع نحوه ولمسه .

لا ينبغي علينا إغفال الشعائر الدينية في هذه الأيام ، فعندما يدعو المؤذن إلى الصلاة ، فإن معظم الناس يلبون النداء ، وليس مهما أين يصلون سواء في المقام أو الجامع ، في أحد الغرف أو في خيمة خارجة ، ومن وقت لآخر يقام الذكر ، إذ يقوم رجل ذو صوت جميل ، بتلاوة القرآن وترتيله . ويظل الحاضرون صامتين ، فلا حديث ولا تدخين ولا شرب قهوة . وقد حضرت بنفسي احدى حلقات الذكر ولاحظت كم هو لطيف جداً أن ترى كيف ينصت الجميع بخشوع .

وتكثر عمليات الختان في هذه الأيام ، في هذا المكان المقدس . ويقوم الناس بإلباس الطفل الذي ينوون ختانه بملابس حريرية ، ويزينونه بالسلاسل الذهبية والأزرار . . الخ ، على قدر ما يسمح به مركز والده . كذلك يوضع حجاب ، مشخص ، حجر الشب ، والتعاويذ الأخرى لرد العين والنفس الحاسدة ، بإعتبار أن الطفل ، في مثل هذه الحالات ، يقع تحت تأثير القوى الخارقة(٣٩٣) . ويقوم أقارب الطفل والأصدقاء والجيران بالطواف حول المبنى بمصاحبة الطفل المختون ، والتي تبدأ عند أحد زوايا المبنى . ويتم استئجار فرقة موسيقية ، وتزغرد النساء . وأما الطفل الذي لا يعرف ما ينتظره فيكون مسروراً بالموكب ، وعندما يصل الموكب باب المقام ، يرتفع صوت

المغنين والعازفين ، ويتم ختان الطفل وسط ضجيج الموكب . ولا تستعمل مواد مطهره ، كما لا تؤخذ احتياطات ، وتُختن أعداد كبيره من الأطفال بنفس السكين ، ولهذا السبب تتلوث بعض الجروح وتسبب آلاماً كثيرة . ويتمتع الحاج احمد الحلاق وأولاده بسمعة كبيرة في الختان ، ويجري التغلب على صراخ الأطفال بالموسيقى . ويأخذ الحلاق أجرته ، التي تعتمد على قدرة وكرم والد الطفل ، وتتراوح بين مجيدي وجنيه ، وتسمى المبالغ المدفوعة إكرامية . ويجري ختان بعض أطفال الفقراء مجاناً ، وذلك ' كأجر ' لان الحلاق يعتقد بأن النبي سيباركه في الدنيا والاخره على عمل الخير هذا . وبعد انتهاء الحفل يوضع مسحوق النباتات البرية مع ' زيت ' المقام ليشفى الجرح ، ويعتقد البعض بأن الأخير هو العلاج الأفضل . وفي الوقت الحاضر يستعمل الحلاق مسحوقاً جافاً مطهراً .

إن غالبية الأغاني التي تتردد في إحتفال الختان ، وأثناء رقصة السيف والترس لا علاقة لها بالنبي موسى ، بل هي أغان عامه تستعمل في كافة المناسبات . وتنشد الكثير من المدائح النبوية في هذه الأيام . وهنا بعض الأغاني المرتبطة مباشرة بالنبي موسى :

يا زوار موسى(٣٩٤)

سيروا(٣٩٥) بالتهليل

وزرنا النبي موسى(٣٩٦)

عقبال الخليل(٣٩٧)

***

ويا زوار موسى

زوروا بالعدة

زرنا النبي موسى

مكتوب بالمنديل عقبال الحجة

***

وزرنا النبي موسى

عقبال الخليل

وشعرك يا موسى

سايل ع القنديل

***

يا زوار موسى

زوروا بالدرقة(٣٩٨)

وشعْرك يا موسى

حرير في ورقة

***

يا زوار موسى

زوروا بلعْلام (بالأعلام)

وزرنا النبي موسى

وعليه السلام

***

ويا زوار موسى

طحْتو سالمين

ويا زوار موسى

تردوا سالمين

***

وعلى بير زمزم اتوظى النبي(٣٩٩)

وببريق فظه وشمع ينظوي

***

وعلى بير زمزم اتوظى الرسول

وببريق فظه وشمع وبخور

***

ويلي بنبيتك يلا نبي

وفي جناب بيتك عشعش المصطفى

***

وكوني هوينة يا نجوم السما

كوني هنية يا طريق النبي

وزبدة طرية تحت اجرين الزوار

***

ومسيك بالخير يا موسى ابن عمران

ويللي تقوم(٤٠٠) من منامك تشبه الغزلان(٤٠١)

***

العرس ما هو فرحة

ولا طهور الصبيان

ما فرحة إلا زيارة موسى(٤٠٢)

عليه الصلاة والسلام(٤٠٣)

***

لولاك يا موسى ما جينا ولا تعنينا

ولا دهسنا الحصى ولا الرمل بجْرينا

***

مسيك بالخير يا موسى يا بن عمران

يا ساكن الغور وبلاد حوران(٤٠٤)

***

ومن الأقوال القصيرة المرتبطة بموسى :

يا ابن عمران حرك الميزان

حروة(٤٠٥) النبي موسى

تمر النبي موسى

بخور النبي موسى

ويصرخ بعض الشحاذين دائماً :

أنا إلي ع سيدي الكليم

كعكة ومعمولتين

وبالألعاب والأغاني والاحتفالات يمر أسبوع الموسم ، هنا في النبي موسى بطريقة سلسة ، ويمكن إعتباره أحد أهم الأعياد العائلية عند المسلمين في منطقة القدس . يلعب دورا هنا أيضا ، النبي روبين ، والنبي صالح ، وعلي بْن عليمْ ، والحسن والحسين ، كل في منطقته . ويشترك في الاحتفالات الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، والفقراء والأغنياء . وكل طبقة في المجتمع تجد فيه وسيلة التسلية . ويجد باحث الفولكلور فيه فرصة ثمينة لدراسة التمايزات القبلية والعادات والأزياء والخرافات . . الخ . لقد زرت النبي موسى ثلاث مرات خلال الموسم ، وقضيت الليل هناك مرتين . كما زرت المقام وما يحيط به مرتين خارج أيام الاحتفال .

وفي يوم خميس الغسل تجري العودة الرسمية من المكان مع حمل علم النبي . ويكون أغلب الناس قد عادوا إلى بيوتهم(٤٠٦) . وحالما يصل السداري رأس العمود ، يبدأ الموكب من جديد . ويشارك حملة الأعلام وأصحاب العدد باستقباله . ونرى البيارق والفرق الموسيقية للشيخ القزاز ، عاطف ، أبو ماجد ، حسن من العيزرية وغيرها من القرى بأعلام النبي داهود والحرم ، وشباب القدس ونابلس والخليل . ونرى حشداً عظيماً من الناس مع تحرك الموكب . ونشاهد العزف الموسيقي ورقصة السّيف والترس . ثم تعاد أعلام النبي موسى والنبي داهود إلى المكان الذي تحفظ فيه نما تبقى من العام .

ولكن نهاية هذا اليوم لا تعني نهاية موسم النبي موسى . ففي يوم الجمعة يشهد محيط الحرم جمهوراً يحتفل بما يسمى ' زفة العلمات ' ـ موكب الأعلام . إذ يحمل علم الصخرة وعلم الرسول ، بعد صلاة الظهر في موكب كبير من الأقصى إلى الصخرة . وتتولى المهمة عائلة القطب . وتتوقف المسيرة عند الكأس . وأما الزيتونه الواقفة إلى جوار الكاس والمسماة ' زيتونه النبي(٤٠٧) ' ، فأنها تصبح في ذلك الوقت مفعمة بالحياة . وتربط الأعلام تحت الشجرة ، وتنحني فروعها لتحية تلك الأعلام حسب الاعتقاد . ويقوم بعد ذلك ممثل عائلة القطب بإستلام العلم على المنبر ، ويلفه في قطعة من قماش الحرير (بقجة) . ويأخذه إلى مكانه في الصخرة ، حيث يعلو حماس المشاركين . ولا تجري في هذه المناسبة الرقصات أو لعبة السيف والترس ثم يغادر زوار النبي موسى القدس ، وتغادر ' العدد ' في طريقها إلى القرى ، وكلما مرت بمقام ولي أدت التحية ، وقرأ الناس الفاتحة ، وتغني الفرقة وتخفض البيارق احتراما له ، ويتوقف الموكب ، ويعتقدون أن ذلك يحسب لهم كأجر .

ومن المواسم الأخرى في فلسطين :

اسم الولي	المكان	تاريخ الاحتفال
١ . النبي صالح	دير غسانه	جمعة العلمات
٢ . النبي صالح	الرمله	الجمعة التى تلى جمعة العلمات
٣ . النبي أيوب	ويسمى ابريه أيوب عند الجورة	الثلاثاء وبعد ظهر الأربعاء من أسبوع النبي موسى
٤ . الحسين	قرب الجورة	أربعاء النبي موسى
٥ . النبي عنير	بني حارث	جمعة العلمات
٦ . علي بن عليم	شمال يافا	خلال موسم البطيخ (موسم الحرم)
٧ . النبي روبين	نهر روبين ، جنوب يافا	فى الشهر القمري الذي يقع في آب / أيلول

٨ . النبي أيوب	رأس ابن سمحان	أربعاء النبي موسى
٩ . النبي كفْل	قرب دير طريف Wilhelma	١٤ شعبان
١٠ . الخضر	اللد يعرف بعيد لد	
١١ . الخضر	حيفا ـ الكرمل	
١٢ . الزرقاء	ينبوع بين دير غسانه وعابود	مع عيد لد (٤٠٨)
١٣ . الشيخ اعْمرْ	بيت دقو	جمعة العلمات
١٤ . إبراهيم الخواص	دير غسانه	خميس الطلعة(٤٠٩)
١٥ . الخضرا	نابلس	عاشورا

وفي إحتفال النبي روبين يتجمع الناس بأعداد كبيرة عند النهر الذي يحمل اسمه . ويمتد الاحتفال طوال الشهر الذي يبدأ من أول الشهر القمري في آب ، حيث يؤمه الزوار . ويزيد عدد زوار النبي روبين(٤١٠) عن زوار النبي موسى حيث تنشأ المقاهي ومحلات الباعة ، ويمتلئ السهل حوله ، وخاصة في الجهة الشمالية الغربية من النهر بالخيام . ويأتي الحجاج بشكل رئيسي من يافا واللد والرملة والقرى المجاورة . ومن المناظر الجميلة مشاهدة قافلة صغيرة من الجمال تحمل عائلة بأكملها مع تجهيزاتها الضرورية للموسم . أما المزار نفسه فهو بناء صغير ، يضم الضريح (٧٥ ،١سم×١م) ، وهناك غرفة صغيرة إلى الشرق منه ، ورُواق بثلاث قناطر تفتح شمالاً ، ومحراب . وهناك مئذنة . والبناء محاط بسور يضم بعض الأشجار أيضاً .

إن موسم ' النبي روبين ' وموسم ' علي ابن عليم ' هما مكان الاحتفالات الصيفية لسكان السهل . ويقال أن المرأه اليافاوية المسلمة تحرص على الذهاب إلى روبين وتقول لزوجها :

ـ يا بتْروبني ، يا بتطلقني .

أي إما أن تأخذني إلى موسم النبي روبين وأما أن تعطيني حريتي (بالطلاق) .

وهناك عدة احتفالات محلية تتصل بالمزارات الصغيرة ، ففي يوم الجمعة (اليوم الأخير من عيد النبي موسى ـ جمعة العلمات) ، فإن الغالبية العظمى للمزارات الصغيرة ، في

القرى تتم زيارتها . وفي ساعات ما بعد الظهر يقضي الناس الوقت في الحقول حول المزارات ويقدمون النذور .

وفي بعض المناطق مثل نابلس ، فإن معظم المزارات الكبيرة مثل الخضْرا ، تتم زيارتها في ليلة عاشورا ، وفي اليوم التالي تتم زيارة المزارات الأقل أهمية مثل : ' الشيخ محمد السبْتي ، الشيخ محمد السفاريني ، الشيخ محمد البقاني ، الشيخ محمد العقرباني ، الشيخ محمد البخاري' . وتقع كل هذه المزارات في المقبرة الشرقية .

وهناك عادة منتشرة في فلسطين بين المسلمين يمكن وصفها في هذا السياق ، ولا يوجد عندي شك بأنها توجد حيث يعيش المسلمون وهي مهمة لسببين :

١- فهي أعياد شعبية للنساء .

٢- تظهر علاقة الإحياء بالأموات .

إن كتب الدين الإسلامية تحض على زيارة الموتى ، وحسب (راجي الفلاح)(٤١١) فإن الأموات يعون هذه الزيارات خصوصاً أيام الثلاثاء والأيام التي تسبقه وتليه . ويذهب أقارب الموتى إلى المقبرة كل يوم ثلاثاء بعد الظهر ، خصوصاً من ماتوا خلال السنة ، ويجلسون حول القبر ، ويقرأون بعض آيات القرآن . ولكن ' خميس الأموات ' هو الأكثر أهمية ، وتقع بعد أربعة عشر يوماً قبل الجمعة العظيمة للكنيسة الشرقية . وفي هذا الثلاثاء يأخذ البعض معه البيض المسلوق والحلويات والكعك وحتى الأكل المطبوخ واللحوم . ويفضل الفلاحون أخذ الزبيب والقطين ، ويوزع على الفقراء كأجر ، وهي مساعدة للمحتاجين تجري باسم الموتى ، وسوف يحتسب الله هذا العمل برحمته ، وفي بعض القرى تذهب النساء إلى المقبرة قبل بزوغ الشمس ، معتقدات أن الزيارة بعد هذا الوقت غير محبذة ، وبعد بزوغ الشمس بقليل يعدن إلى بيوتهن . ويذهب أطفال الفلاحين عصر يوم الثلاثاء إلى بيوت أقاربهم قائلين ' أعطوني بيضة عن روح أمواتكم' ، ويعطى من في البيت بيضة أو قطينا ، زبيبا أو قطعة من الخبز عن روح الميت ، ويعبر الأطفال عن شكرهم بالكلمات التالية 'الله يرحمهم ' ، ويحمل هذا اليوم أيضاً اسم 'خميس البيض' .

وخميس الأموات ، هو يوم إحتفالي للنساء ، وتكون الزيارة هامشية ، ويقضين معظم الوقت برفقة جيدة في الهواء الطلق ، ولا يختلط الرجال مع النساء الا في منطقة الخليل ، حيث يذهب الشباب غير المتزوجين والصبايا إلى المقبرة ويرقصون ، ويسمح للرجال غير المتزوجين بالنظر من مسافة معقولة .

٨- المواكب

لا تستعمل كلمة ' موكب ' هنا بمعنى الحج إلى الأولياء كما جاء في الوصف السابق ، ولكن بمعنى الطواف حول المزار في مناسبات خاصة . وهناك على ما يبدو نوعان من المواكب : واحد خاص بالختان وأخر بالاستسقاء .

أ- مواكب الختان

لقد تعرضنا لوصف عادة أخذ الأطفال للختان في مقام النبي موسى والطواف حول النبي ، ويجري هذا في معظم القرى . ويأخذ أهل عناتا الأطفال إلى مزار ' عبد السلام' . ويرافق الأقارب جميعاً الطفل الذي يرتدي أفضل ملابسه ، يوضع على حصان مزركش وحده أو أمام والده . ويشارك الشباب في الرقص والغناء ، ولعبة السيف والترس ، بينما تعزف الفرقة الموسيقية المحلية . وبهذه المناسبة يزين الطفل بعدد من الحجابات ، التي تحميه من العين الحاسدة . ويتقدم الموكب ببطء ، وبعد الطواف حول مقام الشيخ عبد السلام ، يقرأ الناس الفاتحة ، ثم يذهب الجمع إلى الشيخ صالح ، وتجري عملية الختان في ساحة المقام . ويسمى الموكب : ' زفة الطهور ' . والطواف يطلق على الموكب حول المقام ، وتجري هذه المواكب في معظم القرى ، ويعتقد بأن الولي يحبذ ذلك وسيبارك الطفل حتماً . وقد رأينا في أماكن أخرى بأن الأم تنذر بختن الأطفال في مقام معين ، وفي هذه الحالة تجري الزفة . ويحدث أن يزور العروسان الأولياء في القرية(٤١٢) ، للحصول على البركة . ففي بيت جالا نسمع غناء مثل :

يا مارْ جرْيسْ وحنا اليوم زُوارك

جينا نزين العْرسانْ في مقامكْ

ويقام الموكب أيضاً في حالة وفاة شخص ينحدر من عائلة شيوخ ، تنتمي للولي . وإذا كان الميت يقيم في قرية أخرى غير تلك التي يقيم فيها الشيخ الكبير يجري الموكب بصورة هادئة ، ويتحرك المرافقون بقيادة الشيخ إلى قرية الفقيد ، ويسبقهم شخص يعلن عن قدومهم يحمل بازة (دف صغير) يضرب عليها طوال الطريق ممتنعاً تماماً عن الكلام ، وحالما يصل إلى بيت الشخص الميت يقف كل الحاضرين قائلين ' لا إله إلا الله ' ، ويذهب البعض فوراً على طول الطريق ، ومثل هذا الموكب لا يسمى زفه .

ب- موكب الاستقساء

يمارس مواكب الاستقساء(٤١٣) المسلمون والمسيحيون واليهود في كل أنحاء فلسطين وسنتعرض للممارسة الإسلامية هنا ، أما عادات المسيحيين فسنذكرها لاستكمال الدراسة وعلى سبيل المقارنة .

وبالنسبة للفلاح الفلسطيني يعتمد جهد السنة وحياته الاقتصادية ، وحتى وجوده ، على موسم الأمطار التي تسقط خلال أشهر الشتاء . ويدرس الفلاح الغيوم وعلامات السماء ، ويفحص اتجاهات الريح ، للتنبؤ بالمطر ، وقد مكنته ملاحظاته من تثبيت قواعد الطقس . ولكن حين تمسك السماء بركتها يلجأ إلى الأولياء للتدخل عند الله ، وهو يعتقد بأن أخطاء الإنسان قد سببت غضب الله .

'من قلة هدانا صار صيفنا شتانا '(٤١٤)

ويجتمع الكبار والصغار في الموكب ، الذي يطوف حول القرية(٤١٥) ، وتعتبر زيارة الولي والطواف حوله أمراً بالغ الأهمية ، يدخلون المقام ، وفي بعض الأحيان يقفون عند الباب ، ويقرأون الفاتحة ، وأحياناً يصعدون على سطح المزار(٤١٦) ليكونوا اكثر قرباً إلى الله ، ويرفعون أيديهم نحو السماء ويصلون من أجل المطر . ويحملون أحياناً ' أم الغيث '(٤١٧) في الموكب ، وهي عبارة عن دمية كبيرة مصنوعة بطريقة بدائية(٤١٨) ، حيث تثبت خشبتان على شكل صليب وتلبس لباس امرأه ، ويبدو لي أن هذا التعبير(٤١٩) يعود أصلاً إلى مريم العذراء ، وأصبح يستعمل بغموض حالياً ، وينتهي الموكب أمام بيت شيخ البلد ، وتحمل النساء بعض الغرابيل والمناخل(٤٢٠) وطاحونة طوال الطريق ، وهذه هي أهم الأدوات لتحضير الخبز ، وتحمل جميعها فارغة لإظهار مدى العوز ، أي انهم لا يملكون أهم ضرورات الحياة .

ان مقولة كورتيس(٤٢١) بأن ' أم الغيث '(٤٢٢) تدعى أحياناً ' عروس الله ' ، قد بين جوسين(٤٢٣) سلفاً بأنها لا تستند إلى أي أساس ، كما أنني لم اسمع بهذا التعبير لا من الفلاحين ولا من البدو ، كما أنني لا أستطيع الازادة على تعبير ' نص العروس ' الذي سمعه في النقب . أن عادة حمل لعبة كبيرة في مواكب الاستقساء دارجة عند بدو شرق الأردن أكثر منها عند سكان فلسطين ، وتُلبس الناس في الحالة الأولى الإطار الخشبي بملابس حسنه ومزيداً من الحلي عند الفلاحين في الجانب الغربي لنهر الأردن ، ويستعمل المسلمون والمسيحيون هذا التعبير ، رغم غياب فكرة واضحة عن معناه . ومصطلح أم الغيث . معروف أيضاً عند المسيحيين .

وخلال هذه المواكب يغني الناس(٤٢٤) :

الغيث يا ربي

اسقي زرعك الغربي(٤٢٥)

يلله الغيث يا رحمن

اسقي زرعك العطشان

يا ربي بل الشالة

عبيدك فقرا وكيالة

***

يا ربي بل الشرشوح

إحْنا عبيدك وين نروح

***

يا ربي بل الشمبر(٤٢٦)

حاجي التجار تتقمبر

***

يا ربي شو هالغيظة

جُعْنا وأكلْنا الحميظة

***

يا ربي تبل المنديل

واحنا فقرا وين نشيل

***

وسمعت في بيت جالا :

يا ربي ليش هالغيبة

أكلنا عْروق الحُليبة

يا ربي بل الشموط

إحنا عبيدك بدنا نموت

يا ربي بل القصر

ولا بنرحل ع مصر(٤٢٧)

يا ربي المطر والسيل(٤٢٨)

تانسقي البقر والخيل(٤٢٩)

ويقال على لسان الرعاة :

امْبُو امْبُوا يا ربي

خبزي قحمش في عبي

امبوا امبوا يا سما

خبزي قحمش عرما (على الرمى)

امبوا امبوا أنا ظامي

ارحمني أنا وحلالي

ويغنون في ' النبي صموئيل ' إضافة إلى ذلك التالية :

يا ربي ليش هالكنة

وأكلنا عروق الكرسنة

يا ربي ليش وليش

وأكلنا عروق الخرفيش

يا ربي ما هو منا

كله من مشايخنا

نشفت القطر عنا

وفي بيت اكسا يغنون :

يا ربي ليش عالقعده

وأكلنا عروق الجعدة

يا ربي يا رب الناس

تسقي زرعنا اليباس

يا ربي تبل الزردة

واحْنا وردنا ع يرْده (عين يرده)

وأبيات أخرى

يا ربي ليش الطولة

وأكلنا طحينة نخولة

ذولي عنا يا شوبه

حرقتنا هالشوبه

***

يا ربي يا عواد

أكلنا صرار الوادي

يا ربي يا غيوري

أكلنا صرار البور

والبيت ما فيها طحينة

ولا قرش مصْرور

وقد سمعت عن بدو العدوان الأبيات التالية :

حط القمح بالجرة

يلله حنتك يا الله

حطه الميه بلبريق

يا لله يا بْلول الريق

وتمثل الأبيات التالية نتائج الجدب على الصحة وخاصة على النساء والأطفال :

امبوا امبوا يا قادر

مْن العطش ما أنا قادر

امبوا امبوا يا رحيم

انشفن ابزاز الحريم

امبوا امبوا يا غيور

انشفنا جوا الدور

امبو امبوا يا قطراوي

من العطش جيتك ظامي

***

يا ربي الغيث يا رحيم

ترْحم كل الحريم

والطفال المرضعات

يا ربي نشف النبات(٤٣٠)

يتجمع الأطفال لوحدهم أحياناً ، ويعبرون الأزقة بأتجاه بعض الأولياء مرددين باستمرار بعض الأبيات يطلبون من الله ان يرفق بهم ، ويُتهم كبار القرية بأنه أخطاوا ولكن ليس الأطفال ، ويرفعون غطاء الرأس كإشارة إلى تذللهم . ويصحب هذا ضجة كبيرة من

خلال الضرب على صفائح التنك بعصيهم . والأغاني التي يردها الأطفال في هذه المناسبة هي(٤٣١) :

يا ربي ما تواخذنا

كله من مشايخنا

***

مشايخنا هلكبار

يا ربي تحرقهم بالنار

***

يا ربي يا ربنا

تبعث شتا لزرعنا

***

هن إكبار الْ أذنبوا

إحنا الزغار شو ذنبنا

***

من ظلم مشايخنا

نشف مي ينابيعنا

***

من ظلم كل الشيوخ

جسمي من الشمس مطبوخ

***

يا ربي يا غيوري

انشفنا نشاف البوري

لا تواخذنا بلكبار

ولا بشهادين الزور

***

شو ربنه شو ربنه(٤٣٢)

ما بنروح إلا ببله

هي يا رب العْباد

هي يا سترك للجواد

لا تواخذنا بالظلام

واحنا فقرا ما بننلامْ

***

يا ربي حرقنا الشوب

رمينا الغطا والثوب

***

لا تواخذنا بالمختار

عن أفعاله ما بتُوب(٤٣٣)

***

يا ربنا يا ربنا

إحنا الصغار شو ذنبنا

طلبنا خبزة(٤٣٤) من أمنا

ظربتنا ع ثمنا

***

وفي بعض الأحيان يشار بالاتهام إلى بعض العائلات كسبب لغضب الرب :

يا ربي تبل الغربال

كله من عبد الجبار

***

يا ربي تبل الهنابة

كله من أبو حبابة

***

يا ربي تبل الشالة

كله من الشيخ شحادة

وهنا سأصف موكب أستسقاء في عين كارم : ركبت امرأه عجوز على حمار ، وحملت ديكاً (٤٣٥) في يديها ، وتبعها موكب كبير من الرجال والنساء والأطفال . وبعض النساء حملن جراراً فارغة على الرأس ، كإشارة لقلة الماء . وقام آخرون بالطحن على طاحونة يدوية صغيرة دون قمح . وبين فترة وأخرى ، ووسط صخب الجمهور الحاشد تضغط المرأة على عنق الديك ، فيزعق ، وبهذا يشعر الناس أن الحيوان يشاركهم في التوجه إلى الله . ويختار الناس الديك باعتبار أنه مؤذن . وسار الموكب إلى مقام الحاج عبيد ، ثم إلى بيت شيخ القرية . وحالما وصلوا إلى ذلك المكان أخذوا يغنون :

بلونا يا دار الشيخ

يا ربي تعطينا الغيث

يا أم الغيث غيثينا

وبللي بشت راعينا

وراعينا فرج الله

بيطلب من عندك يا الله

ثم خرج المختار ، ورش الماء على الجمع وهو يقول :

ـ الله يسقيكو من رحمة ربكو

ويعتبر رش الماء رمزاً للمطر (سحر المطر) . وبعد ذلك يتفرق الجمع .

ويعتقد الفلسطينيون أن الله يرسل الجفاف كعقوبة للناس على ذنوبهم ، ولكنه لا يعاقب الحيوان الأبكم ، ولا الأطفال الأبرياء ، ولهذا السبب يحملون دجاجة وديكاً ، أو كليهما في مواكب الاستسقاء ، أو يرسلون الأطفال للإستسقاء لوحدهم . وفي أغاني المطر يستهل الفلاحون غالباً هكذا :

يا ربي رشة رشة

تا نسقي هالجحْشة(٤٣٦)

***

يا ربي نقطة نقطة

تانسقي هالقطة

***

يا ربي المطر والسيل

تانسقي البقر والخيل(٤٣٧)

ويورد بول كالة الأبيات التالية :

شو بدك يا قاق الليل

بدي مطر بدي سيل

بدي فتة لليتامى

***

ديكنا بيزعق طول الليل

بده مطر بده سيل

بده رحمة من ربه

وهناك بعض المزارات أكثر تعاطفاً في تقديم هذه البركة من غيرها ، مثل الست البدرية ، الشيخ غيث ، الشيخ مطر ، الشيخ ليمون(٤٣٨) ، الشيخ القطراوني عند المسلمين . ويعتقد بأن هؤلاء الأولياء هم أكثر قوة ويسمعون الصلوات بسرعة ، ولهم تأثير على الله بطريقة معينة . ولكن يجب التأكيد بأن الولي يساعد حين يطلب منه ذلك . وقال لي رجل من أبو ديس أن موكب الاستسقاء حول جامع صلاح الدين قد استجاب الله له بمطر كثيف ، ملأ كل الآبار وكان الناس قد إنتظروا مضي شهرين على فصل الشتاء ، وبعد ذلك قرروا الخروج للاستسقاء من ولي لأخر أملين أنه إذا لم يستجب واحد فسيستجيب آخر للصلاه(٤٣٩) . ومن بين أغاني المطر التي توجه إلى ولي هي :

يا ستي يا بدرية(٤٤٠)

اسقي زرع البرية(٤٤١)

***

يا ربي تسقينا المطر

ابركة الشيخ مطر

***

يا ربي تسقينا الغيث

ابركة الشيخ غيث

***

يا أم الغيث(٤٤٢) غيثينا

بلي بشيت راعينا

راعينا حسن لقْرع

طول الليل وهو يزرع

يزرع في قمح قصْري

تا نملي(٤٤٣) خوابينا(٤٤٤)

يا أم الغيث غيثينا

قطعنا لواطينا

وسمعت من بدو بني عدوان ما يلي :

يا أم الغيث يا طقعة(٤٤٥)

قتلنا البرد والسْقعة(٤٤٦)

***

وذكر جوسين أغنية حول أم الغيث وهي مزيج من البيتين السابقين :

يا جامعنا نسترجيك

رشق المطر يدخل فيك

يا شيخ (إسم نبي أو قديس ، . . .)

ورشق المطر يدخل فيك

يا سيدي أنا ناخيك

رشق المطر يعبر فيك

ليلة الجمعة لاظويك

***

يا نبي صمويل تسقينا

يا رب السما تسقينا

يا رب تبل المنديل

وحنا وردنا(٤٤٧) عا صموئيل

***

ويغنون في عطارة والقُرى المحيطة بها

يا ربي الغيث سماوي

يا جاه الشيخ القطرواي

ابجاه الشيخ أبو العينين

يا ربي نشفت العين

يا ربي تبل الشوشة

كرامه لابو شوشه

يا ربي الغيث دقيقة

ابجاه النبي وصديقه

ابجاهُه ترْحم لوْلاد

بالمطر أم البلاد

يا رب الغيث يا جواد

نطلب منك جرة الواد

إبجاه الشيخ القطرواي

يا ربي واد سلواد

ويدعوا المسيحيون مار نقولا (القديس نيكولاس) ومار الياس . وفي بيت جالا سمعت الأغنية التالية :

مارْ نقولا جينالك

صُب المطر دخيلك

احْنا اليوم عبيدك

مفتاح السما في أيدك

هاي امبوا يا هاي امبو

حط الفول في الجرة

واستنى رحمة الله

مار نقولا يا جارْنا

يا حبيب زغارنا وكبارنا

تتشفع لَهِلْنا

أمطر يا رب على بلادنا

يا ربنا يا ربنا

تمطر علينا يا ربنا

من قلة المطر على بلادنا

مار نقولا تشفع لَهِلْنا

مار نقولا جينالك

محنا زغار وخظعنالك

ونحن اليوم في حمايتك

تمطر علينا يا ربنا

إن مار نقولا يسمى ' سُحب المطر ' ، ويُعتقد بأنه يحمل مفاتيح السماء . ويروي دالمان في ديوانه (ص ٦٥) :

قصدنا العذرا ومار يعقوب

تسقي زرعنا المصْيوب

قصدنا العذرا ومار الياس

تيخضر زرعنا اليباس

***

وسمع من أبرص مسلم التالي :

يا سيدي خظر لخظر

تسقي زرعنا الأخظر

يا سيدي مار الياس

تسقي زرعنا اليباس

وعن رجل من حلحول سمعت أغنية جميلة ، اقتبس منها الأبيات التالية التي تتعلق بموضوعنا :

يا ربنا يا ربنا

يا حي يا قيوم ارحم ضعفنا

يا ربنا يا ربنا

بخليلك الوحي(٤٤٩) حسن سعينا

يا ربنا يا ربنا

بالسيد الغيوري(٤٥٠) أنبت زرعنا

يا ربنا يا ربنا

برسولك عزرابيل(٤٥١) ادرر ضرعنا

يا ربنا يا ربنا

بالصديق يوسف عمنا

بالسعي واجبر يا مهيمن كسْرنا

وصف لي إمام عطارة موكب استسقاء(٤٥٢) له تماثلات توراتية ، وقال بأنه حين يحبس الله المطر لفترة ، يطلب الأمام من جميع سكان القرية الصوم ، ويعين مع مختار القرية يوماً يخرج فيه جميع الناس من رجال ونساء وأطفال من بيوتهم إلى واد أو جبل غير قريب . وفي هذا الموكب يلبس الناس ملابسهم المهترئة ، ولا يسمح للأطفال بالرضاعة ، وتخرج أيضا جميع الحيوانات خارج البلد ولا يقدم لها العلف أو الماء . وخارج الحقول ، وفي طريق ' هجرتهم ' من القرية يستجيرون بالله أن يرحمهم وأطفالهم وحيواناتهم . وقبل أن يغادروا القرية يسامح كل منهم الآخر على أخطائه من اجل أن يسامحهم الله على أخطائهم ، وبنفس الطريقة تقريباً حاول العبرانيون القدماء الحصول على رحمة ربهم ، وقد اعتادوا الصيام والصلاة وخلع ملابسهم ووضع خرق باليه فوقها ، حيث يعدهم نبيهم وكاهنهم الأعظم دائماً بأن الله سيستجيب لصلاتهم ، ويساعدهم ، كما هو اليوم ، وتوضح المرويات القديمة والحديثة هذه الممارسة .

وفي الختام سأقتبس بعض الأشعار من سفر ارميا XIV ، والتي تظهر الكثير من أوجه التشابه بين مواكب الغيث في الفترة التوراتية واليوم ، ويصف هذا الفصل ' كما يبدو لي العادات المرتبطة بمواكب المطر ' . 'ناحت يهودا وأبوابها ذيلت حزنت إلى الأرض وصعد عويل أورشليم . وأشرافهم أرسلوا أصاغرهم للماء أتوا إلى الأجباب فلم يجدوا ماءً . رجعوا بأنيتهم فارغة . خزوا وخجلوا وغطوا رؤوسهم من أجل أن الأرض قد تشققت لأنه لم يكن مطر على الأرض ، خزي الفلاحون غطوا رؤوسهم حتى أن الأيله أيضا في الحقل ولدت وتركت لأنه لم يكن كلأ . وأن تكن آثامنا تشهد علينا يا رب ، فاعمل لأجل إسمك ، لأن معاصينا كثرت . إليك أخطأنا .

هوامش الفصل الثاني

(١) كلمة فارسية جاءت من دست dast بمعنى قانون و ' ور ' - uwr ــ مالك . (انظر محيط المحيط ١ / ٦٥٠) . والمعنى المباشر للدخول غير وارد في العربية الفصحى ، بل يفهم في اللغة الدارجة .

(٢) جاء عبد السلام الأسمر من المغرب إلى فلسطين وعاش في قرية خربة علْميت ، وهي الآن مهجورة . ونظراً للصراع بين الحكومة والسكان ، قامت الأولى بتخريب بيوت الثوار . وهكذا فأن عبد السلام ذهب إلى عناتا ، واشترى الموقع وأقام فيه . وعليه فان أحفاده هم أبناء القرية . وكان للشيخ ستة أطفال : قاسم ، الذي توفي دون أن يترك أحدا ، والخمسة الآخرون هم : علوي ، إبراهيم ، علي ، عبد الله ، وعبد اللطيف . وقد انجب علوي 'حمدان ' والد محمد ، والد احمد ، الذي لا يزال حيا . واحمد هو الذي روى لي القصة وشجرة النسب . والشيخ عبد السلام ينتمي إلى الطريقة الرفاعية .

(٣) الحريم تعني أيضاً النساء والمتزوجات . يقول المرء : حرمتي ، عيلتي (زوجتي) .

(٤) حتى عندما يدخل المرء بيته فانه يطلب الأذن ، فقد تكون هناك نساء في ضيافة زوجته ، أو أهله .

(٥) هذه العادة تحترم تماما في المدن أكثر من القرى ، خصوصاً في مدن الخليل ونابلس وغزه .

(٦) حظُور تأتي من حظر بمعنى كن جاهزاً . ويقال نفس الشيء عند تفجير البارود في الصخر لتحذير الناس من الانفجار ، وليكونوا جاهزين .

(٧) Aberglaube, p. ٨ tt

(٨) هناك اعتقاد سائد لدى الفلسطينيين بأن الجن يسكنون في النار .

(٩) الأولياء دائما مشغولون بالصلاة ومساعدة الناس . ولذلك يجب عدم إزعاجهم ، ولا بد من الحصول على أذنهم قبل الدخول عليهم .

(١٠) هذه القصة مذكورة في هامش رقم ٧ ص رقم ٨٧ .

(١١) تحتوي حجارة النبي موسى على الكبريت ، ولذلك يسهل إشعالها .

(١٢) للنبي صالح عدة مقامات ، والتعبير هو لأهل قرية النبي صالح ، فالمزار يقع فوق جبل ويضم الضريح . وتحت المطبخ هناك معْصرة (بَدّ) وفيها تعيش روح خادم النبي .

(١٣) يقع مزاره على شاطئ البحر إلى الشمال من يافا ، ويقال أنه حفيد 'عمر بن الخطاب ' . وبجوار المقام نجد خرائب ارسوف . وتقول المرويات أن سكان القرية ارتكبوا آثما كبيرا ، وهكذا قام الرجل المقدس بضربهم ب ' قرقوم إبريق' ودمر القرية (عن البرغوثي) .

(١٤) ويعتقد بأنه عندما يتلف الشعر فأن البحر سيفيض على البلاد .

(١٥) L. Einsler, Mosaik. p. ٢ tt, Aberglaube, p. ١١

(١٦) الروح وهي كنية المسيح ، وقد جاء هذا في سورة رقم ٢١ .

(١٧) دخيل عليك ، دخيل حريمك ، دخيل عرضك ودخيلك . . عبارات تلفظ عند طلب المساعدة .

(١٨) الطنب هو حبل الخيمة . طنيبي : جاري ، طنيب عليك : استجير بك . انظر محيط المحيط ٢ : ١٢٩٧ JPOS II, ٤٣

(١٩) المرء ملزم بحماية الجار : الجار للجار ولو جار .

(٢٠) المكّارية ، وكذلك العربنجية والعتالون والبحرية مذمومون من الناس . لذلك يقول المثل : المُكاري ما بيذكر الله الا تحت الحمل .

(٢١) كان الجمل هو عماد البيت في السابق ، بل أنه كان يرمز لرأسمال الفلاح .

(٢٢) أن الرجل الذي يسوق الحمير التي تحمل القمح إلى الطاحونة يسمى (تراس) أي الذي يحمل الأحمال الثقيلة . جمل مترس : محمل كثيراً . فلان اترس بغلة : حمله ثقيلا .

(٢٣) ميسرة بن مسروق العبسي يقع مزاره على قمة جبل بين جفين وباقة .

(٢٤) سمعت ذلك من أناس مختلفين من القرية .

(٢٥) ومنذ ذلك الوقت يعتبر مار نقولا حامي قرية بيت جالا .

(٢٦) هامش رقم ٤ ص رقم ٩١ في الأصل (ملاحظة الكواكبي) .

(٢٧) لم أسمع تعبير كركور أو ركوبه المذكوره في Doutte Magie et Religion p. ٤٢٠ tt

(٢٨) أحمد الرفاعي له شهرة في شفاء المصابين بلدغ الأفاعي . ولا يزال أتباعه من ' الحُواة ' ، والحاوي هو الذي لا تضره الأفاعي .

(٢٩) كان أحمد الرفاعي قطبا ، وضريحه في فلسطين يقع في بني زيد على مسافة ساعة إلى الشرق من دير غسانه ، ويعتقد أنه تحت المقام يوجد غار (كهف) وفيه يوجد الضريح .

(٣٠) لقذارتهما . وقد يلبس خفاً فوقهما كما هو الحال في زيارة المزارات الكبيرة .

(٣١) صعد رجل على سطح مقام الشيخ أبو اسماعيل (بيت لقيا) دون أن يخلع نعليه ، وقد أغضب هذا العمل الولي إلى الحد الذي عاقب المعتدي بالشلل الذي لن يختفي إلى ان جرت المصالحة بالتضحية برأسي غنم للولي .

(٣٢) الخروج ٣ : ٥ .

(٣٣) التكوين ٣٥ : ٢ ، الخروج ١٩ : ١٠ ، صموئيل الأول ١٦ : ٥ .

(٣٤) يعتقد العرب بأنه عندما قامت حواء بأخذ الفاكهة من الشجرة ، أدحت الشجرة وكعقاب لمعصيتها ، أصبح على الجنس النسوي أن يدمي كل شهر (دائرة المعارف ، الجزء الأول ، ص ٤٨) .

(٣٥) الانس الجليل ، ١ : ٣٧ ، يخبرنا بأنه عندما قام سكان بئر السبع بطرد أبينا ابراهيم ، جف البئر الوحيد ، لذلك اضطروا إلى الذهاب اليه والتوسل إلى رجل الله أن يساعدهم .

(٣٦) انظر كنعان JPOS II, ١٥٩

Aberglaube, p. ٣٧

(٣٧) وفي هذه الحالة يذهب شيخ أو راهب إلى النبع الجاف ليحرق البخور ويصالح الجن أنظر JPOS II,١٦١

(٣٨) لا ينطبق ذلك على الأشجار المقدسة .

(٣٩) دخلت امرأه إلى حرم الخليل وهي حائض ، فأحمرت القبة . وهكذا أنتبه الناس وطردوا المرأه ، فعادت القبة إلى وضعها .

(٤٠) الست سكينة ، قرب طبريا ، تعاقب كل محدث يدخل المزارات .

(٤١) النبي نون على قمة تلة قرب كفل حارس .

(٤٢) عن عمر صالح البرغوثي .

(٤٣) إذا دخلت امرأه حائض إلى حقل أخضر ، فان العشب يذبل . وعلى مثل تلك المرأه أن لا تحضّر بعض الأطعمة ، فالحليب يصبح حامضا إذا مسته . وكل شخص ينام مع امرأه حائض فانه يصاب بالبرص انظر Aberglaube p. ٣٦ .

(٤٤) من القصص الأخرى فإن أبو صالحيه (بيت عنان) يقتل أي غزال بأقل من أوراق شجيرات زيتونة ، وأي حيوان يصعد إلى سطح الشيخ ياسين يقع ميتا ، وحينما يقترب قطيع من القبة (إلى الشرق من دير جرير) تبعده الصلاح ، انظر جوسين ٣٠٨ .

(٤٥) عن الانسه بالدنزبيرغر .

(٤٦) ضابط تركي تبرز تحت شجرة الشيخ أبو الريش (بيت عنان) . وقد عوقب الضابط فورا بضربة من غصن شجرة البلوط . وكان هناك غريب ينام في جامع أبو العيون في بدو ، وعندما خرج منه الريح القى به الشيخ خارج المزار .

(٤٧) الخنزير والمشروبات الكحولية .

(٤٨) James Neil, Palestine Life, pp. ٦٤ tt

(٤٩) انظر القضاه ٤ : ٢٥-٣٢ .

(٥٠) Goldziher, Moh. Studien II, ٣١٧ .

(٥١) بين الشلالة وتل الشريعة .

(٥٢) على طريق غزه بئر السبع .

(٥٣) روى ف . أ . لي هذه القصة .

(٥٤) يأتي كثيرون هذا اليوم لحضور سوق الجمعه .

(٥٥) Kahle, PJ VII pp ٩٩ tt .

(٥٦) يذكر كاله بعض هذه الأماكن PJ VII, ١٠٠ .

(٥٧) يلاحظ بأن بعض الجوامع مثل العزيرات يستعمل للنساء فقط .

(٥٨) مجير الدين ٢ ، ٤١١ .

(٥٩) لا أعتقد بأن البركة هي نقيض العين الحاسدة . كما ذكر في Doutte, Magie, p. ٤٤٠ .

(٦٠) هذه العادة ما زالت موجودة في بعض الكنائس الشرقية .

(٦١) Aberglaube, p. ٤٤٠ .

(٦٢) لفت السيد استيفان انتباهي إلى أن مثل هذه البركة تباع في مزارات كربلاء والنجف وقادمين

(٦٣) ما زال هذا الاعتقاد عند المسيحيين ، الذين يأخذون معهم مياه نهر الاردن ، واوراق شجر زيتون الجسمانية .

(٦٤) يقال أن خالد بن الوليد كان يحمل شعرات من لحية النبي كبركة .

(٦٥) يعتقد أن ماء البحر يصبح حلوا في هذا اليوم . هكذا جاء في التحفة المرضية ، ص ٦١ .

(٦٦) وتسمى قطعة الخشب . تلك ' عودة الديرة ' .

(٦٧) الفكرة منتشرة في العهدين القديم والجديد .

(٦٨) الحاج مصطفى الانصاري .

(٦٩) يوسف ضياء الدين الدنف الانصاري .

(٧٠) دليل الحرم الشريف .

(٧١) إن أحفاد خدم هذا الشيخ هم آل صوان .

(٧٢) Kahle and Doutte .

(٧٣) تجمع من قبل النساء وتخزن كوقود للشتاء .

(٧٤) انظر أيضا Goldziher, ٣٠١ .

(٧٥) انظر محيط المحيط ١ : ٣٥٣ .

(٧٦) قارن Aberglaube, p ٢٥ .

(٧٧) ورأيت نفس الشيء في أبو هريرة .

(٧٨)

(٧٩) جوسين ، ص ٣٣٤ .

(٨٠) يعتقد أهل بيت جالا أنهم يمكن أن يبيعوا بضاعتهم بشكل افضل إذا وضعوا عليها شيئا من تراب السيدة .

(٨١) انظر Aberglaube ٦٢, ٦٣ .

(٨٢) ليلة القدر السابع والعشرين من رمضان ذكرت في سورة رقم ٩٧ .

(٨٣) جرت معركة بدر في صبيحة اليوم التالي حسب التحفة المرضيه .

(٨٤) Aberglaube. ٦٢ .

(٨٥) نفس المصدر السابق .

(٨٦) يسمى بير قادسمو .

(٨٧) Aberglaube, p. ٦٣ .

(٨٨) انظر المصدر السابق ص ٨٧ .

(٨٩) المصدر السابق ، الفصل الأول .

(٩٠) أبو شكري مستكلم .

(٩١) هناك عادة وضع فرع شجرة زيتون خضراء وقطعة عملة على عتبة البناء أو السقف وذلك من أجل دوام البناء وازدهاره .

(٩٢) هذا يصح على النبي صالح في قرية النبي صالح ، فخادم النبي (عبد) يعتقد بأنه يسكن في معصرة الزيتون (البد) .

(٩٣) في قطنة ، يسمى عم النبي ، وأحفاده بالأشراف .

(٩٤) بالقرب من النبي موسى .

(٩٥) في كولونيا .

(٩٦) الخليل .

(٩٧) Aberglaube p. ٦٩ .

(٩٨) Canaan, JPOS, I, p. ١٥٥ .

(٩٩) انظر صموئيل الأول . الملوك الثاني والتكوين .

(١٠٠) كورتس ، الفصل العاشر .

(١٠١) بالقرب من مسجد عمر .

(١٠٢) تحت سلوان .

(١٠٣) ذكر بعضها في (JPOS,Vol ١, p. ١٦٨) .

(١٠٤) المصدر السابق ص ١٤٦ - ١٥٣ .

(١٠٥) هو شعيب أبو مدين من المغرب ، الذي بنى زاوية المغاربة في القدس ، حيث اختارها لمدفنه ، ولكنه مات في المغرب ، ولم يدفن في الزاوية سوى يده (لواقح الأنوار عبد الوهاب الشعراني ١ / ١٥٣) .

(١٠٦) Aberglaube, p. ٨٨

(١٠٧) مرسوم على حرز مُرجانه سيف كتب عليه :

' لا فتى الا علي ولا سيف الا ذو الفقار سيف الله يقصم كل جبار من حمل هذا كان آمنا ان شاء الله من شر الأشرار' .

(١٠٨) لا يستعمل المسلمون هذه الكنائس .

(١٠٩) حدثني جورج قُرْط عن قصة هذا المكان فقال : كان والده وجده يحرثان الأرض ، حيث يقع المقام ، وذات يوم استراح الاثنان عند منتصف النهار ، واستلقيا عند شجرة زيتون عرفت فيما بعد باسم زيتونة الخضر ، وناما . وهنا ظهر القديس جورج للمجد وأمره : ' انهض وابن المزار ' . وخاف الجد ، ونهض وأيقظ ابنه ، وفوجئ بأنه هو والولد اصبحا آخرسين . وفي اليوم التالي بدأ العمل ووجد الاثنان ، بالفعل ، فتحة كهف عند النقطة التي وصفها القديس . ولدهشتهما وجدوا ان العجل الذي ضاع في العام الماضي ، كان في الكهف بحالة جيدة ، يأكل ويشرب . وكان القديس جورج يحضر القش والشعير والماء . كما وجدوا النقش التالي :

' عجائب الخضر كثيرة ما هي قليلة . هنا محل القديس العظيم في الشهداء جورجيوس اللابس الظفر المستشهد في الحروب ' .

واشتهرت سمعة المكان ، حتى ان السلطان اصدر بذلك فرمانا . وبدأ المرضى يحجون إلى المكان . وشفي الجد وابنه من الخرس ، وهناك نسخة من النص في : Kahle, PJ, VI , ٨٨ .

(١١٠) ذكرت الأماكن الأربعة الاخرى من قبل مجير الدين .

(١١١) يذكر كاله بأن البلاطة السودا مكرسة للخضر . PJ IV, pp. ٨٨, ٩١

(١١٢) يجتمع القديس هنا مع الأولياء الأخرين .

(١١٣) يربط فيه المختلون عقلياً بالسلاسل ، وقد رأيت بعض السلاسل ماثله حتى الآن .

(١١٤) يأخذ المرضى حماماً في هذا الحوض يوم الجمعه ، معتقدين بأن هذا سيشفيهم .

(١١٥) هناك سلاسل للمجانين .

(١١٦) قارن Kahle, PJB VI, ٨٩; Graf Multnen ZDPV XXX, ٨

(١١٧) يطلق عليه البعض مار الياس .

(١١٨) منعت الحكومة الحالية (الانتداب البريطاني) قبول الجن في هذا المكان .

(١١٩) من بيت جالا .

(١٢٠) من بيت جالا ورسم لاحقاً كخوري .

(١٢١) أخبر أبي من قبل الخوري السابق اسحق توما .

(١٢٢) البنت المصابة لم تلق المساعدة من الأطباء ، ذهبت إلى خوري سرياني ، وبعد أن صام ثلاثة أيام ، طلب من الطفلة الركوع والصلاة معه ورأى سحابة من الدخان تخرج من فمها ، حين فقدت الوعي ، وقد وضعها الخوري في الحمام ، وعمل مساجاً لها ، وحين أفاقت كانت قد شفيت .

(١٢٣) يسبب الجن في الأعضاء المهمة ضرراً أكبر بكثير من الاعضاء غير المهمة ، وإجراء المساج للجن نحو الأعلى يمكن أن يتسبب في أضرار بالغة للقلب والعين واللسان والمخ . . . الخ

(١٢٤)انظر الحالة الموصوفة في Aberglaube, pp. ١١٧ f

(١٢٥) هذا اعتقاد قديم ، انظر التحفة المرضية ، ص ٤ .

(١٢٦) انظر . Stephan, "Lunacy in Palestinian Folklore" JPOS n, pp ١-١٦

(١٢٧) أذكر بعض أنواع القسم الهامة ، وهي تعود لأحد الفئتين التاليتين :

أ - اسم الله أو صفته ، أو ولي أو مزار

ب - يمين يذكر بعض الظواهر الطبيعية

(١٢٨) دير غسانه .

(١٢٩) هاتان العادتان سمعت بهما في أبو غوش .

(١٣٠) القصارة وهي طينة الجدران .

(١٣١) ان المتهَم والمتهِم الذين يأتون من طريق واحدة يعودان في طريقين مختلفين .

(١٣٢) اذا كان المتهم من نسل ولي ، فإنه يحاول دائماً اثارته ، بوضع الزبالة على القبر ، أو من خلال الاعلان بأن القديس نائم ولا قدرة له . (انظر الملوك الأول : ١٨ : ٢٧)

(١٣٣) عن البرغوثي .

(١٣٤) الهجسة هي دخول بيت محترم بغرض السرقة أو الزنا .

(١٣٥) انظر البرغوثي JPOS II, ٥١ .

(١٣٦) Kahle. PJPV III, pp. ١٤٨, Aberglaube, pp ٧٠ tt Jaussen, Doutte, Curtiss

(١٣٧) الحمولة وهي ' العائلة ' المعنى الواسع ، وتساوي العشيره تقريباً في حين أن المعنى الضيق هو العائلة .

(١٣٨) النيره أو الليرة وتساوي جنيها واحداً أو عشرين فرنكاً .

(١٣٩) وقع الطفل مريضاً بعد عدة أيام ، وقالت الام ' باب السما كان مفتوح ' .

(١٤٠) ان هذه الرغبة لا تسمى نذراً وانما لعنه أي دعوة .

(١٤١) (قفه رز = ١٠٠ كغم ٣٣ رطل) .

(١٤٢) يقع مقام القطراوني على قمة جبل وسط مجموعة من أشجار البلوط التي تنمو بين بقايا الخراب ، مع توفر العديد من الآبار . ويتألف المزار من غرفة واحدة ذات قبتين . ويفترض ان القبر موجود في الكهف الواقع تحت البناء . وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة هناك كومة من الشيد . وإلى الغرب من المزار نجد قبر الخادم .

(١٤٣) نسبت من قبل أم الياس في القدس .

(١٤٤) وعلى ذلك فلا تعمل نساء الروم الارثوذكس في يوم عيده ، لأنه لا يحبهن فإنهن لا يكرمنه بالقول . عمرة لا تعيد .

(١٤٥) موقعه في عين كارم ، وهو في الوقت نفسه جامع وله مئذنة ، وبجواره بستان إذا أخذت منه غصنا لزراعته فانه لا ينبت .

(١٤٦) إلى الغرب من الشيخ غيث ، قرب دير غسانه . كان المزار كهفا وتحول إلى غرفة صغيرة . ويقع قبر زوجته ' السلاخية ' إلى جواره ، وهو ينتمي إلى ' دار مصطفى شنيور ' .

(١٤٧) يقع المقام على قمة تلة إلى الغرب من دير غسانه ويضم ثلاثة قبور (المجذوب ، ابراهيم ، علي) وكذلك قبرين لابنتي المجذوب . وخارج المزار هناك قبر الشيخة صالحة ، وقبر خادمتها هانور ، عن عمر البرغوثي .

(١٤٨) التوباكو المستعمل في الأرجيلة .

(١٤٩) وهي اللباس الرسمي للخوري في الكنيسة .

(١٥٠) كان يعيش قبل ثمانية أعوام ، ولا أعرف ما اذا كان لا يزال على قيد الحياة .

(١٥١) كان الناس يخافون جداً حين يأتي الجندرمة إلى القرية ، لأن الجنود يجمعون الضرائب دونما شفقة ، فارضين الكثير من التكاليف على الفلاحين .

(١٥٢) Aberglaube, p. ٧٢ n. ٥ .

(١٥٣) يسمى هذا المكان الحومة .

(١٥٤) نفس العائلة التي تعيش الآن في البيت المقابل للكهف .

(١٥٥) ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الشيخ حسين - قرب الظاهرية ، حيث لوحظ ضوء عند الشجرة السدر . وعلى الفور ظن الناس ان الشجرة تنمو في حمى ولي ، وهكذا بنوا مقاما .

(١٥٦) قارن Aberglaube pp. ٧٥, ٧٦ .

(١٥٧) القرآن .

(١٥٨) عن بدو قبيلة العدوان .

(١٥٩) ابن رشد ' بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، الجزء الأول : ٣٤١ .

(١٦٠) بيت جالا .

(١٦١) هذه الأبيات موجودة أصلاً في الهامش رقم ١ صفحة رقم ١٣٨ .

(١٦٢) بيت جالا .

(١٦٣) هذا الاعتقاد موجود أيضاً في اجزاء اخرى من فلسطين .

(١٦٤) علامة تذلل .

(١٦٥) أعلى علامات التذلل .

(١٦٦) حتى الطبيعة وبعض الأرواح يعتقد أنها تنام في الليل ، ولذلك لا يجوز لشخص أن يشرب من ماء ثابت قبل أن يقول : انتبهي يا مي ما وردك الا العطشان .

(١٦٧) يقال بأن ضوضاء البشر تزعج الملائكة ، لذلك فإن صلاة الليل تسمع جيداً .

(١٦٨) هناك بعض الأيام المفضلة للصلاة ، والنذور ، منها ليلة القدر وليلة عرفات (التحفة المرضية ص . ٥ .) .

(١٦٩) الأعداد ٨ : ١٢-١٦ . . الخ .

(١٧٠) أنه أخ الشيخ شُعيب ، ويملك كل منهما مقاما في بيت جبرين . ويقع مقام الشيخ ابراهيم في خربة تحمل اسمه ، وبجواره خربته سانتا حنا (القديسة حنا) .

(١٧١) في عين عريك ، ويحمل النبع المجاور اسم الولي .

(١٧٢) حجر كبيرغير مشذب .

(١٧٣) يعتقد بأن الحوادث هي ' مُذكر قوي ' .

(١٧٤) يقول من يتذكر حالاً ' لازم نذرك يصلك يا . . . ' .

(١٧٥) ناقش علماء الشريعة المسلمون ، النذور بتفصيل في كتبهم .

(١٧٦) انظر Zellers, Biblisches Worterbuch I, ٤٥٣

(١٧٧) قص علي عمه هذه القصة .

(١٧٨) Aberglaube, p. ٧٤

(١٧٩) ذكرت بعض المعطيات حول هذا الموضوع .

(١٨٠) Aberglaube, ٨٧

(١٨١) يعتقد المسلمون بأن السماء تفتح مرة في السنة في ليلة القدر .

(١٨٢) حسب الخرافة فإن بعض النباتات (عود ميس) تكون قوته العلاجية الجيدة اذا ما قطع في السابع والعشرين من رمضان .

(١٨٣) فخر الرازي ٤ : ١٧٤ ، التكوين ٨ : ١١ .

(١٨٤) دائرة المعارف ١١ : ٣٣٨ .

(١٨٥) استخدم الزيت في التوراة غالباً للاشارة إلى القوة ، والسعادة والضوء والحياة والحكمة .

(١٨٦) تسمى أيضاً زيت حلو ، والبترول زيت كاز وليس زيت مر كما كتب كاله في PJB VIII, ١٣٩ .

(١٨٧) تحتوي الجرة ما بين ٥-٧ أرطال ، حسب المناطق المختلفة في فلسطين .

(١٨٨) توضح القصة التالية الاعتقاد بأن زيت الزيتون يقوي الجسم اكثر من السمنة : ' كان لامرأه ابن ، وكان عندها أيضاً ابن زوجها . وكلاهما كانا راعيين . وفي كل يوم ، وقبل ان يسوقا الغنم إلى المراعي كانت تعطي ابنها ـ المفضل ـ الخبز والسمنة . ولم تكن تعطي الآخر سوى الخبز المغموس بالزيت . وبعد انتهاء الطعام كان يمسحان ما يتبقى على العصا . وهكذا أصبحت عصا ابنها منخورة ، على عكس عصا أبن زوجها التي كانت اصلب وأقوى . (عن مذكرات والدي ، القس بشارة كنعان) .

(١٨٩) لا يأتي كل الزيت ، في المقام ، من النذور بل أيضاً من الوقف ، كما هو الحال في المقامات الكبيرة .

(١٩٠) عن امرأه من الطيبة وعن أم الياس .

(١٩١) شيخ ولا تعني هنا ولياً ولكن ' رجلاً مسناً ' .

(١٩٢) روى القصة أبو الياس ، من القدس .

(١٩٣) ونظراً لان البدو لا يملكون الزيت ، بل الحيوانات ، نجد ان نذوراً من الأضاحي تحل محل نذور الزيت .

(١٩٤) نذرها والد سمع عن مرض ابنه .

(١٩٥) رأيت بعضاً منها معلقة في السقف ، واخرى على قبور ابنائها .

(١٩٦) يثق المسيحيون بهذه الولية .

(١٩٧) عن أم الياس ـ القدس .

(١٩٨) ان هذه الحوافظ يمكن أن تكون أكثر تعقيداً ، بحيث تبدو كصندوق صغير ، متطاول ، بدون مقدمة .

(١٩٩) بيت حنينا .

(٢٠٠) أريحا .

(٢٠١) في أماكن اخرى تستعمل علب السردين الفارغة كأسرجة .

(٢٠٢) في النبي دانيان وجدت مقلاه قديمة تستعمل كسراج ، وهنا أود أن أصحح ما ورد في صفحة ٦٢ حول موقع المزار ، وهو يقع جنوب غرب الخضر وليس بين القرية وارطاس ، وهو يقع على جبل مرتفع يسيطر على منظر آخاذ ، والمزار محاط بالخرائب والمحراب الصغير مبني في وسط أشجار البلوط .

(٢٠٣) لا يضع المسلمون صوراً بشرية أو حيوانية في المساجد والمزارات .

(٢٠٤) توجد في الكنائس ، أما المزارات الاسلامية فقلما توجد .

(٢٠٥) لم أعثر على أسرجة فخارية في الكنائس ، لتوضيح الأسرجة انظر :

McCown, ASOR vol. II - III p. ٢٨

(٢٠٦) دعق بمعنى حرق ، لم أعثر عليها في قصاب وحمام ومحيط المحبط .

(٢٠٧) إذا دخلت امرأه ' عليها العادة الشهرية ' على الشيخ حسين (في كولونيا ، وتسمى أيضاً عين الجوز) ، فأن عليها أن تطهر المكان فوراً بحرق البخور . وإذا فشلت في ذلك فان ' العبد ' ـ خادم الولي ، سيظهر لها ويجعلها تصاب بالمرض .

(٢٠٨) في العهد القديم كان حرق البخور جزءاً من الطقس الديني الرسمي (الخروج ٣٠ : ٧ ، ٨ ، اللاويين ١٦ : ١٢ .

(٢٠٩) لكنيسة الروم اليونانية .

(٢١٠) ٦ / ٨ لتقويم جوليان (١٩ غريغوري) .

(٢١١) السلة الصغيرة ، تسمى قرطلة .

(٢١٢) من مذكرات والدي .

(٢١٣) يقوم العديد من فلاحي الناصرة ، بعد إنهاء قطف المحصول بوضع مقدار من الشعير أو القمح جانبا للشيخ 'شهاب الدين' ، ويباع ذلك للأنفاق على شطحة باسم الولي .

(٢١٤) ويرسل أهل بيت جالا زيتاً ، بعد الانتهاء من العصر لكنيسة مار نقولا ، كرمز للشكر .

(٢١٥) Curtiss, chapiter XVII

(٢١٦) لكنيسة الروم الارثوذكس .

(٢١٧) من مذكرات والدي .

(٢١٨) Aberglaube, p. ٧٤, n. ٦

(٢١٩) هذه الملاحظة موجودةٌ أصلاً في هامش رقم ٣ صفحة رقم ١٥٠ (حول الستارة) .

(٢٢٠) في شرافات سمعت تعبير هرمزي للاشارة إلى الستارة .

(٢٢١) لا تقع الستارة دائماً فوق الضريح مباشرة ، وتقع واحدة على هيكل خشبي وتغطي القبر كما في بيرم شاويش والبدرية .

(٢٢٢) مثل هذه الهدايا توجد في مزارات لوط وموسى وداهود .

(٢٢٣) ان غطاء الرأس لسكان بعض قرى القدس هو اللفة أيضاً ، والتي تختلف عن تلك التي وصفناها في النص .

(٢٢٤) الشيخ ريحان ، والشيخ أحمد الثوري والشيخ عنبر والشيخ عبد السلام . . الخ .

(٢٢٥) يقع المقام على قمة تلة على بعد ٢٠-٣٠ دقيقة من البحر ولا توجد قبور أو كهوف في الجوار ، وهناك شجرتا توت وعنب ضمن ممتلكاته .

(٢٢٦) هذا هو السبب في أن بعض الكنائس لها أملاك طائلة .

(٢٢٧) حتى حويطة الرجل المقدس ، كما هو الحال في الشيخ سعيد في اذنا تدهن بالحنا

(٢٢٨) خليط من الشيد (ثلث) والتراب (ثلثين) للطينة

(٢٢٩) في عورتا يقوم كثير من الناس الذين يحرقون الشيد بتقديم فردة من الشيد إلى العزيرات ، والفردة = ٣٠-٥٠ كغم ، وفي هذه القرية سمعت كلمة كبار للاشارة إلى اللتون الصغير .

(٢٣٠) يخزن الشيد في كهف بجوار المقام ، أو على السطح . وقد توضع فوق الشيد طبقة من التراب لحماية الشيد . نجد ذلك في (الشيخ عنبر ، السلطان إبراهيم ، وأحمد الكركي . . . الخ) .

(٢٣١) تحدد حمولة حمل جمل أو حمار أو بغل .

(٢٣٢) الفصل ولها عدة معاني ، فصل السنة وفصل الميه (اثني عشرة ساعة من الماء) ويستخدم لتقسيم مياه العيون .

(٢٣٣) محيط المحيط ١ : ٧٠٨ .

(٢٣٤) جوسين ص . ٣٣٨ .

(٢٣٥) سماط وتعني صينية كبيرة يوضع عليها الاكل (محيط المحيط ١ : ٩٩٤)

(٢٣٦) دير غسانه كقرية رئيسية وعاصمة رسمية

(٢٣٧) أبو غوش هي المركز .

(٢٣٨) حسب المحيط . . . الخ .

(٢٣٩) جوسين ٣٣٧ - ٣٦٣ .

(٢٤٠) صموئيل الأول ١١ : ١٥ .

(٢٤١) التكوين ١٨ : ١-٩ .

(٢٤٢) التكوين ٣١ : ٥٤ .

(٢٤٣) التكوين ٢٨ : ٢٠-٢٢ وجوديت ١١ : ٣٠-٤٠ .

(٢٤٤) الاغنام هي أول الحيوانات المدجنة المذكورة في التوراة .

(٢٤٥) Doutte, p. ٤٦٤ .

(٢٤٦) Jaussen, p. ٣٣٨ .

(٢٤٧) غنم وتعني القطيع سواء كان للضأن أو الماعز

(٢٤٨) يقع مزار عنبر بالقرب من العيسوية وفيه قبر الشيخ عنبر في المزار الرئيسي ، وزوجته في الغرفة الشمالية الصغيرة . ويقال بأن عنبر هو خادم لسيد مصري ، وسنذكر لاحقا قصة عنبر العجائبية .

(٢٤٩) انظر كيرتس .

(٢٥٠) حسب قوانين موسى ، يمنع نذر المولود الأول لأي حيوان ، لأنه مكرس أصلاً لله (اللاويين ٢٧ : ٢٦) .

(٢٥١) Kahle, PJB VIII, ١٥٦ .

(٢٥٢) النبي موسى ، روبين وصالح . . الخ .

(٢٥٣) انظر أيضاً Doutte p. ٤٦٦ .

(٢٥٤) المصدر السابق ص ٤٦٢ .

(٢٥٥) Kahle, PJB VIII, ١٥٥

(٢٥٦) تقع على بعد دقيقة أو دقيقتين من المزار وبالقرب من بئر .

(٢٥٧) Kahle, ١.c. and Curtiss , chapiter XXV .

(٢٥٨) عن عمر صالح البرغوثي .

(٢٥٩) PJB VII, ١٥٥ .

(٢٦٠) الفصول ١٢ و١٣ .

(٢٦١) فقط الناس الفقراء جداً يأكلون الجنين .

(٢٦٢) يضع المسيحيون الميت على ظهره من الغرب إلى الشرق ، والرأس على الجهة الشرقية والوجه نحو الشرق .

(٢٦٣) PJB VII, ١٥٧ .

(٢٦٤) ترجمة Sale .

(٢٦٥) الخضة وهي اسم آخر للخوفة ، انظر كنعان طاسة الرجفة . JPOS III, p. ١٣٠, Aberglaube, p. ٣٥

(٢٦٦) مسحوق أصفر وضع من عدة بهارات قوية متنوعة .

(٢٦٧) الاجراء المعروف ضد الخضة ، وهو ما سأصفه في هذه القصة . انزعج صديقي وجاري ابراهيم جريس وخاف من الأخبار السيئة التي وصلت ، وقامت قريبة له ، متخوفة من أن الخوفة ستؤثر عليه بشكل سيء ، بطبخ دجاجة سوداء مع البهارات المختلفة ، وابقت الآنيه مغطاة تماما حتى لا يخرج البخار ، وحين عرفت بأن الدجاجة قد نضجت ، رمت بنفسها على الأرض وأخذت تصيح في الغرفة المجاورة لغرفته ، وذهب نحوها مسرعاً وسألها عما يزعجها ، وبكت بصوت أعلى ، مردده ' يا ابني يا حظى . . الخ ، وقد أصبح صديقي أكثر تحفزاً ، وحينما أدركت بأن تحفزه أصبح كافياً ، صارحته بالحقيقة وأرغمته على تعريض وجهه للطنجرة المفتوحة ، ليغطي البخار وجهه ، وكان عليه أن يأكل الدجاجة كاملة لوحده . Canaan, Aberglaube pp. ٦٨, ٦٩ تستخدم دجاجة بيضاء حين تحدث الخوفة أثناء النهار ودجاجة سوداء حين تحدث الخوفة أثناء الليل .

(٢٦٨) المحيط ص ٢١٦٣ Hava ص ٨١١ .

(٢٦٩) وجدت وصفاً لهذه العادة في مذكرات والدي .

(٢٧٠) انظر سورة ٢ : ١٦٨ ، ٧١ : ١٤٦ ، XVI : ١١٥

(٢٧١) الترجمة عن سال .

(٢٧٢) ص ٤٦٣ .

(٢٧٣) شبه جزيرة سيناء .

(٢٧٤) في النبي موسى (كما روى أبو عثمان) وفي ابراهيم الخليل (كما روى أبو طالب)

(٢٧٥) كما روى ميلادي من بيرزيت .

(٢٧٦) حول الطقس التوراتي انظر اللاويين ١ : ١١ ، ٦ : ٢٥ .

(٢٧٧) ١٠ محرم .

(٢٧٨) يجب أن تكون الضحية سليمة تماما ، ليست عمياء أو عوراء أو مشلولة أو مكوية .

(٢٧٩) سمع في لفتا .

(٢٨٠) أم محمد من عمواس .

(٢٨١) اذا أخذ الدم من حيوان أضحية في عرفات فسيكون اكثر تأثيراً .

(٢٨٢) كورتيس ، فصل ١٩ .

(٢٨٣) سمع في بيت حنينا .

(٢٨٤) كورتيس الفصل الأول .

(٢٨٥) قارن القصة في الخروج ١٢ .

(٢٨٦) اللاويين ١ : ٥ ، ٣ : ٢ .

(٢٨٧) لاحظ جوسين بعض العادات في شرق الأردن (ص ٣١٦) .

(٢٨٨) PJB VIII, ١٥٩ ff .

(٢٨٩) كما في الأنبيا ، والخضراء . . . الخ .

(٢٩٠) صموئيل الأول ٢ : ١٢-١٦

(٢٩١) المجيدي التركي = ٢٠ صاغاً ، وهو خمس الجنيه التركي .

(٢٩٢) الزرب وهو الحمل المشوي .

(٢٩٣) صموئيل الأول ١٤ : ٣٢-٣٤ .

(٢٩٤) W. Smith, Dictionary of the Bible, vol. II, p. ١٠٧٩ .

(٢٩٥) Hasting and Selbie, Dictionary of the Bible, ١٩١٤, p. ٣١٢ .

Doutte, p. ٤٧٢ .

(٢٩٦) عاموس ٥ : ٢١-٢٣ . . الخ .

(٢٩٧) انه ليس من الصعب توضيح كيف أن الكبسة تؤثر على الجمل ؛ فالجسم الميت ترافقه أرواح شريرة ، وهذه تنتقل إلى جسم الجمل الحي .

(٢٩٨) Job ١٦-١٢ .

(٢٩٩) Deut. ١٩١٢ .

(٣٠٠) Ev. ١٧١١ .

(٣٠١) قارن تقدمات الخطايا في الشريعة الموسويه .

(٣٠٢) الخروج ١٩ ، الخ .

(٣٠٣) التكوين ٤ : ٣ .

(٣٠٤) الخروج ٣٤ : ٣٠ .

(٣٠٥) في العهد القديم كان على المضحي أن يضع يداً واحدة ، وفي مرحلة متأخرة كلتا يديه ، على رأس الضحية (صموئيل الأول ٢١ : ٤) .

(٣٠٦) بالضبط كما في اللاويين ١ : ٥ ، ١٧ : ١١ . . . الخ .

(٣٠٧) Deut . ١٢ ١٣ .

(٣٠٨) انظر Aberglaube .

(٣٠٩) الخروج ١٢ : ٧، ١٣ .

(٣١٠) انظر Aberglaube .

(٣١١) صموئيل الأول ١٤ : ٣٢-٣٤ . . الخ .

(٣١٢) N. Soderblom, Das Wesen des Gotterglaubens, p. ٨١ .

(٣١٣) محيط المحيط ٢ : ١٦٨١ .

(٣١٤) عادة منتشرة في بني زيد .

(٣١٥) يجري هذا النذر حين يكبر الولد ولا يكون قادراً على النطق .

(٣١٦) عن شخص من بتير (بني حسن) .

(٣١٧) جوسين ص ٣٦٥ .

(٣١٨) Aberglaube , p. ٧٥ .

(٣١٩) تجري عادة يوم الجمعه .

(٣٢٠) توضع عن سكاكين في الحوض .

(٣٢١) عن مسيحي من رفيديا .

(٣٢٢) خصوصاً بيت جالا وبيت لحم .

(٣٢٣) Aberglaube , l.c. .

(٣٢٤) ينخل حتى يصبح أبيضاً ، وفي السابق كان يجري سبع مرات .

(٣٢٥) أم ثلجي من بيت جالا اعطتني كلمة وجوه ، مفرد وجه ، للرغيف .

(٣٢٦) تسمى أيضاً قداسة .

(٣٢٧) يتبع هذه العادة الروم الارثوذكس فقط .

(٣٢٨) وتسمى عموماً المقطوعين (أي بدون شخص يعتني بهم) .

(٣٢٩) ويسمى أيضاً مركوب أو مشايه .

(٣٣٠) يضع غالباً من القماش الابيض أو الأزرق ، ويسميه البعض سروالاً .

(٣٣١) يسمى أيضا كبر

(٣٣٢) يلبس فوق القميص ، والقمباز يصنع من القماش الملون ، وهو مفتوح من الأمام ويربط عند الوسط بزنار .

(٣٣٣) غطاء رأس بدوي .

(٣٣٤) عن أبو عثمان (القدس) .

(٣٣٥) عن أم بشارة ثلجي .

(٣٣٦) داخل المدينة في الحي الشمالي الشرقي .

(٣٣٧) في العادة لا يؤدي المولد في المزارات الصغيرة ، أو مقامات الأولياء غير المهمين . ويفضل الناس قراءة المولد في ' إبراهيم الحواس ' ، النبي موسى ، ' علي بن عليم ' ، ' النبي روبين ' .

(٣٣٨) يسمح للشيخ الضرير بالدخول إلى غرف الحريم لتعليم القرآن أو للصلاة .

(٣٣٩) لم أجد أي تفسير آخر للبيضة ، ولا يحق للشيخ أن يأخذها معه .

(٣٤٠) سمعت هذه العادة عن منصور من لفتا .

(٣٤١) كنيسة الروم الارثوذكس .

(٣٤٢) ان المرأه غير الطاهرة والمريضة وعلى سفر معفاة من هذه القاعدة ويجب أن تقوم بواجبها في نفس السنة .

(٣٤٣) ان النذور من هذا النوع معروفة في العهدين القديم والجديد انظر القضاه ١٣ : ٥ ، صموئيل الأول ١ : ١١ ، لوقا ١ : ١٥ . . الخ .

(٣٤٤) يقوم الناس بالنذر لهذا الولي أكثر من الأولياء الآخرين (عن البرغوثي) .

(٣٤٥) G. Barghuti, Judical Courts among the Bedouin of Palestine, JPOS II , No. ١, ١٩٢٢.

(٣٤٦) سمعت عن هذه القصة في فلسطين الوسطى فقط ، وهي ليست معروفة في القرى المحيطة بالقدس .

(٣٤٧) اللاويين ٢٧ : ١-٧ ، الذكور من ٥-٥٠ شيكلاً والاناث من ٣-٣٠ شيكلاً .

(٣٤٨) عن أم الياس .

(٣٤٩) في لفتا .

(٣٥٠) عن امرأه من لفتا .

(٣٥١) Acts ١٨١٨, ٢١٢٤ .

(٣٥٢) جوسين ص . ٣٣٩ .

(٣٥٣) تقدم ذبيحة لابراهيم عند بناء بيت جديد .

(٣٥٤) جوسين ، الفصل الأول .

(٣٥٥) Aberglaube p. ٢٠

(٣٥٦) " Haunted Springs and Water Demons, " JPOS I, pp. ١٥٣-١٧٠

(٣٥٧) انظر Aberglaube

(٣٥٨) انظر اللاويين ١٦ : ٨ ، ١٧ : ٧ الملوك الثاني ٢٣ : ٨ .

(٣٥٩) من القبيبة .

(٣٦٠) في القرى يعرف بأن رجب وشعبان ورمضان هي أنسب الشهور لقراءة القرآن .

(٣٦١) يقدم بعض المسيحيين فنجاناً من القهوه وقطعة من البسكويت الجاف .

(٣٦٢) تنتشر هذه العادة عن الروم الارثوذكس .

(٣٦٣) الرحمة وتتكون من كعك مستدير مصنوع من السمن والزبده وحبات السمسم .

(٣٦٤) محيط المحيط .

(٣٦٥) حيث يكون الانسان على اهبة السفر يقول لاصدقائه ' ادعو لي' .

(٣٦٦) Canaan Kalender des Nebi Musa Fest, ZDPV ٣٢, pp ٢٠٧-٢٢١

(٣٦٧) يستعمل أصلا لمكه ، محيط المحيط II ٢٢٥٠ .

(٣٦٨) وانظر :

* Hans Spoer, Das Nebi Musa Fest , ZDPV , xxxII. PP. ٢٠٧, ٢٢١

* R. Hartmann, Nebi Musa, MNDPV, ١٩١٠, PP. ٦٥-٧٥

* P. Kahle, Gebrauch bei den Moslemischen Heiligtumern in Palestina , PJB, ١٦٥, etc

(٣٦٩) الساحة مبلطة بالألواح الحجرية .

(٣٧٠) يمكن رؤية هذا ، فالباب المؤدي إلى الخارج مغلق ، ومكان ربط الحيوانات مرئي .

(٣٧١) بالاضافة إلى المزارات التي تحمل نفس المميزات ، لتصبح خمسة وهي :

- الشيخ احمد في النبي صمويل
- الشيخ منصور في حزما
- الشيخ نوران بالقرب من الشلاله
- الشيخ أحمد الساريسي في أبو غوش
- الشيخ عبد الله في شرافات

(٣٧٢) لأن الكثير يعتمد على كمية المياه في هذه الآبار أثناء الموسم ويعتقد الناس بأن الآبار تمتلئ بشكل عجائبي . . . وقد أخبرنا بأن سقوط الأمطار أثناء فصل الصيف قليل ولا تمتلئ الآبار بالمياه ، ويحدث دائماً أن النبي موسى يرسل مطراً شديد فوق المنطقة المقدسة ، قبل الموسم بقليل .

(٣٧٣) ZDPV ٣٢، ٢١٨ .

(٣٧٤) Kahle, PJB VIII, ١٧٤ .

(٣٧٥) ZDPV ٣٢، ٢١٢ .

(٣٧٦) المقصود موسى .

(٣٧٧) عزرائيل .

(٣٧٨) ليست في الجمعه العظيمة كما ذكر Spoer .

(٣٧٩) يستعمل هذا التعبير لليلة قبل ليلة العيد .

(٣٨٠) معدله من كنعان Folklore of the Seasons, JPOS III, ٢٣

(٣٨١) كان أهل بيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا يسمون يوم ٢٤ كانون أول 'الحروة' ، إذ يذهبون إلى بيت لحم ليشاهدوا الموكب الرسمي للبطريرك ، وليشتروا الحلوى . والعادة هذه تتلاشى الآن .

(٣٨٢) ZDPV ٣٢، ٢١٤ .

(٣٨٣) القيم في الشيخ جراح .

(٣٨٤) هذا والذي سبقه من القدس .

(٣٨٥) قيم الخضرا (نابلس) .

(٣٨٦) هذا النظام أخذته عن عدة أشخاص ، يذهبون كل سنة إلى المزار ، بحكم أنهم خدام النبي .

(٣٨٧) نجد أكوام الحجارة هذه . في عهد الأباء التكوين ٣١ : ٤٤-٥٣ ، يوشع ١ :٤-٨ و٩-٨ .

(٣٨٨) James Neil, Palestine life, p. ١٣٣ .

(٣٨٩) Aberglaube, pp. ٥٨، ٦٤، ٨٤، ٩٤، ٩٥ .

(٣٩٠) Curtiss, chapter XVI .

(٣٩١) الولي يحرس مزاره من السرقة . قيل لي ان بدوياً دخل ليسرق ستارة ضريح النبي موسى ، وعندما فعل ذلك وحاول الخروج من الشباك قام النبي بتجميع الحديد على السارق وقتله . وظهر النبي في المنام لموسى يونس من القدس وقال له : اذهب يا موسى واخرج جثة البدوي من المزار .

(٣٩٢) زيارة النبي موسى لا تسمى حجه .

(٣٩٣) Aberglaube , p. ٣١ .

(٣٩٤) انظر و ١٦ , Kahle, PJB VIII ويقدم ' الديوان الفلسطيني لدالمان ص ١٥٨ ثلاثة أبيات فقط .

(٣٩٥) يستعمل البعض سيروا بدلاً من زوروا .

(٣٩٦) يلاحظ كاله 'كلامك يا موسى مكتوب بالمنديل' وهذا النص أكثر شيوعاً .

(٣٩٧) هذا النص موجود أصلاً في هامش رقم ٥ صفحة رقم ٢١٠ .

(٣٩٨) انظر محيط المحيط ١ : ٦٤٥ .

(٣٩٩) المقصود النبي محمد .

(٤٠٠) عن امرأه من المالحة .

(٤٠١) تغنى الجزء الأول من هذه الاغنية إلى الحجاج القاصدين مكه .

(٤٠٢) ما إله أصح من ولا .

(٤٠٣) Kahle, PJB VIII, ١٦ .

(٤٠٤) المصدر السابق ص ١٦٩ .

(٤٠٥) هذه الحلويات شائعة جداً .

(٤٠٦) هذا الدعاء موجود أصلا في هامش رقم ١ صفحة رقم ٢١٣ .

(٤٠٧) Aberglaube, p. ٨٧ .

(٤٠٨) لبعض القديسين المسيحيين مواسم مثل مارجريس ومار الياس ويقضي الناس أياماً للاحتفال بموسم العذراء مريم .

(٤٠٩) تزخرف الحيوانات في هذا اليوم .

(٤١٠) كتب على الضريح بسم الله الرحمن الرحيم وروبين نبي وعلى الكثير من الاكشاك 'مخصوص لزوار النبي روبين' .

(٤١١) أحمد الطهطاوي ، ص ٦٠٨ .

(٤١٢) هذه الأبيات موجودة في هامش رقم ١ صفحة ٩٨ .

(٤١٣) Canaan, ZDPV ٣٦, ٢٦٦-٣٠٠

Bauer ٣٨, ٥٤-٥٧

Bauer Volksklben im Lande der Bible, pp.

١١٢-١١٨, Canaan, JPOS III, ٢١-٣٥

(٤١٤) ZDPV ٣٦ .

(٤١٥) سمعت في أبو ديس ، صور باهر ، والنبي صمويل .

(٤١٦) سمعت ذلك من مسعود أبو سعيد من أبو ديس .

(٤١٧) Kahle, PJB VIII, ١٦٤ .

(٤١٨) هذه العادة منتشرة بين البدو أكثر منها بين الفلاحين .

(٤١٩) حول ام الغيث ، انظر A . Gustavs PJB VIII, ٨٨ .

(٤٢٠) Kahle, PJB VIII, ١٦٢ .

(٤٢١) Curtiss, ١.c. chap. X١ .

(٤٢٢) Goldziher, ZDMG ١٨٨٧, ٤٢ .

(٤٢٣) Jaussen, p. ٣٢٨

(٤٢٤) معظم هذه الأبيات مذكورة في

ZPPV ٣٦, ٢٩٠, ٢٩١, Kahle, PJB, ١.c.

(٤٢٥) تحوير آخر منشور في الديوان الفلسطيني ، ص ٥٦ لدالمان .

(٤٢٦) انظر Fr. Ulmer, Sudpalast. Kopfbedeckung

ZDPV XL١, ١١٣, ١١٤

(٤٢٧) ذهب أبناء يعقوب إلى مصر لنفس السبب .

(٤٢٨) قصر تعني هنا المنطار الصيفي الذي يبنيه الفلاحون في الكروم .

(٤٢٩) أبيات اخرى موجودة عند دالمان والديوان الفلسطيني ص ٥٦-٥٨ وذكر بالدنزبيرغر في كتابه الشرق الجامد ص . ٢٥٦ .

(٤٣٠) هذا البيت والذي سبقه مستعمل في عطاره .

(٤٣١) ارميا ١٤ : ١٣ .

(٤٣٢) تعتبر شوربنا ما هو اختصار في شو هذا يا ربنا .

(٤٣٣) هذه الأبيات الخمسة من عطاره .

(٤٣٤) سمعت أيضا ' فتة ' وهي قطعة من الخبز .

(٤٣٥) سمعت في بيت جبرين .

(٤٣٦) Canaan ZDPV ٣٦ , ٢٩٢ .

(٤٣٧) بريه وتعني التيه أو الصحراء ، وتستخدم أيضاً للاشارة إلى الحقول .

(٤٣٨) يقول امام مسجد عطاره بأنه يوجد أيضاً ' أبو الغيث ' .

(٤٣٩) الخابية وتصنع من الطين المجفف بالشمس .

(٤٤٠) تحوير آخر لهذا البيت مذكور في ZDPV ٣٦، ٢٩٢ .

(٤٤١) لم أجد تفسيراً لطقعة ، ولكنها ربما تكون صوت الرعد .

(٤٤٢) Coutumes, pp ٣٢٦, ٣٢٧ .

(٤٤٣) رأى كاله دجاجة سوداء وديكا أبيض ، وقد سمعت أنه تحمل أحياناً عدة دجاجات وديوك في الموكب .

(٤٤٤) سمعت ذلك في النبي صموبل .

(٤٤٥) معروفة تقريباً في كل مكان .

(٤٤٦) Kahle, PJB VIII

(٤٤٧) ان الترجمة الدقيقة قد قدمها كاله PJB VIII, ١٠٣

(٤٤٨) قدمت جزئياً في مقالتي تقويم احتفالات النبي موسى .

(٤٤٩) ابراهيم .

(٤٥٠) اسحق .

(٤٥١) يعقوب .

(٤٥٢) في التوراة نلاحظ بأن الاحتفالات العامه اعلنت للتعبير عن التذلل العام لسبب خطيئه أو سوء طالع ، ولاستجلاب العطف الالهي أمام خطر محدق .

الفصل الثالث

طبيعة الأولياء وشخصياتهم

نصل الان إلى الجزء الأهم من الدراسة المتعلق بالقديسين أنفسهم . وهذا الموضوع معقد ولكنه بلا شك شديد الأهمية لمن يقوم بدراسة الأديان المقارنة . وبصورة إجمالية يمكن القول بان سكان فلسطين قد تغيروا بمقدار قليل بالمقارنة مع الأحداث الكبيرة التي مرت على هذا البلد مثل الغزوات والفتوحات والاحتلالات من جانب العناصر والشعوب الغريبة التي عملت على تعديل معتقدات هذا الشعب ، وإعطائها لونا مختلفا . ولكن كل ذلك لم يجتث المعتقدات الأصلية كلية . وحتى الثورات العظيمة التي نجمت عن الديانات التوحيدية الثلاث ، والتي مهدها في فلسطين ، أو إلى جوارها لم تكن قادرة على القضاء على المعتقدات البدائية . ولكن هذه الحالة لا يمكنها الصمود الان في وجه التحولات الاجتماعية والسياسية الراهنة ، وقد تغيرت الأوضاع في العشرين سنة الأخيرة بدرجة كبيرة ، مما يجعل من جمع مواد الفولكلور الأصيل مهمة صعبة بالمقارنة مع سنة ١٩٠٠ ، ويصبح من واجب صديق الفولكلور الفلسطيني بذل كل ما في وسعه ، إذا لم نرد أن نفقد ما تبقى وسندرس موضوع الأولياء تحت العناوين التالية :

١- مميزات الأولياء .

٢- المعجزات .

٣- علاقة الأولياء بالرجال .

٤- علاقة الأولياء بالله والدين الشعبي .

٥- اصل الأولياء .

١ - مميزات الأولياء:

لا بد من ايلاء الاهتمام الخاص للنقطتين التاليين :

أ- المميزات الجسمانية .

ب- المميزات الدينية والأخلاقية .

أ- المميزات الجسمانية:

أن جميع القديسين كانوا ذات مرة أناسا من البشر ، وحافظوا على صفات إنسانية حتى بعد تحولهم إلى أولياء . ومن المهم أن نلاحظ بان الروايات التي نحصل عليها عن نفس الولي قد تختلف من مكان لآخر ونجدها اختلافات سطحية ، ولكن الأفكار الأساسية تبقى هي نفسها . ولا بأس من أن نتناول الموضوع من حيث :

١- الجنس والعمر .

٢- طريقة الحياة .

٣- طبعات الأيدي ، الأقدام ... الخ .

٤- ظهورهم على شكل حيوان .

١- الجنس والعمر :

ينتمي الأولياء الي الجنسين (١) ، على الرغم من أن القديسين الذكور هم اكثر عددا (٢) . وهذه الحقيقة لا تبرر ما يقوله كوبلت Kobelt من انه ليس لدى العرب أولياء من الإناث (٣) . كما أن بيرون(٤) Perron غير محق عندما يكتب بان الطريق إلى القداسة صعب على النساء ، ولذلك يندر أن نجد امرأه في الإسلام سلكت ذلك الطريق (٥) . أن كل من يراجع بشكل نقدي دور المرأه في الفترات الإسلامية الأولى ، ويدرس بعناية تعاليم المؤسس سوف لا يجد عوائق حقيقية أمام التطور الديني للأنثى(٦) . وفي كل مرة نأخذ روايات عن أولياء الرجال ، نجد مراجع لأولياء من النساء . ومن بين المزارات التي زرتها هناك ٢ ،١٣٪ مكرسة للأولياء من النساء(٧) ، ويلاحظ الباحث أن

القسم الأكبر منهن ذوي أهمية نسبيه . أن ٦٠٪ من الوليات يتمتعن بشهرة كبيرة ، بالمقارنة مع ٣١٪ من الأولياء الرجال . ومن الغريب أن بعض القرى ليس فيها وليات ، مثل عناتا ، شعفاط ، شوبا ، النبي صموئيل ، بيت عنان . . . الخ . وهناك بعض الوليات يتمتعن بنفس سمعة الأولياء الذين في نفس المنطقة ، وربما اكبر من ذلك . فالبدرية هي ابرز ولي في شرفات والقرى المجاورة . ويقدس أهالي عورتا العزيرات تقريبا مثل المفضل والمنصوري . أن الخضرا في نابلس ، والخضرا في الجورة (وليتان مختلفتان) تحوزان على الاحترام والزيارة الوافرة اكثر من أي ولي ذكر في منطقتيهما . ومع ذلك هناك وليات ذوات أهمية قليلة مثل ' بنات الشيخ صالح ' في أريحا ' عراق البدوية ' في المالحة و ' الحجات ' في المالحة و ' الشامية ' في كولونيا وبنات الرفاعي في عورتا . . الخ . ومن الغريب أن كل' الأشجار المقدسة ' التي تملك الاسم البسيط شجرة يظن أنها مسكونة بوليات (٨) . وفيما بعد سأقدم قائمة بهذه الأشجار . ويعود تفسير ذلك إلى أن جميع أسماء الأشجار مؤنثة في اللغة العربية(٩) . ويمكن أن نفهم ما يقوله جوسين من أن كل شجرة من ذلك النوع تعتبر مقدسة . ولكن الحقيقة أن القداسة جاءت من سكنى روح فيها ظهرت لأناس مختلفين في فترات مختلفة . وفي كثير من الحالات فان تعبير ' ستنا ' و' الشيخة ' يظهر مكان ' ولية ' .

أن الوليات من النساء ، حسب الدين الشعبي الفلسطيني ، يمتلكن نفس قوى الأولياء الرجال ، فهن يشفين المرضى ، ويساعدن المظلوم ، ويحرسن ممتلكات الجيران ويحمين القرية من الأعداء . . . الخ(١٠) .

والقليل من الأولياء الإناث من اصل توراتي ، وفي الرام يرى المرء قبر أم صموئيل . وفي نابلس هناك مزار مكرس للخضرا ، التي يفترض أنها ابنة يعقوب . ويقول تاريخها بان ابن قائد إحدى القبائل قد طلب من يعقوب أن يعطيه ابنته كزوجة ، وعندما رفض ذلك لان طالب البنت كان وثنيا ، قام الشاب برشوة ٤٠ من أتباع يعقوب المؤمنين بان منح كل واحد منهم كيس ذهب(١١) . وقد كان لذلك اثر في أن يقبل سيدهم بالطلب . وقال يعقوب : ' أنا قد اقبل هذه الصفقة ، أما أنت فلا ' . وهكذا أرسلوا زوجاتهم لتحضير الخضرا للزواج . وقد أكد لها والدها أن رب آبائه لن يسمح بذلك ، وطلب منها أن تصرخ ثلاث مرات عند دخول العريس غرفتها :

يا جدي ساعدني

أيها الأنبياء ساعدوني

يا الهي ساعدني

ونفذت الخضرا الوصية ، وسقط العريس ميتاً عند دخوله الغرفة ، وهكذا حافظت على عذريتها وسميت الخضرا (١٢) . أن الأولياء الذكور الذين يشكلون نسبة ٨٦،٨٪ من المجموع هم من البدو ، السودانيين ، المغاربة ، والفلاحين . ويظهر الأولياء بشكل رئيسي في الأحلام . وأحيانا يمكن رؤيتهم في المساء . في حين يقوم بعضهم بالحديث على شكل شيوخ لحية بيضاء ، وشعر ابيض (اختيار ، شايب ، شيخ) والقليل جدا منهم أناس في أواسط العمر مثل الشيخ احمد من خربة قرية سعيدة .

وتظهر الوليات بشكل رئيسي كصبايا وأحيانا كنساء في أواسط العمر ، ولكن يندر أن يظهرن بشكل عجائز . ويعرف الأولياء بمشيتهم الملكية ، وعيونهم الثاقبة ونظرتهم الهادئة ، وقوامهم المنتصب .

وبينما نجد غالبيتهم من الجنس الأبيض ، فهناك زنوج منهم كما أن فيهم القمحي اللون والسوداني . ومن بين الأولياء الزنوج :

الشيخ أحمد	خربة قرية سعيدة
الشيخ عبد الله	شعفاط
الشيخ عنبر	العيسوية
الشيخ مبارك	بيت اكسا
الشيخ أبو اسماعيل	ليقيا
الشيخ عبيد	سطاف

ولم أجد وليّات زنجيات لهن مزارات .

٢- طريقة الحياة :

أن ملابس الأولياء تتصل بعاملين : الزي الوطني لبلاد الولي الأصلية ، والصفات المحلية لمنطقة المزار . فإذا كان الولي خلال حياته بدوياً ، مغربياً ، فلاحاً ، عبداً ، غنياً أو فقيراً ، فانه يلبس ملابس مماثلة للوسط الذي خرج منه . ويظل الولي يحافظ على ملابسه القديمة حتى بعد موته . ويفترض في الأولياء أن يلبسوا الأزياء المعروفة في منطقة المزار ، حتى ولو ولدوا في بلاد أجنبية .

وبصورة عامه يمكن تقديم الوصف التالي : لفة ، شاشة شرف ، أو عمامة ، تغطي الرأس . أو توضع على الجسم ويرتدي الولي ثوباً ، جبة ، عباءة وزنار . ويرتدي البدو العقال .

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ ألوان الثياب . وقد لاحظت أن الألوان تنتمي إلى ثلاث مجموعات : أحمر ، أخضر ، وأبيض . وفي حين يسيطر اللون الأبيض فان الأخضر هو اللون المقدس . وغالباً ما نسمع التعابير من مثل ' لابس أبيض في أبيض ' . والكثير من الأولياء يرتدون حطة بيضاء وجبة ، أو لفة حمراء وثوباً ابيض . وجميع أولئك القديسين الذين يفترض انهم أحفاد للنبي (شُرفا) يلبسون غطاء رأس أخضر . أن لون غطاء الرأس أمر حاسم بينما لا تعلق أهمية كبرى على القطع الأخرى .

ويقال أن ملابس الوليّات : مدني ، بدوي ، وفلاحي . وقد كانت الشامية (كولونيا) ترتدي ملابس امرأه مدنية بإزار ابيض . وترتدي ' البدرية ' و ' ستنا الخضرا ' (بيت نوبا) نقاباً اخضر وازارا أبيض . وللولية الأخيرة عصابة خضراء على جبينها .

ويقال أن ' بشر الحافي ' (١٣) في (نابلس) يظهر وهو يمشي عاري القدمين ، كما كان الحال في حياته . ونسمع أن البعض يلبسون تاجاً ، يوصف بأنه اخضر(١٤) . من هؤلاء :

النبي دانيان	قرب الخضر
الخضر	في كل مقاماته

الشيخ احمد خربة قرية سعيدة

الشيخ حسين بيت سوريك

الشيخ حسين بيت عنان

وفي حالة النبي موسى فان الكثيرين قد أكدوا لي انهم رأوه بهالة خضراء تحيط بوجهه . وقيل أن بعض الأولياء شوهدوا وبأيديهم محجانة ، رمح وسيف .

ويظهر كل من الشيخ عبد السلام ، السلطان ابراهيم الادهمي (شعفاط) ، براق (بيت جبرين) والنبي أيوب (راس ابن سمحان) وقد حمل كل منهم رمحا .

ويحمل الشيخ محمد من وادي النمل ، والنبي طرفيني وستنا الغارة (وكلاهما في بيت نوبا) في بعض الأوقات سيفا يقطر دما . ويحمل الشيخ شريف وآخرون محجانة .

وفي معظم الحالات يظهر الأولياء وهم يسيرون ، أو يجلسون ، لكنهم أحيانا يركبون الخيل . وهذا امتياز خاص للقديس جورج . ويُرى دانيان راكبا إلى مقامه . وعندما يصله يربط حصانه إلى إحدى أشجار البلوط ، ثم يتقدم إلى الموقع المقدس . وللشيخ حسين (بيت سوريك) حصان أخضر . وحتى الخيول فإنها توصف بأنها من لون أخضر :(١٥)

سيادي راكبين خْيول خُطار

لكم زين المباسم ما تْحظرْ

على عرفات ودعونا نتحظر

قلوب شاكية كُثر الصدى

وعند فحص التفاصيل الأخرى نعرف أن بعض الأولياء يستمرون في أداء ما اعتادوا عليه في حياتهم . لقد رأوا بنات الشيخ صلاح وهن يغلين القهوه ويغنين . ولوحظ أن السلطان ابراهيم الأدهمي (بيت حنينا) كان يجلس أمام مزاره مدخنا غليونه . أما الشيخ احمد الحويس (بدو) فغالبا ما يمشي من قبره إلى الكهف الذي يحمل اسمه ، حيث

اعتاد أن يقضي معظم وقته وهو حي . ويفترض بان الخضر يأخذ حماما كل خميس في 'حمام الدرجة' في نابلس . ويقضي الشيخ خالد(١٦) اشهر الصيف تحت شجرة بلوط ، ويعيش في الشتاء في طاقته(١٧) . ويفرش احمد الجبُاره (يالو) سريره على سطح البئر . ويتألف سريره من فروه ذات صوف طويل أبيض . ولشجرة أبو نار عادة شهرية عندما يهيجها أحد(١٨) . فهي 'بتحيض' ويسيل منها سائل . وفي حالة بير عُونة (بيت جالا) تصبح الحجارة على الحافة العليا حمراً مرة كل سنة في عيد العذراء . هذه هي الوحيدة التي سمعت عنها التي تمتلك فيها الوليات 'عادة شهرية'(١٩) .

أن الأولياء يلتصقون بأماكن سكنهم حيث يظهرون وتظهر معجزاتهم ، ولكن من الممكن أن يغيروا المزار أو يقيموا في قرية أو بلاد أخرى . هذا ما حصل لبنات الشيخ صلاح (أريحا) ، عندما خرب مسكنهن في الحرب ، وحوله الأتراك إلى اصطبل ، فقد عاقبنهم بمساعدة الإنجليز على احتلال وادي الأردن . وانتقلن في نفس الوقت إلى حسبان .

٣- طبعات الأيدي والأقدام . . .الخ :

من مميزات الأولياء ، انهم من الممكن أن يتركوا طبعات أيديهم وأقدامهم والركب في الصخر الصلب . ومثل هذه الإشارة توجد فقط في حالة الأنبياء المهمين . وفي ٥٠٪ من الحالات نجد طبعات الأقدام ، وفي البعض الآخر نجد أثار الأيدي والرؤوس والركب ، وأحياناً الجسد كله . وأحياناً نجد الآثار المختلفة لجسم الولي في نفس الصخرة وفيما يلي الطبعات والآثار التي شاهدتها :

١- أثار اثنتي عشر خطوة للنبي محمد على الصخرة .

٢- أثار اثنتي عشر خطوة لإدريس على الصخرة .

٣- خطوة للنبي محمد على الصخرة .

٤- القدم اليمنى للمسيح - الأقصى .

٥- أقدام المسيح - جبل الزيتون .

٦- قدمان ويدان لإبراهيم - مسجد اليقين .

٧- قدمان ويدان للنبي لوط - قرب مسجد اليقين في حُوّيطة(٢٠) .

٨- ركبتا ويدا مريم - بير عونه - بيت جالا .

٩- ركبتا المسيح ، بير عونه - بيت جالا .

١٠- رأس النبي محمد ، الصخرة .

١١- يد جبريل ، الصخرة .

١٢- جسم القديس إيليا ، مقابل دير مار الياس .

١٣- سرير عيسى(٢١) ، في مدخل إسطبلات سليمان .

١٤- سرير السيدة ، بيت جالا .

ويخبرنا أهل بيت جالا ما يلي عن الآثار الواردة في الرقمين ٨ ، ٩ السالفين : ' بينما كانت العذراء تحمل طفلها ذات يوم صيفي حار ، مرت بالوادي القريب من بيت جالا . وعطش الطفل ، ولما وصلت بئرا وجدته جافاً . وانحنت العذراء على حافة البئر وقالت : 'انتلي يا بير ليشرب الوليد الزغير ' . وبدأت المياه تفيض من نبع تحت الأرض حتى امتلأ البئر . وانحنت العذراء والمسيح واطفأ العطش . وهكذا ظلت آثار ركبتي الام والطفل ، وآثار يدي مريم واضحة في الصخر . ومنذ ذلك الحين لوحظ أن حافة البئر تصطبغ بالأحمر في عيد العذراء(٢٢) . واصبح البئر بئر عونه - بئر المساعدة(٢٣) ، لانه استجاب لدعوة العذراء .

المسخوطة(٢٤) هي حقل كبير من الصخور من كل الأحجام يقال أنها تمثل رجالا ونساءً . ويقع المكان إلى الشمال الغربي من بيت جالا ، وقصته كما يلي :

'كان سكان قرية يحتفلون بعرس ، وجئ بالعروس من بيت والدها على جمل ، كما هي العادة . وقد تبعها عدد كبير من الأصدقاء الذين وقعوا في الخطيئة وحولهم الرب إلى حقل من الصخور . وفي وقت ما كان من الممكن التعرف على إشكالهم ، ومع الزمن

ووسائل التعرية ، لم يعد من الممكن التعرُّف الا على القليل . وهكذا يمكن أن يرى المرء العروسة راكبة على جمل ، وهناك صخور أخرى تمثل امرأه ، رجلاً وطفلاً(٢٥) .

أن هذه العقوبة القاسية ، والتي تشبه قصة سدوم وعمورة وزوجة لوط قد أصبحت بمثابة إنذار لكل القرى المجاورة التي ثابت وعادت لعبادة الرب . أن هذه الحجارة المسخوطة هي نقيض أثار القديسين ، وفي حين أن الأخيرة هي دليل على العظمة والقوة الخارقة للأولياء بما يبعث على الأحترام ، تمثل الأولى شكلاً من أشكال عقاب الرب للخطاه ، بما يبعث على الرعب .

٤- الظهور على شكل حيوانات :

انه لمن الغريب أن نسمع عن ظهور الأولياء على شكل حيوانات(٢٦) . والفكرة تعود بالتأكيد للدين البدائي . ونجد في الأغاني المسيحية ما يشير إلى أولياء بشكل الحمام وهم بطرس وبولس ويوحنا :

رحلْنا ونزلنا ع قبرْ المسيحْ

لاقينا مارْ يوحنا قاعدْ يستريح

فرشلْنا بساطو وقلّنا اقعدوا

فتحلْنا انجيله وقلّنا اسمعوا

اسمعْنا قْراية اسمعنا حْسوسْ

اسمعنا قْراية بتحيي النفوس

طْلعنا ع الجبل لاقينا ثلاث حمامات

واحدة بتصلي وواحدة بتصوم

وواحدة بْترشق بالبخُور .

الشيخ عبد الله (بيت سوريك) يأخذ أحيانا شكل الغول ، وأحياناً يظهر على شكل حيّة وضبع . ولدي في مجموعاتي خمس عشرة حالة ، والحيوانات الممثلة هي :

طيور	٧ حالات
أفاعي	٣ حالات
أرنب	حالة واحدة
عنزه	حالة واحدة
أسد	حالة واحدة
نعجه	حالة واحدة
أشكال مختلفة	حالة واحدة

وفي تحليل لوضع هذه الحيوانات نجد أنها تَمُتُّ لمجموعتين :

١- حيوانات تفضلها العفاريت مثل : الجدي ، الضبع ، العربيد ، والغول . أن لون هذه الحيوانات هو اسود معتم ، وهي تشير إلى الجن السيئ ، مثلما نعلم في علم الجن الفلسطيني . وفي هذا المجال يستعمل تعبير عربيد وليس حية ، فالعربيد يمثل المتاعب والطبيعة السيئة ، وفي اللغة العربية الكلاسيكية تعني ' أفعى سيئة وسامة ' ، فضلاً عن انه يعني : ذكر الحية . وكذلك فان العنزة تمثل عفريتاً سيئاً . والغول هو واحد من اسوأ العفاريت ، بينما الضبع هو اسوأ الحيوانات من حيث طبيعته(٢٧) .

٢- الحيوانات التي تأخذ الأرواح الطيبة شكلها : وفي مجموعتي هناك الحمامة ، الطير الأخضر ، الطاووس الطير الغريب ، الأسد ، ومن المحتمل الأرنب .

لقد كانت الحمامة ، دائما ، رمز الطيبة والتقوى . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الطير الأخضر(٢٨) ، بينما الأرواح التي تأخذ شكل الغنم فهي ذات طبيعة

جيدة(٢٩) . أن كل ما اعرفه عن الأرنب هو أنني لم اسمع بان عفريتاً سيئاً يتخذ شكل هذه الحيوان . ولا بد من القول أن القديسين الذين يأخذون شكل تلك الحيوانات الطيبة قد ظهروا وهم يقومون بمساعدة الإنسان ، ويخلصون القرى من الأعداء ، ويعتنون بالناس في أوقات الخطر . ومن ناحية أخرى ، فان كل القديسين الذين اخذوا شكل الحيوانات (الواردة في رقم ١) يظهرون وهم يعاقبون الناس ويؤذونهم ويخيفونهم .

أن هذه الظاهرة الغريبة في التحوّل لا يمكن تفسيرها الاّ في أنها جزء من الديانات القديمة . وفي ضوء ذلك نفسر كيف أن القديسين رجال الله المختارين يأخذون أشكال الحيوانات الهائجة والسيئة .

وفي هذا السياق لا بد من ملاحظة أن بعض الحيوانات تحمى المزار من أن يلوثه أو يسيء اليه أحد . وهؤلاء الجن الحراس يكونون بشكل حية ، وليس بشكل عربيد . وتروي القصة التالية عن النبي موسى :

'خلال الحرب قام الهنود - السيخ (الكفار) بالعسكرة داخل البناء ، ولانهم لوّثوا المكان قامت حية ضخمة بطردهم بعيداً ' .

وفي هذا الحال فان الولي لا يأخذ شكل الحيوان ، ولكنه يرسل الأخير ليعاقب المعتدين .

وفيما يلي قائمة بأسماء القديسين الذين ظهروا في أشكال حيوانات :

١- احمد الطيار	شرافات	طير كبير
٢- موسى	قرب أريحا	طير أخضر
٣- العزيرات	عورتا	ثلاث حمامات
٤- أبو العوف	سنجل	حمامة
٥- الشهداء(٣٠)	القدس	نعجة بيضاء(٣١)

٦- الرفاعي	-	طاؤوس
٧- البدوي	-	طير اخضر
٨- الدسوقي	-	طير صغير اسمه الغُرَيب
٩- الجيلاني	-	الأسد
١٠- لوط	بني نعيم	الأرنب
١١- أبو شوشه	بيت عور الفوقا	عربيد
١٢- حمد الله	بدو	عربيد
١٣- عنْبر	العيسوية	عربيد
١٤- البدْرية	الجيب	عنزه
١٥- عبد الله	بيت سوريك	غول ، ضبع أو عربيد
١٦- حسن البقري	خربة النبي ثادي	غزال

أن القصص التالية توضح ما ذهبنا اليه : فسكان القرى المحيطة بعورتا ، وقد دفعهم البدو ، قاموا بمهاجمة هذه القرية . وعندما أحدق الخطر بالسكان استنجدوا بالعزيرات ، فظهرت ثلاث حمامات وحوّمن فوق القرية . وصار الأعداء ، كما إعترفوا بذلك لاحقاً ، يرون كل شيء أخضر ، ولم يستطيعوا التعرف على الوضع في القرية . وفشلت كل محاولاتهم للبحث عن مواقع البيوت ، وارتدوا خائبين . ويظهر ' أبو العوف ' على شكل حمامة لكل من يطلب مساعدته عندما يكون في حالة صعبة ، وخاصة لمن يواجهه خطر الغرق .

ب - الصفات الدينية والخلقية:

١- التهييج :

أن كل شخص يحاول التصدي للثقافة المتعلقة بالأولياء ، يصاب بالدهشة للتقسيمات والمواصفات التي يعطيها الفلاحون الفلسطينيون لرجال الله ، استناداً إلى جانب مثير في شخصياتهم . فالقديسون إما ' طويلين روح ' ، ' نزْقين ' ، ' حرْشين ' . والمجموعة الأولى تتعامل مع أخطاء البشر بصبر وحلم ويعطون وقتاً للتوبة وينتظرون بصبر تقديم النذور . ومن الممكن أن يذكّروا الناس بلطف فيما وعدوا به . وقد يطول الإمهال حتى يظن الناس انهم- أي الأولياء- فقدوا قوتهم . ولكن عندما يسود الشك فانهم يردون بإظهار قوتهم بوضوح . أن قصة الشيخ أبو العينين في عين قينا توضح هذه النقطة .

والوليّ ' النّزق ' لا يظهر أية شفقة على المعتدين . انه يطلب حقوقه ويستعمل أساليب قاسية في معاقبة المعتدي ، أو الذي يقسم يميناً كاذباً ، أو يحقّر المقام أو يتحدث بشكل غير لائق عن الولي . وهذه الفئة من الأولياء يخشاها الناس ويحترمونها اكثر من المجموعة الأخرى . وعندما يشك في أن رجلاً ما ارتكب جريمة كبرى ، فان القاضي يطلب منه ، أو من المدافع عنه ، القسم عند ولي معروف ، يختار من هذه الفئة النزقة . وإذا تعرض شخص للسلب والظلم من جانب رجل ذي نفوذ ، بحيث لا يستطيع أخذ حقه منه ، فانه يسرع إلى ولي تسهل أثارته ويطلب منه المساعدة .

وفي الحكايات التالية ما يوضح الأمر :

'قطع رجل من لفتا عصا من شجرة الشيخ حسين (بيت سوريك) من اجل أن يسوق بغله ، وهو يقوم بدراسة القمح . وما أن ضرب الرجل الحيوان بالعصا حتى هاجمه المرض ولم يعد الحيوان قادراً على الحركة . وقام الفلاّح الذي أخافه الأمر بإعادة العصا على الفور ، ونذر نذراً للولي وطلب منه الغفران . وهكذا شفي البغل بأعجوبة ، تماماً مثلما مرض' .

'ذهب رجل فقير من غزه إلى قطنّه ليتبعّر (يلتقط ما تخلفٌ - المترجم) الزيتون من الأشجار التي تم قطفها(٣٢) . وقد وضع الرجل كل ما جمعه في بيت أحد الفلاّحين ، الذي أنكر ، في اليوم التالي ، انه قد عهد اليه بشيء . وهكذا ذهب الغزاوي إلى الشيخ

رمضان حيث توجد أكوام من القش(٣٣) وقال له : أرجوك يا شيخ أبو قش(٣٤) لقد دخلت قريتك ضيفاً ، وسرق سكان القرية الزيتون الذي جمعته بكد . ولم يكد الغزاوي يكمل كلامه حتى هاجمت النار بيت السارق ، الذي جاء يركض إلى الولي معترفاً بذنبه واعداً أن يعيد ما أخذه ، وراجياً الولي أن يطفئ النار ' .

وأبلغ من هذا العقوبة التي أوقعها الشيخ عبد السلام .

'تعارك أحد سكان قرية عناتا وهو حفيد شيخ مع رجل من حزما ، فلعنه ولعن شيخه . وذهب الرجل الذي تعرض للشتم إلى مزار الولي وقال : ' وهكذا أيها الولي قاموا بلعني ولعنك أنت ، ولم تحمني ولم تحم نفسك ' (٣٥) . وفي الليلة نفسها ظهر ولي الله للرجل المقيم في حزما . وقد مرض الأخير وأصيب بالشلل ومات خلال أيام قليلة' .

وكقاعدة فان جميع الأولياء السود يعتبرون نزقين ، وبعد ذلك يأتي المغاربة .

٢- الظواهر الخارقة للعادة :

تصادفنا أربعة ظواهر ترتبط بجميع الأولياء مثل : الضوء الأخضر ، حرق البخور ، الموسيقى والصلاة الدينية . ومن الغريب أن هذه الإشارات يمكن ملاحظتها بالحواس الثلاث المهمة ، فالضوء يُرى بالعين ، والبخور يشم ، وتسمع الموسيقى والصلاة . ولا يمكن ادراك الأمر بحاسة اللمس ، وعندما يصبح المرء درويشاً فانه يبدأ بالشعور بوجود الولي عبر يديه ، ولكن هذه الطريقة تبقى غير تامه ، واقل بكثير من الثلاث الأخرى . وكان يحدث الأمر نفسه في الماضي عندما كانت الالهه تُرى وتُسمع ، ولكن لا تُمس(٣٦) .

يُرى الضوء الأخضر عند الغسق وفي الليل ، ويظهر ويختفي على فترات . ويوصف الضوء بانه أخضر . وفي كل مرة يقترب المرء من المزار ، الذي تلاحظ فيه هذه الظاهرة ، يختفي الضوء تماماً ، في حين أن عاصفة لا تقوى على إطفائه(٣٧) . أن مثل هذه الفكرة مقبولة لدى عرب فلسطين(٣٨) كإشارة على أن المكان مسكون بقوة طيبة وخارقة للعادة . وفي كثير من الحالات ، فان هذه هي الوسيلة للتعرف على المواقع المقدّسة . وقد سبق وأتينا ببعض الأمثلة .

ويقال أن الرائحة التي تصدر عن المزار أطيب شذى من الرائحة العادية . ولم يشهد أحد ممن زاروا المزارات التي تصدر عنها الرائحة بان ما اشتمه كان ناتجاً عن حرق البخور ، بل عن ظاهرة خارقة للعادة . وفي بغض المزارات المهمة يحرق البخور كل يوم جمعه .

وغالباً ما تسمع موسيقى منبعثة من المزار ، وهي إما غناء أو مدائح ، أو موسيقى عدَّة للدراويش ، ناتجة عن مشاركة عدة آلات موسيقية . وأحياناً تكون العدة ذات صوت عال حتى أن كل الفلاحين في الجوار يخرجون من بيوتهم ، كما هو الحال في الشيخ فريج (بيت حنينا) . والموسيقى العالية استثناء . وتعزف عدة الشيخ أبو يمين في الوقت الذي يكون فيه الشيخ طائراً فوق القرية .

ومن الطريف أن نسمع بان الولي كان يسمع وهو يؤدي صلاته وحيداً ، ولكننا نملك روايات عن أولياء وصلّاح يغنون معاً(٣٩) . ويقال أن النبي محمد وصحابته يشاركون في مثل هذه الاجتماعات . وفي نابلس يقيم ' الخضر ' اجتماعاً مع الصحابة في مزاره . وتجتمع الأقطاب في مزار النوباني . ويندر أن يُرى الأولياء يتمشون بهدوء حول المزار . وربما كان الغناء الشعبي التالي يوضح الموضوع :

الحوّاس منْ قدّه	هو سيدي وأنا عبْده
ينادِيني وانا اردله	يا دري وشو بده
تنظّوي له القناديل	قدّام السلاطين

يا حوّاس يا أبو نخْلة طويلة
فاحتْ ريحْتكْ ع السّلاطين
يا حوّاس جينا اليوم نْزورك
نظوي شمعتك وندْعق بخّورك
فاحت ريحتك ع السّلاطين

وقبل أن ننتقل إلى وصف الملامح الأخرى يمكن أن نلخص ما سبق ، فالظواهر الأربعة تتجلى كما يلي :

١- خلال الليل أو عند الغروب .

٢- ليلة الجمعة .

٣- عندما يقترب المرء يختفي الضوء .

٤- من الممكن أن تحصل ظاهرتان أو أكثر معاً .

ومن خلال النقاش السابق نلاحظ أن اللون الأخضر هو السائد ، فأغطية الضريح وملابس الأولياء هي ، بشكل رئيسي ، باللون الأخضر . وأحياناً فان غطاء الرأس ، الحصان ، الحمامة ، الطير ، والضوء كلها خضر . وفي بعض الحالات فان الهالة حول وجه النبي موسى هي خضراء . أن اللون الأخضر للضوء أمر شائع في الخرافات الشرقية الحديثة(٤٠) .

وكملحق لهذا القسم يمكننا أن نصف حديث الأولياء . ومن الطريف أن نحلل الأحاديث التي سمعها الناس في الأحلام الليلية . وفي معظم الحالات فان الأولياء يعبرون عن رغبتهم بطريقة طيبة ولطيفة ، ولكن بلهجة آمره . وأحياناً فانهم يستعملون لغة خشنة لا تليق بهم . وهكذا ظهر النبي أيوب لعبد الرحيم ، من خرْبثا ، وقال له : لماذا لا تزورني؟ إذا لم تفعل ذلك اقصف عمرك ' . السلطان إبراهيم الأدهمي هدد ولداً سرق بعض الزيتون منه وقال : بالله سأقتلك أو أشلك إذا سرقت المزيد . والشيخ احمد العجمي (إلى الشرق من بيت محسير) ظهر لحمدان محمد صالح ، وقال له اخبر الرجل الذي يبني جداراً في ممتلكاتي ' أن ما رجع عن طريقه لأقطع الشّرشين' (٤١) .

٣- الأولياء المتضادون

أن كل شخص زار مزارات متعددة وحقق في موضوع الأولياء لا بد أنه لاحظ مسالة التمييز بين العجمي والدّرويش أو الشيخ . أن كلمة عجمي تعني في الأصل ' فارسي' ، وهي الان تعني الأجانب والأشياء العجيبة والأشخاص عموماً ، ولذلك من الخطأ أن نفكر بان أولئك القديسين فُرس . على العكس من ذلك لا يوجد ولي واحد في قائمتي جاء من تلك البلاد ، وكل الاستفسارات في الموضوع تمت الإجابة عليها بالنفي ' .

أن غالبية هؤلاء الأولياء يحملون اسم ' عجمي ' و جمعها ' العجم ' . وقليل منهم يعرفون بأسمائهم الشخصية مثل الشيخ سلمان (بيت سوريك) ، والشيخ أبو الريش (بيت عنان) واحمد العجمي (بيت محسير) ، ورجال الأربعين (بدو) واسماعيل (بيت دقّو) ، ومنصور (حزما) . أما الأولياء الآخرون الذين يحملون اسم عجمي أو عجم فهم :

العجم : دير غسانه

عراق العجم(٤٢) : بيت اجْزا

أربعة أولياء عجم : عورْتا

العجم : عورتا

العجم : بيت جبرين

العجمي : المجيدل

أن هؤلاء الأولياء يُحْترمون في بعض القرى ويهملون في قرى أخرى . وان الاحترام الذي يؤدى لهم في القرى الأولى هو اقل من الأولياء الآخرين . وجميع هؤلاء ينتمون إلى 'النّزقين ' وكل ما استطعت أن اعرف عنهم روى لي إياه شيخ من دير غسانه :

'احمد البدوي ، كانت له امرأه ذكية ، إنها فاطمة ابنة البرى (٤٣) . وعندما وصلت فاطمة إلى مرتبة ولّية ، تركت زوجها ، وبدا احترامها يتصاعد من جانب الناس وأصبح العديد من أتباعه من أتباعها المخلصين . ودبت خلافات دينية بينها وبين البدوي منذ البداية ، وعلى ذلك أطلق الأقطاب على جماعتها ازدراءً لهم اسم الأعاجم . ويشير الغناء التالي إلى ذلك :

السّيّد اللي مقامه مجمع الأقطابْ

لولا ما سلبْ بنت البري خاطره ما طاب

روح يا مُريدي وتْقلّب على الأعتاب

وانْ مسك الظيمْ يبقى لك علينا حسابْ

وفاطمة هذه يقع مقامها في زكريا . ولا يسمح للزوار الرجال بالدخول إلى المقام . وهي ، حسب ما ذكره ماسترمان وماكالستر جاءت من بلاد الفرس (٤٤) ، ولكن قارن مع ما ورد أعلاه .

أن أهمية أولياء العجم تكمن في عداواتهم مع الأولياء الدراويش ، الذين يتبعون الصوفية . ولم أجد ما يشير إلى عدائهم للأنبياء . وبما انهم لا يستطيعون إيذاء الأولياء الموتى ، فانهم يلاحقون أبناءهم وأتباعهم ، والحكايات التالية تمثل توضيحات جيدة :

'إذا اضطر رجل من عناتا - باعتبار أن كل سكان القرية هم من أحفاد الشيخ عبد السلام - أن يبيت في حزْما ، فان عليه أن يقضي الليل داخل البيت ، لانه إذا خرج في الليل فان منصور العجمي سيهاجمه ، وستلقى الحجارة باستمرار عليه . وسوف يقوم بالدفاع عن نفسه ، ولا يمكن لأحد غيره أن يلاحظ العدو ، أما هو فيرى عدوه بشكل غامض . وإذا ما اضطر إلى مغادرة القرية في الليل ، فعليه أن يرتدي عباءة رجل من حزما ، وهي مقلوبة ، حتى لا يتعرف عليه العجمي' .

'وعندما يموت أحد أأفراد عائلة الشيخ المهدي (بيت جبرين) ويحمل للدّفن ، فان العجم يحاولون منع عملية الدفن بإطلاق السهام الحادة عليه ، وعلى أولئك الذين يحملون البيرق والموسيقيين (العدة) . ان انجع طريقة لتحييدهم هي رش الماء في الهواء ، والا فان الجثمان سيتأذى كثيراً' .

وليس أحفاد الولي هم الذين يخشون من تلك العداوة فقط ، بل إن كل الدراويش يحسبون لها حساباً كبيراً . وإنني استنتج ما يلي من الحكايات التي سمعتها :

١- العجم هم أعداء الصوفية ، ويحاولون دائماً مهاجمة قديسي الدراويش .

٢- ويتم ذلك بمهاجمة أحفادهم وأتباعهم .

٣- ويتفجر الغضب خلال الليل على وجه الخصوص .

٤- ولا أحد يستطيع رؤية العجم غير الأشخاص المهاجمين (ويرونهم بشكل غامض) .

٥- يمكن منع مثل ذلك الهجوم بإجراءات بسيطة .

٦- هؤلاء الأولياء يشبهون الأولياء الآخرين ، ولكنهم يحظون باحترام أقل .

أن الشيخ مبارك(٤٥) (بيت اكسا) هو العجمي الزنجي الوحيد . وهو معروف بكراهيته للزنوج ، الذين لا يجرؤون على دخول القرية بسبب خوفهم منه . ولم اسمع بنساء وليّات في هذه المجموعة ، كما لم اسمع بعجمي يسكن نبعاً ، بينما يمكن أن تكون المزارات الأخرى مسكونة بالعجم .

وعندما كنت أسأل عن صاحب مزار إن كان من العجم ، يقال لي : لا انه أحمدي أو محمّدي ، وهذا التعبير يستعمل للأولياء غير العجم . لكن ماذا يربط غير العجمي بمحمد . لا أستطيع أن أقول شيئاً . ونادراً ما نسمع بأن الولي الأحمدي غيور . الشيخ البكري (٤٦) ذهب كالمعتاد ، لزيارة قديسي دير غسانه . وكانت زيارته الأولى لرجال صوفة ، وهذا ما أثار غضب إبراهيم الحوّاس ، حتى انه أصابه بالتصلب ، وهنا عرف البكري ، لانه درويش ، بسر إصابته وأسرع إلى زيارة مزار الحوّاس طالباً الصفح(٤٧) .

أن هذا يقودنا إلى تمييز هام ورثه الفلسطينيون الحاليون عن آبائهم ، الا وهو الصراع القائم بين أولياء الله . أن أولياء العجم هم في اقل مراتب القداسة ، وربما يحملون بعض سمات الآلهة الوثنية المحلية القديمة .

ونخطو الآن خطوة أخرى لنرى أن بعض المزارات مسكونة في الوقت نفسه ، بأرواح شريرة لا تسكن في المكان المقدس نفسه ، ولكن في البيئة المحيطة . وقد رأينا من قبل كيف أن خمسة ينابيع تنتمي إلى هذه المجموعة . أما المزارات الأخرى فهي :

* الكهف الذي يقع تحت الشجرة المبروكة (دير جرير) مسكون بالجن التي تظهر كدجاجة مع صيصانها .

* كهف القطارة الذي يقع قرب النبي نون ، مسكون بسبع عرائس شابات .

* في مزار الشيخ إبراهيم (الخضر) شوهدت امرأه تمشط شعرها .

* في مغارة الزّط قرب مزار حسن الغريب (٤٨) لوحظ وجود عروس(٤٩) .

والقصة التالية توضح كيف يحافظ الجن على متعلقاتهم :

'أمر قائد تركي أحد جنوده أن يقطع الخشب من كرم مغارة القطارة . وعند البدء في العمل حذره جن من التدخل بممتلكاته ، وأرته الروح أن كل السهل المجاور مليء بجنود الجن ، الذين هم على استعداد لمهاجمة كتيبته . وأسرع الجندي الخائف بتقديم تقرير لقائدة . وضحك القائد من الخرافة ، وأمر بتنفيذ تعليماته ، وعاد الجندي ، وعندما بدأ بقطع أول غصن سقط ميتا . وهكذا اتحدت أرواح العالم السفلي مع القوات الإنجليزية وسحقوا الجيش التركي' .

٢ + المعجزات:

إلى جانب الاعتقاد بالشفاء المعجز من الأمراض والذي يمارسه القديسون ، نصادف العديد من الأعاجيب . وكل تلك الأعاجيب مدعمة بالحقائق التي تقول أن ذلك قد حدث عبر الأجيال . ونسمع مصطلحات مثل : المعجزات ، العجائب ، والكرامات . واكثر الاصطلاحات شيوعاً واستعمالاً هما : معجزة وكرامة . المعجزة (مثل عودة الجثة إلى الحياة) هي علامة أكيدة لنبي ، بينما الكرامة هي علامة الولي . والكرامة هي الاعتقاد بأن هناك قدرة خاصة للولي ممنوحة من الله له للتدليل على صلته به . وافضل مثال على الكرامة هي الطريقة التي يعاقب بها الولي من يسرق ممتلكاته ، أو ممتلكات وضعت تحت رعايته . فالرجل الذي سرق الفول من الحوّاس عوقب بحكة جلدية ظهرت فيها أشكال حبات الفول على جلده . والفقوس الذي سرقه ولد من حديقة مجاورة للشيخ رمضان (قطنة) تحول إلى 'عصاة موسى' (دودة سوداء بأرجل كثيرة - المترجم) . وقد حول ' أبو الزغاريد ' (بيت شعار) الفاصوليا المسروقة إلى حيات وأفاع وعصاة موسى أخذت تزحف على جيوب السارقين . واخذ بعض المارة الفقراء زيتاً من الشيخ ' أصنيت ' ' الخليل ' دون أن يطلب 'الدّستورْ' . وفي اللحظة التي بدأ فيه يصب الزيت في المقلى ، فانه تحوّل فجأة إلى دم ، وأعاد الزيت إلى المقام ، مقسما بأنه لم يكن سوى زيتاً خالصاً . وقد أصيبت البنت التي دهنت شعرها بالزيت المسروق من 'عبد السلام' حالاً بتصلب في الرقبة . ولقد ذهب طفل مع والدته لزيارة ' الشيخ إبراهيم ' (بيت جبرين) . وبينما دخلت المرأه إلى المزار ، بدأ الطفل بإلتقاط حبات الزيتون من أشجار الولي . وبعد أن ملأ جيوبه دخل الطفل إلى المقام ، وهنا حصل رعد

وبرق وقرع طبول ، وبدأ الجبل بأكمله يهتز . واشتد الرعب بالأم والطفل ، وخرجا من المقام ، وألقى الطفل حبات الزيتون ، وهنا هدأ الولي وتوقفت الهزه . وعلى الفور نذرت الأم هدية للولي . والقصة التالية تُروى في بدو وعدة قرى مجاورة مع بعض التحويرات البسيطة :

'دخل بعض اللصوص ، بهدف سرقة الغنم ، إلى كهف قريب من الشيخ احمد الحويس ، حيث كانوا يعلمون جيداً أن الحيوانات محفوظة هناك ، ولدهشتهم لم يجدوا سوى صخور بمختلف الأحجام ، ولكنهم حالما غادروا الكهف بدأوا يسمعون ثُغاء الغنم بوضوح . وفي كل مرة كانوا يدخلون أو يخرجون كانوا يواجهون بنفس التجربة . وقد ذهبوا أخيراً دون أن يحققوا مرادهم' .

وتشير معجزات أخرى إلى قدرات عضلية إنسانية خارقة . وهكذا يقال بان العديد من الأولياء يستطيعون رفع عمود أو اثنين من الأعمدة الحجرية بيد واحدة . هذه الميزة موجودة على وجه الخصوص عند عدد من الاولياء في نابلس ويملكها ' السلطان عبد الغافر' ، ' رجال العمود ' ، ' والشيخ طه ' و ' عبد القادر ' .

وكلما كان الشيخ ضمْره (٥٠) (مزارع النوباني يذهب في رحلة كان هناك ضبع(٥١) يرافقه لخدمته(٥٢) ، وكان القديس يمتطيه(٥٣) . أما القديس نيقولاس (بيت جالا) فقد اعتاد على ملء جرار الزيت نصف المملوءة في كنيسته بطريقة عجائبية حتى أن الراهب كان عليه أن يأخذ شيئاً من الزيت حتى لا تفيض الجرار(٥٤) .

وهناك اعتقاد شائع لدى الفلسطينيين بان شيوخ الرفاعية يسيرون على النار ، وأن الشيخ البدوي يسير على البحر (٥٥) . أن الكثيرين من الأولياء يمتلكون القدرة على الطيران . وهم قد يستعملون وسائل نقل مثل الصخور ، بل حتى يمكنهم أن يطيروا دون دعم . وبعض هؤلاء استمتعوا بهذه الميزة في حياتهم ، ولكن معظمهم لم يظهر هذه القدرة إلا بعد موتهم(٥٦) . إن افضل مثال على المجموعة الأولى هم الدواعره(٥٧) من صور باهر . فقد ماتت جمالهم خلال إقامتهم في مكة للحج . وعندما سألوا رجلاً غنياً للحصول على جمال أخرى ، قال لهم مداعباً : ' اركبوا هذه الصخور ' . وهكذا ذهبوا وفعلوا كما قيل لهم ، ولاحظوا أن الصخور قد بدأت تصعد أعلى فأعلى باتجاه الشمال الغربي . وقد هبط واحد من الصخور عند ' قرون الحجر ' (٥٨) لان القديس الذي يركبها مات . وفي هذه البقعة ، في منطقة السّواحرة ، دفن الولي . واما الآخرون فقد

وصلوا إلى صور باهر . إن هذه الرحلة العجيبة ، والتي شاهدها الناس في كل الأقطار التي مروا بها قد أرست دعائم الاعتقاد بقداستهم إلى الأبد . إن قصصاً مشابهة تروى عن الشيخ احمد الغماري (٥٩) (الظاهرية) وابنه الشيخ علي . وفي حالة القطْرواني ، أبو حلاوه ، والست سليمية(٦٠) والشيخ خالد(٦١) فإننا نسمع القصة نفسها . فبعد الموت وبينما كانوا يحملون للدفن ، طار الكفن عن أكتاف الحاملين وتحرك في الهواء حتى وصل إلى المكان الذي اختاره القديس نفسه لقبره(٦٢) . ' طار عن أكتافهن وهدا' (٦٣) . وهناك العديد من الأولياء الذين يراهم الناس خلال الليل يحومون فوق القرية . ومن الممكن أن يكون الشيخ أبو يمين (بيت عنان) وسيلة لتوضيح ذلك (٦٤) . والى جانب طريقة السفر المعجزة هذه ، فإن بعض الأولياء ينتمون إلى ' أهل الختمة '(٦٥) ، إذ هم يستطيعون الانتقال من مكان لآخر في الحال . والخضر (٦٦) هو افضل مثال على ذلك : ' مثل الخضر وين ما بنروح منشوفه ' . إن الحاج شحادة (٦٧) هو مثال أيضاً على من يقال بان 'الأرض بتنْطوي (٦٨) إلهم ' لقد رويت القصة(٦٩) التالية مع بعض التحويرات الطفيفة عن القديسين التالية أسماؤهم :

الشيخ تيلاه : بيت سوريك

الشيخ عنبر : العيسوية

الشيخ عصفور : دير غسانه

الشيخ داهود : القدس

ذهب الشيخ محمد (من بيت سوريك) إلى مكة لأداء فريضة الحج . وفي العيد الكبير اعدّت أمه الكعك المخبوز بالزيت (المخمرات) . وتمنت أن يتمكن ابنها الغائب من أكل الكعك . وطلب ابنها تيلاه بعض الكعك ليوزعه على الفقراء ، وذهب إلى قطيع غنمه ، فوجد ذئباً بالقرب منها أوكل اليه رعاية القطيع ثم يمّم هناك شطر مكة ، فوجد أخاه على جبل عرفات ، وناوله الكعك الذي ما زال ساخناً وبحالة جيدة ، وعاد بصورة إعجازية . وكان الذئب قد اعتنى بالغنم ، واعترافاً من تيلاه بفضله منحه عنزه ، ولم يعلم أحد بالأمر حتى عاد أخوه من الحج ، فوفد الناس للسلام عليه ، وبعد أن روى القصة للناس ، قال : ' أنا لا استحق هذا التكريم ، وأن أخي من أولياء الله الصادقين '

ومنذ ذلك الوقت اصبح تيلاه قديساً . وفيما يلي بعض الأشعار التي تحدثنا عن ذلك بصورة جميلة :

ترى أول الليلْ حلُوا شُعورْهم حلُوا
فرشوا سجاجيدْهم ع الموجْ ما انبلُوا
ترى في آخر الليل في حرم النبي صلُوا
صلُوا صلاة تفُك الكرب وانْحلُوا

شوباش(٧٠) ع رْجال يوم الحرْب ما ولُوا
فرشوا سجاجيدْهم ع الموج ما انبلُّوا
في أول الليل فلوا شْعورهم فلُوا
وآخر الليلْ في حرم النبي صلُوا

ساروا مع الريحْ قالوا الريح بطّالة
حطُوا مع البرْق قالوا هذا سر لبْطال
يا ريحْ سلم عليهم وأنتْ مرْسالي
سادات حطوا النّجم ليفْرح الخالي

ساروا مع الرّيح أو جبريل ايدل بهم
هزُوا قوايم العرْش من عزم سطوْتهم
الرعد صبح يقول الله يساعدْهمْ
المُبتْلي أن سهرْ يشوف سرّ إلْهُم

وهناك مسألة قدرة الأولياء على التنبؤ بالمستقبل . وكنت قد ذكرت قصة الشيخ أبو حلاوه ، كما أن الشيخ محمد أبو كشكول حفيد الشيخ أبو يمين (بيت عنان) كان يقضي وقته في الحقول ويعيش على الأعشاب البرية ، وكانت له سمعة واسعة حول

قدرته على التنبؤ بالمستقبل . والقصص التالية توضح المعجزات من ذلك النوع الذي لم نتطرّق إليه :

تشاجر أبو ميثا مع فلاّح من قريته ، وقد رأى خصمة انه من المستحيل عليه أن يُخضع الشيخ ، فقال انك تتعبني يا أبو ميثا . وكان الجواب ' لا تنس ، أنني واحد من رجال الله ' ، وضغط على غليونه ، فخرج لهب اخضر وصل إلى عنان السماء . وهنا تأكد الفلاّح المندهش انه يتعامل مع ولي . ونشر الأخبار عن الكرامة .

ذهب الدحي (٧١) ذات يوم مع سائق جمل إلى شرق الأردن ليشتري ' عدْلين ' من القمح ، وفي الطريق فقد نقوده ، ولانه لم يقدر على شراء القمح ملا الأكياس بالتراب وعندما وصل البيت ، تبين أن العدْلين ممتلئين بالقمح .

وعندما رُقي الشيخ جابر إلى مرتبة درْويش ، أرسل الله بعض الرجال لإثبات قدراته ولم يعلم الشيخ بمهمة الرجال ، ورحب بهم بذبيحة تكريماً لهم . وعندما صار الطعام جاهزاً قال الزوار : يا شيخ ، كيف يمكن أن نتناول طعامك دون ليمون؟ وهنا عرف جابر أن القوم يريدون أن يجربوه ، لان الوقت لم يكن وقت ليمون . ورفع الرجل يديه إلى السماء وصاح : يا سيدي البدوي ، اعطني الليمون . وسقط حب الليمون من السقف . وهنا هنأه الرجال على مرتبة القداسة التي حاز عليها .

وبينما كان الشيخ محمد أبو كشكولْ يتجول في الحقول ، التقى راعياً ، وبما انه كان عطشاً ، فقد سأل عن شربة ماء . وكان الراعي يخفي قربة الماء ، فأنكر وجود ماء معه . غضب الشيخ محمد من الكذب فثقب بطن الراعي بأصابعه ، وهنا انفجرت دفقة طازجة من الماء ، كالنهير ، من البطن . وبعد أن شرب ، توقف الدفق . وبما أن الراعي لم يصب بالأذى ، فقد تبع الشيخ واصبح تلميذاً له .

إن مثل هذه الحكايات يرويها الفلاحون ليثبتوا القوى الخارقة للعادة لأولئك الأولياء . وحتى الآن ما زال الناس يعتبرون أن الولي الذي لا يظهر المعجزات فانه لا يستحق الاحترام والتكريم .

وتلك القوى المُعجزه تعبر عن نفسها بأشكال منها : ' الدراويش الأحياء يمسكون بالنار دون أن تحترق أيديهم ؛ يثقبون أجسامهم بالسيوف دون ألم ، يدخلون السيخ في خد

الشخص دون نزيف أو ألم ، يقفون ويرقصون على الطبول دون أن يثقبوها ' . ومثل هذه الأعمال يعتبرها الناس إشارة على وجود القداسة .

وفي تخيلاته يرى الفلاح هؤلاء المشايخ ، حتى بعد وفاتهم ، وهم يذكرونه بالنذور التي لم يف بها ، وبهم يهدد اللصوص ، ويستمع إلى أوامرهم بإعمار المقامات(٧٢) . وبهذه الطريقة يبقى القرويون دائماً تحت سيطرة الأولياء . . . . الخ ، إن مراجعة نقدية لهذه المعجزات(٧٣) ترينا بأنها تشبه حكايات الفوارس العربية ، مع فارق وحيد وأساسي بالطبع ، هو أن الأولى تعزى لقدرة الله والأخيرة لقدرة الجن ، وهنا أيضاً في نتائج أفعالهم الظاهرة ، نجد نقطة يتلاقى فيها العالم العلوي والسفلي(٧٤) . وفي ختام هذا الفصل نذكر الأغاني التي تصف القدرات الخارقة :

السّيد اللي من الشباك مد أيده
جاب الأسيرْ منْ بلاد الكفْر ابْحديدْه
في أول الليل بقْرا الوِرْد ويعيدُه
وآخر الليلْ سلّم ع النبي بيدُه

في حالة البُعدْ روحي كنتُ ارْسلها
تْقبل عني وهي نايبْتي
فهذا دولة الأشباح قد حظرت
فامْدْد يمينك كيْ تحظى بها شفتي(٧٥)

قال الرفاعي أنا شيخ العواجيز(٧٦) دوم
واللي شطحْ(٧٧) في هوانا ما عليش لوم
والله لو أرى مريدي في جهنم يوْم
لرفُصْ جهنهم ولا أخليها تعمر دوم

قال الجيلاني أنا لا تعرفوا احْوالي
خُظت جميع البْحْور ماجت لخلخالي
وإلي بعْترظ الفقرا في الحالى
معي سيف الأزل يقُص لعماري

قال الدّسوقي أنا لو تعْرفوا اشْ سويتْ
نحرْت سبع الفلا في الساقي القيت
وحياة مكّة وزمزم والبيتْ
معي سيف الأزل للمعترض قصيتْ

قال المُلثم(٧٨) وأنا المُظهر للعربان
شوّرْت ع البحر لأجلي سبّحوا الحيتان
وحْياة تُربة سيد ولد عدْنان
برْقص جْهنم برجلي وابطل الميزان

٣- علاقة الأولياء بالناس

يشعر الناس بقوة بأنهم دائماً بحاجة لعلاقة طيبة مع الأولياء ، لان الولي هو المعين ، الطبيب ، والمواسي والوسيط بين الإنسان والله . وكلما درس المرء هذه المسألة كلما شعر بهذه الظاهرة في الفولكلور الفلسطيني ، ظاهرة الاتحاد بين الناس والأولياء ، التي لا تنفصم . وحيث أن جل الحقائق المتعلقة بهذا الفصل قد تم وصفه في الفصل السابق ، فإنني سأعالج الأمر بإيجاز تحت العناوين التالية :

أ- الأولياء كجيران .

ب- الأولياء كقادة .

ج- الأولياء كقضاه .

د- الأولياء كقوى إنسانية خارقة .

أ- الأولياء كجيران

نحن نعلم أن معظم المزارات تقع داخل القرى أو في جوارها ، وهذا يجعل الولي جاراً للإنسان ، حاملاً كل مسؤوليات الجار . ويقول المثل العربي ' عليك بالجار ولو جار ' . والأولياء يحافظون على هذه القاعدة بصرامة ، ويحمون ممتلكات جيرانهم ، ويساعدون وقت الضيق . وحتى الحيوانات التي تلتجئ إلى المزار تصبح في أمان . كانت امرأه حامل تمر بالشيخ موسى ، خربثا ، قد اكتشفت عش شنارة مليء بالبيض تحت شجرة الخروب . أخذت المرأه العش ، وأثار ذلك الولي . بعد ذلك ولدت المرأه بنتاً بذراع معاقة ، تشبه راس الشنارة ، ويظهر فيها المنقار بوضوح(٧٩) .

والأولياء لا يقبلون البرطيل أو البخشيش ، سرق رجل عجوز من حزما القطاني من حقل مجاور للشيخ منصور . وقبل أن يذهب للعمل فكّر في أن يكسب عطف الولي ، ويتجاوز غضبه بقراءة الفاتحة له . ولكن ما أن بدأ بقطع النبته الأولى ، حتى هبّت زوبعه ورمته فوق جدار مما أدى إلى كسر رجله ، وظل وقتاً طويلاً طريح الفراش(٨٠) .

وأحياناً يبين الولي وسائل الوقاية التي تمنع والى الأبد تجاوز ' حقوق الجوار' . قام مواطن من قرية كفر عقب بتخزين التين تحت بلوطة مغارة الشيخ ، وحاول بعض اللصوص خلال الليل ، اخذ الفواكه ، ولكنهم ما كادوا يضعون التين في الكيس حتى أحاط بهم جيش كبير ، ولم يقدروا على الهرب لان الجيش حاصرهم ، وضيق عليهم الخناق ، وفي الحال رموا التين ، وطلبوا عفو الشيخ ، وهكذا اختفى الجيش .

وذات مرة تسلق بعض أفراد أبو غيث (بيت فجار) سطح كنيسة القديس نيقولا (بيت جالا) ليسرقوا الزيتون ، الذي كان منشوراً هناك لينضج . وبعد أن ملأوا عباءاتهم حاولوا النزول ، ولكنهم لاحظوا أن المزار محاط ببحر عاصف . وعلى الفور تركوا ما سرقوه ، وهنا اختفى البحر العاصف(٨١) .

إن الأشخاص الذين يرتكبون خطيئة ، أو حتى جريمة ، ويأتون إلى المزار ويسألون الولي أن يخفيهم من وجه الذين يلاحقونهم ، تتم حمايتهم لانهم اصبحوا (طنيبين) ، وهي

علاقة أقوى من علاقة الجار . لقد حمى الشيخ العُمري الجبعي كل الفارين من الجيش التركي الذين لجأوا إليه . وحاول الجنود الذين يلاحقونهم ، عبثاً الإمساك بهم ، لان الولي أصابهم بالعمى . وقد رويت نفس القصة عن الشيخ الحُويس في بدو ، وأولياء آخرين . ولهذا السبب يقوم الناس بدفن الوجهاء في منطقة الولي(٨٢) .

ب- الأولياء كقادة

إن العديد من أولياء الله في فلسطين كانوا في حياتهم شخصيات تاريخية ، وتمتعوا بامتيازات على الكبار في قراهم . وكانت تعقد الاجتماعات في بيوتهم ، وتبحث الشؤون العامة . لقد أعطوا الأوامر ، وأشرفوا على التنفيذ ، وخاصة عندما كان الأعداء يهاجمون القرية ، ومنعوا الطُوشات ، وسوّوا القضايا التي نتجت عن سوء التفاهم ، وكانوا بصورة من الصور ، بمثابة القضاة ، ولم تبهت سمعتهم بسبب الموت . وهذا يوضح لماذا يوجد للكثير من القرى حماة ، من الذين كانوا سكاناً لها . والحوادث والوقائع تدل على أن مساعدتهم العجيبة كانت ذات قيمة عندما يهاجم الأعداء القرية . وقد ذكرت من قبل قصة 'مار نقولا' و 'العزيرات' في عورتا . ولكن ، ولان كليهما كانا من الأولياء الغرباء ، فأنا اذكر قصة الشيخ منصور ، من حزما ، الذي حمى القرية ضد هجوم البدو ، من خلال جعله المهاجمين يرون سوراً قوياً وعاليا يحيط بها . وأحياناً كان يرسل جيش كامل ، من جانب الولي ، ليحيط بالقرية ، من اجل أن يواجه المهاجمون جنوداً مسلحين تسليحاً جيداً أينما يذهبون . وغالباً ، وعندما يثور النزاع بين سكان القرية ، ولا يتمكن كبارها من تسوية الأمر ، يأخذ الحامي المقدس دوراً نشطاً في إحلال السلام .

وذات مرة حصل شجار بين نساء بيت حنينا ، وفي المساء ، عندما عاد الرجال من العمل ، تطور النزاع بحدة ، وبدأ قتال منظم ، وهكذا ظهر شيخ - هو السلطان إبراهيم - وفصل بين المتعاركين ، وقام بمنع الحجارة التي تلقى من طرف لآخر من أن تؤذي أحداً .

وعندما كان الفلّاحون يتخلّون عن عاداتهم القديمة في الضيافة ، أو يعزفون عن أداء واجباتهم الدينية ، كان الشيخ الحامي يظهر لينصح الناس ويحضهم على العودة إلى سواء السبيل . لقد حصل سوء تفاهم وقسم سكان شعفاط إلى قسمين ، وتوقفوا عن تقديم الصدقات للفقراء خلال رمضان . ولم يعودوا يؤدون الصلوات ، حتى لا يتقابلوا في المسجد . وهكذا ظهر السلطان إبراهيم - من القرية - في الحلم للمختار ، وقال له :

'أنا انصح بالاتحاد ، ثانية ، والعودة إلى عاداتكم في مساعدة الفقراء ، والصلاة في المزار ، وبغير ذلك فسوف أعاقب كل شخص بشدة بالغة' . وفي صبيحة اليوم التالي استدعى المختار الجميع ، وقص عليهم الحلم ، ورجاهم أن يضعوا أحقادهم جانباً . وبعد أن نجح المختار في مهمته ، ذهب إلى المسجد ، وبمجرد أن دخل الرواق ، أغلق باب المزار بواسطة قوة خفية . ولمدة ساعة كاملة ، جلس أمام الباب المغلق ، يصلي ويبكي ويرجو العفو من السلطان (الولي) . وانفتح الباب من جديد بواسطة قوة غامضة مثلما اغلق ، ودخل وصلى ، وتصالح مع ولي الله .

إن الأولياء لا يقدمون مساعدتهم ، فقط ، في الأمور الصغيرة ، وخصومات القرية ، بل أيضا عندما يهاجم الكفار المسلمين . وفي هذه المناسبات كان الأولياء يعودون من ارض المعركة وسيوفهم تقطر دماً ، وأحياناً كانوا يصابون بالجراح ، ويظهر بعض دمهم في المزار . لقد رأى الناس صورة ' مار نقولا ' (بيت جالا) ، بعد أن خلص القديس القرية من غزو البدو ، وهي تتصبب عرقاً . الشيخ إبراهيم الخواص (من دير غسانه) ساعد مسلمي طرابلس (الغرب - المحرر) ، ضد الغزو الإيطالي ، وقدر رآه الناس يقود جيشاً من الأولياء ، المزودين بالرماح وحاملي الأعلام . و ' النبي صالح ' في القرية التي تحمل اسمه ، يكره المشركين . وعندما كان الرفاعي عائداً من ارض المعركة مصاباً بجراح ونزف في المكان الذي بني فيه مقامه (على بعد مسافة ساعة إلى الغرب من دير غسانه) . وقد ورد ذكر قصة ' ستنا الغارة ' (بيت نوبا) . أما النبي الطرفيني (من بيت نوبا) فكان يرى خلال الحرب ، على حصانه ، وسيفه يقطر دماً . وهناك أغان تبين كيف أن الناس كانوا يطلبون المساعدة من القديسين :

آه ، بالوادي نده ندْهه
سارت مع الريحْ بالوادي
سمعْها علي قال حسّكْ
إكحل العين بنادي
قوموا أفزعوا يا عصبة الدين كُلكُمْ
هذا النهّار اللي تْبان فيه الأجاويد

بنت شوادر ذهب ومْقطبة خيري
ومْقطبة ذهب والقلْب إلها يميلي
إنْ طالْني الظيمْ بنْده هي يا عطاري
ناديت يا هي والجُو مثل المطر والسيل
والبعْض راكبْ هجنْ والبعْض راكب خيل
واما الرفاعي الدراج في نازح الحيل

ناديت هي ، من البصرة(٨٣) سمعْوني
قالوا نْعدك مْتيم قلتْ عدوني
شرْط عليكم من بحرْ الخوف تْعدوني

يا ابن الرفاعي يلّلي في الشفا غرقاني
بحْياة جدّك مُحمد صاحب البُرهان
مهما جرى للرعية يلزم الرعيان

ساداتنا بشوفه ولْهم درك وسيوفا
ناديت ندْهه عاجز يا راداً الملهوفا
شوفا عليه الهيبه من عند ربّ الهيبه
منْ صلى فيها الغيبه نال هنا وسْعُوفا
شوفا عليها القدْر من عند ربّ القدْر
من صلى فيها بدّري نال هنا وشروفا
شوفا مليحة وزين ما مثْلها في الزينْ
وشيوخها فيها اثنين(٨٤) زادوا شرف، معروفا
شوفا عليها حلت بركات ربي عليها حلّت

وعقود عُسرُ حلت بكراماتهم محذوفا
يا شيخنا يا رابي (٨٥) على الخير فعله رابي
راس الفرنج جابي بعْزايمه وكفوفه
سيدي يا أبو حمادي يا ساكن في باب الوادي
فزْعة وخيل جْيادي يا ساكني بشوفا

ويجب الا ننسى كرم الأولياء ، وهي صفه كل قائد أو قبيله بدوية .وعندما تقدم ذبيحة فهي في الحقيقة تقدم للولي ، وهكذا فان كل من يشارك في الوجبة هو ضيف ، وعليه فان الولي كريم في حياته وفي مماته ، ويظل في الحالتين يطعم الجائع وعابر الطريق .

اختلف رجل مرة مع زوجته ، ولذلك فر من البيت وعاش في مقام القطْرواني ، وكان الولي يزوده بطعامه اليومي بحيث يبقى الطريقة التي يطعمه فيها سراً ، وظل الرجل دون حاجة ما دام لا يفشي السر . وعندما تحدّث عن الأمر ، سحب الولي مساعدته(٨٦) .

ج- الأولياء كقضاة

في الفصل المتعلّق بالنذور حصلنا على نظرة لهذا الجانب الهام من وظيفة الأولياء . هناك الكثير من الحالات الحياتية التي يحدث فيها سوء تفاهم أو جريمة أو حالة من حالات الظلم التي لا يمكن تسويتها أو حلها . وفي مثل هذه الحالات لا بد من العودة إلى الولي . وهناك اعتقاد جازم بان الولي يعرف الأسرار الخافية ، كما انه قادر على إصدار الحكم الصحيح ، وكشف الطرف المذنب ، والأخذ بالثأر . وإذا اتهم شخص بجريمة قتل ولم يجد القضاة البدو أو المتهمون أي دليل على المتّهم ، فأنه يطلب منه أن يقسم يميناً يُثني عليه أحد الأعيان المسمى بجيد الأمانة ، يختاره المدعي .

ويتوجب الحصول على ثلاثة مُزكّين ليمين المتهم وجيد الأمانة . ويذهب الأشخاص الأربعة الذين يحلفون مع المتهم إلى ولي معروف أو نبي . ويذهب القاضي معهم أو يرسل من يمثله . ويخلعون أحذيتهم ويدخلون بخشوع . ويقرفص المتهم في حضرة الولي ويمد يده ويقسم . وبعده يأتي جيد الأمانة ، ثم يليه المزكون ، وإذا غاب واحد من هؤلاء يقوم أحد المزكين بإعادة ترتيب الأدوار . واما اليمين الذي يجب الا يقاطعه أحد فهو :

'بالله العظيم (٣ مرات) ، خالق الليل والنهار ، الواحد الأحد ، المنتصر ، الذي يبتم الأطفال ، ويرمل الزوجات ، ويهزم الملوك ، ويخضع الظالمين ، لم أقم بشي ، ولا قتلت ، ولا رأيت ، ولا سمعت ، ولا عرفت ، ولا قمت بالشر ، ولا ساعدت عليه ' (٨٧) .

وإذا كان الشخص مذنباً وحلف كذباً فان الولي ، بالتأكيد ، عاجلاً أو آجلاً ، وفي غالب الحالات خلال سبعة أيام ، سيعاقبه بقسوة . وستذبل يده التي مدها أثناء القسم . ومن الممكن أن يسقط على الأرض وهو يغادر المزار وينكسر أحد أطرافه ، أو يهاجمه مرض ، وقد تعرضنا لهذا الموضوع بالتفصيل في فصل النذور .

د- الأولياء كقوة إنسانية خارقة

إن جميع الأعمال التي تحدثنا عنها تضم أشياء يمكن أن يقوم بها قائد فقط . ونأتي الان إلى الأعمال التي لا يمكن القيام بها من جانب أي شخص ، وبالتالي يأتي دور القوى الخارقة للعادة للقديسين . أن المرض هو من الله . . ولا يمكن للإنسان أن يقوم بعمل الله . والولي هو خليل الله ، والله هو الذي اختاره ، ليعمل باسمه وبالنيابة عنه . وبالتالي فهو يقوم بالمعجزات التي هي من صنع الله . أن السمعة التي لحقت بالأولياء في مجال شفاء الأمراض منتشرة كثيراً ، وكل فلاح يعتقد بها . وكذلك هناك دور الأولياء في منع الشر الذي قد يكون بالدرجة الأولى إنحباس المطر ، الذي تعتمد عليه الزراعة في فلسطين . وقد تحدثنا عن هذا الأمر . كما يمكن أن يعزى للأولياء التسبب في تحقيق نتائج جيدة في المحاصيل(٨٨) . ويمكن تتبع هذه الفكرة إلى الوراء حتى عهد التوراه(٨٩) .

٤- علاقة الأولياء بالله وبالدين الشعبي

أ- العلاقة بالله:

أن جميع الأولياء كانوا ذات يوم من البشر ، ثم اصبحوا مثل الإله من خلال تقواهم . أن درجة اقترابهم من الله هي التي تحدد مراتبهم المختلفة فوق البشر ، ومهما كانت منزلتهم فهم يقفون فوق البشر ، وهم الأقرب إلى الله ولا توجد معايير محددة يمكن

بواسطتها أن يصبح شخص ما ولياً من أولياء الله . وعندما نبحث أصل الأولياء نجد أن الفلسطينيين يميزون بين الفئات التالية من الأولياء :

١- الأنبياء : (٩٠) على الرغم من أن القرآن يحدد ٢٥ نبياً (٩١) ، إلا أن الفلسطيني يعطي هذا اللقب للكثيرين مثل : النبي دانْيان ، زيتون ، ريالون ، صموئيل . . الخ . فالنبي صموئيل الذي يكرمه الفلسطينيون غير مشمول بقائمة القرآن . وهناك الكثير ممن يطلق عليهم أنبياء في فلسطين معروفة مزاراتهم ، ولكن شخصياتهم غير معروفة . ومثال ذلك النبي حنظل قرب تل بيت أم مرسم ، والذي يفترض انه ابن النبي صفوان . وهما غير معروفين(٩٢) . وقد قيل لي أن النبي حي يرزق بينكم بينما الولي يعيش وقد يكون له أطفال . وعلى الرغم من أن هذا التمييز غير معروف في كل مكان في فلسطين ، فإننا نجد له ما يوازيه في القرآن(٩٣) . أن الشهداء الذين يرتقون إلى درجة القداسة بعد موتهم ، يقال انهم يعيشون ، يأكلون ، يشربون ويتزوجون وينجبون الأطفال . وبينما تعطي المعتقدات هذه الإمكانيات لكل الأولياء ، فان الخرافات الحالية ، تحتفظ بالقدرة الجنسية للأنبياء فقط .

لقد أُخبرتُ أن النبي صالح (٩٤) يظهر خلال الأحلام الليلية للنساء اللواتي يشعرن بأنهن قد مارسن الجنس معه (٩٥) .

ولا يستاء الأنبياء إذا زار الناس أولياء اقل درجة منهم . وقيل في الحديث عن النبي محمد : من زار يونس كأنه زارني (٩٦) . وقالت لي امرأه من البيره أن النبي موسى قد قال : اللي ما بطيقش (لا يطيق) زيارتي يزور شيبان ابن خالتي .

٢- الصحابة : وهم أصدقاء النبي .

٣- الأولياء(٩٧) : وهو اسم عام لمجموعات من التفريعات . ويسميهم الفلاحون النجوم ، بينما يشبهون الأنبياء بالقمر ، لانه عندما يظهر الأخير تعتم الأولى . ومن السهل أن تعرف الله من أن تعرّف الولي ، لان الولي ' يتستر من الكرامة ، كما تتستر المرأه من الحيض ' أي انه لا يظهر نفسه كصانع المعجزة(٩٨) . وفي الواقع فان هذه القاعدة ليست صحيحة كما سنرى . وهناك فارق طفيف بين الفئات المختلفة للأولياء لا بد من ملاحظتها . أن مزار النبي يسمى عادة 'حظرة ' وذلك الخاص بالقديس 'مقام' ، أما المزارات الخاصة بأولئك الأولياء المكرمين والمعترف بهم فتسمى

'مشهد'(٩٩) . وتضم تفريعات الأولياء كلا من : الأقطاب ، الابدال ، أصحاب الختمة ، المشايخ ، الخلفاء ، المجاهدين ، البهاليل .

أ) الأقطاب : جمع قطب (أي غوث) ، وهم الأربعة الذين أوجدوا الطرق التي تحمل أسماءهم : عبد القادر الجيلاني ، احمد البدوي ، إبراهيم الدسوقي ، احمد الرفاعي . والأول ، هو حفيد سلالة عائلة الرسول ، ويسمى قطب الأقطاب . وبشكل عام يعتقد أن الله قد أعطى هؤلاء الأربعة السيطرة على العالم(١٠٠) . أن العدد الأكبر من الشيوخ والدراويش يتبعون واحداً من الأقطاب . ويعبر الشعر التالي عن تكريس أحد أتباع الرفاعي نفسه للأقطاب الأربعة ، وبشكل خاص لسيده :

ازاي انظام وسيادي حماة الحي

أربع سلاطين(١٠١) هم لابسين الزي

والله لو شرّحوا لحمي وشووه شي

ما فوت لشيخي بتوفيق الحي

ويقال أن كل واحد من هؤلاء القادة قد استلم الإلهام من نبي ، وتبع خطته ، أي طريقته ، وأن كل واحد من رجال الله هؤلاء معروف بصفات مشتقة من مميزاته أو معجزته ، فالبدوي يعرف أيضا باسم الملثم ، والرفاعي معروف باسم أبو العواجيز (أبو المحتاجين) وكذلك بأسماء : العيسوي ، أبو حمادي ، والشيخ العريجة . وقد جاء الاسم الأخير من شفائه لإمرأة عرجاء ، لمسها بطرف ثوبه ، وفيما يلي الأشعار التي تذكر هذه الأسماء :

سادات لينا لينا

طال المطال علينا

سيدي يا أبو حمادي

دير أنظارك علينا

من صُغُر سني وأنا في حبكم سواح

ولى زمان الصبا والشيب أتاني وراح

وحياة تربة نبي سار له الدليل وراح

بدّي من الشيخ العريجة لفحة فيها نجاح (١٠٢)

صيوانه على شط بحر النيل منصوب صيوانه

العيسوي اللي ما شكى الظيم عيانه

نادى المنادي في الصباح والمسا

تهتز سلسلة النبيين على شأنه

ويسمى الجيلاني ' الباز ' وذلك لانه كان أول من استعمل البازة (ألة موسيقية) في موسيقاه الدينية . وهو الكيلاني من كال - كيل (لكيل الحبوب) . ويوضح هذا الإسم بالقصة التالية :

'ذهب الولي إلى بغداد ليشتري القمح . وحاول التاجر أن يغشه في كيل القمح . وقد استاء الجيلاني من السلوك الحقير وامسك بالمكيال من يد التاجر ورماه على كومة القمح ، حيث بدأ يمتلئ بواسطة قوة خفية ويفرغ ما فيه في كيس الولي' .

والدسوقي معروف باسمه الأول : إبراهيم .

ولكل قطب تلميذ ، منحه سيده قوة خارقة . وما زال هؤلاء معروفين . ويتفاخر بعض الفلسطينيين بأنهم من أحفاد ذلك القطب ، وهم يتبعون طريقته ، وينسلون مشايخ ودراويش الطريقة . وكما ذكرنا في فصل سابق يملك الأقطاب القدرة على التجلي على شكل حيوان . ويعطي الجدول التالي ملخصا لمميزات كل قطب :

اسم القطب	لقبه	ملهم من	العائلة التى تتبع طريقته	اسم تلميذه المفضل	الحيوان الذي يظهر على شكله
البدوي	الملثم	عيسى	الزعبية	اليازجي	طير أخضر
	خايظ	حوران			
	البحار(١٠٣)				
الرفاعي	العيسوي				
	ابو العواجيز	جبريل	العاروري	عبد العال	طاووس
	ابو جمادي				
	شيخ العريجة				
الجيلاني	الكيلاني				
	ابو صالح(١٠٣)	محمد	النوباني	عبد الصمد	أسد
	الباز				
الدسوقي	ابراهيم	ابراهيم	السعدي	البهلول	طير الغريب
	ابو العلمين(١٠٣)	عكا			

ب- الابدال : وهم قديسون يغيرون أشكالهم ، متى أرادوا ، طبقاً للمعتقدات الفلسطينية العامه . وطبقاً لما جاء في محيط المحيط (١ـ ٧٣) فالابدال رجال أتقياء عددهم ٧٠ شخصاً ، أربعون منهم في دمشق ، وثلاثون في أماكن أخرى . وكلما مات واحد منهم اختار الله بدلاً منهم(١٠٤) .

ج- أصحاب الختمة ، أو أصحاب الحظوة ، وهم القديسون القادرون على الذهاب في لحظة من طرف من العالم إلى الطرف الآخر . وهكذا يمكن أن يروا في نفس اليوم في اكثر من مدينة متباعدة .

د- المشايخ وهم الذين سحبوا أنفسهم من شؤون الدنيا وعاشوا حياة دينية خالصة .

هـ- الخلفاء (جمع خليفة) وهم مؤسسوا الزوايا - جمع زاوية . ورئيس الزاوية هو رئيس الطريقة ويسمى الخليفة الأعظم ، وبالطبع يجب الا نخلط بينه وبين رئيس كل المسلمين .

و- المجاهدون أو ' المغازين ' : جمع مجاهد أو مغازي ، وكذلك الشهداء(١٠٥) ، وهم عديدون . وفي القدس نجد الأماكن التالية التي يقال أنها مكرسة للشهداء :

١- في القيمرية هناك خمسة أمراء(١٠٦) - جمع أمير (١٠٧) وهم :

حسام الدين أبو الحسين القيمري

ضياء الدين

حسام الدين خضر

ناصر الدين القيرمي

وناصر الدين محمد جابر .

والى جوارهم يقال أن هناك العديد من الأمراء المدفونين .

٢- في الشيخ جراح وجد ضريح ولي الله الشيخ الجراح ، وكذلك المجاهدين الآخرين .

٣- رجال البدرية أو شهداء البدرية ، وهنا دفن بدر الدين محمد أبي قاسم الهكاري (١٠٨) .

٤- الشهداء (١٠٩) خارج باب الساهرة ، وتظهر القليل من القبور .

٥- المجاهدون الذين تقع قبورهم في مقبرة مأمن الله (١١٠) . ويقال أن رؤوس سبعين الف شهيد قد أدخلت إلى هنا .

٦- في داخل باب يافا(١١١) ، هناك ضريحان مكرسان لمثل هؤلاء القديسين .

٧- في شمال منطقة الحرم نرى العديد من الأضرحة التي تمت لنفس المجموعة .

٨- مسجد المجاهدين(١١٢) ، الواقع إلى جوار الأقصى والذي بناه السلطان عيسى المعظم .

٩- قبور المجاهدين في ساحة مكتبة الخالدية .

١٠- الغوانمة قرب وانمة . . في الزاوية الشمالية الغربية لساحة الحرم الشريف ، ويعتبرهم البعض شهداء ، والآخرون يعتبرونهم أتقياء .

١١- رجال الأربعين ، في المجمع الغربي لمنطقة الحرم الشريف ويقال انهم شهداء .

١٢- الشيخ المنسي (١١٣) ، على جبل صهيون (١١٤) .

ذ- البهاليل : (جمع بهلول) ، وهم فئة من المتعبدين النساك ، يتخلون عن كل ثروات الدنيا ، ويعيشون متوحدين في الحقول ، ويتصرفون بشكل غير عادي من وجوه عدة (١١٥) . وينتمي المجاذيب إلى هذه الفئة . وسنتكلم فيما بعد عن هذه الفئة .

٤- العجم : وهم أعداء الصوفية ، كما وصفنا من قبل .

وهناك في القائمة ولي يقال انه تحول من المسيحية إلى الإسلام ، واسمه يوكنا الحلبي . وجميع القديسات الإناث يصنفن مع مجموعة الأولياء .

ب- مكانة الأولياء في الدين الشعبي

أن الدين الشعبي الفلسطيني المعاصر ، يتمايز كثيراً عن الخط الإسلامي الرسمي . وهذا يصدق على الدين الشعبي في كل مكان . فالدين الإسلامي يعرف إلها واحداً(١١٦) ، وكل من يعتقد بإله غير الله فإنه يعتبر مشركاً ، والأنبياء هم مجرد رسل الله ، اختارهم ليوصلوا رسالته . والعديد منهم كانوا بسطاء ، وليسوا بالفصحاء ، حتى أن بعضهم كانوا يملكون عاهات جسدية . ولا يسمح الدين الإسلامي بان يعبد أي مخلوق(١١٧) . واكثر من ذلك ، وحسب تعاليم الإسلام ، فالمسلم قدري ولا يمكن إطالة العمر من خلال الصلوات والدموع والنذور والاضحيات(١١٨) . أن الأنبياء لا يغيرون القدر ، ومع ذلك تحاول الطبيعة البشرية تجاوز كل المصاعب . وبما أن المرء لا يعرف متى تأتي ساعته ، فانه يحاول كل ما في وسعه لتخطي سوء الحظ . وقد شعر الناس ببعد المسافة بينهم وبين الله ، وبدا لهم أن من المستحيل أن يصل المذنب مباشرة إلى الله(١١٩) ، ولذلك فهو بحاجة إلى وسيط توفيقي 'لولا الواسطة لذهب الموسوط ' وهذا الشعور مميز لجمع الناس والأعمار والأديان . وقد ورث الفلسطيني الحالي هذا المعتقد من أسلافه ، عبدة الأوثان واليهود والمسيحيين ، ويمكن رصد الكثير من مفاهيم الأسلاف في الفولكلور الفلسطيني المعاصر ، وقد تطور الوسيط إلى مرتبة الإنسان الخارق للعادة(١٢٠) . وبالتدريج تزايد عدد هؤلاء ، وأصبحت الظروف للوصول إلى مرتبة الولي أسهل . وهكذا عندما ابتعدت العبادة الشعبية عن الدين الصحيح ، فإنها سقطت في عالم الخرافة . وفي الوقت الحاضر فان الدين الشعبي مختلف تماماً عن الديانة الموحى بها .

إن الدين الشعبي يثير اهتمامنا من حيث أن المسالة هي كما يقول كوندر : ' انه في العبادة في تلك المقامات ، تتبدى شخصية ديانة الفلاحين . أن بعض المسلمين يقضون حياتهم دون أن يدخلوا المسجد ، ونراهم منجذبين إلى فكرة أن القديس يحمي القرية ، اكثر من الله ، أو النبي محمد ' . وان ذلك لا يدهشنا ، فهؤلاء الفلاحون الفلسطينيون هم ورثة وأحفاد الوثنيين من سكان فلسطين في فترة ما قبل التوراة ، الذين بنوا الأماكن العالية الأولى .

أن جميع الأولياء كانوا في وقت من الأوقات بشراً ، يعيشون كما نعيش . وقد خبروا بلحمهم كل المآسي ، والصعوبات ، والمرض ، وآلام الحياة . وهم يعرفون أيضا أكاذيب

الإنسان ومكائده ولذلك فهم يشعرون بنا وبمصابنا ويفهموننا اكثر مما يمكن أن يفعل الإله(١٢١) . وفي نفس الوقت فان غضبهم يمكن أن يهدأ بسهولة ، ويظل الأمل عند الإنسان باتخاذه لإجراءات احتياطية ، بان يفلت من عقوبتهم أو يهدئها . وهذا يوضح جزئيا لماذا اتخذ الأولياء تدريجيا مكان الله ،فالنذور والتقدمات بأسمهم ، كما تطلب المساعدة منهم اكثر مما تطلب من الله . وإذا راجعنا صيغ النذور والقسم تصبح هذه النقطة واضحة . أن الرجوع الأول هو إليهم وبعد ذلك يتم التفكير في الإله .

٥- أصل الأولياء

عندما ندرس ، بدقة ، الخرافة الشعبية بعلاقتها بالقوى الخارقة للطبيعة نجد ثلاث فئات ، وهي : الأرواح(١٢٢) ، القديسين ، وأرواح الموتى(١٢٣) .

من الممكن أن تكون الأرواح طيبة (سماوية ، عليا ، إلهية ، ومؤمنة)(١٢٤) . ومن الممكن أن تكون شريرة (أرضية ، جحيمية ، دنيا ، أو كافرة)(١٢٥) . أما أرواح الموتى ، فقد تكون طيبة أو شريرة ، طبقاً للأفعال الخيرة أو الشريرة على الأرض .

أن أرواح الذين لقوا حتفهم بصورة غير طبيعية تزور في العادة المكان الذي نزل فيه دم القتيل . ومثل هذه الروح تسمى ' مُفاول ' أو ' رصد '(١٢٦) . و الأرواح الطيبة في العادة مؤهلة لمرتبة القداسة .

وهكذا فأننا نرى أن جميع القوى الخارقة للعادة تقسم إلى قوى جيدة وسيئة . وتضم المجموعة الأولى القديسين والأرواح الطيبة ونفوس الموتى الأبرار (١٢٧) . أما المجموعة الثانية ، فهي تتألف من الأرواح الشريرة ونفوس الموتى الأشرار .

أن هاتين القوتين هما في صراع دائم مع بعضهما البعض ، ولكن ، مع ذلك ، فانهما تمتلكان نقاطاً مشتركة من التشابه . وهما تظهران في أشكال مختلفة ، مع قدرة على الطيران ، والقيام بالمعجزات . أن درجة القوة الخارقة تعتمد على مرتبة تلك القوى ؛ فالقديسون هم اكثر القوى الطيبة قدرة ، وكذلك فان الجن هم اكثر الأشرار في مجموعتهم قدرة ، أن الله يسيطر على الجميع وعليهم جميعاً أن يطيعوا أوامره . والفلسطينيون المعاصرون يعتقدون ، كما كان يعتقد أسلافهم ، أن كل شي ، سواء كان

طيباً أم سيئاً ، يأتي من الله . أن التعبير العربي الذي يستعمل عندما يحل بالمرء شئ هو : من الله ، بإذن الله ، تقدير الله(١٢٨) . ذلك لان القوى الطيبة والشريرة هي مبعوثة من الله(١٢٩) وتنفذ إرادته (١٣٠) . وفي بعض الحالات فانه من السهل أن نجد أصل القديسين ، بينما في حالات أخرى فان ذلك صعب . وسأحاول أن اصنف القديسين في المجموعات التالية :

١ ـ القديسون التاريخيون :

أ- شخصيات توراتية .

ب- شخصيات قرآنية .

ج- شخصيات من التاريخ الإسلامي .

٢ ـ قديسون لا يزال أحفادهم على قيد الحياة .

٣ ـ دراويش الطرق الصوفية ، وقديسون لا يعرف أصلهم .

وقبل أن نتحدث عن كل مجموعة ، فإن من المهم أن نعطي بعض التفاصيل التي تلقي الضوء على أصل الأولياء . إن فحص أسماء الأولياء هو أمر ذو قيمة ، على الرغم من أن الفلاحين يعطون توضيحات مبنية على اشتقاقات (١٣١) شعبية ، وهذه قائمة توضح الموضوع .

اسم الولي	المكان	أصل التسمية
١ . أبو الشعر	المالحة	بسبب الشعر الكثيف على ظهره
٢ . إبراهيم الخواص	دير غسانه	يصنع السلال من سعف النخيل(الخوص) .
٣ . بشر الحافي	نابلس	كان يمشي دائماً حافي القدمين
٤ . احمد أبو سل(١٣٢)	عراق المنشية	قيل انه كان يحمل سلة ماء ، لا يسيل منها الماء .

اسم الولي	المكان	أصل التسمية
٥ . النبي حوشان	خربة حوشان إلى الجنوب الغربي من شفا عمرو	يخيف ويربك اللصوص الذين يقتربون من المزار
٦ . عصفور	دير غسانه	طار إلى مكة
٧ . نافوخ	إلى الشرق من كفر الديك (١٣٣)	ينفخ كل معتد حتى يتورم
٨ . أبو عروب(١٣٤)	دورا (الخليل)	حارب الكفار بعظم جمل (قارن شمشون)
٩ . النبي صالح	سبسطية	أرسل اللهيب لسحق أعدائه (قارن إيليا)
١٠ . الطيار	عدة أماكن	طار خلال حياته
١١ . أبو خروبة	جنوب غرب الظاهرية	نمت خروبة قرب قبره .
١٢ . الخضرا	نابلس	حمى الله عذريتها
١٣ . رجال العمود	نابلس	كانوا يحملون عموداً بيد واحدة .
١٤ . علي البكا (١٣٥)	الخليل	اعتاد أن يبكي كثيراً
١٥ . النبي نوح	عُطاب	كان يبكي كثيراً في حياته .
١٦ . لولو	القدس	حوّل الكسكون (١٣٦) إلى لؤلؤ
١٧ . الكيلاني		كال القمح
١٨ . خليل الله (١٣٧)	الخليل	اختاره الله خليلاً
١٩ . أبو ثور (١٣٨)	القدس	كان يركب ثوراً(١٣٩)

وبينما نجد ، بالنسبة لبعض المزارات ، انه يمكن الحصول على المعلومات من المصادر التي نملكها ، فانه لابد بالنسبة للعديد من المزارات من الاعتماد على

الحدس . أن العديد من المزارات الحالية التي يقدسها الفلسطينيون ، هي بلا شك اقدم من الإسلام ، وحتى قبل الفترة المسيحية كما يقول ' رينان Renan ' :

'أن الناس ، منذ البداية ، ظلوا يتعبدون في الأماكن نفسها(١٤٠) ، والتي هي في الغالب قمم الجبال ، حيث شعر الناس منذ اقدم العصور بأنهم قريبون من الله ، وكانوا يرغبون في التحاور معه (١٤١) ' .

لقد ظل الفلسطينيون يحافظون على المكان كمزار ، ولكنهم كانوا يغيرون اسم الكائن المعبود هناك . وهكذا على سبيل المثال ، فإن الكهف الموجود على جبل الزيتون ، والذي يقدسه المسلمون باسم ' الرابعة '(١٤٢) يلقى احترام المسيحيين حيث كفرت بلاجيا عن ذنوبها ، بينما يقول اليهود انه مزار القديسة خلدة (١٤٣) . وليس فقط أن العديد من الكنائس المسيحية تحولت إلى مساجد ، ولكن هناك الكثير من المزارات المسيحية أصبحت مزارات إسلامية .

إن افضل مثال على ذلك هو ' الشيخ محمد شعله '- سبسطيه (١٤٤) . ولقد رُويت القصة التالية عنه :

'حصل مرةعراك بين المؤمنين (المسلمين) والكفار . وكان رجال الله الذين أرسلتهم السماء ينفثون النار التي سحقت الأعداء . وهكذا كان اسم الولي 'شعلة ' . وفي الخرائب المجاورة للمزار وجد البرفيسور آلت كتابات يونانية تكرس الكنيسة لإيليا الشبتي في ذكرى المعجزة المتعلقة بإرسال نار من السماء إلى الأرض لإحراق الرجال الذين أرسلهم أحازيا ، ملك إسرائيل . ولا بد أن المأثورات قد حافظت على القصة التوراتية مع تعديل طفيف ، وهنا نجد شعلة وقد اخذ مكان إيليا .

وانه لمن المثير للاهتمام التحري عن المزارات والحصول على القصص المتصلة بها ، وتدوين جميع الخرافات والمعتقدات المتصلة بها . أن مثل هذه المعلومات ستكون ذات قيمة طوبوغرافية ، وحتى تاريخية .

وهناك مسألة أخرى مهمة جداً لا بد من ملاحظتها هي أن العديد من القرى تحمل أسماء أبرز الأولياء الخاصين بها . والسؤال الذي يبرز هو أن كانت القرية قد سميت باسم الولي ، أم العكس . وكلا الاحتمالين وارد . وفي مجموعتي نجد الحالات التالية :

القرية	الولي
الخظر	الخظر الاخظر
دير ياسين	الشيخ ياسين
قرية العناب	الشيخ عنباوي
بيت لحم (الجليل)	الشيخ لحام
عارورة	الشيخ العاروري
دير شرف	الشيخ شرف
خربة دير السد	الشيخ السدري
مزارع النوباني	الشيخ النوباني
دير الشيخ	الشيخ (السلطان) بدر
بيت جبرين	النبي جبرين
بيت لقيا	النبي لقيا
دانيان (اللد)	النبي دانيان
يانون	النبي نون
لوط	النبي لوط
يامين	النبي بنيامين
بيت عور التحتا	االنبي عور
كفل حارس	النبي ذو الكفل
خان يونس	النبي يونس
العيزرية	العزير
خليل الرحمن	خليل الله
خربة تل الأربعين	الأربعين
الفالوجة	أحمد الفالوجي
خربة أجدور	النبي أجدور(١٤٥)

القرية	الولي
دير أيوب	النبي أيوب
خربة عزوني(١٤٦)	رجال عزون(١٤٧)
النبي صالح	النبي صالح
الدحي(١٤٨)	الدحي
خربة الكفيرة	أبو كفير
دير استيا	االنبي إشيا
اليهودية	النبي يهودا
خربة هوشه	النبي هوشان

وبالنسبة لبعض حارات المدن ، والأماكن الصغيرة غير المأهولة ، الجبال . . الخ ، فأنها تحمل اسم مزار يقع فيها أو قربها :

١ . حارة النبي داهود	النبي داهود
٢ . حارة الشيخ جراح	الشيخ جراح
٣ . حارة سعد وسعيد	سعد وسعيد
٤ . باب ستي مريم	العذراء مريم
٥ . جبل الثوري (القدس)	الشيخ احمد الثورى ، ويلفظ أيضا الطوري(١٤٩)
٦ . الشيخ بدر (شمال غرب القدس)	الشيخ بدر
٧ . تل بلعمه(١٥٠)	بلعمه (بين جنين وقباطية)
٨ . حريقة الليقاني(١٥١)	النبي ليقيا (بيت لقيا)

٩ . نهر روبين	النبي روبين
١٠ . تل يونس (جنوب يافا)	النبي يونس

وسأحاول تحليل(١٥٢) بعض الأسماء الواردة أعلاه ، لأظهار أنه في بعض الحالات يتلقى الأولياء أسماء القرى ، وفي بعض القرى الأخرى فإنها تسمى حسب أشهر الأولياء فيها ، وهذا بلا شك حقل مهم للدراسة المتعمقة ، ذلك أن نتائجها ستوضح الكثير من غوامض الطبوغرافيا والتاريخ المحلي .

إن الحالتين التاليتين ، على الرغم من انهما غير مذكورتين في القائمة العليا ، توضحان كيف أن القديسين يُخلدون أسماء القرى الدارسة . بالقرب من بيسان هناك ' تل الصارم' حيث كانت تقوم المدينة الكنعانية ريحوب (المكان الواسع) التي خربت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وفي العهدين البيزنطي والعربي المبكر ، حملت القرية الاسم نفسه كما ذكره يوسيبوس . والان فإن اسمها خربة الرحاب وتقع إلى الجنوب من تل الصارم ، وهنا في الخرائب الأخيرة ولي يحمل اسم المدينة الكنعانية القديمة ، ويسمى ' الشيخ رحاب ' . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن المدينة الكنعانية الملكية ' إيجلون ' ، وتعرف بتل الحسي . أن اسم الشيخ عجلون ، الواقع في المنطقة المحيطة بالتل على خرائب بيزنطية ، أو عربية مبكرة ، تسمى خربة عجلون ، إن هذا الاسم يخلد اسم مدينة خربت منذ زمن سحيق . وأنا مَدينٌ في هاتين الحالتين لِلُطف البروفيسور البرايت .

والشيخ ياسين(١٥٣) ، في دير ياسين هو أيضا القديس المسيحي ياسون(١٥٤) . ويخلد النبي هوشان ، في خربة حوشة وهو الاسم التلمودي أوشه . وكذلك فان النبي يقين قد يخلد مدينة قايين المذكورة في يوشع (١٥-٥٧)(١٥٥) . أن الشيخ أبو طور (في الأصل أبو ثور) مبني على موقع الدير المسيحي سانت لوقا(١٥٦) (والذي كان شعاره الثور(١٥٧)) . ومن المحتمل أن يكون العزير (أبو غوش) هو اليعازر بن ابيناداب الذي طرده أبوه ' لحفظ تابوت العهد ' أثناء مكوثها في كريات ياريم (صموئيل الأول ٧) ، وقد يكون المزار على التلة المجاورة(١٥٨) . كما أن بيت عور هي ' بيت هورون ' . وفيها نبي يحمل اسم القرية (النبي عور) انه لا يوجد نبي معروف بهذا الاسم(١٥٩) .

وفي بيت جبرين (بيت جبرا القديمة) أو بيت جبرين (١٦٠) حيث النبي جبرين أو جبريل ، الذي يحظى بالاحترام . ولا يوجد نبي (بل ملاك) بهذا الاسم ، واسم القديس مشتق من تلك القرية(١٦١) . أن الجزيري يخلد اسم جيزر . والاسم الجديد هو أبو شوشة . وعلى تل العاشور فان الشيخ العاشور يخلد إسم بعل حازور(١٦٢) . ولا أشك أن الشيخ عنباوي(١٦٣) ، يحمل أصلاً مشابها للجزيري . أما أبو كفير فيخلد إسم المدينة الكنعانية القديمة ، والتي تعرف خرائبها باسم الكفيرة . أن قبر حبرون قرب الخليل يخلد إفران الحثية(١٦٤) (التكوين ٢٣ : ٤-٢٠)(١٦٦) ولا بد من الملاحظة أن أسماء هذه المدن القديمة ، ليست مشتقة من أسماء شخصية ، ولكن الفلسطينيين قد شخصوها بأسماء قديسين . وفي حالات أخرى فان القديس قد أعطى الاسم للقرية التي تكرمه ومثال ذلك :

الاسم القديم للموقع	اسم القديس	الاسم الحديث للموقع
١ . الخليل	خليل الله	الخليل
٢ . بيتاني	لازاروس (العزير)	العيزرية
٣ . مزباح بنجامين	صموئيل	النبي صموئيل (١٦٧)
٤ . هضبة	جوناس	تل يونس

أن اصل كفل في كفل حارس هو كفر ، ويعتبر الحرف ناتجاً عن إبدال حرف الراء كما في حالة صور باهر وصور باهل . . الخ ، وهذا أمر معروف في العامية الفلسطينية . وبعد تغيير كفر إلى كفل ، ارتبط الآخر بالنبي المذكور في القرآن ذي الكفل ، وظهر مزار لذلك النبي . وقبل أن أترك هذا الجزء فإنني اجري المقارنات التالية : لقد علمت بأن النبي زيتون(١٦٨) قرب 'بيتونيا ' يقوم مقام زبلون(١٦٩) . وأن ريالون في مدار الأنبياء (نابلس) يقوم مقام نفس البطريرك . أنني اعتقد بأن زبلون هو نفس مصدر ' زيتون ' وريلون(١٧٠) ، وربما أن كتابة كوفية عربية سابقة لكلمة زبلون قد قرأت خطأ وغيرها البعض إلى ريلون ومن قبل آخرين إلى زيتون .

وفي الكثير من الحالات هناك من يخبرنا أن هناك العديد من الأولياء يعيشون في نفس المزار . وقد وجدت الأرقام ١٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٧٠ ، هي الأرقام السائدة . ورقم ٤٠ هو الرقم السائد والأكثر شيوعاً . وعند تحليل المزارات المكرسة للأربعين نجد أن هذا الرقم دائماً يتصل بالأوصاف مثل نبي ، ولي ، مؤمن ، مغازي ، رجال ، شهيد ، محسومية ، وفي حالة واحدة : عجمي . وإذا ما تركنا التعبير الأخير بعيداً عن الحاضر ، نلاحظ بأن هذه الأوصاف تقسم إلى مجموعتين :

١- أوصاف تشير إلى قداسة الحياة ، مثل ولي ، نبي ، ومؤمن .

٢- أوصاف تشير إلى الشهادة ، مثل شهيد ومغازي .

ومن الصعب ان نعرف من هم الأربعين . ونجد في الكنيسة الشرقية المسيحية أن هناك سبع حالات فيها احتفال بأربعين شخصاً . هناك ست مرات : شهداء (١٧١) ، ومرة واحدة : قديس . ان مجموعة واحدة من هؤلاء السبعة قتلت في فلسطين . وأهم ' مجموعة أربعين شهيداً ' هي في سيباسيط ، في آسيا الصغرى (١٧٢) ، وقد هلكت من البرد في بحيرة متجمدة بسبب طغيان ليكينيوس . ومن المحتمل أن تكون الخرافات المسيحية قد أعطت الدفع للفكرة الإسلامية . ومما لا شك فيه أن مقام الأربعين في الناصرة ، قد أقيم على موقع كنيسة الشهداء (١٧٣) . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن مشهد الأربعين (١٧٤) ، على جبل رميدة قرب الخليل ، كذلك هناك احتمالية في مسألة مزار الأربعين على جبل الزيتون ، حيث ، كما يقول ، جيروم ، كان هناك ثلاثون بازيلكا والكثير من الأديرة .

ومن الغريب أن نجد للمسلمين ، الذين يحتوي كتابهم المقدس على إشارات قليلة للرقم ٤٠ ، مزارات عديدة تحمل إسم الأربعين ، بينما نجد لدى المسيحيين واليهود ، الذين نجد الكثير في أدبياتهم عن الرقم ٤٠ ، القليل من المزارات بذلك الاسم(١٧٥) . إنني افترض بأنه كان هناك رقم غامض ناتج عن رؤية الناس لعدد من الأولياء يصلون معاً ، ثم كان هناك إدعاء بأن العدد قد يصل إلى أربعين ، وأخيراً حل الرقم أربعين محل الرقم الغامض . ان الرقم ٤٠ كثير الاستعمال في الصيغ السحرية ، والخرافات ، والمعتقدات الشعبية ، ولكنه لا يقوى على منافسة الأرقام المقدسة : ثلاثة وخمسة وسبعة .

وعند فحص عدد المزارات المكرسة لعشرة ، لستين ، ولسبعين ولياً ، فإننا نجد بأنها أقل من تلك السابقة ، لدينا مثال واحد عن كل فئة :

١ . خروبة العشرة - العيسوية(١٧٦)

٢ . مغارة الستين نبي ، بني نعيم (١٧٧)

٣ . سبعين عزيرات ، عورتا (١٧٨)

وفيما يتعلق بالأخير فقد وجدت بعض التناقض ، فمن ناحية فإن الأسماء تشير إلى أنها أسماء قديسات إناث ، يظهرن كالحمامات . ومن ناحية أخرى فقد ذكر لي بعض أهل عورتا ، انهم كانوا أنبياء(١٧٩) .

وفيما يلي قائمة بمزارات الأربعين التي زرتها ، وهناك الكثير منها مبعثر في كل فلسطين :

١ . الأربعين ولي	كهف رجال العمود (نابلس)
٢ . مجمع الأربعين	في أحد غرف رجال العمود (نابلس)
٣ . أربعين مغازي	بيت لقيا .
٤ . رجال الأربعين	بدُو .
٥ . جامع الأربعين	العيسوية .
٦ . أربعين مغازي	صوبا .
٧ . الأربعين	القبيبة .
٨ . الأربعين	بين سطاف وعين حابس .
٩ . قبة الأربعين	جبل الزيتون .

١٠ . رجال الأربعين منطقة الحرم الشريف .

ولا بد من الإشارة إلى أن الكثير من المزارات قد اختفى تماماً ، بينما ظل الاسم ، البئر ، الصخرة ، التلة ، يشير إلى المزار القديم . وفيما يلي بعض الأمثلة : في بيت جالا كان هناك مزار مار عياش(١٨٠) ، القديس جورج(١٨١) ، جدعون(١٨٢) ، وابنه ايمليخ(١٨٣) . وكان يعتقد بالمعجزة المزدوجة للجزة التي وضعت على البيدر وأعطيت لجدعون(١٨٤) كإشارة على ابتلاء المدينين . وكان المكان يعرف ، في الثلاثين سنة الأخيرة (تقريبا بين ١٨٩٠ و ١٩٢٠ - المترجم) ، باسم عراق الجزة(١٨٥) . وفي بير الدم يفترض أن ايمليخ قد رمى اخوته الذين قتلهم(١٨٦) . وقد ذكرت القليل من الأماكن المنسية من قبل في النص .

أ - القديسون التاريخيون

١- الشخصيات التوراتية

هناك القديسون الذين ينتمون لعهدي التوراه ، والمدفونون في أرض فلسطين . إن الكثير من الأنبياء يمتلكون العديد من المزارات : واحد يخلد ذكرى مولده ، وآخر يخلد موقع أهم أعماله ، وثالث فيه ضريحه ، ورابع يبين المكان الذي ظهر فيه بعد موته . . . الخ .

وإن إعطاء قائمة بكل الشخصيات التوراتيه المكرمة في فلسطين ، يقع خارج نطاق هذا البحث فعددها كبير . إن بعض الأنبياء قد غيروا أسماءهم بشكل كامل ، كما هو الحال في : شعلة ، وأبو زيتون . ان مزار النبي يقين على جبل المرطوم قرب بني نعيم قد تم وصفه من قبل . ويقول القديس جيروم ان مزاراً لإبراهيم كان قائماً في بني نعيم ، ثم صار يعرف باسم كفر باروخا ، والسكان الحاليون يضعون قبر لوط في هذا المكان . ان مزاره ، بالتأكيد ، مبني على خرائب كنيسة(١٨٧) . ومن الشخصيات التوراتيه التي تغيرت أسماؤها :

١ . ريالون (نابلس) يمثل زبلون .

٢ . العزير (عورتا) يمثل عزرا هو أصلاً اليعازر بن هارون .

٣ . العزير (أبو غوش) يمثل عزراً ، أصلاً اليعازر ابن أبيناداب .

٤ . العزير (العيزرية) يمثل عزرا ، أصلاً لزاروس .

٥ . المنصوري (عورتا) يمثل فينياس بن اليعازر .

وهناك أمثلة كثيرة ، أما الحالات مثل يحيى/ يوحنا (جون) وإدريس / اينوخ فقد حذفت . والقائمة التالية تبين كيف أن النبي التوراتي نفسه يمكن أن يكرم في أكثر من مزار :

١ . إبراهيم	* شمال الخليل	بيت الخليل(١٨٨)
		بير الخليل
	* في الخليل	قبره وبلوطة الخليل(١٨٩)
	* بني نعيم	مكان رؤيته لخراب سدوم
	* القدس (تحت الصخرة)	المحراب الذي صلى فيه(١٩٠)
٢ . عيسى	* بيت لحم	المهد ومغارة السيدة - مغارة الحليب
	* شمال بيت لحم	حقل الفاصولياء الرمادية(١٩١)
	* القدس القبر المقدس	بالإضافة لقبر المسيح هناك ، الكثير من الأماكن المتعلقة بحياته
	* القدس / الأقصى تحت الأقصى - سرير عيسى	طبعات القدم
	* جبل الزيتون	طبعات القدمين في كنيسة الصعود
	* بيت جالا بير عونه	طبعات الركبتين

	* الأردن	التعميد
	* جبل قرنطل	المغارة التي صام فيها المسيح
	* جبل طابور	التجلي
٣ . داوود	* بيت لحم	بئر داوود
	* القدس	قبره
	* القدس (تحت الصخرة)	محراب داوود
	* القدس (خارج الأقصى)	محراب
	* في قلعة داوود(١٩٢)	محراب
	* قبة السنسلة	محراب

وقد قمنا بتعداد المزارات المختلفة لأيوب(١٩٣) والخضر(١٩٤) . وفي بعض الحالات يرينا الناس العديد من الأضرحة للنبي نفسه . ويبدو سكان كل قرية واثقين من أن مزارهم هو الصحيح . ومن الأمثلة على ذلك :

يونس له ضريح في خان يونس ، وآخر في حلحول(١٩٥) وثالث(١٩٦) في مشهد(١٩٧) . وهناك أماكن أخرى تخلد يونس : النبي يونس على نهر شكرير(١٩٨) (على مسافة ٦ كيلو مترات من مينا القلعة) ، وهناك تل يونس على مسافة ستة كيلو مترات ونصف إلى الجنوب من يافا(١٩٩) ، وخان النبي يونس بين صيدا وبيروت . وفي هذا المكان تقول الموروثات أن السمكة (الحوت) القت يونس على الأرض الجافة(٢٠٠) .

ان المزار الرئيسي ليوسف هو في نابلس ، ويحترمه كل من المسلمين والمسيحيين والسامريين واليهود . وهناك مزاره (مع القبر) في بيت إجزا حيث يحظى باحترام محلي فقط ، وكان مهملاً عندما زرت المكان(٢٠١) . وهناك مزار ثالث في الخليل ، عند حرم

الخليل(٢٠٢) . ومن الغريب أن نلاحظ أن لمعظم أبناء يعقوب مزارات في قرى مختلفة ، على المرتفعات الغربية في وسط فلسطين ، وهي :

ريالون ، يشجر ، اشر ، ويوسف	في نابلس
يوسف	في بيت اجزا
سيمون	في قلقيلية
الخضرا بنت يعقوب	في نابلس
يامين	في كفر سابا
بنيامين	في يانون
يهودا	في اليهودية
دانيان	في دانيان
روبين	جنوب يافا
ثاري – اشر	في راس العين
بنات يعقوب	غرب من كفل حارس .

٢- الشخصيات القرآنية :

وفي هذه المجموعة نعد الشخصيات المذكورة في القرآن ، وغير الموجودة في التوراة وهي قليلة ، وأهم هؤلاء النبي محمد نفسه ، الذي لا يقع مزاره في فلسطين ، ولكن هناك عدة أماكن تتصل بتاريخ حياته ، خصوصاً ما يتعلق بليلة المعراج :

١ . اثنتا عشر طبعة قدم على الصخرة المشرفة .

٢ . لسان الصخرة الذي تكلم معه .

٣ . المكان الذي صلى فيه تحت الصخرة .

٤ . طعجة الصخرة .

٥ . الفتحة في الصخرة التي عرج منها إلى السماء .

٦ . طبعة قدمه على قطعة حجر منفصلة .

٧ . شعر النبي .

٨ . محرابان تحت الأقصى .

١٠ . زيتونة النبي .

١١ . قبة المعراج .

١٢ . القبة التي يقال أن النبي صلى فيها مع الملائكة والأنبياء .

١٣ . طبعة قدم عند دير غسانه .

١٤ . طبعة قدم أخرى في حرم الخليل .

ولا يرتبط النبي بهذه الأماكن فقط ، ولكنه يُرى في كل جمعه في مزارات بعض الأولياء حيث يصلي(٢٠٣) .

والى جانب النبي محمد هناك أربعة أنبياء معروفين في القرآن : هود ، صالح ، شعيب(٢٠٤) وذو الكفل . لقد أرسل هود لقبيلة عاد ، وصالح لثمود ، وشعيب للمدينيين ، وتلا ذو الكفل اليسع . ومن هؤلاء الأربعة ، فإن الأهم هو صالح ، ثم ذو الكفل(٢٠٥) في فلسطين . لقد جمعت أسماء أربعة أماكن يكرم فيها صالح ، اثنان في قرية النبي صالح(٢٠٦) ومعلول ، وفي كل منهما ضريح ، على الرغم من الاعتقاد بأنه مات في مكة(٢٠٧) . إن عيد الرملة – حيث يوجد مزاره الثالث يسمى الجمعه الحامية والجامع الأبيض(٢٠٨) . أما المزار الواقع بين إذنا وترقوميه فلا يوجد فيه ضريح . أما المزار الخامس فهو عكا . وذو الكفل(٢٠٩) له مزار في كفل حارس(٢١٠) ، التي تحمل اسمه . ويقع الضريح خارج المقام . ويقال ان الكهف يقع تحت المقام . وهناك

مزار آخر لهذا النبي في كفر عطية . وهنا نجد أيضاً ضريحاً . وللنبي شعيب مزار في عجور ، والذي هو في الحقيقة مهمل تماماً(٢١١) .

ونلاحظ هنا عدم اليقين في هذه الأماكن وربما نوافق مجير الدين على قوله بان تحديد أماكن هذه المزارات غير مؤكد باستثناء تلك التي تخص النبي محمد أو إبراهيم وأبنائه(٢١٢) .

٣- القديسون الذين ينتمون للتاريخ الإسلامي

كان عدد كبير من هؤلاء قادة ومحاربين في الجيش الإسلامي الذي فتح فلسطين . ومن الغريب أن نلاحظ بان العديد من الذين نعرف بأنهم ماتوا ودفنوا في بلدان أخرى(٢١٣) ، يملكون مزاراً أو اكثر في فلسطين . والعديد من الحكايات التي تُروى لتوضح أصل هذه المقامات هي خرافية ، وكمثال على ذلك :

للدسوقي مزار شمال دير غسانه ، على الرغم من أن قبره في مصر ، ولم يقم بأي عمل من أعماله المهمة في فلسطين . كما أن مزار الرفاعي يخلد بعض الدم الذي نزف من هذا القطب عند عودته من محاربة الكفار . ان سلمان الفارسي الذي يملك مزاراً جميلاً على جبل الزيتون ، والذي يبين ضريحه ، كان في الواقع قد دفن في المدائن (٢١٤) . وعلى الرغم من أن عكاشة(٢١٥) (أحد الصحابة) لم يمت في القدس ، فان لمزاره هنا ضريح(٢١٦) . ويقال أنه ظهر لشخص يصلي ، في هذه البقعة ، وأمره بان يبني له مقاماً(٢١٧) . إن عُبادة بن الصامت يملك ضريحاً في المقبرة المعروفة باسم تربة باب الرحمة ، على الرغم من أن مجير الدين (الصفحات ٢٣١ و ٣٢٢) يقول بان لا أحد يعرف إذا كان قبره في القدس أو الرملة(٢١٨) . لقد مات أبو هريرة في المدينة ودفن هناك(٢١٩) ، ولكن ضريحاً له مكتوب عليه ما يوحي بأنه مكرس لذلك الصحابي في تل أبو هريرة بين غزه وبئر السبع (على وادي الشلاله) . ويعتقد مجير الدين أن هذا الضريح يخص أحد أبنائه . وهناك أولياء آخرون لهم أضرحة ، حيث لم يعرف انهم توفوا في تلك البقاع من فلسطين مثل : ضمرة- مزارع النوباني ، إبراهيم الخواص – دير غسانه(٢٢٠) ، الجنيد – خربة الجنيد (٢٢١) ، أبو العوف – سنجل(٢٢٢) . أما المزارات الثابتة تاريخياً ، والتي تمت إلى هذه المجموعة من الأولياء فهي : شداد بن أوس – باب الرحمة(٢٢٣) ، الشيخ الخليلي – منطقة الحرم الشريف ، الشيخ احمد أبو ثور – جنوب القدس (٢٢٤) ، الشيخ علي البكا(٢٢٥) – الخليل(٢٢٦) .

بعد الحروب الصليبية كان هناك رد فعل أدى إلى تأسيس المزارات وإعادة إصلاحها(٢٢٧) . فالخوف من هجمات مستقبلية ، دفع حكام المسلمين إلى حشد عدد كبير من الناس في المواقع المهمة ، وفي الفترات الخطيرة من العام . ان هذا الهدف دفع إلى إتمام مزارات بأسماء قديسين مختلفين من ذوي الشهرة ، وإقامة أعياد لهم . ووجد الحكام دعماً لموقفهم من جانب القادة الدينيين ، الذين كانوا مهتمين بتطوير الحياة الدينية ، اكثر من الأمور السياسية . وهكذا برزت قداسة الأمكنة وبدأ الشعب يظهر احتراما فائقاً للأولياء ، كما بدأ الناس يحضرون الأعياد . وجاء الحجاج بخيولهم وأسلحتهم ، كما أوقفت الأراضي الواسعة للمزارات بحيث يتم تغطية نفقات الاحتفالات والأعياد دون تكليف الحجاج أنفسهم . وقد اختيرت أماكن المزارات إلى جوار المراكز الاستراتيجية : القدس ، الرمله ، غزه ، وعكا . ولم تكن كل المقامات قد بنيت حديثاً . ولكن العديد منها ، والذي كان منسيا وغير مهم رُفع إلى درجة جديدة من الاحترام .

وتم إصلاح الطرق والخانات لهداية الناس بسهولة إلى تلك المواقع . وقد اتبع هذه الاستراتيجية السلطان الظاهر بيبرس ، وليس صلاح الدين الأيوبي كما يفترض . وهكذا ظهرت المزارات التالية :

النبي موسى (٢٢٨) إلى الشرق من القدس ؛ النبي صالح في الرملة ، وفي قرية النبي صالح – رام الله . وبما أن اخطر يوم في السنة هو عيد الفصح حيث يتوافد الاف الحجاج المسيحيين إلى المدينة المقدسة ، فان الأسبوع الذي يسبق العيد المسيحي يخصص للاحتفال بالأولياء ، بهدف تجميع أكبر عدد ممكن من المسلمين قرب القدس . واقيم في غزه موسمان : الداروم والمنطار(٢٢٩) . وبالقرب من عكا أقيم مزار ثالث للنبي صالح ، كما أقيم بالقرب من صيدا مزار النبي يونس .

واقتضت سياسة الملك بيبرس تدمير دير يوثيموس Euthymos الواقع عند خان السهل ويسمى ايضاً خان الأخضر(٢٣٠) ، والذي كان يؤوي الكثير من الرهبان(٢٣١) ، وذلك من اجل أن تكون الطريق حرة في حالة سفر الحجاج إلى القدس . وفي تلك الأيام كان الرجال فقط هم الذين يحضرون تلك الاحتفالات ، التي كانت ذات طابع اكثر تعصباً من الآن ، ولكنها ، بالتدرج أصبحت أعياداً شعبية ، وبدأ الرجال والنساء والأطفال يتوافدون اليها(٢٣٢) .

وفي هذا المجال من الممكن أن نتناول عدداً من الزوايا في القدس ، التي أقيمت لإيواء دراويش الطريقة أو حجاج بلد ما . والدرويش الذي أسس الزاوية مدفون فيها ، ولا يزال يتلقى الاحترام بصورة أو بأخرى منها :

(١) زاوية الهنود والتي تعرف باسم الشيخ فريد سكركنجي وقد بنيت (للفقرا) من الطريقة الرفاعية . وبعد ذلك تولاها الهنود المسلمون ، ورئيسها الحالي الشيخ ناظر حسن الانصاري(٢٣٣) . وأما الضريح الموجود في الزاوية فلا يحمل أهمية خاصة .

(٢) الزاوية البخارية ، وتؤوي حجاج بخارى . وقد دفن الشيخ محمد البخاري هنا ، ويتمتع ضريحه ببعض التكريم ، ورئيسها الحالي الشيخ يعقوب البخاري .

(٣) الزاوية المولوية : ويرأسها الشيخ عادل ، وفيها ثلاثة أضرحة ، إثنان في البهو ، وواحد في غرفة ، ويتمتع الأخير ببعض الاحترام .

(٤) زاوية المغاربة : وتضم ضريحاً للغوث أبو مدين ، وهي أغنى مكان إسلامي مقدسي ، ولها أوقاف عديدة . واما أبو مدين فهو واحد من أهم الفقهاء المسلمين ، وقد بنى البناء والضريح لنفسه ، لانه رغب في أن يدفن هنا ، ولكنه توفي في المغرب ، ودفن اخيراً في تلمسان . وتقول المرويات أن يده موجودة في الضريح(٢٣٤) . ورئيس الزاوية الحالي هو محمد المهدي .

(٥) الزاوية البسطامية(٢٣٥) ، ويقال أنها تضم قبر أبو يزيد البسطامي(٢٣٦) . وحسب رواية أخرى ، فانه مدفون في زاويته العظيمة في الرمله . ان المكان الحالي الذي يضم ضريحين (واحد للولي ، والآخر لزوجته) مهمل تماماً . وفي الغرف المقامة فوق المزار يعيش القيم الشيخ موسى الغصين(٢٣٧) وعائلته .

(٦) زاوية القادرية : معروفة الان باسم دار أبو السعود ، وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية من منطقة الحرم ، وهي مركز المذهب الشافعي ، التي ينتسب المفتي فيها إلى عائلة أبو السعود .

(٧) زاوية النبي داهود ، على جبل صهيون . وهي تضم القبر الذي يفترض انه للنبي داوود ، وهي مكان مقدس مهم . والخليفة الحالي هو الشيخ محمود الدجاني .

(٨) زاوية الخانقاه (الصلاحية) في الزاوية الجنوبية الغربية من كنيسة القيامة ، وقد أسسها صلاح الدين . واما المتولي الحالي فهو الشيخ أمين العلمي .

(٩) الزاوية الأسعدية ، على جبل الزيتون ، ولها سمعة عظيمة . وهي تضم قبر مؤسس عائلة العلمي (وهم من الأشراف) ، من سلالة النبي محمد من خلال حسن ابن فاطمة - ولذلك يسمون الحسنيه . وقد جاء المؤسس ، الشيخ محمد العلمي من جبل العلم ، المغرب ، وهو حفيد السيد عبد السلام مصيص (٢٣٨) . والرئيس الحالي هو الشيخ ظاهر العلمي .

(١٠) الزاوية الأفغانية وتقع في الزاوية الشمالية الغربية لمنطقة الحرم الشريف ، والقائم بأعمال الرئيس هو بيرم(٢٣٩) .

ومن المعتاد أن يقام الذكر(٢٤٠) كل مساء خميس في هذه الزاويا ، ويصاحب ذلك رقص دراويش وموسيقى دينية ، إضافة إلى الأوراد ، وهو جزء من القرآن يتلى على فترات ، ويطلق كذلك على المدائح التي تمجد الله والرسول . ومن أهم الأوراد(٢٤١) ، ورد المحيا الذي ينفذ في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان . ويقوم المفتي مع بعض أعضاء عائلة الحسيني ، يونس ، الانصاري ، وعائلات أخرى بالمسير بموكب من بيت المفتي القديم داخل المدينة ، إلى مزار القيرمي ، وبعد قراءة الفاتحة يتوجهون إلى الصخرة . وخلال الموكب يتلون الورد(٢٤٢) . ان الهدف الأساسي لهذه الزوايا وهو إطعام الفقراء وإيوائهم قد أصبح طي النسيان عموماً ، ولا يزال الفقراء يحصلون على الطعام من زاوية النبي داهود ـ ويأتي الطعام من عائلة الدجاني التي تقدم الطعام بشكل دوري . وفي زوايا المغاربة ، المولوية ، البخارية والهندروس فان نفقات الطعام تأتي من دخل الوقف . ومن تكية خاصكي سلطان (٢٤٣) يتلقى الفقراء الطعام .

ب - أولياء وأحفادهم على قيد الحياة

في بعض القرى لا نزال نسمع بان أحفاد الولي لا يزالون على قيد الحياة . وعلى الرغم من أنه في بعض الأماكن تكون العلاقة خرافية ومشكوكاً فيها ، لكن في الحالات الغالبة تكون هناك أسس تاريخية للعلاقة . والأحفاد يبدون فخورين بأجدادهم ، وفي الكثير من الحالات ، فان كبار العائلة يحملون لقب شيخ . ومن العادة أن يدفن الأحفاد الرئيسيون حول القبر أو بجواره(٢٤٥) . وشذ عن هذه القاعدة حالة الشيوخ : اسماعيل ، رمضان ، وعبد الرحيم من المسالمة في يالو ، والذين لم يسمحوا أبداً لأي من أحفادهم بالدفن إلى جوارهم ، وكلما حاول أحد حفر قبر بقربهم لاحظ أن حديد الفؤوس يلتوي .

وفي بعض الحالات نجد أنه لا القديس نفسه ولا أحفاده يحظون بالتكريم ، وهذا يصدق على الشيخ أبو القلمين (بدُو) - عيلة السمارة .

وتمثل القائمة التالية مجموعة القديسين الذين زرتهم من هذه الفئة :

الاسم(٢٤٦)	المكان	الأصل	العائلة الحية
١ . أبو يمين	بيت عنان	اليمن	عيلة أبو يمين
٢ . الدواعره	صور باهر	مكة(٢٤٧)	الشيخ أبنية
٣ . احمد الحويس	بدو	-	عيلة شحادة(٢٤٨)
٤ . حمد الله	بدو	بدو	دار الشيخ
٥ . حسن أبو العلمين	بدو	-	عيلة سمارة
٦ . عبد السلام	عناتا	خربة علميت	أهل عناتا
٧ . درويش	بيت سوريك	بيت سوريك	انظر أدناه
٨ . تيلخ	بيت سوريك	بيت سوريك	انظر أدناه

الاسم(٢٤٦)	المكان	الأصل	العائلة الحية
٩ . علي رمضان /علي عبيد / عبد المهدى/ عبد الهادي	قطنة	مكه	سكان القرية
١٠ . إسماعيل العنباوي	أبو غوش	قرية العناب	جزء من السكان
١١ . اعمر	بيت دقو	حوران(٢٤٩)	جزء من السكان

أما المزارات الأخرى التي لم أقم بزيارتها والتي تنتمي إلى هذه المجموعة فهي :

الاسم	المحل	العائلة الحية
١ . ثلجي	قباطية	أبو الرب
٢ . قدامة	جلجلية	النابلسي (نابلس)
٣ . صوفة	دير غسانه	المجدوب
٤ . جبر	رافات	في رافات ودانيان
٥ . محمد النوحي	دير ابان	النوحي
٦ . خالد	دير غسانه	عائلة البرغوثي
٧ . مطر	دير غسانه	دار كفريني
٨ . الهبيل	دير غسانه	دار ناصر

الاسم	المحل	العائلة الحية
٩ . غيث	دير غسانه	دار الشيخ غيث
١٠ . مجدوب إبراهيم علي	دير غسانه	دار الربي
١١ . عصفور	دير غسانه	دار أبو الأخرس(٢٥٠)
١٢ . شحادة	دير غسانه	دار أبو هرفيل(٢٥٠)
١٣ . ديب	دير غسانه	دار أبو دياب(٢٥٠)
١٤ . الحلو	دير غسانه	دار الحلو(٢٥٠)
١٥ . محمد	بيت جبرين	دار المهدي(٢٥١)

لقد أفرزت عائلة الدجاني العديد من الأولياء في الماضي . ويعتقد أن أم الشيخ (بيتونيا) هي جدتهم العليا . وقد جرت عادة بعض أحفاد الولي أن يقوموا بجولة في القرى المحيطة بالمقام مرة في السنة لجمع النذور ، التي تقدم للولي من عائلتهم .

والكهنة المسيحيون التابعين للقديس جورج أنفسهم فقد كانوا يطوفون بالقرى المختلفة لجمع النذور المقدمة للخضر . وكانوا يأخذون معهم سلسلة من سلاسل المزار ، واعتاد الكثيرون أن يضعوها حول أعناقهم لمنع الإصابة مستقبلاً بالجنون(٢٥٢) .

وفي هذا المجال ربما كان من المفيد ملاحظة أصول أنساب الأولياء . وقد ذكرنا نسب الشيخ عبد السلام في الفصل الرابع ، فالشيخ درويش (من بيت سوريك) هو ابن الحاج محمد ، إبن الحاج زايد ، ابن الحاج أحمد ، ابن الحاج محمد . وأنجب درويش عبد الرحمن الذي انجب الشيخ محمد (٢٥٣) ، والذي ما زال حياً وإمام القرية . ان عم درويش أيضاً يعتبر من الأولياء .

سبب تدمير أحمد للقبه هو الغيره . وكان ابن داهود ، يسمى ايضاً أحمد ، وكان لقبه الكبريت الأحمر ، وتوفي سنة ٧٢٣ هـ . ويقال أنه كان فقيهاً كبيراً . وكان لأحمد خمسة أبناء ، وثلاث بنات . وقد توفي اثنان من أبنائه ، علي (الذي توفي سنة ٧٥٤هـ) ومحمد البها ، وكانا محبوبين ، وحتى الحيوانات المتوحشة أحبتهما . وعاش ابن علي ، واسمه تاج الدين أبو الوفا في القدس (توفي سنة ٨٠٣ هـ) ، ودفن في مقبرة مأمن الله وقد ترك ابنين وهما علي وأبو بكر ، اللذين حظيا ايضاً باحترام كبير ، ومن أقارب عائلة بدر الشيخ الكمالي ، والمدفون في مزار يعرف الان باسم ' الشيخ بدر ' على الطريق إلى لفتا(٢٦٢) .

لقد استقيت المعلومات السابقة من 'الأنس الجليل '(٢٦٣) ولا يرد ذكر لعضو أنثى باسم البدرية . وفي شرافات ، فإن الأحفاد الذكور هم الذين يرد ذكرهم على أنهم مدفونون ، وأولهم أحمد الطيار . ومن هؤلاء ' بدر أسياد ' ، وكانت له ثلاث بنات كما رأينا ، ولكن لم تعرف أسماؤهن ، وربما كن بنات السلطان بدر . ان العائلة بأكملها تعرف باسم الذرية البدرية (العيلة البدرية) . ونلاحظ أن وليه انثى قد احتلت مكان عدة أولياء . وربما كان ذلك بسبب سوء فهم . وربما كان من المثير للإهتمام أن نقارن قصة البدرية ، كما سمعتها من خطيب بيت صفافا :

كان جد البدرية ملكاً في خراسان . وجاء ابنه بدر(٢٦٤) مع عائلته وابن عمه أحمد الطيار إلى القدس(٢٦٥) ، حيث كرس نفسه للعبادة ، منفقاً معظم وقته للتأمل في الحقول . وقد أحب كرافات (الاسم القديم لشرافات) ، واشترى منطقة صخرية فيها الكثير من الكهوف(٢٦٦) . وقد تضايق في وحدته من اليهود الذين كانوا يعصرون الخمر في الجوار ، فطلب المساعدة من الله . وقد تحول كل النبيذ الذي صنع خلال ثلاث سنوات إلى خل . وهكذا فلأنهم اعتقدوا أنه كان عرافاً ، وبسبب خسارتهم ، تركوا المكان . وتزوجت ابنه السلطان ، بدرية ابن عمها أحمد(٢٦٧) ، ولكنها توفيت بعد ذلك بوقت قصير . وطالب أحمد بنثر الطيب عليها ولكن الوالد أبى وبنى على ضريحها قبه ، وقام أحمد بتدميرها مرتين . وفي كل مرة ، كان يأتي أحمد ، على شكل طائر ضخم(٢٦٨) . وفي المرة الثالثة ضرب السلطان بدر الطائر بعصاه ، فسقط ميتاً ، الذي تبين أنه أحمد العاثر الحظ ، فدفن الى جوار زوجته(٢٦٩) .

والشيخ اعمر (من بيت دقو) له شجرة نسب تقول بأن صالح أنجب اعمر ، الذي أنجب داهود ، وهذا أنجب مراراً ، الذي أنجب علياً ، وهذا أنجب قاسم ، الذي أنجب عبد الله . ولا يزال ابنه إسماعيل حياً يرزق ، ويعمل مختاراً للقرية(٢٥٤) . ويقال أن الشيخ عبد الله من القبيبة والشيخ أتيم من بيت اكسا هما أخوا الشيخ اعمر . وربما كان هذا الاعتقاد غير مبني على أساس تاريخي لان العديد من سكان بيت اكسا والقبيبة لا يعرفون شيئاً عن هذه العلاقة والقدر نفسه من عدم اليقين يدور حول ' النبي أبو ليمون ' والذي يقال انه من عائلة أبو يمين . وهناك مثال آخر عن الدواعره ، فأحدهم الشيخ غانم مدفون في أريحا ، وعبد الفتاح في شعفاط ، وثالث في قرون الحجر (في منطقة بدو السواحرة) ، وآخرون في صور باهر . ان أهم هؤلاء : العيننى ، أبو ميثا ، بخيت : حلو وصالح . الشيخ بنية والشيخ عايد ما زالا يعيشان في صور باهر . ويقال ان قبيلة النصيرات هي من أحفاد الدواعره(٢٥٥) . أما السلطان بدر فيقال ان له ثلاث بنات ، وكل واحدة منهم تحترم كولية : البدرية(٢٥٦) وهي أهمهن ، ومدفونة في شرافات ، الحميدية في بيت فاغور ، ونجلا في جوريف(٢٥٧) .

إن المأثورات المتعلقة بالسلطان بدر وأحفاده هي ذات مغزى خاص في تعليل التحولات التي تطرأ على الأفكار . لقد أنجبت عائلة بدر عدة أولياء . ولقب السلطان يسبغه الناس على الرجال المهمين ، والذين لم يكونوا حكاماً أبداً . لقد كان بدر قطباً ، وليس أميراً ، ويقال أن شجرة عائلته تنتهي بعلي بن أبي طالب . وطبقاً لما يقوله مجير الدين(٢٥٨) فان كل القديسين في زمانه قد اتبعوا تعاليمه . وقد جاء القديسون وحتى الحيوانات لزيارة قبره في زاوية بناها بنفسه في وادي النسور(٢٥٩) . وأصبح معظم أبنائه أولياء : محمد توفي سنة ٦٦٣هـ ودفن إلى جوار أبيه . وابن محمد ، واسمه عبد الحافظ (توفي سنة ٦٩٦ هـ) ، ترك وادي النسور وأقام في قرية قرب شفرات(٢٦٠) ، ذلك الاسم الذي حرف إلى شرافات من شرفا ، لقب عائلة بدر .

وقد توفي ابنه 'داهود' عام ٧٠١ للهجرة . وكانت معجزته الأولى هي تحويل النبيذ ، الذي صنعه المواطنون المسيحيون لهذه القرية إلى خل . وقد فعل ذلك لان المشركين كانوا يقومون باستمرار ببيع هذا المشروب الكحولي للمؤمنين ، لكي يعصوا الأوامر المقدسة . وقد اعتقد المسيحيون انه كان عرافا ترك المكان . وقد بنى داهود زاوية حيث دفن فيها هو وأولاده . وكان أحمد الطيار(٢٦١) ، والذي سنتحدث عن تاريخه لاحقاً ، ابن عم لداهود ، وعاش في عصره . وفي الرواية المكتوبة لهذه القصة نقرأ بأن

ولم يستطع والد البدرية أن يعيش فترة أطول في شرافات ، وهام على وجهه غرباً دون هدف حتى وصل إلى نبع الولي الوحشي(٢٧٠) ، غير بعيد عن رأس ابن عمار ، حيث كانت تجلس اثنتان من بنات الولي(٢٧١) . وبينما كان بدر يغسل ملابسه ' المرقعة'(٢٧٢) القت واحدة من الصبيتين ، واسمها فاطمة(٢٧٣) ، حجراً عليه وجرحته . وقد ظل السلطان هادئاً ، وعلق ملابسه على شجرة رمان ميتة(٢٧٤) ، فدبت فيها الحياة من جديد ، فأبرزت أوراقاً خضرا ، وأزهرت وأثمرت ، وفوراًغادر ذلك المكان . ان السيد الوحشي الذي صادف مروره بالمكان بعد ذلك رأى شجرة الرمان محملة بالثمار ، على الرغم من ان الموسم لم يكن موسم الرمان . وبما أنه كان يعرف بأن الشجرة كانت ميتة قبل بضع ساعات ، فقد سأل بناته ، فروين له القصة . وهكذا لحق ببدر فأدركه في وادي النسور الذي يسمى الان وادي إسماعيل . ورجا ' الوحشي ' بدراً أن يعفو عن ابنته ، وأقنعه بالعودة معه وزوجة ابنه فاطمة(٢٧٥) وعاش بدر في كهف ، حيث دفن فيه ، فيما بعد ، وسمى المكان بدار الشيخ وحرف بعد ذلك إلى دير الشيخ'(٢٧٦) .

لقد أكد لي الخطيب الذي روى لي القصة أن بدراً كان له ولد اسمه ' إبراهيم الهدمي' دفن في الشيوخ إلى الشرق من حلحول(٢٧٧) .

وفي القصة التالية ، التي هي على جانب كبير من الأهمية ، وأوردتها (Quarterly Statement ١٩١٦ :13ff) نقرأ بانه ' ذات يوم رأى السلطان جنوداً في الوادي بعدد رمل البحر ، وعرف أنهم جنود الملك الظاهر . وقد هبط السلطان من الجبل ودعا الملك : 'أنني أدعوكم لتكونوا ضيوفي ، أنتم وجنودكم ، ولتقضوا الليل هنا ' . واستغرب الملك مما قاله الشيخ ، وطلب من جنده أن يطلبوا من الشيخ أن يوفر الماء لخيولهم ، ظناً منه أنه من المستحيل بأن يقدر الشيخ على توفير الماء والطعام للجميع . وقال السلطان بدر لخادمه مرزوق : 'خذ هذه الجرة واذهب مع الجنود لسقي الخيول . تسلق معهم قمة الجبل وصرخ هناك : يا سلطان بدر ' . وعندما وصل الخادم قمة الجبل ، صاح كما أمره سيده ، ورأى السلطان وقد ظهر آمراً : ' قف على الصخرة والق بها بكل ما أوتيت من قوة ' . وانكسرت الجرة إلى ست قطع ، وحيثما ثبتت قطعة منها انبجس نبع ماء . وبعد أن أسقى الجنود خيولهم ، عادوا إلى ملكهم ورووا له ما حدث . ودهش الملك بسبب القوة الخارقة للسلطان بدر . وبعد ذلك طلب الجنود من الشيخ أن يقدم الشعير لخيولهم ، فأحضر صاعاً من الشعير ، وفرش عباءته ، والقى الشعير عليها ،

وطلب من الجنود أن يأخذوا حاجتهم . واخذ كل جندي ما احتاج اليه من الشعير لحصانه ، وظل على العباءة مقدار من الشعير يعادل ما وضع على العباءة في البدء . و قام الشيخ بإطعام الجند وأهل القرية من مأدبة استعمل فيها جدياً واحداً ورطلاً واحداً من الرز ' .

ان قصة البدرية توضح أحد الطرق لتطور القديس في التقاليد . وفي كثير من الحالات فان التطور يأخذ منحى معقداً . إن العديد من الأولياء ، كانوا في الأصل قادة مؤثرين في قريتهم ، وكانوا يحوزون في الوقت نفسه قدرات استثنائية معينة . وبعد وفاتهم كرموا ، فقط من قبل أفراد عائلتهم ، وبالتدريج أخذت سمعتهم تنتشر . والفلاحون الفلسطينيون يقرأون الفاتحة كلما مروا بقبر من قبور أقاربهم . وفي حالة قائد ميت فان معظم سكان القرية يقرأون الفاتحة على روحه . فشخصية وقوة وسمعة مثل هذا الشخص لا تختفي بالموت ، بل على العكس من ذلك فإنها تزداد وتتقوى لان الروح مصدر العظمه ، وهي تتخلص من القيود الجسمانية(٢٧٨) . ان الروح تستمر في العيش وترى كل ما يجري حولها ، وهكذا فان الكثير من البدو والفلاحين يأتون إلى قبور موتاهم ليحلفوا بأنهم بريئون عندما يتهمون بتهم باطلة ، وكذلك ليعبروا عن شكواهم ويطلبوا المساعدة .

تلك هي أصول عبادة السلف(٢٧٩) التي ما زالت قائمة في فلسطين . ولا يحتاج المرء أن يكون قائداً سياسياً ليحصل على مرتبة ولي بعد وفاته . وهناك معلمون دينيون حازوا على ثقة السكان وإحترامهم . وكذلك حاز أبناء أولئك على إحترام أوصلهم إلى مرتبة الشيوخ والأولياء . ويسهل على أبناء من دفعوا إلى مرتبة شيخ أو ولي الحصول على هذا التميز من آبائهم . ويعتبر كثير من أولياء هذه المجموعة ومجموعات أخرى بمثابة آلهة محلية ، وهم ليسوا مالكي قطعة الأرض الصغيرة التي تحيط بقبورهم بل لقد أصبحوا حماة القرية والناس كلهم . لقد ورث الفلسطينيون هذه المعتقدات من أجداهم الوثنيين ، حيث كان لكل منطقة من البلاد إله مقدس . وعلى الرغم من انه يوجد عدة قديسين في القرية الواحدة ، فان واحداً منهم فقط هو الحامي الحقيقي للقرية . ان تشابه هذه المعتقدات مع ما جاء في التوراه هو مسألة تثير الدهشة(٢٨٠) .

ج - الدراويش(١٢٩)

كثير من المزارات تخص دراويش(٢٨١) طريقة ما . وليس من السهل أن يصبح المرء تابعاً لدرويش . ومن أجل ذلك يجب أن يكون هناك ميل خاص لدى المرء ، أو نداء من

داخله . وأحياناً يكون من السهل الحصول على دعوة لذلك ، كأن يظهر قديس معين لإنسان ويدعوه لان يقوم بعمل ما . وهنا يكون الشرط قد تحقق وعليه أن يتبع هذا القديس . مثلاً ، مر رجل أمام مزار السلطان إبراهيم في بيت حنينا ، ورأى الولي يدخن غليونه . قدم الولي الغليون للرجل ، ولكن الأخير أصيب بالخوف وهرب . ولو أنه أخذ جرعة من الغليون لأصبح درويشاً(٢٨٢) .

'يحكي أن ولداً قضى الليل على كومة من الشعير كانت موضوعة تحت حماية الشيخ أبو حسن من دير أبان . وعند منتصف الليل ، استيقظ على صوت فرقة دينية موسيقية خرجت من المزار ومرت بالقرب منه . وقام أحد الأشخاص المقدسين بالاقتراب من الولد وأعطاه شراباً ، وأوضح له أنه بمجرد أن يشرب ، سيصبح من أتباع البدوي . وفي الصباح التالي أخذ عضو من عائلة النوهي الشراب ، بعد أن سمع بالأمر . وقد روى الولد القصة لابو حسن الذي ظهر بدوره للظالم وهدده ، وأخذ منه الشراب المعجزة وأعاده للولد ، الذي أصبح ، بعد أن شربه ، درويشاً' .

ومن الممكن أن تكون الدعوة مفاجئة ، ومن الممكن أن يتبع الشخص بسرعة ، وينظر اليه كمن أصابه مس . تلك هي بداية العديد من الدراويش ، التي تجعل الشخص مجذوباً(٢٨٣) ، أي تنسى روحه كل الأمور الدنيوية ويتبع النداء الداخلي فقط ، ويعيش ليتكلم مع ' داعيه ' أو ' جاذبه ' . ويفترض أن اتصالاً يجري بين الاثنين ، بحيث ينفذ الأخير التعليمات وأوامر الداعي (٢٨٤) . وهكذا تستولي على الشخص حياته الداخلية ويهمل ما عداها(٢٨٥) . ويمكن أن يتحدث مع من لا نراه (٢٨٦) ، مكرراً جملة واحدة ، وأن يهيم بلا هدف في الشوارع أو الحقول ، وأن يعيش أحياناً على الأعشاب(٢٨٧) ، أو ، أحياناً ، كما في حالة الشيخ داهود(٢٨٨) على Carcasses .

ونقرأ في ' لواقح الأنوار ' : ' المجذوب (الملهم) هو شخص يخلص للحالة الخارجية التي وجد نفسه فيها عند ما حلت به تلك الحالة ذات مرة . لقد رأيت ابن البجعي يكرر باستمرار جملة واحدة كان يقرأها عندما نزل عليه الإلهام(٢٨٩) ' .

وضمن هذا العمل أعطيت عدة أمثلة عن هؤلاء المجاذيب(٢٩٠) .

وفي عام ١٩٢٤ ، رأيت رجلاً حاسر الرأس ، عاري القدمين ، وشبه عار ينحدر من جبل الصالحية (دمشق) . وعندما سألت عنه قيل لي انه درويش يتصرف بصورة غير عادية

في كل شئ . وعندما كان يتصرف بصورة غير عادية فإن أهل دمشق يعرفون بأن شيئاً غير عادي سيحدث(٢٩١) .

وقبل أن أصل مرحلة الاستنتاج أود أن أشير إلى ان ' المجذوب ' كلمة في العامية العربية ترادف المجنون والذي يسكنه جن ، لتشابه تصرف كل هؤلاء (٢٩٢) . وفي العربية الكلاسيكية تعني كلمة مجذوب – حسب تعاليم الصوفية : ' الشخص الذي تسكنه روح طيبة ، ويجذبه الله لحضرته ' . وهو الشخص الذي نقاه الله وأعطاه ميزات خارقة للعادة(٢٩٣) . ويعتبر العديد من المجاذيب والمجانين أولياء عند الناس لان المجذوب والمجنون ، كليهما ، مسكونان بالأرواح ، ويتشابهان في أمور كثيرة(٢٩٤) . وعندما يدخل الدرويش في النشوة أثناء العبادة أو الرقص أو ضرب الطبل ، يقال بأن روحه تغيب عن جسده لتتحد مع الأولياء ، أو حتى مع الله ، وتصبح حركة جسمه ميكانيكية(٢٩٥) . ويوضح المثال التالي ذلك :

شوباش على رجال حرامية وسراقين

إيقلقوا في لبواب والناس غفيانين

السالك إللي يقيم الليل بالتهليل

في جنة الخلد يتمختر شمال ويمين

إن هذا الشعر يصف طريقة عمل القديسين محاذيا ، فهم يتسللون من الأبواب كاللصوص ، ويأخذون الناس بعيداً ليصبحوا أتباعهم بطريقة فجائية ، تعصى على الفهم .

وليس من الضروري أن يمر كل درويش بمرحلة الجذب . إن العديد منهم ، بعد أن يقرروا أتباع الطريقة ، يزورون شيخاً ذا سمعه ، ويتلقون تعاليمه ، ويساعدونه في العبادة والاحتفالات ، ودق العدة ، ويرافقونه في الزيارات ، ويتعلمون أساليب الشفاء . وعندما يشعر الشيخ بأن التلميذ يستحق ممارسة الطريقة فإنه يعطيه إجازة ، وهي عبارة عن لفة ورق طويلة تشهد أن فلاناً أخذ العلم عن الخليفة (ويتم ذكر تسلسل المشايخ حتى الوصول إلى مؤسس الطريقة) واستحق أن يكون من أتباع الطريقة . ولذلك فانه قد حصل على القوة اللازمة ليتصرف حسب قواعد الطريقة لأن كل الأسرار قد كُشفت

له . وتضاف عبارات المديح لله والنبي . ويضع الشيخ الذي أصدر الوثيقة خاتمه عليها . وأحياناً نجد أختام العديد من المشايخ ، تشهد بصحة ' الشهادة '(٢٩٦) .

وأحياناً يحصل الشخص على الآذن بأن يصبح درويشاً دون المرور بفترة تدريس ، وذلك بعطاء العهد(٢٩٧) . وهناك درجات مختلفة لهذه العهود . ويحمل الدرويش الوثيقة في محفظة يعلقها على خصره . ان مثل هذا الدرويش يبدأ بحمد الله والمفاخره بالمعجزات التي منحه الله إياها . وهكذا فانه ينشر سمعته ، التي يضخمها الفلاحون البسطاء . إن مثل هذه الطريقة في إعلان الدرويش عن نفسه ليست قصراً على فلسطين(٢٩٨) . وفي كثير من الحالات فأننا نظل في جهل تام بأصل القديس . فالفلاح لا يعتمد على الحقائق ، ولكن يبني أيمانه على الإشارات المفترض ملاحظتها وغير المعللة .

وكملحق لهذا الفصل سأصف الذكر الذي يقوم به الدراويش :

الذكر : يجتمع الدارويش في بيت الخليفة ، أو في المقام ، ويجب أن يكونوا جميعاً طاهرين وقد أدوا صلاة العشاء . ويأمر الخليفة النقيب (خادمه الديني) أن يقوم بتوزيع الآلات الموسيقية . ويشكل التلاميذ دائرة أو شبه دائرة . ويحمل النقيب طبلاً ويقف أمام سيده وبينما يحرك ذراعيه للأمام والخلف يقول :

أول قولي شرف لله الفاتحه (ثلاث مرات)

قدوتي واستاذي الباز عبد القادر الجيلاني

ثم يتلو مديح الجيلاني والأقطاب الآخرين . ثم يمد الطبل أمام سيده ليقرعه . وبعد ذلك يقف كل درويش ويقوم بالعمل نفسه . إن الباز (الطبل الصغير) يقود الآلات الأخرى التي تتبع النغم . ويستمر عزف الموسيقى من ١٠ - ١٥ دقيقة.ويتلو ذلك النشيد . ثم تحمى الطبول على النار بهدف دوزنتها . وبعد تكرار العزف والإنشاد ثلاث مرات يبدأ الذكر . وينتدب الخليفة شخصاً ذا صوت جميل (صويت) ليقود الخدمة (أي الذكر) . هذا الشخص يبدأ التكرار : (ثلاث مرات)

٣٢٠

الله ، الله ، الله ، حيٌ ، حيٌ ، حيٌ

قيوم ، قيوم ، قيوم ، الله ، حيٌ

أو

الله قيوم

الله قيوم

الله قيوم

ويكرر الجميع ذلك ويبدأون بمرجحة أجسامهم من جانب لآخر أو إلى الأمام والخلف . وبصورة عامة فان المرجحة المنغمة تصبح أكثر قوة وسرعة ، والإنشاد أكثر علوا ووحشية . وتحل حالة الغيبوبة حتى أن أغطية الرأس تسقط ، ويطفو الزبد على الأفواه . وأحياناً يقوم الدراويش بتهدئة الدرويش الهائج بوضعه أرضاً . ويقوم الخليفة بأداء الآذان في أذني ذلك الدرويش لتهدئته . ويتكرر الذكر ثلاث مرات . وأخيراً يُقرا القرآن ، ويقول القائد :

' انهي الاجتماع ، باسم المبشر ، محذراً ومضيئاً سراجاً '

ويقرأون الفاتحة ويقبلون يد الشيخ ، ثم ينصرفون .

ملحق :

ويضم بعض الأغنيات والأشعار التي لا ترد في النص ، تصف شخصيات ومعجزات القديسين ، وكذلك تتحدث عن إخلاص الأتباع :

يا سيدي يا أبو شنيور عبيد الله

أعطاك الله ولاية نظره لله

انا المريد إليكم فارحموا بالله

ما اترك العهد لا والله لا والله

***

يـا سيـدي يـا ولي يـا سـاكـن الخلـوة
فـاسقـي مـريـدك بيـدك شربـة حلـوة
ان كنـت انـا زليـت عـن عهـدكـم خطـوة
فـاسمـح إلي وخلصنـي مـن البلـوة

***

يـا سيـدي انـت ابـراهيـم يـا خـواص
فـاسقنـي مـن شراب الصـالحيـن الخـاص
لعلهـم يكتبـون عنـدهـم مـن خـاص
جملـة محـاسيبهـم يـا هـل تـرى بخلاص

***

يـا سيـدي يـا ولي اللـه يـا شيـخ غيـث
إننـي بكـم مستجيـر مـن كـل مـا بـه غيـث
فبحـق مـن أنـزل الأمطـار فيهـا الغيـث
ديـر أنظـار سيـدي ابـراهيـم(٢٩٩) يـا شيـخ غيـث

***

سيـدي سـاكـن في ضريحـه واسمـه عصفـور
وسرّه في بلاد الحـج صـار مشهـور
بحـق سيـدنـا الخليـل واسحـق والغيـور
تسمـح لخـاطـري وتـردنـي مجبـور

***

يـا سيـدنـا يـا بطـل يـا شيخنـا رحـال
والك كـرامات كمـوج البحـر والجبـال
محسـوبكـم بـالعهـد ما يـوم عنكـم مـال
لا تقطعـوا ودكـم عنـه بطيـب الحـال

***

شيـخ هبيـل وانـا بالعهـد إلـو طـايـع
وسره في ظلام الليـل لامـع
ادعـوك ربـي وتكـون لدعـاي سامـع
بحيـاة طيبـة(٣٠٠) وأهـل الغـار في الجـامـع

***

يـا سيـدي يـا ولي اللـه يـا عطـاري
راشي مـريـدك وانـت القطـب في الديـرة
دخيـل على بـابكـم وطـالـب للجيرة
مـن كـل مـا قـد حل علـى مـن ظيـره

***

انـا لي سيد مشهور بـاسـم خـالـد
واله كـرامـات مشهورات للـوارد
نظرة على مـن يـريـدكـم جـاكـم قـاصـد
لا تقطعوا لـه رجـا سيـدي خـالـد

***

محسوب عليك سيدي يا شيخ مطر
ولك كرامات تتوارد علينا مطر
ما عمري زليت في عهدك كنذب وبطر
نظرة تنجي مريدك من سير الخطر

***

ديـر النظرع مريدك سيدي شيخ ذيب
عالم علام في سلك الولاية ذيب
إن عيروني وقالوا سر شيخك جيب
لانده واقول فزعه لي شيخي ذيب

***

يا عز البصرة ويا شيخ النا راعي
خلفت لي جرح جوا مهجتي راعي
إن طالني الظيم بنده هي يا رفاعي
شيخ الطريقة بجيناع القدم ساعي

***

يا سيدي يا ولي يا مصطفى البكري
ولك كرامات تتظاهر كما الفجر
نظرة بعين الرظا تحلل بها عسري
محسوبكم قد اتاكم يطلب اليسر

***

يا سيدي يا ولي الله يا نابلسي(٣٠١)
عبد الغني سيدي المحسوب في حبسي
فرج همومي وزيل اليوم نحسي
عند الله دواك مقبول بالأنسي

***

سيادي ماشين الله معاكم
سلبتوا الروح والمهجة معاكم
دعيتونا احنا نروح معاكم
عسى من يمكم يصلح شراب الصالحين(٣٠٢)

***

يا سادتي ان نسيتوني انا اتذكر
والحمد الله انا من فضلكم شاكر
وحق من أنزل القرآن ومن فيه فاطر
إن غبتم عن العين ما تغيبوا عن الخاطر

***

يا عرب اللي ندهتوني هي أنا جيت
واقف على بابكم تاتأمروا خشيت
بحياة طيبة وزمزم والحرم والبيت
خلوا نظركم علي داين ما حييت

***

يا سادتي في هواكم زادت اشواقي والحب لله حي واحد باقي
أرجـــوه يغفـــر ذنـــوبـــي فهـــو خـــلاقـــي
يـــوم الحســـاب وانـــا في الحشر بـــالـــديقـــي

***

يـــا ســـادتـــي يـــا رجـــال اللـــه زيـدونـي
أنتم رجـال الصفـــا بـــالحـــب زيـــدونـــي
يـــا هل تـــرى مـــن محبتـي هـــل تـــريـــدونـــي
وأقوم خـــادمـــاً بنفسي ثـــم بعيـــونـــي

***

يـــا ســـادتـــي لا تبيعـــوا مـــن بكـــم
وقلبـــه بـــالهـــوى في حبكـــم عـاشـــق
واللـــه يعلـــم بحـــالـــه في القصـــد صـادق
بـــالحـــب وارحـم متيـــم انـــت يـــا خـــالق

***

نـدهـــت هـــي يـــا يمـــن قـالـت انـا اسمـي روح
وان كـــان تهـــوى جمـــالي للمســـاجـــد روح
وحـــق من انـــزل القـــرآن وســـط اللـــوح
فـرقـــة سيـادي أصعـــب مـــن طلـــوع الروح

***

شـــوبـاش(٣٠٣) على رجـال حـرامـيـة ونشـالـيـن(٣٠٤)
اقلقـــوا الـــدبـــاب(٣٠٥) والنـــاس غفلانيـــن
لـــو شفتهـم يـــا خلي بـــالليـــل مجمـــوعيـــن
جـــوار قبر النبـــي بـــالحـــب مشغـــوفيـــن(٣٠٦)

هوامش الفصل الثالث

(١) كـان للعـرب قبـل الإسـلام آلهـة مـن الذكـور والإنـاث انظـر Wellhausen, Reste Arab Heidentunns.

(٢) يذكر جوسين بعض الأولياء من الإناث

Coutumes des Arabes, ٤٠٢ and ٣٠٥

(٣) ٣, p. ٤٠. Globus, ١٨٨٥, No

(٤) ٣٥٠. p. Femmes arabes avant et depuis L' Islamism

(٥) يظن الرازي ان اللـه لـم يرسـل نبيـةً (انثى)

(٦) Goldziher, Mohammedanische Studien II, ٢٩٩

(٧) من بين ٢٥٥ قديساً (لا تضم ١٢٣ زرتها بنفسي) هناك ٦و٨ من الأولياء الإنـاث . وفـي معظـم الحالات لـم يكـن الفلاحـون يعطونني قائمـة كاملـة بالأولياء في قريتهم .

(٨) باستثناء الشيخ أبـو خروبـة جنوب غـرب الظاهريـة وهـو ولـي ذكـر .

(٩) قـارن أيضـا مـع حقيقـة أن إلاهـات الأشـجار الثـلاث الكبـار فـي فلسـطين ومصـر القديمـة ، كـانت تعتبر عموماً آلهـة إنـاث ، مثـل أشـيرات

(١٠) في حالـة فاطمـة البُري (زكريا) ، لا يسـمح لزائـر ذكـر بدخـول المـزار . QS, ١٩١٥, ١٧٥

(١١) ويقـال أن الرشـوة بـدأت منـذ ذلـك الوقـت .

(١٢) روي لي هذه الحكاية شيخ المزار .

(١٣) يقال انـه كـان حـامل علـم النبـي .

(١٤) انظر أيضـا Q.S ١٩١٦, ٦٦

(١٥) هذه المعلومـة موجـودة أصـلاً فـي هـامش رقـم ١ صفحـة رقـم ٢٢٤ فـي النـص الأصلي .

(١٦) دير غسّانه .

(١٧) كهـف صغـير قـرب الشـجرة .

(١٨) JPOS, IV , ٧١

(١٩) JPOS , I, ١٦٣

(٢٠) إن بعض الحويطات لا علاقة لها بالدين ، بل قد تكون لصيد العصافير ، وتكون حول النبع . رأيت خصاً من هذا النوع قرب خربة زيف . ويقوم اللصوص و قطاع الطرق بعمل حويطة - كفرة وقد رأيت مثل هذه بين الخليل ويطا .

(٢١) لا نرى الأثر الحقيقي للجسم .

(٢٢) Canaan JPOS I, ١٦٤

(٢٣) حيثما ينادي فلاح ، خصوصاً امرأه ، يجيب عونه .

(٢٤) مجير الدين ، الجزء الأول ، ٨٠ يقول بأن الله حول بعض المصريين في عهد الفراعنة إلى الحجارة .

(٢٥) Coutumes, Jaussen, ٣٠٧

(٢٦) يقول حديث بان الله يضع أرواح الشهداء في طيور خضراء تعيش في الجنة ، تقي الدين الشعبي في شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام ص ١٤٣ .

(٢٧) يعتقد ان الضبع يحاول ان يخدر الشخص الذي يقابله قبل ان يأكله . (بيظْبعُة) من خلال اعتراض طريقة وإخراج أصوات وروائح تحت ذيله ، وهكذا يتبع الشخص الضبع بعد ان يفقد قواه . ولكن إذا سقط الرجل وسقطت نقط من دمه فانه يعود إلى الوعي .

(٢٨) حسب المعتقدات الإسلامية فان الله خلق الطاووس ووضع فيه روح محمد . (السيوطي : الدرر الحسان) .

(٢٩) JPOS I, ١٥٣-١٧١

(٣٠) خارج باب السّاهرة ، باب هيرود .

(٣١) عن أم محمد ق .

(٣٢) بتْصيُف .

(٣٣) المعُدة للوقود .

(٣٤) لانه لم يكن يعرف اسم الولي ، وقد رأى القش ببابه وسماه أبو القش .

(٣٥) هناك قصة شبيهة في ١٣٢-١٣١ ,QS, ١٩١٦

(٣٦) رأى موسى الإله ولكن لم يمسه . وفي الخرافات المسيحية فان المسيح والقديسين يلمسون الشخص الذي يظهر لهم .

(٣٧) هذا صحيح بشكل خاص عن المباركة (قلنديا) .

(٣٨) وهذا يختفي الآن ببطء .

(٣٩) يذهب الشيخ السدري كل يوم جمعة إلى مسجد عمر لأداء صلاة الجمعة .

(٤٠) من الشائع أن يلبس الولي معطفاً اخضر . انظر مجير ، ١ - ٤٢ .

(٤١) ذريته وذرية ابنه .

(٤٢) ويسُمون ايضاً رجال المحْسُومية .

(٤٣) وفي رواية أخرى فأنها ابنته شريفة ، ابنة الخضرا .

(٤٤) الرواية المذكورة في (QS. ١٩١٦, ١٢٦) عن اصل العجمي لا اعرفها ، ولا ارجح أنها صحيحة ، لان الأولياء الاحمدية ليسوا من أحفاد السلطان بدر .

(٤٥) يقال أن العجم الأربعين في بدو هم من المغرب .

(٤٦) يعتبر الآن ولياً من أولياء الله .

(٤٧) عن عمر افندي البرغوثي .

(٤٨) وهو عجمي .

(٤٩) في مقام الشيخ سرّاج كانت تُشاهد امرأه تمشط شعرها .

(٥٠) يقال بأنه أخو النبي في الرضاع .

(٥١) هذه القصة توضح كيف أن الله القادر يخصص الأرواح الشريرة لخدمة الأولياء .

(٥٢) QS. ١٩١٧, ٧٢ .

هنا نجد مثالاً لآخر على هذه الحالة . ويُعزو مجير مثل هذه القدرة لابو ثور .

(٥٣) انظر " لواقح الأنوار (٢-١٤٤) .

(٥٤) من مذكرات والدي

(٥٥) مجير ، ٩٣ ، يروي أن عاصفة تثور كلما دخلت امرأه حائض إلى مقام النبي موسى .

(٥٦) Jaussen, ١. c ٢٩٥ ; Curtiss, Chapter IV; QS. ١٩١٦, ١٧٦

(٥٧) Kahle PJP VI, ٩٢

(٥٨) إلى الشّرق من صور باهر .

(٥٩) ان الصخرة التي حملته من المغرب إلى فلسطين لا تزال ملقاة أمام مزاره .

(٦٠) نابلس . وانظر : Jaussen, JPOS, ٧٨

(٦١) دير غسانة .

(٦٢) وهذا اعتقاد عربي قديم . انظر الشّعراني ، ٢-١٤٦ .

(٦٣) تظهر الأولى للولي عند دفنه ، فقد يكون التابوت ثقيلا لدرجة ان الناس يقفون وينزلون الحمل ، وقد يكون خفيفاً ، أو يطير لاختيار مكان دفنه .

(٦٤) انظر QS ١٩١٥ حول الدراويش الطائرة .

(٦٥) هذا التغيير غير معروف في محيط المحيط .

(٦٦) يضع المسيحيون على راس الطفل المصاب بالحمى صحناً يحمل نقشاً للقديس جورج، كما أعتاد زوار القديس جورج في الخضر أن يضعوا حلقات السلسلة على رقابهم بضع مرات لوقايتهم من الأمراض العقلية مستقبلاً .

(٦٧) دير غسانه .

(٦٨) ذكر واحد في ١٧٥ ، QS, ١٩١٥, ١٧١ ، وذكرت في QS ١٩١٧, ١٢٢ .

(٦٩) في كثير من الحالات فإن القدرة على الطيران تتوارث ، فالشيخ علي الدوايمي ووالده . أحمد الغماري جاءوا بهذه الطريقة العجائبية من المغرب .

(٧٠) غير معروفة في محيط المحيط .

(٧١) على جبل يحمل الاسم نفسه .

(٧٢) ذكرنا العديد من الأمثلة في مجرى هذه الدراسة ، ومن المميزات واحدة للشيخ عنبر الذي يظهر لكل شخص يمضي الليل في كهف مجاور للمزار . ويأمره أن يخبر حسن مصطفى باصلاح المقام .

(٧٣) أن أولياء البلدان الاخرى تفضل المعجزات نفسها ، انظر عبد الوهاب الشعراني ، لواقح الأنوار .

(٧٤) الكثير من قصص المعجزات للقادة المسلمين رواها عبد الله علوي حسن العطاس في زهور الحقايق في بيان الطرايف ص ٢٣٩ .

(٧٥) يفترض بأنها كانت تتلى من قبل الرفاعي حين كان يزور قبر النبي وكأن الله يسمع هذا الدعاء ، ويسمح للنبي بمد يده خارج القبر .

(٧٦) أحد اسماء الرفاعي ، كما سنرى لاحقاً .

(٧٧) شطح في العربية الدارجة هي الذهاب للتنزه .

(٧٨) أحد أسماء البدوي ، انظر لاحقاً .

(٧٩) Jaussen , ١c. ٣٣١

(٨٠) ضل رشيد ابن محمد أغا من القدس طريقة مرة بين النبي موسى والبحر الميت ، وذلك في الوقت الذي كان الجزء الرئيسي من هذه المنطقة مغطى بشجر الدوم (السدر) . وقد أرسل النبي موسى طائرين كبيرين لحراسته كل ليلة ، واحد يقف عند رأسه والآخر عند قدميه .

(٨١) من مذكرات والدي

(٨٢) لأمثلة اخرى انظر QS ١٩١٦, pp.١٧, ٦٤، ١٢٩, etc.

JPOS IV, ٩

(٨٣) الجيلاني مدفون في بلاد ما بين النهريين (العراق) .

(٨٤) المجذوب والشيخ ابراهيم .

(٨٥) وهو جد كافة الأولياء في شوفة ، واسمه محمود الرابي وكان والد المجذوب .

(٨٦) يقال غالباً بأن المجاذيب يتلقون اكلهم بطريقة عجائبية انظر الملوك الأول ١٧ : ٤

(٨٧) JPOS II, ٥١

(٨٨) Curtiss , chapter XVII

(٨٩) Hosea ٢٣, ٧ ١٢-١٤

(٩٠) هناك تمييز بين نبي مرسل ، ونبي بسيط .

(٩١) ويحتسب عموماً آدم وإدريس ونوح وداهود وصالح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب والياس وهارون واليسع وموسى ولوط وذو الكفل وداهود وسليمان ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد . ويعتقد البعض ان الاسكندر ذا القرنين نبي ، ويعتبر آخرون انه كان ملكا تقيا ، وهناك من يقول ان أمة كانت جنية (دائرة المعارف ، ٨-١١٤) .

(٩٢) حنظل : نبات ، وصُوفان : حجر . والمزار هو كهف مبني . انه جزء من كنيسة بيزنطية . وتنمو عذقه وهو اسم آخر للسريس إلى جوار المزار ، وهناك أعمدة مكسورة ، وصف من الحجارة المدقوقة لا تزال واضحة فوق الأرض .

(٩٣) سورة ٣-١٦٦ ، انظر أيضاً عبد الله العطاس ، زهور الحقايق ص ٢٣١ ، وتقي الدين السيقي .

(٩٤) سمعت من عمر الصالح البرغوثي .

(٩٥) التكوين ٦ : ١-٤ ، اختلاف آخر يعبر عنه قول النبي له المعجزة والولي له الكرامة .

(٩٦) قول آخر لا تفضلوني على أخي يونس مجير ١ : ٥٣ .

(٩٧) لا يعرف الولي اختياره لمكانة القداسة أثناء حياته حسب أبو بكر فوريك وحسب أبو علي الدقاق فأنه يعرف (الرازي ٥ : ٤٦٥) .

(٩٨) ذخر الحقائق ، ٢٣٥ .

(٩٩) وهذا يصدق على مزارات الحسن ، الحسين ، جعفر الصادق . ان الشاذليّة تسمّي مزار علي : ! مشْهدْ! .

(١٠٠) حسب علي الحويس يختار الله قطباً واحداً ، وعندما يموت يختار قطباً آخر لواقح الأنوار ٢ : ١٠٠ .

(١٠١) يسمّون سلاطين ، لانهم سادة الطرق .

(١٠٢) الشعر لعبد العال .

(١٠٣) أخذت الأسماء عن الشيخ علي شرف / نابلس .

(١٠٤) توجد هذه الملاحظة اصلا في الهامش رقم ٢ ص ٢٧٦ .

(١٠٥) نرى المغازين قرب قلنسوة - جنوب طولكرم . ويعتقد ان بني العباس هزموا الأمويين هنا . (ياقوت) .

(١٠٦) موقعه قرب المستشفى الإنجليزي ، والمقام غرفة جميلة كبيرة ، وأمام المدخل فسقية (مدفن) . ونجد على القبور الخمسة راسيات عليها لفّة خضراء .

(١٠٧) مجير ، ٣٩٩ .

(١٠٨) مجير ، ٣٩٨ .

(١٠٩) مجير ، ٤١٣ . وقد ظهروا لام محمد كقطيع غنم .

(١١٠) انهم أهم شهداء القدس . ولكن المقام مهمل .

(١١١) مقابل باب العتم ، وحسب البعض هناك قبور بعض علماء المدرسة المعظمية .

(١١٢) مجير ص ٣٥٥ .

(١١٣) يذكر ' كالة ' ستة من الأماكن الاثني عشر .

(١١٤) هناك الكثير من مزارات الشهداء المبثوثة في كل مكان من فلسطين .

(١١٥) وهناك ايضاً فئات اقل أهمية مثل :

* الزُهاد : الذين يملكون ثروات ولكن يمتنعون عن استعمالها ويكرسون أنفسهم للعبادة . مثال : إبراهيم الادهمي .
* النُساك : يمتلكون في بيوتهم كل وسائل الراحة ، ولكنهم يعيشون كنساك أتقياء في كهوف . مثال : الشيخ سعيد من اللد .

ولن أتحدث كثيرا عن هؤلاء لأنهم لا يلعبون دورا كبيرا في الوقت الحاضر .

(١١٦) Canaan Aberglaube, PP. ٨, ١٠٦ Dolman PJB XIII, ٢pt

(١١٧) حاول المسلمون الأوائل الابقاء على دينهم نقياً ، وروى عن أبي بكر أنه قال : من يريد أن يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن يريد أن يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

(١١٨) انظر أيضا Curtiss , chap V and VI..

(١١٩) Lev. II٤٤, ٤٥; I Peter ١ ١٦; Rx. ١٩ ١٠-١٣

(١٢٠) هذا يصح أيضاً على كافة الأديان .

(١٢١) Hosea ١١,

(١٢٢) Canaan, Aberglaube pp. Haunted Springs JPOS I,

١٥٣, Doutte, Magia pp. ١١٩, ١٢٠, ١٦٠, ٢٢٢,

Jaussen, Coutumes, pp. ٢١٨ tt, Einsler, Mosaik

(١٢٣) Canaan, Aberglaube. ١١

(١٢٤) الكلمات العربية هي سماوية ، علاوية ، مؤمنون .

(١٢٥) أرضية ، ترابية ، جهنمية ، صوفية ، كافرون .

(١٢٦) مثل هذه الروح تسبب الكثير من الخشية ، ولذلك يتجنب الناس المقابر في الليل ، وأي طفل يضرب داخل مقبرة فانه يصاب بالمرض .

(١٢٧) هناك عادة منتشرة وهي دفن الأشياء العزيزة على الإنسان معه : البندقية ، الارجيلة ، وعاء القهوة ، أو حتى طبقة المفضل ، لان الروح قد تظهر من جديد . لم أتمكن من التحقيق من مقولة كيرتس بان الميت يستطيع أن يتصل بزوجته بعد الموت .

(١٢٨) Job ٢, ١٠ ; Amos ٣٦

(١٢٩) Ex. ١٩; Sam. ١٦ ١٤-١٦, ١٨١٠, ٢١٥.

(١٣٠) حيث يوجد أولياء يوجد جن . ويحاول الولي طرد الجن ، فالعجمي في بيت جبرين طلب ان يدفن عند مدخل القرية ليمنع الجن من الدخول :

(١٣١) التفسيرات الاشتقاقية ليست حديثة ، انظر Goldzihor, ZDMG, vol. XXIV, pp. ٢٠٧

(١٣٢) QS ١٩١٥, P. ١٧٤.

(١٣٣) كفْر وكفُر

(١٣٤) QS, ١٩١٧, ١٢٠

(١٣٥) مجير الدين ، ٢ ، ٤٩٢ .

(١٣٦) كسكون ، انظر ١٢٠ ،QS, ١٩١٧

(١٣٧) يرد اسمه خليل الله مرتين في التوراه .

(١٣٨) مجير ٢ ، ٤٨٨ .

(١٣٩) بعض الأولياء يتحكمون بالمطر : الشيخ مطر ، أبو الندّى وانظر :

Der Djolan, ZDPV, IX, ٣٥٠, Curtiss chapiter IV

(١٤٠) Mission de Phenicie .

(١٤١) A.R.S. Kennedy in Hasting's Dictionary of the Bible .

(١٤٢) ذكرت في JPOS IV, ٦٧ ، وليست رابعة العلوية كما ذكرت في QS ١٩١٧, ١٢١ ولكن العدوية والقصة مذكورة في QS وغير معروفة لجميع من سألتهم .

(١٤٣) انظر مجير الدين ص ٢٣٨ الذي يظن خطأ أن الرابعة مدفونة هنا .

(١٤٤) Alt, Ein vergessenes Heiligtum des Propheten Elias, ZDPV, XLVIII,٣٩٩٣.

(١٤٥) جدور التوراتية ، Jes. ١٥٥٨; ١ chi. ٤٣٩, ١٣٧

(١٤٦) على بعد نصف ساعة من سنيريا .

(١٤٧) الاسم الكامل هي ارجال عزون بن عتمة .

(١٤٨) يحمل الجبل الذي بني عليه الولي الاسم نفسه .

(١٤٩) طبقاً لمجير الدين (٢- ٤٨٨) ، فان الجبل كان يسمى مار مُرْقص ، وذلك باسم دير مسيحي يحمل نفس الاسم . ثم اعطي اسم ' دير ابو ثور ' بعد ان اعطى الملك أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين المكان والقرية للشيخ احمد أبو ثور .

(١٥٠) ما بين جنين وقباطيه .

(١٥١) بيت لقيا .

(١٥٢) قدم لنا معلومات هامه حول هذا الموضوع Mader, Altchristtiche Basiliken

(١٥٣) لا يوجد نبي صالح في دير ياسين كما يقول آبل (Abel) في : Revue Biblique, ١٩٢٤, ٦٢٠ ولكن يوجد الشيخ صالح . والمزار مهم جداً ، هو عبارة عن غرفة غير مزخرفة من دون محراب أو قبر أو فراش أو مصابيح أو تقدمات . الغرفة تؤلف جزءا من بناء يسمى الدير . ورمح الشيخ مغروس على سطح المزار .

(١٥٤) H. Goussen, Uber georgische Drucke und Handschriften.

(١٥٥) انظر بيبلوغرافيا Mader, l.c. ١٦٦ ff

(١٥٦) Meistermann ١٩٢٣

(١٥٧) من جهة اخرى نقل التقليد من مجير .

(١٥٨) دير الأزهار يظهر بقايا كنيسة بيزنطية انظر Pierre le Diacre ١١٣٧

(١٥٩) في الاشتقاق الشعبي تطابق حور مع كور (انظر البرايت) .

(١٦٠) غير مذكور في التوراة . وصفها يوسيفوس بيغابرس والتلمود بيت جبرين ، وبني عليها الصليبيون حصنا سموه جبيلين .

(١٦١) حول المقام الجديد انظر QS ١٩١٥, ١٧١

(١٦٢) تسمّى الشجرة العواسير ، وفي الايمان تستعمل كلمة رجال العواسير ، اما الكهف والمحراب فيحملان الاسم المفرد عاسور . ولم يعد المحراب قائما ، وقد ذكر روبنسون ان ' ولياً ' موجود على قمة الجبل :

Robinson, Biblical Researches in Palestine, II,٢٦٤,note ١ .

(١٦٣) انظر أيضاً Rev. Bible. ١٩٠٧, ٤٤٥

(١٦٤) مجير الدين ١ : ٤٠ اطلق عليه عفرون .

(١٦٥) Mader, ١٤٩ note ٣

(١٦٦) توجد قرب ' القطْراوني ' آثار كنيسة مسيحية بيزنطية . ويقول بعض مسيحيي بيرزيت انه كان هناك ' دير مسيحي ' كان يسمى ' سانت كاترينا ' وهكذا فان قطراوني تعود الى كاترين اكثر من قطرة - غزه .

(١٦٧) Abel, Rev. Bibl. ١٩١٢,١٦٧.

(١٦٨) يقول المأثور الشعبي حول هذا الشيخ :

' ام الشيخ بنت أحمد الدجاني ، والتي مزارها يقع في الجوار ، رأت عموداً من النار يصل بين الأرض والسماء . وفي نفس الليلة جاءها شيخ محترم ، وقال لها ان مكانه يقع حيث لمست النار الارض . وفي صباح اليوم التالي أسرعت بالذهاب الى الموقع ، الذي كان من المعروف انه عار من الأشجار . ولدهشتها العظيمة ، وجدت شجرة زيتون كبيرة تنمو هناك . وهكذا سمت المكان الشيخ أبو زيتون . ولا استطيع ان أستوضح قول : Drake,QS,١٨٧٢، ١٧٩ أن ابو زيتون هو ابن ام الشيخ .

(١٦٩) سمعت من أفواه عدة أشخاص من بيتونيا .

(١٧٠) Schumacher, ZDPV,IX, ٣٥٣

يقول ان ' ابو زيتون ' في الجولان . وقد جاء اسمه من شجرة زيتون .

(١٧١) في حالة واحدة : أربعين عذراء ، وفي أخرى أربعين طفلا ، وقد استشهدوا جميعا .

(١٧٢) في العاشر من آذار تقيم الكنيسة الارثوذكسية عيدا لذكرى اولئك .

(١٧٣) ذكر بيركهاردت هذه الكنيسة سنة ١٢٩٣ ، كما ذكرها كورسنيوس (١٦٢٨) . انظر منصور ، تاريخ الناصرة ، ١٩٢٤ ، ص ١٨٨ ، ويقول ان الأعمدة الكنيسية قد اكتشفت أثناء الحفر .

(١٧٤) مجير (٢-٤٢٧) .

(١٧٥) عندما بلغ اتباع النبي اربعين ، امر المؤذن بالدعوة للصلاة (الآذان) .

(١٧٦) هناك ' خروبة عشرة ' أخرى على جبل الزيتون . (مجير ٢-٤١١) - يذكر مسجد العشرة المرتبط بشجرة الخروب .

(١٧٧) مجير (١-٦٧) . ومن الستين نبيا هنالك عشرون من الرسل .

(١٧٨) في الكنيسة المسيحية نجد ٦٠ حالة فيها ذكر السبعين شهيدا .

(١٧٩) يعتقد سكان القرية أن هؤلاء الأنبياء كانوا في عهد موسى .

(١٨٠) مزار كاثوليكي يوناني .

(١٨١) في المكان الذي توجد فيه الآن بناية البعثة الالمانية . ويسمى المكان كله : حارة الدير .

(١٨٢) حيث توجد بناية البطريركية اللاتينية .

(١٨٣) في الجزء الشمالي من القرية .

(١٨٤) يعتقد سكان القرية ان جدعون عاش في هذه البقعة .

(١٨٥) القضاه : ٦

(١٨٦) من مذكرات والدي

(١٨٧) يقول القديس جيروم ان البقعة تمثل المكان الذي رافق فيه ابراهيم الملائكة الذين ذهبوا الى سدوم . وهذا الاعتقاد ما زال قائماً عند سكان بني نعيم .

(١٨٨) حيث نصب الخليل خيامه ، ذكر ذلك مجير الدين ٢ : ٤٢٤ ، وتجدر الاشارة إلى أن هناك عدة أماكن في الجوار تشير إلى ان الأماكن التوراتية ، وهي غزه والرامة وجبل البطرك ، وعين سارة وخلة البطمة . . . الخ .

(١٨٩) في الحقيقة بلوطة سبتا .

(١٩٠) يقال انه مولود في برزه قرب دمشق .

(١٩١) تقول الرواية العربية ان المسيح سأل الفلاحين ماذا تزرعون؟ قالوا حجارة . قال ستحصدون حجارة .

(١٩٢) Le Strange, Palestine under the Moslems, p. ٢١

(١٩٣) عين أيوب ، جنوب حلحول ، لم تذكر .

(١٩٤) اختلط عليه الخضر إيليا ، اليعازر ، وفينياس وانظر :Hanauer, Folklore, ٥١

(١٩٥) مجير الدين ١ ص ١٤٢ ، بنيت المنارة سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦م) .

(١٩٦) Goldziher, Moh. Trad. Uber den Grabsert des Jones ZDPV II, ١٣. Etc

Abel. lecutte de Jones eu Palestine JPOS. II, ١٧٦

Gunen, Gaalileer I, ١٦٥

(١٩٧) مشهد ، مكان الشهداء .

(١٩٨) Abel ١.c. ١٧٩

(١٩٩) Schick, QS ١٨٨٨, p. ٧ tt

(٢٠٠) ان رواية مجير الدين غير مؤكدة .

(٢٠١) في حين ذكر مجير الدين المكان الأول والثاني ، فهو لا يعرف شيئاً عن هذا المكان .

(٢٠٢) انظر مناسك القدس والخليل ، ص ٣٤ ، ومرشد الزاير ص ٤٠ ويعتقد بعض المسلمين ان يوسف قد دفع به أخوته في بئر سنجل . ويعتقد ان البئر يسكنه الشيخ صالح ، انظر كنعان JPOS I, ٤ N١ ,

(٢٠٣) الشي نفسه يقال عن الخضر : ' انتَ مثل الخضر . . وين ما يروح الواحد بلاقيك ' .

(٢٠٤) يعتقد الكثيرون انه حمو موسى . ويقول مجير (١-٦٨) ان ضريحه في حطين ، قرب صفد . ويحمل المكان الآن اسم خربة مدين .

(٢٠٥) مجير الدين ١ : ٦٨ يعتقد مع كتاب أخرين بأنه بيسا وبن يعقوب (انظر أيضاً دائرة المعارف : ٩ : ٢٣٢) .

(٢٠٦) برر شيخ من دير غسانه وجود قبر موسى في منطقته بالقول ، بأن التقاليد الدينية تعلمنا بأن القبر يقع على مرتفع حوله سبعة أودية وهذا يصح على النبي صالح .

(٢٠٧) Sale, p. ٦

(٢٠٨) JPOS II, ١٦٥

(٢٠٩) يقال بأنه سمي بهذا الاسم لأنه جعل نفسه مسؤولاً عن النبي اليشع واتباع خطواته في عبادة الله لمزيد من التفاصيل ، انظر دائرة المعارف ٨ : ٤١٣ .

(٢١٠) مجير الدين ١ : ٦٨ يعتقد بأنه القبر الحقيقي .

(٢١١) حسب مجير الدين .

(٢١٢) مجير الدين ٢ : ٤٢٤ .

(٢١٣) قال لي رجل عجوز من دير غسانه ، من أحفاد الشيخ عبد الله ، بان أماكن المزارات لا يمكن تحديدها بالتأكيد وأنشد :

وما تعْلم مقابرهم بأرضٍ
يقيناً غير ما سكن الرسول
وفي حبْرون ايضاً فيها غارٌ
فيه رسولُ كريمُ والخليلُ

(٢١٤) مجير الدين ١ : ٢٣٢ . Kahle, PJP V١, ٧٩

(٢١٥) عكاشة بن محسن .

(٢١٦) كتب على الضريح : لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ، هذا ضريح سيدنا عكاشة صاحب رسول الله لروحه الفاتحة ١٣٨٠ . ويمثل التاريخ سنة تصليح القبر .

(٢١٧) Canaan, Aberglaube, p. ١٠٢, note l ; Kahle, PJB, VI, ٧٨

(٢١٨) يقول الحافظ أبو بكر الخطيب انه توفي في القدس .

(٢١٩) مجير ١ : ٢٣٣ .

(٢٢٠) دفن في مصر .

(٢٢١) دفن في العراق .

(٢٢٢) دفن في الحجاز .

(٢٢٣) مجير ١ : ٢٣٣ .

(٢٢٤) مجير ٢ : ٤١٠ .

(٢٢٥) مجير ٢ : ٤٩٢ .

(٢٢٦) انظر: Jaussen et Savignac, Eoploration du vailee du Jordain

(٢٢٧) عن احمد زكي باشا .

(٢٢٨) يقول دالمان ٩٨ ,PJB, IV)) بان بيبرس بنى القبة فقط .

(٢٢٩) وفي الآرامية ضاروما .

(٢٣٠) وليس خان الأحمر وهو خان حثرور . ويقع خان السهل إلى الجنوب من طريق القدس أريحا والى الجنوب الغربي من خان حثرور .

(٢٣١) والذين عاشوا كُنساك في الكهوف .

(٢٣٢) يقول مجير أن بيبرس بنى المقام سنة ٦٦٣ هجري .

(٢٣٣) مجير ٢ : ٣٩٩ .

(٢٣٤) عبد الوهاب الشَعراني : لواقح الانوار ، ١-١٥٣ وانظر .

Canaan, Aberglaube,٨٦, notev. Canaan, Aberglaube, ٨٠٦, note ٧

(٢٣٥) أسسها الشيخ عبد الله البُسْطامي ، مجير الدين ، ٢-٣٩٩ .

(٢٣٦) توفي أبو يزيد في خراسان ، وحسب ما يقول مجير الدين فان أعضاء الأسرة مدفونون في مقبرة مأمن الله .

(٢٣٧) يقال إن عائلة الغُصين هي من أحفاد البُسْطامي .

(٢٣٨) شجرة العائلة موجودة في كتاب فتح الرحمن لطالب آيات القرآن .

(٢٣٩) وهناك زوايا أخرى أقل أهمية .

(٢٤٠) يفسر المحيط الذكر كتوحيد .

(٢٤١) ليست البرده ١ Kahle, PJB IV, ٧٦

(٢٤٢) الأيام الأخيرة من رمضان هي ليلة المُحيا ، وليلة المحيا هي ليلة القدر .

(٢٤٣) حسب مجير الدين ١ : ٤١٣ انظر أيضاً Kahle, PJP VI, ٨٤ انها طنسُق أبنة عبد الله المظفرية ، توفيت سنة ٨٠٠هـ .

(٢٤٤) السرايا القديمة تخص التكية .

(٢٤٥) انظر أيضاً Kahle, PJB VI, ٧٢

(٢٤٦) حذف لقب شيخ ، في هذه القائمة .

(٢٤٧) ولكنهم لا ينتمون لأصل مكي .

(٢٤٨) قابلت محمد شحادة وعضواً من كل تلك العائلات .

(٢٤٩) يفترض انه جاء من قرية ' ام ولد ' .

(٢٥٠) هذه العائلات هي فروع من عائلة الرابي .

(٢٥١) QS,١٩١٥، ١٧٢

(٢٥٢) من الملاحظات المكتوبة لوالدي .

(٢٥٣) وعنه نقلت الرواية .

(٢٥٤) وعنه نقلت الرواية .

(٢٥٥) وكلما مات رجل من هذه القبيلة يسمع دق عدة الولي في صور باهر .

(٢٥٦) كتب على باب المزار : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد هذا مقام الوليه الحميدية .

(٢٥٧) QS,١٩١٦,pp.١ etc. وجاء هنا بأن بدر كانت له أبنتان ، ولم ترد نجلا بالمرة .

(٢٥٨) مجير الدين ص ٤٨٩ .

(٢٥٩) وليست النسور كما ورد عند كاله .

(٢٦٠) حذف كاله الاسم الحقيقي للبلده وذكر القرية بدلاً من ' قرية شرافات ' .

(٢٦١) وليس الطير كما جاء عند كاله .

(٢٦٢) مجير ٢ : ٤٨٩ - ٤٩٢ .

(٢٦٣) في ١٩١٦ QS ١٩١٥ and روى ماسترمان وماكلستر رواية حول السلطان بدر ، وتشبه قصتنا في الكثير من الجوانب .

(٢٦٤) ولد بدر حسب رواية في الحجاز ، وأصبح فيما بعد ملك فارس . وبعد سبع سنوات من الحكم أمره الله أن يتحول الى درويش .

(٢٦٥) في هذا الوقت كان الملك الظاهر يحاصر القدس ، وقد جاء بدر كل يوم لمساعدته

(٢٦٦) ما تزال هذه الكهوف ظاهرة .

(٢٦٧) لا يوجد ذكر لأحمد هذا في قصة QS الاولى ، وفي الثانية سمي خطأ الطبار بدلاً من الطيار .

(٢٦٨) تشير QS هذه القصة إلى دير الشيخ ، ولكنها غير مقبولة عند سكان شرافات والمالحة وبيت صفافا والولجة .

(٢٦٩) يبدو أن أحداً لم يقص على كاله هذه القصة .

(٢٧٠) ليست بعيدة عن راس ابن عمار .

(٢٧١) حسب QS كان للوحشي ست بنات .

(٢٧٢) استخدمت كلمة مرقعة من قبل الراوي .

(٢٧٣) ذكرت باسم خديجة في QS .

(٢٧٤) تقول قصة QS بأنه غضب ، وغادر المكان ، وذهب إلى دير الشيخ حيث نشر ملابسه على شجرة خروب .

(٢٧٥) وكان شرط بدر للعودة هو أن يجرح البنت كما جرحته .

(٢٧٦) عندما تكون قرية من القرى تحمل أسم شريف ، ويربط سكانها نسبهم بالنبي محمد أو شيخ مهم .

(٢٧٧) QS,١٩١٦، ١٣ ff.

(٢٧٨) يعتقد بعض المسلمين في حلب بأن الأموات يظهرون بأشكال مختلفة أثناء الليل .

(٢٧٩) انظر Jaussen, p. ٣١٣ II

Curtiss, chapter XI,

(٢٨٠) انظر روث ١ : ١٥ ، القضاه ١١ : ٢٤ ، الملوك الثاني ١٧ : ٢٧ ، الملوك الأول ٧ :١١ .

(٢٨١) الدراويش مأخوذة من الفارسية .

(٢٨٢) انظر أيضاً القصة في QS, ١٩١٦, pp ٦٦ ff.

(٢٨٣) Goldziher, l.c. II, ٢٨٧ ff

(٢٨٤) ويُظهر القديسون المسيحيون نفس الأعراض .

(٢٨٥) Dalman, Der Palastinische Islam, XIII,٢٧، ٢٨

(٢٨٦) يصرخون بشكل يجعل الحبلى تُطَرِّح (الشعراني ٢ : ١٥١) .

(٢٨٧) الشيخ محمد أعتاد أكل الأفاعي والصراصير وهو يظنها ' خيار ' و ' زبيب ' ، مجير الدين ٢ : ٥١٠ .

(٢٨٨) أعتاد الشيخ داهود أن يتجول بلا هدف في شوارع القدس . وعندما كان يمر بمطعم 'عشّي' كان يأخذ الطعام ويضعه في جيوبه . ولم يكن يعترضه أحد . وعندما كان يصل بيته أو مكاناً منعزلاً كان يخرج الطعام ليجد كل ما جمع اليه من الجيفة ، فيراها شهية لذيذة .

(٢٨٩) II,١٢٨

(٢٩٠) الشعراني ٢ : ١٥١ .

(٢٩١) QS, ١٩١٥, p .

(٢٩٢) عند قراءة تاريخ حياة هؤلاء القديسين يعجز الانسان تماماً عن تفسير الظواهر المختلفة التي تعزى لهم ، وكيف تربط هذه مع فكرة القداسة ، فبعض الأولياء كانت تتبعهم الكلاب ، يتكلمون دون ترابط ، وأحياناً يرتكبون أكثر خطيئة غير متوقعه .

(٢٩٣) Muhit, ١, ٢٢٧ .

(٢٩٤) نفس الفكرة موجودة في حوزيا ٩ : ٧ وارميا ٢٩ : ٢٦ .

(٢٩٥) الحكي سنة حكي نبي ، حكي الزغير حكي ولي .

B24595 Lib 50

(٢٩٦) هناك نوعان من الاجازة .

أ - بسيطة تسمح لحاملها ممارسة وظيفة درويش

ب - عليا وتسمح لحاملها تعيين أشخاص أخرى كدراويش ويسمى الانسان في هذه الحالة خليفة .

(٢٩٧) اعطاء القسم .

(٢٩٨) وكتاب الشعراني مليء بهذه الأمثلة .

(٢٩٩) المقصود ابراهيم الخواص .

(٣٠٠) المقصود المدينة .

(٣٠١) وتفهم المحسوب عليه .

(٣٠٢) البيت عتابا أما البقية فهي تشاريق

(٣٠٣) شوباش شوباش ، قائمة للغنا بصوت مرتفع مع مجموعة .

(٣٠٤) يقارن الأولياء باللصوص ، كما سبق وذكرنا .

(٣٠٥) دباب ، شفاه ، المحيط ١٢٣٠ لا يعطي هذا المعنى ، ولكن بمعنى الصوت الخفيض .

(٣٠٦) يقرأ هذا البيت أيضاً بالطريقة التالية :

السالك إللي يقيم الليل بالتهليل

في جنه الخلد يتمختر شمال ويمين

نسخة جامعة بيرزيت